

الطبعة الثانية 2022 م

تلك الأسباب³

الطور

د. سمير الغول


Vibes 28 Publisher

الكتاب: تلك الأسباب- الجزء الثالث- الطور
الكاتب: د. سمير الغول
التصنيف: ديني / فلسفي / علمي
الناشر: VIBES 28 PUBLISHER
رقم الطبعة: الطبعة الثانية
سنة النشر: 2022م
الترقيم الدولي (ISBN) : 979-8-9857819-2-2

حقوق النشر محفوظة ©

لا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلف استخدام أي مادة من مواد هذا الكتاب أو استنساخها أو نقلها كليًا أو جزئيًا — في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الطباعة وإعادة النشر أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها


Vibes 28 Publisher

الناشر: VIBES 28 PUBLISHER
بلنجهام – واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية.

P.O: 21867

Tel: +1(360)-865-4660

Email: Info@Vibes28publisher.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى ياسمين زوجتي الحبيبة والتي بدونها لم يكن لهذا العمل أن يكتمل.

الفهرس

1	المقدمة	1
17	الفصل الأول ستة أيام	2
37	الفصل الثاني الطور	3
85	الفصل الثالث الإنسان	4
145	الفصل الرابع الأنعام	5
181	الفصل الخامس طيراً أبابيل	6
203	الفصل السادس إيلاف قريش	7
225	الفصل السابع أحسن القصص	8
241	الفصل الثامن فأصبح من النادمين	9
253	الفصل التاسع قربا قرباناً	10
271	الفصل العاشر أمدكم بما تعلمون	11
301	الفصل الحادي عشر كلم موسى تكليماً	12
323	الفصل الثاني عشر فصل الخطاب	13
357	الفصل الثالث عشر إلا ليعبدون	14
381	الفصل الرابع عشر لكم في القصاص	15
409	الفصل الخامس عشر إما منا وإما فداءً	16

419	17 الفصل السادس عشر الفلق
459	المصادر.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين

بعد صدور الجزء الأول والجزء الثاني أقدم لكم الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب، والذي اعتبره نقطة تحوّل حقيقية في فهم كثير من الأمور والأسئلة المطروحة على الساحة. لم أتخيل أبداً أنّ مجرد خاطرة عابرة حول آية في سورة التين، تتحوّل إلى جزء كامل يتحدث عن التطور البيولوجي وتطور الإنسان، ثم أجد نفسي وجهاً لوجه أمام التطور المعرفي الذي يفسّر ويوضح كثيراً من الأمور الشائكة، والتي لا يمكن أن تُفهم إلا في إطار التطور المعرفي والتطور الأخلاقي للبشرية.

العبرة الأكثر شهرة، وذات السمعة السيئة، منذ أن وضع دارون نظريته الشهيرة عن التطور وهي العبارة التي يتناقلها الناس بشكل خاطئ دون تحقيق أو محاولة حقيقية لفهمها- عن أنّ أصل الإنسان قرد، قد تكون مجرد نزهة، مقارنة بالمعلومات القرآنية التي حصلنا عليها، من خلال تحليل وتبع الألفاظ القرآنية التي قصت علينا تطور الإنسان، وتطور الحياة بصفة عامة.

حتى أكون منصفاً، لا بد من الإشارة إلى أنّ فهم الأفكار التي وردت بالكتاب، يلزمها فهم المنهج المستخدم في تحليل اللفظ القرآني، وذلك من خلال الجزء الثاني، والذي بدونه سوف يعتقد القارئ أنّ الأفكار الواردة هي مجرد خواطر، وليست وقائع تقوم على الدليل والبرهان؛ لذا أنصح قبل البدء في قراءة هذا الجزء، أن يكون القارئ قد مرّ على الجزء الثاني، وخاصةً الفصلان الأول والثاني، المتعلقان بنظريات اللغة، وفهم الفرق بين التعبير القرآني (لساناً عربياً) الذي وصف الله به ألفاظ القرآن، وبين لفظ (لسان العرب) الذي يتبناه أهل التفسير والفقهاء في فهم كتاب الله. سوف يجد القارئ ملخص بسيط للمنهج المستخدم في تحليل اللفظ القرآني في صورة نقاط قبل بداية الفصول.

لقد حاولت جاهداً في هذا الجزء الاختصار قدر المستطاع؛ حتى لا يثقل على القارئ تتبع الأفكار، وإن كنت على يقين أنّ كلّ فصل من فصول هذا الكتاب يلزمه مجلد لبيان وتوضيح الأفكار بشكل تام، غير أنّ عزائي في ذلك أن يقع هذا الكتاب بين أيدي باحثين عن الحقيقة، متحررين من القيود والصور النمطية التي وضعها التراثيون، والتي حملوا الناس عليها حملاً حتى صار كتاب الله لا ينطق بالحق، بل ينطق على مقاس رؤيتهم فيخضعون أفكاره للبحث والدراسة.

سوف نثبت من خلال هذا الجزء أنّ الذهاب بعيداً، والتحليق بالعقل في الآفاق، سوف يقود العقل مباشرة إلى الخالق، بينما الإصرار على تقليد السابقين رغم منافاة ذلك للعقل والمنطق، هو الهلاك المعرفي، والعودة على الأعقاب التي حذرّ منها كتابُ الله مراراً وتكراراً، وذلك في آيات عديدة تحثّ على عدم تسليم العقل للموروث، أيّاً كان هذا الموروث من غير تعقلٍ حقيقي أو دليل وبرهان. هذه ليست دعوة للانسلاخ؛ ولكنها دعوة للتعقل، وأن ندخل في الزمرة التي تسبح إلى خالقها بالمعرفة، وتحاول جاهدةً وضع الأمور في نصابها دون تقديس، ومن خلال القراءة المستمرة لآيات الله اللفظية وربطها بآيات الله الكونية .

القرآن مليء بالنظريات المعرفية، وسيظل يفيض بالنظريات التي ترتبط بالقوانين الكونية، وتعمل معها بشكل متوازٍ. سوف نقدم في هذا الكتاب مجموعةً من الأفكار والنظريات الفريدة، التي حيرت الكثيرين من العلماء، اعتماداً على تحليل اللفظ القرآني فقط، غير محتكرين للحقيقة، ولا مدّعين طلاقة الفكرة، وإنما ساجدين متدبّرين بقدر ما أفاء الله علينا من فضله. ليست الحقائق والنظريات العلمية ركناً أساسياً في منهجنا؛ ولكن هي فقط للاسترشاد وتقريب المعنى المراد، وما نعول عليه هو تحليل اللفظ القرآني ومدلوله. قد تتوافق المعلومات العلمية مع نتيجة تحليل اللفظ القرآني وقد تختلف، بل وأحياناً سوف تجد أنّ اللفظ القرآني ذهب بعيداً؛ ليعطي لمحات لم يتم اكتشافها بعد.

آفة هذا الكتاب وكل كتاب أن يعتقد قارئه أنه منتهى الطريق، وأن العلم الذي يحويه نهائي وقاطع؛ وهذا لعمرى هو سبب نكبة الأمم، فما الأفكار إلا درجة في سلم العلم الذي لا ينتهي؛ فإن لم تفتح كل فكرة باباً للمعرفة، وتوصد باباً للخرافة فما أدت وظيفتها. كل مجتمع لا تنبت فيه الأفكار بشكل صحي، هو مجتمع ميت، وبقاؤه عبء على البشرية، وسوف يندثر لا محالة. سوف نعلي في كتابنا من قيمة الدليل والبرهان، ونستخدم لغة الاحتمالات؛ لا نقطع ولا نجزم في عرض الأفكار، ولا نخضع لإرث بشريّ وتعصب فكريّ ونحذر التحيز وعدم الحيادية.

يتناول هذا الجزء نقطة غاية في الأهمية وهي التطور المعرفي الذي يفسر كثيراً من الأمور، ويضع الماضي في وضعه الطبيعي، ويفسر أحسن القصص في كتاب الله، من خلال فهم التطور المعرفي والتطور الأخلاقي. التطور المعرفي هو ما سيوجب على أخطر الأسئلة التي يوجهها غير المؤمنين بوجود إله. فسوف يكشف الكثير من الغموض، ويكشف مسؤولية الإنسان في هذا الكون، ويوجب عن أسئلة، مثل: لماذا لم يرسل الله القرآن إلى آدم منذ البداية؟ وما لزوم الأنبياء السابقين؟ ولماذا لم يكن هناك نبي ورسول واحد؟ وكيف يتم فهم نسخ الأحكام في الرسالات السابقة؟ ولماذا القرآن هو المهيم والمسيطر والخاتم؟ ولماذا القرآن خاتم الكتب، ورسول الله محمد خاتم الأنبياء؟ ولماذا توقف إرسال الأنبياء؟ وكيف يمكن أن نفهم بعض الحوارات للعادة والتدخل المباشر للخالق في الماضي، ثم توقف هذا التدخل -على الأقل - بالصورة الغزيرة التي كانت في السابق؟ ولماذا لم يأت رسول الله بمعجزات مادية؟ كل هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها بشكل سليم؛ إلا إذا فهمنا نظرية التطور، وتبعنا التطور المعرفي والأخلاقي في كتاب الله.

لم يكن لنا أن نفهم ونستنبط التطور المعرفي، لولا التصريح بالتطور البيولوجي وتطور الإنسان، بآيات تكاد تلامس الإعلان الصريح في كتاب الله. لم يستطع الإنسان القديم فهم هذا التطور، وهو على ذلك معذور، فكيف للإنسان الذي عاش منذ أربعة عشر قرناً أن

يستوعب هذه الفكرة العظيمة؟ وكيف يفهمها في ظلّ قدرات معرفية محدودة للغاية؟ وكيف يفهمها والتحيز المعرفي لا يمكن إنكاره؛ من خلال تفسيرات نصوص الكتب السابقة (والتي هي بالطبع ترجمات بشرية وليست نصوص أصلية)، والتي تتحدث بشكل مباشر عن خلق آدم الكامل، وخلق كل شيء بشكل مستقل.

سوف نرى كيف بعد أن وصل الإنسان لمرحلة النضج البيولوجي تطورت قدراته العقلية، وأصبح قادراً على التعبير عن أفكاره عن طريق اللغة، وعندها بدأ نوع جديد من التطور في النمو المتسارع، وكأنّه في متوالية هندسية؛ إنه التطور المعرفي الذي ألقى بظلاله على جميع أنواع التطورات الأخرى، مثل: التطور البيولوجي، والتطور الاجتماعي.

لقد سمح التطور المعرفي للإنسان بفهم التطور البيولوجي وتطبيقاته، والتي ساهمت في تحسين وصيانة حياته، وذلك عندما استطاع اكتشاف الأمراض وعلاجها، بل والوقاية منها، وتتبع تاريخها. كذلك مكن التطور المعرفي الإنسان من فهم التطور الاجتماعي، ومن ثمّ تهذيب أخلاقه، والرقى في تعاملاته بصورة لا يمكن إنكارها. لا شك أن التطور المعرفي هو المظلة التي ترعى كل أنواع التطورات الأخرى. نستطيع قراءة هذا التطور المعرفي للبشرية من خلال تتبع القصص القرآني، الذي يخبرنا عن كيفية التدخل الإلهي المباشر منذ تكليف آدم بالمسؤولية، وتشريفه بحمل الأمانة، حتى وصلت البشرية لمرحلة من النضج المعرفي، وأصبحت قادرة على التعامل والتعاطي مع هذا الكون الفسيح.

لقد كان نزول القرآن إعلاناً بتوقف التدخلات الإلهية المباشرة، وإيداناً بعصر العقل.

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَّ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُقِيكَ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)) (سورة الإسراء : الآيات 90-93).

المشركون يطلبون آيةً ماديةً على صدق رسالة رسول الله وصدق نبوته، فيردّ عليهم رسول الله، ما هو إلا بشر رسول؟ بما يثبت أنه لم يأتهم بما طلبوا. لم يأتهم بما طلبوا لأنّ هذه المرحلة انتهت، وأصبحت البشرية على أعتاب مرحلة جديدة، وهي مرحلة النضج العقلي؛ والتي من ضمنها تحمل المسؤولية كاملة تجاه هذا الكون. تطلبت هذه المرحلة أن يكون هناك مرجعٌ أساسيٌّ يعود إليه الناس، ويهتدي به أولو العلم، فنزل القرآن، وتعهد ربنا بحفظ الذكر فيه لمن أراد شكوراً.

كما حدث التطور البيولوجي بشكل متدرج وتقدير دقيق، سار على هذا النهج التطور المعرفي. تتبّع القصص القرآني يوضح بشكل فريد كيف أنّ البشرية كلّها نضجت درجة، قلّ التجسيد وزاد التجريد، وكلّما تهذبت وصارت أكثر رقياً، قلّ تبعاً لذلك التشريع السماوي، وزادت في الوقت نفسه المساحة الممنوحة للبشر للتقرير والتشريع.

إذ لا يمكن فهم عقاب جريمة القتل الذي نزل في التوراة؛ وهو النفس بالنفس، ثم تحول في كتاب الله إلى قصاص - كما سوف نرى في هذا الجزء - إلا من خلال التطور المعرفي والتطور الأخلاقي للبشرية. يبدو طبيعياً أن تنسخ الشريعة الجديدة الشريعة القديمة؛ بسبب هذا التطور المعرفي للبشرية. وهكذا العناية الإلهية والتشريع الربّاني. يُعدُّ الإنسان بشكل مستمر ليصبح أكثر قدرةً وأكثر كفاءة على تحمل المسؤولية.

لذا كان القرآن الكريم بداية مرحلة الإنسان المستقلّ، صاحب القرار، والذي من المفترض أن يكون على قدر المسؤولية تجاه الكون وتجاه المخلوقات الأخرى؛ من خلال الاتصال الدائم مع خالقه. هذا الكتاب العظيم والذي تحمل كلماته سرّاً بيانها، وتفصح عن نفسها، كان وما زال يحتوي على جزء عقلي، يستطيع العقل إدراكه والتحقق منه، وجزء غيبي

غير قابل للقياس، وغير خاضع لحدود العقل؛ بسبب العوز المعرفي. عن طريق إدراك الجزء العقلي والتحقق منه، ومن ثم الإيمان به، يستطيع الإنسان قبول الإيمان الغيبي بكل سهولة، والتسليم التام له من خلال عملية منطقية سليمة.

مع مرور الوقت وزيادة التطور المعرفي، أصبح من الطبيعي اتساع مساحة الإيمان العقلي عن طريق العلم، والتراكم المستمر للمعرفة، مما سبب ضيق وانحسار مساحة الإيمان الغيبي. لقد كان الإيمان العقلي في بداية الدعوة متمثلاً في القصص والأخبار التي قصها القرآن الكريم، ولم يكن الرسول الكريم على علم بها أو شاهداً عليها، بشهادة معاصريه. من ناحية أخرى، كانت التعبيرات القرآنية -والتي لم يعهد لها العرب- دليلاً آخر يمكن إدراكه بسهولة، وهم يعلمون جيداً أنّ محمداً بن عبد الله نشأ بينهم، ولا يجيد تلاوة المكتوب، أو خط الكتابة، وهذه الأدلة الملموسة كانت دليلاً عقلياً واضحاً، على أنّ القرآن كتابٌ فريد، لا يمكن أن يكون إنتاجاً بشرياً.

الدعوات التي حملها القرآن وقت نزوله كانت متسقة تماماً مع المفاهيم العقلية المعاصرة وسوف يظل كذلك لكل قارئ ومتفكر، لما وافقت هذه المفاهيم مفاهيمهم العقلية، لم يجدوا أدنى غضاضة في قبولها والتسليم بصحتها. لقد كانت دعوة للرفق الأخلاقي وعدم التمييز ورفض العنصرية والصدق والأمانة، فكيف يرفض هذه الدعوة ذولب رشيد.

لقد كانت دعوة توظف وتنبه العقل وتطلب منهم اختبار ما يسمعونه وتطالبهم بالدليل والبرهان إن كانوا يعتقدون بخلافه. إنها درجة سامية من المعرفة لا بد أن يخضع لها أصحاب القلوب السليمة الخالية من الأهواء والتجاذبات. لقد ساق هذا الإيمان العقلي أصحاب العقل والمنطق السليم في الماضي إلى الإيمان التام بالغيبي، على الرغم من غزارة الجزء الغيبي في بداية الدعوة وكثافته؛ مثل: الآيات الكونية، وخلق الكون، وخلق الإنسان، ووصف ظواهر طبيعية مختلفة.

هذا الإيمان بالجزء العقلي الذي لمسه أتباع الرسول الكريم، وتيقنت منه أنفسهم، هو ما منحهم كل هذه الثقة الإيمانية بالجزء الغيبي، والتسليم الكامل له، مما انعكس بشكل شديد الوضوح على تعاملاتهم، وتفاعلهم مع مجتمعهم وصدق لهجتهم. مع وفاة الرسول والتطور

الزميني كان من الطبيعي اتساع الإيمان العقلي؛ وذلك من خلال اكتشاف بلاغة وإعجاز اللفظ القرآني، ومطابقتها لوصف ظواهر علمية وحقائق كونية، بشكل يوحي بتطابق الكلمة القرآنية والكلمة الكونية؛ مما يعزز ويقوي البرهان، أن هذا الكتاب كتاب إلهي، وأن القرآن والكون كلاهما ينطق بالوحدانية.

الإيمان العقلي ركن أصيل في النفس البشرية السليمة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، عندما ذكر مشاهد متعددة لنبي الله إبراهيم، أثناء رحلة بحثه الدؤوب عن الحقيقة. لم يخضع لموروث قومه، وحاول جاهداً البحث والاستدلال، مستخدماً المنطق والتحليل والاستنتاج. إنه إيمان علم اليقين الذي حصل عليه نبي الله، نتيجة بحثه المخلص عن الحقيقة، ثم توجهه بإيمان عين اليقين عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى.

هذا الشغف بالبحث عن الحقيقة، والوصول إلى أعلى درجات الإيمان العقلي، الذي ورثناه عن نبي الله إبراهيم، هو الوحيد الضامن لتجدد هذه الأمة؛ لأنه قائم بشكل أساسي على التسبيح، والحركة الدائمة من البحث والنظر والتدبر والقياس والمقارنة، وكلها أمور علمية تعتمد اعتماداً كلياً على العقل. إنَّ عدم إدراك مفهوم التطور جعل كثيراً من الأمور ضبابيةً وغائمةً، ولعلنا هنا في هذا الكتاب نلقي الضوء بعض الشيء على هذه النظرية، التي أعدها من أعظم النظريات، والتي جاءت صريحةً في كتاب الله، مشتملةً كما من المعلومات الهائلة عن خلق الإنسان، والتطور المعرفي والأخلاقي.

قصة كتابة هذا الجزء مليئة بالعجب؛ فلقد كانت البداية مجرد فصل عن آية في سورة التين، في الجزء الثاني، لا يتجاوز عشرون صفحة، لكن مع استمرار تتبُّع الألفاظ القرآنية بدأت أمورٌ في الكشف والوضوح متعلقة بمسألة التطور وخلق الإنسان. بسبب غزارة المعلومات التي حصلت عليها؛ قررت تأجيل هذا الفصل، ووضعه في جزء خاص، وهو الجزء الثالث الذي بين أيدينا.

لقد كان هذا الجزء بعد مرور عامين عبارة عن ثمانية فصول، تتحدث عن التطور، وخلق الإنسان، والتطور المعرفي. وعند قرب نهاية الكتابة، واستعدادي لطباعة هذا الجزء، توصلت لمعلومات عن نظرية الشر في كتاب الله، فقررت بحبها، ومن ثم إضافة هذه النظرية إلى التطور المعرفي في الكتاب.

وما إن انتهيت من نظرية الشر، إلا وجدت نفسي أمام نظرية الانقراض الكبير، التي جاءت مفصلة في كتاب الله، والتي سجلته في فصل كامل. كان آخر فصل من فصول هذا الكتاب هو فصل الأنعام، والذي يلقي الضوء على التطور من جانب آخر.

يرجى الملاحظة أن فصل قريش قد تم إضافته بعد عام كامل من نشر الكتاب بعد أن تم تحليل كلمات سورة قريش ووضوح العلاقة بينها وبين سورة الفيل. عند هذه اللحظة كان يجب إعادة ترتيب الفصول؛ ليصبح كل ما يخص التطور البيولوجي ونظرية الانقراض ضمن الباب الأول، والتطور المعرفي ونظرية الشر من ضمن الباب الثاني. قد يلاحظ القارئ تكرار بعض الاستدلالات؛ وذلك بسبب طول المدة التي استغرقتها كتابة هذا الجزء، وكذلك بسبب التوصل لبعض المعلومات التي لم تكن في الحسبان.

لو قدر لنا أن نحصي كم الأفكار التي حاولنا تتبعها، من خلال تحليل اللفظ القرآني، ولم نستطع الوصول إليها، أو أنها كانت متعارضة مع المنهج الذي نستخدمه؛ لاحتجنا إلى عدد معتبر من المجلدات، فنحن هنا نضع الأفكار التي نملك أدلة وبراهين على صحتها، وقمنا باختبارها واطمأنت لها النفس في الكتابة والنشر.

ما زاد اليقين في المنهج الذي نستخدمه في فهم اللفظ القرآني، هو أنه في كثير من المواقف كانت الفكرة الرئيسة تسير في اتجاه، ولكن بسبب تحليل اللفظ القرآني نجد أنفسنا وجها لوجه امام فكرة مغايرة تماماً، بل وفي بعض المواضع كان تحليل اللفظ القرآني يعطي عكس الفكرة محل الدراسة.

لقد كان المنهج واضحاً تماماً عندما حاولت فهم ظهور الكتابة المنهجية، من خلال مجموعة آيات في كتاب الله، ولكن تحليل اللفظ القرآني لهذه الآيات لم يعط أية نتيجة عن الكتابة،

بل قادي مباشرة إلى اكتشاف النظام القضائي في البشرية، بينما ظهور الكتابة والإشارة إليها كانت من خلال مجموعة آيات لم تخطر لي على بال.

لقد كان المخطط لسلسلة كتاب تلك الأسباب أن تكون أربعة أجزاء، ولكن بعد هذا الجزء والأفكار التي تنتظر دورها، أعتقد أن هذه السلسلة قد تتعدى عشرة أجزاء، إن كان في العمر بقية. يتضمن هذا الجزء باين، بمجموع ستة عشر فصلاً:

الباب الأول: التطور البيولوجي، وفيه ستة فصول

الفصل الأول: ستة أيام

يتناول الفصل الأول تمهيداً تاريخياً لمفهوم التطور، وفكرة بسيطة عن نظرية التطور لدارون، وبعض الانتقادات الموجهة للنظرية. كان قد أشار علي بعض الأصدقاء بأن احذف هذا الفصل لأنه يعطي انطباع للقارئ أن لدى الكتاب فكرة مسبقة يريد أن يثبتها، ولكن رأيت بقاء الفصل لأن وجوده سوف يساعد القارئ على فهم ما تم تحليله بشكل بسيط. من خلال تتبع اللفظ القرآني سنرى كم من المعلومات والتنبؤات العلمية والتي لم يصل إليه العلم حالياً، والتي اعتمدت بالكلية على تحليل اللفظ. استخدمنا لغة الاحتمالات في تسجيل هذه التنبؤات العلمية والتي نتمنى أن يأتي اليوم الذي يستطيع البحث العلمي التحقق من هذه التحليلات لنذكر أننا على أعتاب عصر جديد بالكلية سوف يخضع للمناهج العلمية الصارمة في فهم اللفظ القرآني.

الفصل الثاني: الطور

يتناول هذا الفصل مفهوم التطور من خلال كتاب الله بشكل صريح، ويعطي دلالات وإشارات على التطور البيولوجي شديدة الوضوح، وتكاد تعلن عن نفسها دون الحاجة إلى من يفسرها. إنه لأمر مذهل أن تجد نفسك تمر صباحاً ومساءً على ذكر التطور في كتاب الله، ولا تلقي له بالاً، بل وتحسبه شيئاً آخر.

الفصل الثالث: الإنسان

في هذا الفصل نحن على موعد مع خلق وتطور الإنسان، والذي أشار القرآن الكريم إلى أنه تمَّ من خلال عدة مراحل، وليس كما أشارت تفسيرات السابقين على أنه تم بشكل كامل. في هذا الفصل كمُّ من المعلومات الغزيرة والكثيفة عن خلق الإنسان، واحتمالية انحداره من سلالات سابقة أقلّ رقياً أمراً غير مستبعد. فهل آدم أول إنسان؟ وما الفرق بين الإنسان والبشر؟ سوف نقدم الدليل من كتاب الله وكلماته الناطقة على كل كلمة وردت في هذا الفصل.

الفصل الرابع: الأنعام

يتناول هذا الفصل المخلوقات العجيبة التي يصفها كتاب الله بالأنعام، ووضعها المميز في سلسلة التطور، وسوف نكتشف أنها مخلوقات فريدة حقاً في كسرها لقاعدة التطور. من خلال هذا الفصل سوف نتعرض لنظرية وجود الماء على سطح الأرض، ومن أين جاء؟ كما سوف نكتشف أن القاعدة الفقهية (الأصل في الأشياء الإباحة) ليست صحيحة دائماً.

الفصل الخامس طيراً أبابيل

يتعرض هذا الفصل لسورة الفيل، والتي سوف نتعرف من خلالها على نظرية الانقراض العظيم، الذي حدث في تاريخ الأرض منذ 65 مليون سنة بالتقريب. يشمل الفصل نقد الروايات المتعارف عليها وتفنيدها بشكل منظم ودقيق ومن خلال سرد منطقي للأحداث، ويطرح مجموعة من التساؤلات المنطقية والتي تحتاج للتفكير والتدبر.

الفصل السادس إيلاف قريش

تم إضافة هذا الفصل في الطبعة الثانية للكتاب بعد تحليل ألفاظ سورة قريش ووضوح العلاقة العجيبة بينها وبين سورة الفيل. سورة قريش التي تحدثت عن بداية عصر الأنسنة أو تكوين المجتمعات في الزمن القديم بل الموغل في القدم. لقد كفانا في هذه السورة العجيبة تحليل لفظ قريش لندرك أن هناك كم من التزوير والتزييف وتحريف ألفاظ كتاب الله تم بكثافة لم يسبق لها مثيل.

لا نلوم أحد ولكن العوز المعرفي وعدم فهم اللفظ في وقته ربما كان السبب المباشر في كل هذا التحريف. نحن اليوم أمام اختبار حقيقي وهو إما اعتبار كلمات الله في كتابه هي الحقيقة المطلقة ويجب التعامل معها من هذا المنطلق أو اعتبار كلمات الله نص تاريخي صرف. الفرق بين الاعتبارين هو الفرق بين العلم والجهل وبين الفكر وبين التقليد. كل ما نمتناه من القارئ هو التفكير قليلاً قبل تبني وجهة نظر معينة فالأمر ليس بالسهولة المتوقعة وإنما أمر جليل؛ إما اعتبار القرآن نص إلهي بكل ما يعني هذا النص أو نص بشري محدود تناول والمعرفة.

الباب الثاني: التطور المعرفي

الفصل السابع: أحسن القصص

يتناول هذا الفصل مقدمةً عن التطور المعرفي، وأثار هذا التطور المعرفي على البشرية، ولماذا فهم التطور المعرفي كفيل بالإجابة على أسئلة غاية في التعقيد.

الفصل الثامن: فأصبح من النادمين

سوف نحاول خلال هذا الفصل فهم أول مظاهر التطور المعرفي لدى آدم وذريته، ومن ثم بزوغ فجر الضمير الإنساني، ودور هذا الضمير في التطور المعرفي والأخلاقي. سوف نلقي نظرة سريعة من خلال هذا الفصل على تجسيد الطاعة والمعصية، وعلاقتها بالمراحل الأولى لتطور العقل البشري.

الفصل التاسع: قرباً قرباناً

يتناول هذا الفصل مظهراً آخر من مظاهر التطور المعرفي، من خلال مقارنة ثلاثة مشاهد قرآنية، مشهد القربان الخاص بابني آدم، ومشهد الذبيح ابن نبي الله إبراهيم، وانتهاءً بمشهد الهدى الذي أمر الله أن يكون بين الناس في شعيرة الحج، في تدرج وتطور معرفي وأخلاقي لا مثيل له.

الفصل العاشر : أمدّكم بما تعلمون

سوف نحاول من خلال هذا الفصل تتبع القصص القرآني منذ آدم عليه السلام، وحتى نبي الله إبراهيم؛ لكي نكتشف ظهور مظاهر الحضارة تباعاً، وكيف تطورت، وكيف ظهرت الزراعة والصناعة والتجارة، وكيف تطورت المجتمعات. تحليل التعبيرات القرآنية الدقيقة، التي وصفت هذه الحقب التاريخية، سوف تقودنا إلى كنوز معرفية عن هذا التاريخ الموهل في القدم.

الفصل الحادي عشر: كلمّ موسى تكليماً

نستكمل في هذا الفصل تتبع مظاهر الحضارة الإنسانية، ومرحلةً من أهم مراحل التطور، وهي ظهور الكتابة، وعلاقة الكتابة بنبي الله موسى، والنقلة النوعية التي أحدثتها الكتابة في تطور البشرية.

سوف يجب هذا الفصل على مجموعة أسئلة، مثل: من هم الأميون، أو الأمي الذي وصفه القرآن؟ ولماذا نعتقد أنّ المقصود بالنبي الأمي ليس رسول الله محمد صلوات ربي عليه؟ ولماذا لم يتم تسجيل قصة خروج بني إسرائيل في الكتابات الفرعونية؟ ولماذا لا يوجد أي أثر ليوسف عليه السلام على جدران المعابد؟ ولماذا لم يتم تسجيل قصته؟

الفصل الثاني عشر: فصل الخطاب

نتناول في هذا الفصل مظاهر الحضارة الإنسانية في عهد أنبياء الله داوود، و سليمان، وزكريا. شهد هذا العصر ظهور وتبلور نظام القضاء، وكذلك إشارات على بداية عصر التعدين. في هذا الفصل كذلك إشارة إلى ظهور الفلسفة، وقدرة العقل على التعبير عن الأفكار بشكل بليغ وموجز والذي أشار إليه القصص القرآني من خلال قص مشاهد متعلقة بعصر نبي الله زكريا .

الفصل الثالث عشر: إلا ليعبدون

في هذا الفصل سوف نلقي الضوء على مفهوم كلمة العبودية، وما المقصود بلفظ عبد، لنجيب على السؤال المصيري: لماذا نحن هنا؟ سوف نكتشف أنّ لفظ العبد ولفظ العبودية لا تمت بصلة لما فهمه العرب وتداوله الناس فيما بينهم، وأنّ كتاب الله من خلال آياته يعطي وصفاً دقيقاً للكلمة ومدلولها، ويعيد ترتيب الأولويات.

الفصل الرابع عشر: لكم في القصاص

يتناول هذا الفصل مظهراً من مظاهر التطور المعرفي، وهو تطور التشريع من مرحلة النفس بالنفس إلى القصاص، وكيف أعطى القصاص للإنسان مساحة من المسؤولية، لم ينتبه إليها إلا حديثاً، وهل عقوبة الإعدام هي العقوبة الأمثل دائماً في جرائم القتل؟ سوف نتطرق لمفهوم الحرية في كتاب الله، والذي يعتقد الكثيرون أنّ كتاب الله غير معنيٍّ بها بشكل صريح، ونرى مفهوماً جديداً تماماً لمفهوم الحر، ولماذا لفظ الحر غير مناسب لوصف الإنسان؟ ولماذا لم يستخدم كتاب الله هذا اللفظ في التعبير عن الحرية؟

الفصل الخامس عشر: إما منّا وإما فداءً

يتناول هذا الفصل أبرز مظاهر التراجع الأخلاقي في البشرية؛ وهو الرق، وتحول البشر إلى سلعة، وكيف أنّ القرآن وضع له علاجاً نهائياً؛ من خلال حكم واضح، ولكن بسبب عدم النّضج المعرفي من جهة، والجمود الفكري من جهة أخرى، لم يستطع البشر استيعاب هذا الحكم والتعامل معه.

الفصل السادس عشر: الفلق

يتناول هذا الفصل مفهوم نظرية الشر، ويجب على الأسئلة الأكثر تعقيداً حول الشر وماهيته ومصدره، من خلال تحليل اللفظ القرآني في سورة الفلق، التي وضعت النقاط على الحروف.

ملخص المنهج

النقاط التالية تمثل ركائز المنهج المستخدم في تحليل اللفظ القرآني في سلسلة تلك الأسباب. (لمراجعة المنهج بشئ من التفصيل يرجى العودة للجزء الثاني من الكتاب الفصل الأول والثاني).

1. اللغة هبة إلهية من الله اصطفى آدم وأعطاه القدرة على التسمية ووصف المسميات بكل دقة (النظرية التوقيفية) والتي انتقلت منه إلى البشرية.
2. ألفاظ القرآن جميعها ألفاظ حقيقية ليس فيها مجاز ولها خاصية الإفصاح عن نفسها وتحمل مفاتيح فهمها .
3. الألفاظ خارج القرآن يحتمل فيها أن تكون حقيقية تصف المسمى بكل دقة؛ أو غير حقيقة ليس لها دلالة أو اعتبارية.
4. جذر الكلمة يمثل حالة عامة لها صفات وخصائص محددة ولكل كلمة جذر واحد فقط، ولا يمكن وصف الجذر بكلمة واحدة بل بتعبير كامل.
5. الحالة العامة للجذر قد يكون له مدلولان: مدلول مادي يمكن تجسيده ومدلول لا مادي يحمل نفس الصفات والخصائص.
6. هناك علاقة وثيقة بين الحالة الوصفية الجذر ومدلولها الفيزيائي حيث الجذر الثنائي تتغير حالته بتغيير الحرف الثالث بشكل منتظم تبعاً للمدلول الصوتي للحرف الثالث.
7. وجود أكثر من أصل للجذر الواحد يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية لذا يجب دراسة الأصول المتعددة وإرجاعها إلى أصل واحد. (قد تم دراسة بعض هذه الجذور). (المعاجم بها أصول متعددة لنفس الجذر وهذا يتنافى مع حقيقة النظرية التوقيفية).
8. لا يمكن للجذر الواحد أن يحمل أصلاً متضاداً لأن ذلك يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية. والصحيح أن للجذر أصل واحد يمثل حالة عامة تفرع منها التضاد. (المعاجم بها أصول متضادة وهذا يتنافى مع النظرية التوقيفية)

9. لا يمكن فهم اللفظ إلا من خلال السياق وفي إطار الحالة التي يصفها بكل دقة دون التدخل بالزيادة أو النقص.
10. يصرف اللفظ إلى الحالة الأشهر التي يمثلها ما لم توجد قرينة تصرفه إلى حالة أخرى بدليل قوي، وليس مجرد رؤية شخصية.
11. آيات القرآن جاءت من خارج الإطار المعرفي للنبي صلوات ربي عليه فتفاعل معها واستخرج الأحكام فجاءت أقواله وأفعاله بخلاف القرآن من داخل إطاره المعرفي.

الفصل الأول ستة أيام

اعتمادنا في هذا الكتاب قائم بشكل أساسي على تحليل اللفظ القرآني من خلال منهج محدد نستخدمه. ليس مطلوباً من القارئ أن يقر بما نقال فهذا الأمر ليس من ضمن أهدافنا في هذا الكتاب وهذه السلسلة وإنما هدفنا هو أن يختبر القارئ ما نقول ويبحث الأفكار وينظر فيها بدون تحيز أو تعصب قد يمنعه من حسن استقبال المعلومات الواردة في هذا الكتاب تحديداً والسلسلة الكاملة بشكل عام.

التطور فكرة قديمة قدم التاريخ، تشهد بها الحياة ومظاهرها، ويشهد عليها العلم وطرقه، وليست بدعاً من العلماء، أو أضغاث أحلام " تشارلز داروين"، وإن كانت فكرة التطور لها إرهابات على مر التاريخ؛ إلا أن داروين يُعتبر بحق الأب الروحي، والمؤسس لنظرية التطور بمفهومها الحديث، وذلك بفضل التأصيل الجيد، والتنظير المنطقي، والدلائل والحجج والبراهين القوية، والملاحظات والأبحاث الغزيرة التي ضمنها كتبه، وأشهرها كتاب "أصل الأنواع"، وكتاب "نشأة الإنسان". دعونا الآن نلقي نظرة سريعة على فكرة التطور عبر التاريخ، وصولاً إلى العصر الحديث، ثم ننتقل إلى مدلول اللفظ القرآني الذي تحدث عن التطور بشكل صريح، ولكن لم يلتفت إليه أحد.

التطور عند الإغريق

بالعودة للوراء سنجد الفيلسوف اليوناني (أناكسيمندر) المولود عام (610) قبل الميلاد، قد أشار إشارةً واضحةً إلى مسألة التطور هذه، من خلال قوله: "إنّ أول ظهور للحيوانات كان في البحر، وقد وُجدت هذه الحيوانات داخل لحاء شوكي، ومع مرور الوقت تبخّرت الرطوبة، وجفّ الغشاء الشوكي، ثم تحطّم وتكوّنت الأرض اليابسة". أناكسيمندر اعتقد أنّ البشر الأوائل عاشوا داخل أفواه الأسماك، لأنهم لم يستطيعوا في البداية التكيف مع

بيئة ومناخ الأرض، ولكن مع تقدم الزمن، وتحسّن ظروف المناخ، خرج البشر من أفواه
الأسماك، واستطاعوا العيش على سطح اليابسة.

الفيلسوف اليوناني "إيمبيدوكليس" والذي عاش من عام (490) إلى (430) قبل
الميلاد، وهي الفترة التي سبقت ظهور الفيلسوف الشهير "سقراط" - وهو صاحب نظرية
العناصر الأربعة الشهيرة- يقول: "إنّ أربعة عناصر رئيسة هي التي تكوّن هذا العالم، وهي الماء
والتراب والهواء والنار، وسمى "إيمبيدوكليس" هذه العناصر الأربعة بالجدور، ولم يستخدم لفظ
عنصر، ويعتقد أنّ من استخدم لفظ عنصر هو "أفلاطون" فيما بعد.

كان "إيمبيدوكليس" يرى أنّ أي زيادة أو نقص يطرأ على مكونات الطبيعة هو
بالأساس يعود إلى درجة ونسبة امتزاج هذه الجذور الأربعة معاً، وقد ظلّت هذه النظرية
عقيدة علمية راسخة لما يقارب الألفي عام بعد إيمبيدوكليس.

التطور عند الفلاسفة المسلمين

شهد العصر الذهبي للدولة الإسلامية إرهاصات لمفهوم التطور لا يمكن تجاوزها، كانت
تلك المحاولات ظاهرة بكل وضوح في كتابات الكثير منهم، وعلى رأسهم "الجاحظ" في القرن
التاسع الميلادي، إذ أشار الجاحظ بشكل مباشر إلى تطور الأنواع، والصراع من أجل البقاء،
وأشار كذلك إلى سلاسل الغذاء، ووصف تأثير البيئة على الحيوان، وإن لم يستخدم لفظ تطور
بشكل صريح، لكنّه استخدم ألفاظاً أخرى، مثل: النقل والنسخ والانقلاب.

الفيلسوف أحمد بن يعقوب والمشهور بـ"مسكويه"، قسم النباتات في ثلاث رتب، يتطور
خلالها النبات من رتبة إلى أخرى، وقسم مسكويه أيضاً الحيوانات في خمس رتب، اعتماداً
على الحواس التي يمتلكها الحيوان.

يرى "مسكويه" كما جاء في كتاب "مجدى عبد الحافظ" (فكرة التطور عند فلاسفة
الإسلام): "إنّ آخر مرتبة النبات مرتبطة بأول مرتبة من الحيوان، وآخر مرتبة من الحيوان
مرتبطة بأول مرتبة من الإنسانية". نستطيع أن نلاحظ أنّ أول بزوغ لفكرة ارتباط مراتب

الإنسانيات بمراتب الحيوانات عند "ابن مسكويه" واضحة، وتكاد تلامس التصريح بأن الإنسان هو امتداد لما قبله من الرتب الحيوانية.

كان "مسكويه" يرى التسلسل مميزاً للكائنات؛ إذ تنتظم جميعها في سلاسل كالعقد، كلُّ نوع متصلٌ بالذي يليه من أحد الأطراف، ومرتبٌ بالذي يسبقه من الطرف الآخر، ولا بن مسكويه عبارة مشهورة تقرر ذلك التسلسل دون أي مواربة إذ يقول: "لم يبق بين النخيل وبين الحيوان إلا أن يكون حرَّ الحركة ليحصل على الغذاء".

من الفلاسفة المسلمين الذين تحدثوا عن فكرة التطور مجموعة تُدعى "إخوان الصفا"، وهي للأسف مجموعة مجهولة الهوية لكن آثارهم تشرح فكرة التطور، وتعطينا دليلاً آخر على وجود فكر التطور الواضح، خلال عصر الازدهار الإسلامي الذي سبق "داروين" و"لامارك" بقرون. اعتقد "إخوان الصفا" أن ترتيب الحيوانات يبدأ من الأدنى منزلةً إلى الأعلى منزلةً، ويكون ذلك خلال مدى زمني طويل نسبياً. "زكريا محمد القزويني" من العلماء المسلمين المعروفين أيضاً، وله إسهامات لا تخطئها العين في مسألة التطور؛ حيث قسم الموجودات إلى كائنات حية، وكائنات غير حية، وكان يعتقد أن هناك سلاسل أو حلقات وصل، بين بعض الكائنات وبعضها الآخر، تبدأ هذه السلسلة بالتراب، ثم المعادن، ثم النبات، ثم الحيوان، ثم الإنسان، وتنتهي النفس الإنسانية في تطورها واكتمالها عند اتصالها بالنفوس الملائكية، وهي أرقى درجة في سلم التطور.

كذلك نجد لـ "ابن خلدون" المتوفى 1401 ميلادية، وجهة نظر معتبرة في مسألة التطور؛ فقد كان يرى أن المخلوقات جميعها محكمة الترتيب والانتظام، وأن تحول بعض الكائنات إلى كائنات أخرى هو مدعاة للإعجاب والقدرة. لقد ذهب "ابن خلدون" إلى ما ذهب إليه أقرانه من اعتبار أن آخر السلسلة من الكائنات يمكن أن ينتقل للسلسلة الأعلى، ويصبح بداية لسلسلة جديدة.

عملية تحول الكائنات من نوع إلى نوع آخر بدت واضحة جداً في فكر "ابن خلدون"، كما كانت واضحة في فلسفة "إخوان الصفا"، مما يؤشر على مدى رقي وعمق أفكار هذه المرحلة

في وقتها من تاريخ الأمة. إذا كان هؤلاء العلماء منذ القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن السابع الهجري على هذا القدر من العلم والتفكير المنطقي والحس الفلسفي العميق؛ فما الذي أدى إلى تراجع هذا التفكير، حتى صار مجرد عرض نظريات التطور كأنه ضرب من ضروب الكفر والزندقة؟

على النقيض من فكر هؤلاء الفلاسفة وتصوراتهم، نجد فكرة الخلق الكامل هي الفكرة المسيطرة على أدمغة رجال الدين، ومتشعبة بها نفوسهم؛ فكلُّ المخلوقات -في رأيهم- خلقت منفصلة على هيئتها الحالية دون تطور. لا ننكر أنه قد حدثت خلخلة فكرية في مسألة الخلق الكامل للمخلوقات، إذ وجد الآن بمن يقول بالتطور في المخلوقات، ولكن يظل الإنسان خارج هذه المنظومة ويبقى الإصرار على خلقه كاملاً هو سيد الموقف. إنَّ فكرة الخلق الكامل أو الخلق المنفصل ليست فكرة قرآنية، ولا يوجد تلميح إلى ذلك؛ وإنما هي فكرة من العهد القديم بامتياز، تبنّاها رجال دين مسلمين، ودافعوا عنها باستماتة، وصدرها هؤلاء للعالم على أنها كلام الله ومراده.

لا شك أن قصة الخلق ونشأة الحياة استحوذت على اهتمام الإنسان منذ فجر التاريخ، وحاول الإنسان جاهداً فهم الخطوة الأولى وكيف جاءت. بينما كانت الأساطير تُحاك على أشدها، وتُنسج حول بداية الخلق ونشأته؛ إذ بالعهد القديم يضع خطوط قصة أكثر حبكة وأكثر قبولاً؛ فقد جاءت قصة الخلق، وخلق آدم بالتحديد من خلال سفر التكوين، والتي افترضت أن الخلق تمّ في ستة أيام، كلُّ يوم مرحلةً مستقلة.

قصة الخلق في العهد القديم

داية عندما نتحدث عن أسفار العهد القديم فنحن نتحدث عن ترجمات بشرية لنص إلهي سابق. للأسف الشديد ليس لدينا النص الأصلي للعهد القديم؛ ولو قدر لنا أن نجد هذا النص بشكله الأصلي فإننا على يقين بأن ألفاظه ودراستها بشكل منهجي سوف تعطي نفس النتائج التي حصلنا عليها من خلال تحليل اللفظ القرآني.

يجب أن يضع القارئ في حسبانته أن ما يسمى العهد القديم أو غيره من الكتب هو ترجمات بشرية أو نصوص تاريخية وليست النص الأصلي. لكي نقرب الصورة فهذه الترجمات تشبه إلى حد كبير تفسيرات القرآن وليس نص القرآن ذاته مما يجعلها انعكاس لفهم البشر مهما كانت دقيقة. بحسب سفر التكوين في العهد القديم، تمت عملية الخلق في ستة أيام، ثم استراح الخالق في اليوم السابع، وهو يوم السبت.

جاءت عملية الخلق في سفر التكوين من العهد القديم مقسمة على الأيام الستة كما يلي:

اليوم الأول: تم فيه فصل النور عن الظلام.

اليوم الثاني: تم زيادة ارتفاع السماء، وفصل السماء عن المياه المحيطة بالأرض.

اليوم الثالث: تم فصل الأرض والماء، أو ظهور اليابسة.

اليوم الرابع: تم خلق الشمس والنجوم والقمر.

اليوم الخامس: تم خلق كائنات الجو وهي الطيور، وخلق كائنات البحر وهي الأسماك.

اليوم السادس: تم فيه خلق باقي الكائنات البرية، وخلق الإنسان على صورة الرب

ليصبح مشرفاً على باقي الكائنات.

هذه الأيام الستة - كما في سفر التكوين - تحمل معلومات عن بداية الخلق، ولا تذكر أي

إشارة للتطور، ويعدّها المتديّنون نصوصاً قاطعة على خلق الكائنات خلقاً مستقلاً، وخصوصاً

العبارة القائلة: "الإنسان على صورة الرب". قصة الخلق في سفر التكوين - بحسب رؤية

المؤمنين بالعهد القديم - متناقضة بلا شك مع نظرية التطور؛ فكرة الخلق الكامل للكائنات

والإنسان نجدها واضحة بشدة في عبارة: "الرب خلق آدم على صورته"

هل ألفاظ القرآن الكريم تؤيد فكرة الخلق المنفصل؟ أم أنّ التطور حاضر بقوة من

خلال الألفاظ والتعبيرات القرآنية؟

لقد ذُكر التطور في القرآن ذكراً يكاد يلامس التصريح، غير أنّ العقول وقتها لم تستوعب

مفهوم التطور، إذ لم يكن لديها أي معرفة مسبقة بعملية التطور، وكلّ ما هو متاح وقتها بعض

تفسيرات عن خلق الحياة القادمة من نصوص العهد القديم. قبل أن نخوض هذه المعركة حامية الوطيس، دعونا نلقي نظرة سريعة على نظرية التطور، وبعض الانتقادات الموجهة إليها مع تحليل هذه الانتقادات.

حول نظرية التطور

القول بأن داروين ليس هو أول من قال بفكرة التطور، لا يعني أن أحداً قبله قد استطاع أن يُقدم إسهاماً علمياً قيماً؛ يمكن معه أن نعتبره مؤسس نظرية التطور، بل هي فلسفات، أكثرها قائم على تصورات أصحابها ومشاهداتهم، ولا يدعمها دليل حقيقي.

نظرية التطور التي أسسها "تشارلز داروين" تُعدُّ سبقاً معرفياً لا مثيل له، من حيث كم الاستنتاجات القائم على الأدلة والبراهين العلمية. يجدر بنا أن نشير إلى أن أفكار الفرنسي "جان لامارك" في فهم التطور كانت البداية الحقيقية، التي مهدت الطريق لنظرية التطور، والتي وضعها بعد ذلك "تشارلز داروين".

"جان باتيست لامارك" عالم أحياء فرنسي، هو من أوائل من اقترحوا نظرية التطور، ومن أهم استنتاجاته أن الكائنات تُغيّر من صفاتها لكي تتلائم مع بيئتها، وأن هذه التغيرات تنتقل إلى ذريتها، من خلال الجينات الوراثية. صاغ "لامارك" أفكاره من خلال قانونين شهريين :

القانون الأول: العضو الأكثر استخداماً يقوى وينمو، بعكس العضو غير المستخدم، فهو يضعف ويتلاشى تدريجياً.

القانون الثاني: التأثير الناتج من البيئة ينتقل للأفراد الجديدة من خلال الوراثة.

واجه القانون الثاني انتقاداً كبيراً؛ لأن الشعوب السامية تمارس عادة اختان منذ فجر التاريخ، ومع ذلك لم يتم توريث هذه العادة عبر الأجيال؛ أي لم يحدث أن نتج نسل مختون، نتيجة لانتقال هذه العادة إلى الجينات كما يزعم القانون الثاني للامارك.

في معرض الإجابة على هذا الاعتراض؛ افترض لامارك أنّ مثل هذه العمليات (الختان) لم يتوافر لها الحاجة الداخلية، بل هي فقط تأثيرات خارجية بدون وعي داخلي، مما يجعلها غير قادرة على الانتقال عبر الجينات، ومن ثمّ لا يتم توارثها من خلال النسل الجديد. ليس كل تصرف أو عادة يمكنها الانتقال إلى الجينات، وبالتالي توريثها للأجيال التالية، إلا من خلال حاجة داخلية لدى الفرد، إضافة إلى مدى زمني معقول، حتى يتحقق انتقال هذه التأثيرات.

عالم الأحياء البريطاني الشهير "هربرت سبنسر" له تأثير حاضر في كتابات "تشارلز داروين"، فقد استخدم "داروين" عبارة "سبنسر" الأشهر، وهي: (البقاء للأصلح) بسبب دقتها وقوتها، حتى إنّ الكثيرين نسبوها إلى داروين مع أنّ قائلها هو "هربرت سبنسر". حاول "داروين" استخدام عبارة (الانتخاب الطبيعي) بدلاً منها، ولكنّ عبارة (البقاء للأصلح) هي الأكثر شهرة بسبب دقتها، وبلاغتها لدى أرباب نظرية التطور.

التطور بمفهومه الشامل، وهو التحول من حالة إلى حالة، حقيقة لا جدال فيها، سواء كان التطور على مستوى الكون وأجرامه (تطور المادة)، أو تطور على مستوى الحياة الأرضية (التطور البيولوجي)، أضف إلى ذلك التطور المعرفي والأخلاقي لدى الإنسان، والذي حير كثيراً من العلماء، والذي يمكن من خلاله فهم كثير من التصرفات السابقة والتصرفات الحالية.

يجب التفريق بين التطور كحقيقة قائمة تدعمها الأدلة والبراهين، وبين آلية التطور أو ما نسميه نظرية التطور. إنكار الحقيقة العلمية يمثل عجز معرفي واضح بينما نقد نظرية التطور أو آلية التطور فهو خاضع للنقاش العلمي باستمرار وعلى كل المستويات. عدم وضع الحدود الفاصلة بين الحقيقة العلمية وبين النظرية التي تفسر هذه الحقيقة جعل الأمر ضبابياً لدى فئة كبيرة جداً من البشر. ما ساعد على تشوش الصورة وارتباك المفاهيم هو تبني بعض رجال الدين نقد نظرية التطور بهور وخالط واضح غير مدركين للفرق بين الحقيقة العلمية وبين الآلية أو النظرية التي تفسر هذه الحقيقة. .

تبعاً لنظرية (الانفجار الكبير Theory Bang (Big فإن الأرض طوّرت نفسها، وتكوّنت عليها المحيطات مع غلاف جوي يتميز بندرة الأكسجين، وبسبب هذه الظروف القاسية وغير العادية، فإنّ أول ظهور للحياة كان في الماء، وهو عبارة عن خلية وحيدة بسيطة. بحسب النظرية فإنّه وقبل 5.3 مليار سنة نشأ نوع من البكتيريا، تسمى "البكتيريا الزرقاء الخالية من النواة"، وكانت مهمة البكتيريا على ما يبدو هو إنتاج الأكسجين، وتزويد الغلاف الجوي الفقير للأكسجين بكميات إضافية منه؛ بحيث تتمكن الكائنات الأكثر تعقيداً من الظهور والتكاثر. مع تقدم الزمن، وانتهاء العصور الجليدية، ظهر أول كائن معقد، وهو شبيه الديدان، ومع حلول الفترة الدافئة تحسنت شروط الحياة قليلاً في البحر؛ ممّا أدى إلى طفرة تطورية، سمّيت (الانفجار الكمبري) قبل 540 مليون سنة. في عصر الانفجار الكمبري ظهرت كائنات أكثر تعقيداً وتطوراً، مثل: قنديل البحر، وشقائق النعمان، والطحالب، والمفصليات، والحشرات والعناكب، حتى وصلنا إلى الحليّات، ثمّ استمرّ التطور وظهور كائنات جديدة، مثل: البرمائيات، ثم تبع ذلك ظهور الديناصورات، وأول أنواع الثدييات.

كل تلك الافتراضات جاءت بناءً على دلائل وبراهين معينة، وهي معروضة دائماً للنقاش والنقد العلمي؛ حتى تصحح من أخطائها أو تلافي عيوبها، من خلال البراهين والدلائل المضادة. يجدر بنا أن نشير هنا أنّنا لا نتبنّى وجهة نظر معينة، وكل ما نقوم به هو سرد بسيط لفكرة التطور ونشأة الحياة، حسب أشهر النظريات، حتى تساعدنا هذه النظريات في فهم وتحليل اللفظ القرآني، ودون تسلّط الفكرة العلمية على اللفظ ومدلوله.

لقد أحدثت نظرية التطور لداروين صدى وجدالاً لا مثيل لهما، ليس علمياً فحسب؛ وإنما بسبب اعتقاد رجال الدين الذين اعتبروا أنّ نظرية التطور نوعاً من التّجديف والزندقة والتحدّي الإلهي. أستطيع أن أتفهّم رعب الكنيسة في أوروبا من انتشار نظرية التطور؛ وذلك بسبب تعارضها الواضح مع رؤيتهم التاريخية للنصوص الدينية في العهد القديم عن الخلق الكامل. لكن ما لا أستطيع فهمه هو موقف رجال الدين الإسلامي وتصلّبهم، في ظلّ رحابة

واتساع اللفظ القرآني، وفي ظل وجود آيات عديدة كما سنرى تسمح بالحوار والنقاش، فلم يكن العلم يوماً عدواً لكلمات رب العالمين الحقيقية؛ وإنما رجال الدين هم من يفعلون ذلك، عندما يمتلكهم الغرور المعرفي، ويظنون أنّ بإمكانهم التوقيع عن رب العالمين، فيصّبون تصوراتهم على اللفظ القرآني دون منهج علمي حقيقي لفهم اللفظ.

كما ذكرنا أن مسألة التطور بوصفها عملية بيولوجية، مسألة تعتبر من المسلمات، وحقائق واقعة مثبتة بالدلائل والبراهين، ولكن الاختلاف غالباً حول آلية هذا التطور، وبعض الفرضيات الفرعية. إنّ نظرية التطور قائمة على ركنين أساسيين، هما: التطور، والانتخاب الطبيعي؛ وبصورة أكثر بساطة، التطور هو تحوّل معين يحدث للكائن الحيّ، يؤدي لاكتساب هذا الكائن صفة جديدة، تساعده على التكيف والبقاء.

أما الانتخاب الطبيعي فمعناه أنّ الكائنات التي تمتلك صفاتاً وسماتاً صالحة للبقاء تبقى، وتورث هذه الصفات القوية لنسلها، والكائنات الأضعف تندثر وتنقرض. يمكن ملاحظة هذا الأمر ببساطة على مستوى الخلايا البكتيرية؛ فمن المعروف أنّ التوسّع في استخدام المضادات الحيوية ينتج أنواعاً جديدة من البكتيريا، مقاومة للمضادات الحيوية المعروفة، وتتكاثر هذه الأنواع الجديدة بعد ذلك، منتجة أفراداً لديها مناعة طبيعية وراثية، ورثتها من أسلافها في مقاومة المضادات الحيوية.

هذا ما يُعرف بالتطور على مستوى الخلايا البسيطة، بحيث طوّرت البكتيريا من وسائل حمايتها، واكتسبت صفات جديدة ساعدتها على البقاء، وبالتالي ستستمر الأفراد القادرة على البقاء وتستكمل حياتها، أمّا الأفراد غير المتكيفة التي فشلت في اكتساب صفات جديدة، تساعدها على البقاء؛ سيكون مآلها الانقراض والفناء.

بسبب قصر دورة حياة البكتيريا، وتركيبها الخلوي البسيط؛ استطعنا ملاحظة مبدأ التطور، ومبدأ الانتخاب الطبيعي بسهولة ويسر، ولكن على مستوى الكائنات الأكثر رقيّاً

وتعقيداً، فإنّ الأمر يزداد صعوبة؛ بسبب احتياج الكائنات الأرقى لمدى زمني طويل جداً لحدوث عملية التطور الذي قد يصل إلى ملايين السنين.

بالرغم من أنّ المدى الزمني الطويل هو أحد متطلبات عملية تطور الكائنات الأكثر تعقيداً؛ إلا أنّ العلماء كانوا محظوظين للغاية؛ إذ لاحظوا تطور نوع من السحالي في جزيرة "بود ماركو" الكرواتية في فترة زمنية قصيرة جداً، لم تتعدى 37 عاماً. لاحظ العلماء أنّ السحالي قد تغيرت من آكلات اللحوم (الحشرات) في موطنها الأصلي، إلى آكلات النباتات على الجزيرة، وكان العلماء قد جلبوا السحالي إلى الجزيرة لغرض التجارب، ولكن بسبب الحروب اضطرت العلماء لمغادرة الجزيرة، وترك السحالي دون رعاية.

بعد فترة من الزمن وتوقف الحرب، عاد الباحثون مرةً أخرى إلى الجزيرة، ليتفاجؤوا أنّ السحالي قد أصبحت آكلات أعشاب؛ بسبب عدم توفر غذائها من الحشرات على تلك الجزيرة. وهذا التطور الذي طال السحالي تبعه تغييرٌ في التركيب الفسيولوجي، وخصوصاً على مستوى الجهاز الهضمي؛ ليناسب الوظيفة الجديدة. لاحظ العلماء أيضاً أنّ سلوك هذه السحالي قد تغير إلى سلوك أقلّ عدوانية، بالإضافة إلى تغيير ملحوظ في حجم الجمجمة.

هذا النوع من التطور نادر الحدوث؛ بسبب المدى الزمني القصير، وغير المعتاد في الكائنات الأكثر تعقيداً. إن كماً غير محظوظين بالقدر الكافي لنشاهد التطور في حياتنا القصيرة؛ فهناك وسائل علمية أخرى، استطاع العلماء من خلالها رسم صورة واضحة، ومفصلة إلى حد كبير لعملية التطور.

من هذه الوسائل على سبيل المثال: بقايا الكائنات المتحجرة والمعروفة بالحفريات؛ حيث حصل العلماء على مئات الآلاف من الحفريات، وبقايا الكائنات المنقرضة التي تثبت عملية التطور بما لا يدع مجالاً للشك. بجانب علم الحفريات، هناك علم الأحياء الجزئية، أو علم الجينات، وهو ما يمثل حجر الأساس في فهم عملية التطور، من خلال دراسة العلاقات المتبادلة بين الحمض النووي ال (د ن ا)، والحمض الريبوسومي (ر ن ا)، والذي يعطي صورة شاملة

للجينات وتطورها. ثمّة قائمة طويلة من العلوم والتخصصات مسؤولة عن بحث عملية التطور، وليس الأمر مجرد تخمينات أو ظنون يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها.

الانتقادات الموجهة إلى نظرية التطور

نظرية التطور شأنها شأن النظريات العلمية المفصلية؛ التي أحدثت تحولاً جذرياً في المفاهيم العلمية، وكان لابد أن تواجه سيلاً من الانتقادات العاصفة. بعض هذه الانتقادات قائم على أسس علمية سليمة، وبعضها لا أساس له سوى النصوص الدينية، أو العوامل النفسية. سوف نحاول في السطور القادمة عرض أشهر هذه الانتقادات، وتفنيدها بشكل بسيط ومختصر، رغم أن هناك انتقادات كثيرة، وبعضها يحتاج لمختصين، إلا أننا سوف نعرض الانتقادات الخمسة الأشهر لهذه النظرية.

الانتقاد الأول

هو أشهر هذه الانتقادات، ولن نكون مبالغين إذا قلنا أن الغالبية العظمى لا تعرف عن نظرية التطور سوى هذا الجانب، وهو أن أصل الإنسان قرد، فإذا كان الإنسان تطور عن قرد؛ فلماذا لا نرى القروء اليوم تتطور إلى بشر؟ بدايةً لا بد أن نستوضح حقيقة العبارة التي ينسبها الناس لداروين، ويعتبرونها من مسلمات نظريته، سواء في كتابه (أصل الأنواع) أو كتابه (نشأة الإنسان) ذي الأجزاء الثلاثة، لم يتطرق داروين إلى عبارة "الإنسان أصله قرد" أبداً، وقد كان رجلاً دقيقاً في تعبيراته، منتقياً كلماته كحال كل العلماء.

ما قاله داروين في هذا الصدد هو: "إن التشابه الواضح سيدفعني خطوة للأمام، للقول بأن كل الحيوانات والنباتات قد انحدرت من كائن قديم بدائي، ورغم أن التشابه قد يكون مضللاً؛ فإن جميع الكائنات الحية لديها الكثير من القواسم المشتركة، في تكوينها الكيميائي، وأعضائها التكاثرية، وتركيبها الخلوي، والقوانين التي تحكم نموها وتكاثرها".

حديث داروين عن إشكالية القروء والإنسان لم يتعدّ قوله: إن البشر والقروء يمتلكون سلفاً مشتركاً؛ أي انحدروا من أصل واحد، ولم يقل: "إن القرد تطور إلى إنسان". فرضية

السلف المشترك التي افترضها داروين قائمة على دلائل علمية، والتعرض لها ونقدها لا بد أن يكون قائماً على دلائل وبراهين علمية كذلك. أما محاولة نقدها بدواعٍ دينية، أو ادعاء امتلاك الحق الحصريّ في تفسير النص الديني، فلن يعود إلا بالسالب على ثقة الناس و يقينهم في الدين، وخصوصاً أولئك الذين لا يملكون القدرة على التفريق بين ما يقوله الله، وما يقوله البشر، متوهمين أن الآراء الشخصية لبعض رجال الدين هي حقيقة كلام رب العالمين.

التشابه بين الإنسان والقرد يعود بالأساس إلى التشابه في عدة أشياء، من بينها ال (د ن ا) وهو الحمض النووي الخاص بالإنسان، والحمض النووي الخاص بالقروود، وعلى الأخص الشمبازي؛ حيث يصل التشابه إلى 5.98 بالمائة، وقد يتساءل أحدهم، ويقول: إن مسألة تشابه الحمض النووي ليست دليلاً كافياً، وقد نجد حيوانات تتشابه مع الإنسان بنسبة أكبر من ذلك؛ فلماذا القروود بالذات؟

الحمض النووي على أهميته ليس كل شيء؛ فالإنسان يشترك مع الشمبازي في عدوى فيروسية تسمى؛ ERV حيث يوجد ستة عشر فيروساً تصيب الشمبازي، متطابقة تماماً مع أماكنها في الحمض النووي للإنسان. بالإضافة للحمض النووي والتطابق الفيروسي؛ فإنّ السجل الأحفوري يدعم هذا الزعم بقوة؛ حيث يُعتَقَدُ أنّ رتبة الإنسان أو الإنسانيات قد تطورت عن سلف، كان يعيش قبل سبعة ملايين سنة اسمه: (Sahelanthropus Tchadensis)

أثبت العلم من خلال فرضيات مبنية على أدلة، أنه خلال سبعة ملايين سنة مضت قد تطورت فصائل وأنواع مختلفة ل(إنسانيات)، تشبه الإنسان الحالي إلى حد كبير؛ فعلى سبيل المثال "هومو آبيليس" (Homo Habilis) المعروف بالإنسان الماهر، والإنسان المنتصب (Homo Erectus) و"إنسان النياندرتال" (Homo Neanderthalsis)، كل الأنواع السابقة تقول النظريات أنها انقرضت، ولم يبقَ إلا الإنسان العاقل، الذي نراه حالياً، والمعروف علمياً باسم (Homo Sapiens) .

افترضت بعض الأبحاث الحديثة التي اعتمدت تحليل الحمض النووي، لبقايا حجرية لأنثى إنسان النياندرتال، أن الإنسان العاقل قد ارتحل من إفريقيا قبل 100 ألف سنة، في

اتجاه منطقة الشرق الأوسط، وهناك حدث بينه وبين إنسان النياندرتال تزواج. أكد هذا الافتراض عالم الوراثة "مارتن كولفيلم" من جامعة "بومبيو فابرا" الإسبانية في برشلونة؛ حيث يُعتقد أنّ ما يؤكّد الزواج بين الإنسان العاقل، وإنسان النياندرتال هو وجود بقايا من الحمض النووي للإنسان العاقل، في جينات أنثى إنسان النياندرتال، مما يرحّح القول بأنّ أفراداً من الإنسان العاقل ارتحلت من إفريقيا، والتقت إنسان النياندرتال، وحدث الزواج بينهم.

هذه الرحلة برأي الباحث قد تكون فشلت؛ بسبب عدم وجود آثار لهذا النسل في أوروبا أو آسيا، مما يرحح انقراضها، إما بسبب التنافس المباشر مع إنسان النياندرتال النقي، أو بسبب تغيرات البيئة، وعدم قدرة الأفراد الجديدة على التكيف. توضح الحفريات أنّ إنسان النياندرتال ضخّم الجثّة قد استعمر أوروبا وآسيا، منذ ما يقارب 400 ألف سنة، ثمّ انقرض بعد ظهور الإنسان العاقل بقليل.

مما سبق يظهر لنا أنّ اختصار نظرية التطور، وخاصة تطور الإنسان، في العبارة السخيفة التي تقول: "أنّ الإنسان انحدر من القرد" ما هو إلا نوع من السطحية، تسيء لمن يرددها، وتفضح ضخالة معلوماته. التساؤل الأعجب والأغرب عند بعض منتقدي نظرية التطور: لماذا لم يتحول قرد اليوم إلى إنسان؟ أو بعبارة أكثر دقة: لماذا لا نرى التطور يحدث أمامنا اليوم؟

إنّ عملية التطور تحدث خلال بعد زمني طويل جداً؛ فنحن نتحدث عن ملايين السنين، أو على أقلّ التقديرات مئات الآلاف من السنين، ولك أنّ تخيل أنّ الدراسات والحفريات تشير لظهور أول إنسان عاقل منذ 200 ألف سنة في إفريقيا، بينما ثورة العصر الحجري الحديث، أو بمعنى أدق بداية ظهور الحضارة منذ 8000 سنة قبل الميلاد؛ لذلك يصبح انتقاد نظرية التطور على أساس المشاهدات اليومية أو الزمنية القصيرة نوعاً من الكوميديا.

من ناحية أخرى لا بد من فهم كمّ العلاقات والعوامل التي أدت لظهور نسل جديد متطور، وهل انقرض الفرد الأم، أم أنّ التحول طال أفراداً معزولة في منطقة جغرافية؟، لأنّ

كَمَّ العلاقات الذي يحكم أي تغيير يطرأ على الكائن الحي لا يمكن اختصارها في عبارة ساذجة: لماذا لا يحدث الآن.

لجدير بالذكر أنه عندما قننا بتحليل لفظ قرد في القرآن اكتشفنا معلومة غاية في الغرابة سوف نأتي عليها في وقتها عند مناقشة خلق الإنسان من خلال التعبيرات القرآنية.

الانتقاد الثاني

هذا الانتقاد يتناول وجود ثغرات عديدة في سجل الحفريات؛ مما يجعل إثبات نظرية التطور شبه مستحيل. لكن بشئ من التريث وبالنظر للشروط الواجب توافرها لكي يتحول الكائن الحي لحفرية حجرية، ومن ثم يتم استخراجها والتعامل معه، وبالنظر إلى العدد المهول من الحفريات التي تم العثور عليها، والحفريات الوسطية، يصبح مصير هذا الانتقاد كسابقه فيه كثير من التحامل.

لكي يتحول الكائن الحي لحفرية حجرية، لا بد أن يموت بطريقة طبيعية، بعيداً عن حلقة الاقتراس، ثم يُدفن في بيئة مناسبة لا تدعم تحلله، ومن ثم يتحول إلى مادة حجرية، ثم يتم العثور على هذه الحفرية سليمة دون تلف، والتعامل معها واستخراجها بشكل يُمكن من دراستها.

مع كل هذه الشروط والعوائق، فإن عدد الحفريات التي تثبت التطور بحد ذاته يصل إلى مئات الآلاف من الحفريات، وهو أحد الدلائل فقط، وليس كل الدلائل على التطور، أضف إلى ذلك الحفريات الوسطية، المعروفة بشكل كبير في أوساط العلماء. هياكل الطيور التي تمتلك هياكل زواحف، وفي نفس الوقت تمتلك ريشاً؛ أو الديناصورات التي يغطي جسمها الشعر. هناك نوع من السمك كان يمتلك زعانف مزدوجة، ويعتبر حلقة وسطية بين السمك الحالي والبرمائيات، كل ذلك أمثلة على الحلقات الوسطية التي تبرهن وتثبت حدوث التطور. عدد الحفريات والمراحل الوسطية متوفرة بكثرة، بالنسبة للظروف اللازمة لتحول الكائن الحي إلى حفرية صالحة للدراسة، مما شكّل أرضاً قوية وصلبة لفرضيات نظرية التطور. على سبيل المثال، يوجد على الأقل ست حفريات وسطية توضح تطور الحيتان وحدها، فضلاً عن عدد كبير جداً من الحفريات التي تدعم تطور الإنسان من أسلاف بدائية.

الانتقاد الثالث

"نظرية التطور تبقى مجرد فرضيات، وليست حقائق مطلقة". يمكننا الرد على هذا الانتقاد؛ بأنّ كل النظريات العلمية ما كانت إلا افتراضات، وقوة النظرية واقترابها من الحقائق يعتمد بشكل كلي على الأدلة والبراهين التي تدعم هذه الافتراضات، ويظل العلماء في كل الفروع في حالة استنفار مستمر؛ إما إثباتاً لفرضية أو نفيها لها، والعلم وحده هو من يصحح الافتراضات أو ينفها.

نظرية التطور ليست كتاباً أدبياً أو رواية خيالية، ولكنها نظرية علمية مدعومة بقوة من علوم مختلفة، منها على سبيل المثال: علم الحفريات، وعلم الجيولوجيا، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الهندسة الوراثية، وعلم التشريح، وعلم الجينات، وعلم البيولوجيا الجزيئية، وعلم الأجنة، وعلم البيولوجيا التطورية، وعلم الفيزيولوجيا المقارنة. كل يوم يمر تُنشر أبحاث، وتقام مؤتمرات وندوات؛ إما تؤيد النظرية، أو لتكتشف خطأ ما، ويتم تصحيحه، ولكن بالمجمل فإنّ العلم يتجه بقوة لإثبات نظرية التطور، واكتشاف الثغرات وتصويبها، في محاولة للتحقق من آليات التطور.

الانتقاد الرابع

يتمثل هذا الانتقاد في وجود تيار حديث نوعاً ما، يقبل اليوم بتطور النباتات والحيوانات، ولكنه لا يقبل فكرة تطور الجنس البشري؛ بسبب الأدلة الدينية من وجهة نظر علماء الدين. في الرد على هذا الانتقاد نقول: لا يمكن بحال من الأحوال إهمال آلاف الحفريات والدلائل والإشارات، التي تشير إلى تطور الإنسان، وانحداره من سلالات سابقة؛ من أجل فهم رجال الدين، وكأنّ العلم والدين في سباقٍ وتحدٍ.

لا بد أن ينتبه رجال الدين إلى أنهم بحاجة لإعادة الفهم، ومحاولة قراءة النصوص الدينية مرة أخرى، بشكل أرحب من ذي قبل؛ بسبب تضاعف المعرفة وتشابكها، ولعلّ هذا الانتقاد هو ما سوف نقوم بمناقشته بالتفصيل، من خلال قراءة متأنية في كتاب الله تعالى، وبالتحديد في الفصل الثالث المتعلق بخلق الإنسان.

الانتقاد الخامس

احتمال الصدَف هو الانتقاد الأشرس الموجه لنظرية التطور، حيث الاعتقاد بأنَّ الحياة والتطور إنما محض صدَف، ومن العلماء من قال بالصدف والعشوائية. لكن هذا الانتقاد غير موجه إلى صلب النظرية، من حيث هل التطور حقيقة أم زيف وخداع؟ وإنما موجه لآلية التطور، وهناك فرق كبير بين الإقرار بحقيقة التطور، ومناقشة كيف حدث هذا التطور. ما تنفق عليه تماماً أنَّ فرضية الصدف في نظرية التطور تحتاج للمراجعة، رغم أنَّ القائلين بالصدف لديهم أدلة منطقية شجعتهم للقول بالصدف، ولا بد أن نعي تماماً ماذا يعني القول بالصدف ومقابل ماذا؟ هل كان قول مطلق أم أنه قول مقابل تصور الخلق الكامل؟ حتى نفهم هذه الجزئية لا بد لنا من التفريق بين المنهج العلمي القائم على الدليل والبرهان، والمنهج الديني القائم على التصديق والإيمان. عندما يقول العلماء أنَّ عملية التطور تسير بشكل عشوائي، يجب ألا نعتقد أنَّ هذه الفرضية موجهة لإغاية الدينين، أو محاولة خبيثة لإلغاء وجود الإله؛ كل ما هنالك أنَّ الباحث يمتلك مجموعة من الأدلة والبراهين، جعلته يعتقد أنَّ التطور سار بشكل عشوائي بخلاف ما يظن رجال الدين، ومن هذه الأمثلة ما يلي:

المثال الأول

تركيب عين الإنسان وفقاً لعلم التشريح، ومن وجهة نظر علماء التطور؛ مصممة بشكل غير ذكي، فهي مركبة بشكل معكوس، وفي وضع مقلوب. لكي تصل فوتونات الضوء إلى المخاريط التي تحول الضوء إلى نبضات عصبية، فإنَّ هذه الفوتونات يلزمها المرور من خلال القرنية والعدسة والسائل المائي وشرابين الدم والخلايا المعقودة وخلايا الأماكرين.

يشك الباحثون أنَّ تصميم العين بهذه الطريقة هو تصميم ذكي (خلقت خلق منفصل منذ البداية)، وإنما تمَّ تصميم العين عن طريق الانتخاب الطبيعي، وتمَّ بناؤها حسب ما هو متوافر من خلايا موروثية من كائنات سابقة، وهذه الفرضية تدعم مسألة التطور، وتنفي أنَّ العين تمَّ تصميمها من الصفر.

المثال الثاني

العصب الحنجري الراجع؛ هذا العصب يخرج من المخ، ومن المفترض أن يذهب إلى الحنجرة مباشرة، ولكن برأي الباحثين إنَّ العصب الحنجري ينزل إلى القلب، ويلتفّ جزء منه خلف الرباط الشرياني، ثم يصعد بعد ذلك إلى الحنجرة. كذلك يرى الباحثون أن هذه الطريقة التي وصل بها العصب الحنجري إلى الحنجرة ليست الطريقة الذكية؛ إذ التصميم الذكي يستدعي - كما يقول الباحثون- أن ينزل العصب الحنجري من المخ مباشرة إلى الحنجرة، دون المرور بالقلب والالتفاف خلف الرباط الشرياني.

المثال الثالث

قناة الأسهر (القناة الناقلة للحيوانات المنوية)؛ هذه القناة هي جزء من الجهاز التناسلي للذكر، ويقول الباحثون: إنها أطول من اللازم، ولا بد أن تكون أقصر من ذلك، ولا يمكن أن تكون بهذا الطول إلا في حالة تطور الإنسان من حيوانات أقل رتبة تمشى على أربع؛ مما ينفي تصميمها بشكل سليم وذكي.

هذه المشاهدات والأدلة العلمية التي قدمها الباحثون دعوتهم للقول بعشوائية التطور، وعلى من يقول بالتصميم الذكي أن يدحض هذه النتائج بأدلة وقرائن قوية؛ إذن فالأمر هو بحث علمي بحت، وليس له علاقة بالإيمان بالخالق.

القول بالصدف هو في الحقيقة قول مقابل الخلق المنفصل، وليس له علاقة من وجهة نظري بوجود خالق أو عدم وجود خالق. الإصرار على القول بالخلق المنفصل ونسبة هذا القول للإله، جعل الجانب الآخر بما يملك من أدلة علمية، يقول بالتطور وبالتالي نفي وجود الله الذي خلق بشكل منفصل.

إثبات أن الخلق يخضع للتطور، وكذلك فهم التقديرات التي ذكرها الخالق في كتابه سوف تدحض تماماً القول بالصدف، ويحل محله القول بالتقديرات والقوانين التي تُسير هذا

الكون، وعلى ذلك يكون كل ما في الكون خاضعاً لها، والتطور ذاته هو من حتميات الوجود، وحتميات هذه التقديرات.

يبدو بشكل واضح أنّ علماء التطور لديهم مشكلة مع القول بالخلق المنفصل لكل مخلوق؛ إذ لو كان الخلق منفصلاً لتطلب ذلك تصميماً كاملاً (ذكياً) لكل مخلوق على حدة، ولا داعي لوجود بعض التفصيلات غير المبررة، أو الزوائد غير المستخدمة. وجود هذه الزوائد يدعم بشدة أن تكون الأنواع الحالية تطورت عن أفراد سابقة.

إذا كان النص الديني يقول بالخلق المنفصل، وكان رجال الدين متحمسون لذلك، ونسبوه لله، بل وصادروا أيّ قول مخالف؛ بحجة أنّ هذا القول هو القول الفصل الذي يقول به الإله؛ ففي نظر العلماء وجود خالق خلق المخلوقات بشكل منفصل، بعيداً عن التطور، يتنافى تماماً مع البراهين والأدلة الكثيفة التي بين أيديهم.

إنطلاقاً من الأدلة التي تثبت التطور، وتدحض الخلق المنفصل، وجد بعض الباحثين أنفسهم مضطرين لنفي وجود إله، وأنّ الخلق تمّ بطريقة أقرب للعشوائية. نفي وجود إله من خلال نظرية التطور، هو نفي للصورة الذهنية عن الإله لدى رجال الدين، وليست نفي للإله على أساس من الاستكبار والمغالطة، إذ لو لو اتيح لهؤلاء العلماء فهم المنهج الرباني بصورته الحقيقية لما كان هناك مكان لإنكار وجود الله إلا في العقول المستكبرة.

من وجهة نظري أنّ البحث بتحليل اللفظ القرآني؛ والذي يشير إلى عملية التطور بشكل سليم ومنهجي، وفهم عملية التقديرات التي يشير إليها الخالق من خلال كتابه، لا بد أن يدفع المنصف إلى القول بوجود الإله العليم والقدير، وخصوصاً عندما نستطيع استخلاص معلومات لم يتحصل عليها العلم حتى الآن.

إنّ العلم لا يقبل القول بأشياء غير مقاسة، فليس هناك معنى لقول باحث: "أنا أشعر، أو قلبي يحدثني" بدون دليل ملموس. يشنّ كثير من المنتقدين هجوماً حاداً من خلال هذه الجزئية،

محاولين تصوير هؤلاء الباحثين كأنهم ثلثة من الأفاقين والمتأمرين ومحاربي الدين، والموضوع لا يتعدى كونه دلائل وقرائن علمية بقدر المتاح.

لا يمكن بحال من الأحوال أن يبدو لي أنّ تركيب العين ليس مثاليًا، أو أن أقول: هو مثالي لأنّي أوّمن أنّ من خلقها قد خلقها في أحسن صورة. فالوضع الطبيعي للمؤمن هو الإقرار بالدليل والبرهان، وفي الوقت نفسه إيمانه بأنّ هذا الوضع له حكمة يمكن أن نكتشفها باستمرار البحث والتنقيب. لا نبالغ إذا قلنا: إنّ العلم اليوم يتجه وبخطوات ثابتة نحو الاعتراف بالوحدانية، والاعتراف بالتصميم البديع الذي لا يمكن أن يكون عشوائيًا، أو محض صدّف، لكن من خلال التقديرات التي تحكم وتسير كل شيء.

العلماء أشد انصار المادية لم يعد بإمكانهم إنكار هذه القوة الخفية. قد يحتاج الأمر لبعض الوقت، ولكن في النهاية سوف ينطق كل شيء بالحق، طالما هناك بحث عن الحقيقة، ويمكن حل هذه المسألة فقط من خلال فهم التقديرات، وما تعنيه من حسابات وقوانين وأنّ كل ما في هذا الوجود يخضع لحتمية هذه التقديرات.

إنّ مصطلح (الانتقاء الطبيعي) في حد ذاته لا يمكن أن يكون معبراً عن الصدّف أو العشوائية؛ فهو نظام معين، يسمح للصفات القوية بأن تسود، وتتوارثها الأفراد الجديدة، بينما تضمحل الصفات الضعيفة وتتلاشى، فكيف للصدّف أن تقوم بهذا الاختيار الذكي؟ نحتاج بشدة لفهم مسألة التقديرات والغوص في تفاصيلها حتى نكتشف تلك الشفرات ونجيب على مثل هذه الأسئلة.

نعم، لقد قال داروين بالصدّف، وهذا أمر ليس له وزن؛ ولكن للمعلومية فإن داروين قد غلبت عليه صفة اللاأدرية، وهو أنه لا يدري؛ وهي مرحلة بينية بين الإنكار التام والإيمان التام. هذا الأمر لا يعنينا وليس له قيمة، فنحن لا نبحث إيمان شخص معين، ولا شكل هذا الإيمان، وإنما نبحث الفكرة ومدى منطقيتها.

أعتقد أنّ نظرية التطور قد دعمت فكرة الإلحاد بشكل كبير، ومن وجهة نظري أنّ هذا الدعم إنما وجد أرضاً خصبة بسبب رجال الدين أنفسهم، وتفسيراتهم اللامعقولة، التي تشبه في كثير من الأحيان الأساطير، وتعتمد على تصورات ومعارف قديمة، أغلبها آراء شخصية، وليست أدلة قائمة على حجج صلبة.

هل كتاب الله يدعم فكر رجال الدين، أم يدعم العلم؟ إنّ كل ما نحتاجه هو تحليل ومقارنة الألفاظ القرآنية، وتقريبها للحقائق العلمية؛ وسوف نكتشف روعة وإبداع الخالق، الذي ينطق كل حرف في كتابه بوجوده، وكل قانون كوني بقدرته.

الفصل الثاني الطور

بالرغم من إقرار العهد القديم بخلق الإنسان، على صورة الرب خلقاً كاملاً ليس فيه تطور؛ إلا أنّ بابا الفاتيكان "بوس بايوس الثاني عشر" اعترف بنظرية التطور عام 1950م، وأكّد هذا الاعتراف عام 1996م البابا "جوهانس بولوس الثاني".

الكنيسة التي طالما اتخذت موقفاً عدائياً من العلم والعلماء؛ بسبب ما لديها من نصوص في العهد القديم والعهد الجديد، ها هي تتخلى عن نصوصها مقابل العلم، ولو لم تفعل لما بقي شخص يثق بما تقوله. المطلوب من أمة القرآن ليس التخلي عن نص قرآني صريح، ولكن التخلي عن تفسيرات واجتهادات بشرية تاريخية هو ما أصبح ضرورة لا يمكن تجاهلها.

هل إذا استطعنا أن نفهم كلام الله، ونقيم الدليل من كتاب الله نفسه، ومن اللغة، على التطور والتحوّل الجيني سيصبح قولنا مقبولاً؟ أم أنّ الأمر سوف يظلّ صراعاً بين الماضي والحاضر؟

الطُّور

ما هو الطُّور الذي ورد ذكره في القرآن الكريم؟ هل هو الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى عليه السلام؟ وهل هذا الجبل بكلّ هذه الأهمية؛ حتى تسمى سورة كاملة باسمه في كتاب الله؟ وما علاقة الطُّور بالكتاب المسطور والرّق المنشور؟

أولاً: من حيث اللغة

لفظ الطور من الجذر اللغوي (الطاء والواو والراء)، وبحسب قاموس اللغة لابن فارس له أصل واحد؛ وهو الامتداد في الشيء. ثمّ إنّ قاموس اللغة أضاف معنى الطُّور؛ بكونه اسم جبل، ومن الواضح أنّ هذه التسمية قد استقاها ابن فارس من التفسير، ولكن دعونا نقف على جذر الكلمة وأصلها؛ وهو الامتداد في الشيء.

ثانياً: من خلال كتاب الله

ذُكرت كلمة الطُّور في كتاب الله في أحد عشر موضعاً، منها ثمانية مواضع خاصة ببني إسرائيل، وثلاثة مواضع متفرقة. الآيات الكريمة التي من الممكن أن نستوضح منها معنى كلمة الطور هي الآيات المذكورة في سورة نوح.

قال تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)) (سورة نوح: الآيات 13 - 17).

بدايةً دعونا نستعرض التفسير في قول الله تعالى: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا).

في تفسير الطبري، لم يزد في تفسير الأطوار على أنها أطوار الجنين في بطن الأم؛ وقد جاء كالتالي: (وقوله: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا))، يقول: وقد خلقكم حالاً بعد حال، طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وبخو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل؛ فعن ابن عباس، قوله: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) يقول: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة. وعن مجاهد (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه. وعن قتادة: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً عظماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأ خلقاً آخر، أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين)

من التفسيرات المعتمدة في هذا الأمر تفسير ابن عاشور؛ حيث يقول: «وأما كون خلقهم أطواراً؛ فلأن الأطوار التي يعلمونها دالة على رفقه بهم في ذلك التطور، فهذا تعريض بكفرهم النعمة، ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته؛ فإن تطور الخلق من طور النطفة، إلى طور الجنين، إلى طور خروجه طفلاً، إلى طور الصبا، إلى طور بلوغ الأشد، إلى طور الشيخوخة، وطُور الموت على الحياة، وطُور البلى على الأجساد بعد الموت. كل ذلك

والذاتُ واحدة، فهو دليل على تمكّن الخالق من كيفيات الخلق، والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات للذهن، فكانوا محقّقين بأن يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله، وتوقع عقابه؛ لأن الدلالة على ذلك قائمة بأنفسهم، وهل التصرف فيهم بالعقاب والإثابة إلاّ دون التصرف فيهم بالكون والفساد». انتهى الاقتباس من التفسيرات.

اللافت للنظر أنّ ابن عاشور ذكر معنى الطور هنا قريباً من مفهوم التطور المعاصر وربطه بالتطور كالاتي: «والأطوار: جمع طور بفتح فسكون، والطور: التارة، وهي المرة من الأفعال أو من الزمان، فأريد من الأطوار هنا ما يحصل في المرات والأزمان من أحوال مختلفة؛ لأنه لا يقصد من تعدد المرات والأزمان إلاّ تعدد ما يحصل فيها، فهو تعدد بالنوع لا بالتكرار»

إذا حاولنا مقارنة جذر الكلمة وأقوال المفسرين فقط دون تدخل؛ سنجد المقصود بكلمة أطوار؛ وهي جمع طور، مراحل معينة يحدث فيها تغيير معين؛ بمعنى تطور وزيادة أو امتداد في اتجاه معين. ذهب بعض المفسرين إلى تفسير الأطوار بأنها مراحل تكون الجنين، ومنهم من ذهب إلى كونها مراحل العمر من الطفولة والشباب والشيخوخة، ومنهم من جمع بين الاثنين، أفلا يحق لنا أن نفترض أنّ المقصود بالأطوار هنا هو التدرج في الخلق؟ بحيث تعني كلمة الأطوار مراحل تطور الخلق المختلفة، من أول خلية وحتى نهاية هرم المخلوقات؛ وهو الإنسان. إنّ تفسير كلمة الأطوار بأنها تعني التدرج في الخلق، بل تعني التطور بمعناه المعاصر؛ يدعمها بشدة سياق باقي الآيات في سورة نوح، التي تتحدث عن الخلق بصفة عامة. سنجد بعد ذكر لفظ الأطوار في السورة الكريمة، وردت الآيات التي تتحدث عن خلق السموات والأرض بشكل مجمل.

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ

نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16)) (سورة نوح : الآيات 15-16).

من الواضح أنّ الحديث في الآيتين عن بدايات الخلق؛ مما يدفعنا للقول إنّ الأطوار التي

ذكرها ربنا هي أطوار الخلق بصفة عامة أو النظرة الشاملة للخلق. بالعودة إلى جذر الكلمة، و

مدلول الكلمة في كتاب الله الواردة في سورة نوح؛ نستطيع القول بأنَّ الطور هو مرحلة يحدث فيها زيادة أو امتداد معين عن المرحلة التي تسبقها.

فكلُّ تغيير يصيب الكائن هو في حد ذاته طور، ومعنى أطوار هو تغيُّر مستمر، يطرأ على الخلق، وقد يكون التبدُّل بشكل إيجابي؛ بحيث تتحسن صفات هذا الكائن، وقد يكون التغيُّر بشكل سلبي؛ بحيث يحدث ما يسمى الارتداد، كما سوف نرى. ما يعيننا هو أنَّ كلمة الطور تصف تغيُّراً في حالة الكائن أو المخلوقات، وهو عين عملية التطور بمفهومنا المعاصر.

سنأتي على جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الطور، وسوف نجد أنَّ كل آيةٍ تضيف دليلاً جديداً؛ على أنَّ الطور هو عملية التطور المقصودة. من خلال تحليل بعض الكلمات في الآيات التي ورد فيها ذكر الطور أو الأطوار، سوف نحصل على معلومات معرفية غاية في الأهمية، تفتح أمامنا الأبواب الموصدة، لنطلَّ منها على عظمة وإعجاز اللفظ القرآني، وقدرته الفريدة على وصف حالة، لا يقوى على وصفها إلا خالقها.

ما زلنا حتى الآن نتأمل في رحاب الآيات الكريمة في سورة نوح، والتي سوف تمنحنا دليلاً إضافياً؛ على أن المقصود بالأطوار هو بداية الخلق.

قال تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) (سورة نوح : الآية 17).

عندما فسر العلماء هذه الآية الكريمة جاء تفسيراتهم متباينة ولكن دعونا نلقي نظرة

على تفسير ابن عاشور الذي اقترب كثيراً من فهم ماهية الإنبات:

تفسير ابن عاشور: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) أنشأ الاستدلال بخلق السماوات

حضور الأرض في الخيال؛ فأعقب نوح به دليلاً السابق؛ استدلالاً بأعجب ما يروونه من أحوال

الذي على الأرض، وهو حال الموت والإقبار، ومهد لذلك بما يتقدمه من إنشاء الناس، وأدمج

في ذلك تعليمهم أنَّ الإنسان مخلوق من عناصر الأرض، مثل النبات، وإعلامهم أنَّ بعد الموت

حياةً أخرى، وأطلق على معنى: أنشأكم، فعل (أنبتكم)؛ للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات

النبات، من حيث إنّ كليهما تكوين، كما قال تعالى: (وأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) (سورة آل عمران: الآية 37)، أي أنشأها، وكما يقولون: زرعك الله للخير، ويزيد وجه الشبه هنا قرباً، من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض، وقيل التقدير: أنبت أصلكم، أي آدم عليه السلام، قال تعالى: (كمثل آدم خلقه من تراب) «». انتهى الاستشهاد بالتفسير.

مرة أخرى يقترب ابن عاشور كثيراً، ويُلحح إلى الحالة العامة التي تتحدث عنها الآيات؛ وهي بدايات الخلق بصفة عامة، ولكن يبدو أنّ ذلك دون قصد منه. لقد ذكر الرجل أنّ كلمة (أنبت) توحى أنّ الإنسان مخلوق من عناصر الأرض، مثل النباتات (وهو تشبيه حالة بحالة، وليس على وجه الحقيقة بالطبع)، ولو كان لدى ابن عاشور معرفة بالتطور، وضم الكلمات بعضها إلى بعض؛ قال: إنّ احتمالية بداية خلق الإنسان من شيء نبت من الأرض، هي احتمالية قائمة وبشدة. لنحاول الآن فهم لفظ نبت لعله يضيف لنا بعداً معرفياً جديداً.

دلالة لفظ نبت

جاء لفظ نبت في كتاب الله في جميع مواضعه مرتبطاً بالأرض والزرع، إلا موضعاً واحداً في سورة آل عمران، وكان المقصود به مريم عليها السلام (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ط قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ط قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ط إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة آل عمران: الآية 37).

في قاموس اللغة: نبت لها أصل واحد، وهو نماء مزروع. كلمة أنبت لا تعني أبداً أنشأ أو خلق، وسوف يأتي الحديث عن الفرق بين فعل أنشأ، وفعل خلق وجعل، في الفصل القادم عند الحديث عن خلق الإنسان. سوف نكتفي هنا ملخص بسيط عن الفرق بين خلق وأنشأ، حتى نستطيع إدراك مدلول فعل أنبت.

[أنشأ]: فعل خاص بالإله؛ لأنه جاء دائماً في كتاب الله منسوباً للخالق، ويقتضي التكوين على جميع المستويات، سواء المادية وغير المادية.

فعل [خلق]: هو فعل أقل شمولية من فعل أنشأ إذ يقتضي التكوين على المستوى المادي، من حيث تقدير النسب، وتهيئة المخلوق لوظيفته. فعل [خلق] ليس مقصوداً على الإله من واقع كتاب الله؛ فيمكن للبشر أن يخلقوا؛ كما فعل نبي الله عيسى، ولكن الله هو أحسن الخالقين بلا منازع.

فعل [نبت] هو الفعل الذي يأتي بعد الإنشاء، وبعد الخلق؛ حيث تتم عملية الإنماء. ومن أجل بيان الفرق بين الأفعال الثلاثة (أنشأ، خلق، أنبت) نضرب هذا المثال:

نفترض أن بذرة نبات معين وضعت في الأرض لتعطي شجرة؛ فإن مجموعة التعليمات والقوانين غير المرئية، والمسجلة على الشريط الوراثي الـ DNA، والتي بموجبها تتمكن هذه البذرة من النمو لتصير شجرة، وكذلك التكوينات المادية لجسم البذرة التي تجعلها ملائمة لوظيفتها؛ هي ما تسمى [عملية الإنشاء]. التكوين المادي للبذرة أي شكل البذرة، ونسب المواد المكونة لها، وتركيبها، وترتيب خلاياها؛ هو [عملية الخلق].

فعل [أنبت] هو مجموعة التفاعلات التي تؤدي إلى نماء وتحول البذرة إلى شجرة كاملة. إذن [عملية الإنبات] هي أول مراحل التحول من الطور الجامد إلى الطور الحي، لو جاز لنا هذا التعبير.

جاءت الآية الكريمة (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) بعدما ذكر ربنا مرحلة الخلق، وكأنّ الوضع أصبح الآن مهيناً لكي تتفاعل مكونات الحياة، وتعطي أول بذرة للحياة. التحول من مرحلة الخلق إلى مرحلة الإنبات يعدُّ تطوراً؛ حيث الانتقال من طور جامد إلى طور نماء وحركة.

حول الآية الخاصة بالسيدة مريم

تحدثت الآية الكريمة عن السيدة مريم في قوله تعالى:

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ^ط كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ^ط قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ^ط قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة آل عمران: الآية 37).

جاء فعل [نبت] هنا بعد مرحلة خلق مريم بالفعل، والإنبات الحسن هو مجموعة التفاعلات التي تُشكل الإنسان، سواء كانت تفاعلات بيولوجية أو معرفية أو نفسية أو فسيولوجية، وهذه التفاعلات هي ما تعطي الإنسان شخصية مستقلة في شكله النهائي.

في حالة السيدة مريم نجد أنّ الله أنبتنا نباتاً حسناً؛ بحيث تعطي هذه التفاعلات بالنهاية أفضل صورة للإنسان، سواء كانت صورة حسية أو صورة نفسية، والتي كانت عليها السيدة مريم. إذن هنا فعل انبت لا يصف حالة مجازية وإنما يصف حالة حقيقية ولكن غير مرئية لنا. إنبات مريم هو تفاعلات مختلفة تؤدي بالنهاية إلى الحسن الذي وصفه الله في القرآن والحسن هنا في كل شيء ولا يقصد به حسن الشكل الظاهري فقط، بل حسن في كل شيء و لا استبعد أن يكون الشكل الظاهري مشمولاً في الآية الكريمة.

طور بني إسرائيل

الركن الأساسي في عدم فهم الطور وعدم ربطه بالتطور، هو تفسير الآيات الكريمة التي تحدثت عن بني إسرائيل، وعن الطور الذي رفعه الله عليهم.

تصورات المفسرين القدامى و غرابة الكلمة؛ جعلهم يصيغون تفسيرات بسيطة تناسب العصر الذي يعيشون فيه، واستمرت هذه التفسيرات تُملاً، وكأنّها حقيقة كلمات الله. المؤسف إنّ أي محاولة لفهم الطور بعيداً عن تأويلات السابقين تقابل بالنفور والشك والارتياب.

في السطور التالية سوف نقدم الدليل على أن الطور هو عملية التطور، من خلال الآيات التي ذُكرت الطور المرتبط ببني إسرائيل. قبل أن نبدأ يجدر بي أن أعيد أحد أهم بنود المنهج المستخدم وهي أن اللفظ القرآني يصف حالة عامة لها صفات وخصائص. إذا انطبقت هذه

الصفات والخصائص على مسمى ما فقد حاز الاسم. كذلك بشكل عكسي أي مسمى اتخذ له اسماً في كتاب الله لا بد لخصائص الاسم وصفاته أن تنطبق عليه بشكل كامل.

مثال ذلك لفظ القلم الذي قمنا بتحليله في الجزء الثاني من الكتاب ووجدنا أن لفظ القلم يصف آلية ترتيب مكونات عشوائية بغرض استخراج فائدة معينة، ولذلك سمي القلم الذي نعرفه قلم لأنه يصنع من الحبر وهو مادة عشوائية أو أولية جمل وعبارات مفهومة وذات معنى. كذلك علم بالقلم هي طريقة ترتيب المعطيات وتنفيذها لاستخراج فائدة معينة. إذن هنا وجدنا أن اللفظ مثل حالة انطبقت على أكثر من مسمى ولكن جميعهم مشتركون في الصفات و الخصائص التي يحملونها وهي ترتيب مكونات عشوائية أو أولية بغرض استخراج شيء له معنى. سوف نرى هذه الحالة ماثلة أمامنا عندما نأتي على تفسير كلمة الطور.

الآية الأولى

ورد لفظ الطور في سورة البقرة، حيث قول الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة البقرة: الآية 63). فالطور من الآيات الخارقة التي عايشها بنو إسرائيل، كما يبدو من استقراء الآية الكريمة، والتي كانت من ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، فكيف تعامل المفسرون مع هذه الآية الكريمة؟

تفسير البغوي: قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (عهدكم يا معشر اليهود) ورفعنا فوقكم الطور) وهو الجبل بالسريانية في قول بعضهم، وهو قول مجاهد، وقيل: ما من لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن، وقال الأكثرون: ليس في القرآن لغة غير لغة العرب؛ لقوله تعالى: (قرآناً عربياً) وإنما هذا وأشباهه وقع وفاقاً بين اللغتين. وقال ابن عباس: «أمر الله تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم؛ وذلك لأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام؛ فأمر موسى قومه أن يقبلوها، ويعملوا بأحكامها؛ فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التي هي فيها، وكانت شريعة ثقيلة؛ فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام، فقلع جبلاً

على قدر عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ، فرفعه فوق رؤوسهم مقدار قامة الرجل كظلة، وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم». قال عطاء عن ابن عباس: «رفع الله فوق رؤوسهم الطور، وبعث ناراً من قبل وجوههم، وأتاهم البحر المالح من خلفهم». انتهى الاقتباس من التفسيرات.

الغريب أن هذا القول وهذا التفسير الذي أدعي أن لفظ الطور لفظ سرياني لم يثير حفيظة الباحثين. كيف يقول الله أن كتابه بلسان عربي مبين ويأتي مفسر يقول ها قد وجدت كلمة سريانية في كتاب الله. هل يدرك الباحثون فداحة هذا الأمر؟

لماذا قال المفسر أن لفظ الطور لفظ سرياني؟ لأنه ببساطة لم يجده في لسان العرب ولم يفتن إلى أن لسان القرآن لسان عربي وليس لسان العرب (راجع الفرق بينهما في الجزء الثاني للكتاب).

كلمة الطور ذاتها دليل على أن اللغة التي يعتبرها المفسر مقياس لفهم القرآن تختلف عن لفظ القرآن ذاته وإلا ما اضطر للقول بأن في القرآن ألفاظ غير عربية. حقيقة لا يمكن إنكارها أن هناك ألفاظ لو تم قياسها على لسان العرب (نظرية الاصطلاح التي تم شرحها في الجزء الثاني من السلسلة) فهي لا شك غير عربية. لكن إن عدنا وانتهجنا النظرية التوقيفية التي أدعو إليها وأدعو إلى تطبيقها فلا مكان لهذا الادعاء مطلقاً.

القول بأن الطور هو جبل بالسريانية قول لا يصح إطلاقاً، ومحاولة بعض المفسرين التوفيق، بالقول إن الكلمة وقعت وفاقاً بين اللغتين؛ يقصدون اللغة العربية واللغة السريانية، إنما هي محاولات ليس عليها دليل أو شاهد من كتاب الله.

لا يمكن أن يكون معنى الطور بعيداً عن كلمة الأطوار التي ذكرت في سورة نوح، ولكن بسبب غرابة الكلمة عند العرب؛ حاولوا تفسيرها عن طريق تصورات شخصية، لا تقوم على دليل. الاعتقاد الراسخ في أذهان الأمة أن المقصود بالطور في هذه الآية الكريمة؛ هو الجبل

الذي كلم الله عليه موسى، وهذا الاعتقاد الراسخ - من وجهة نظري - وجد طريقه للأفهام، وحصد ثقةً لا بأس بها، وحصل على معقوليته؛ بسبب قوله تعالى:

(وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة الأعراف: الآية 171).

اعتقد المفسر أن هذه الآية تتكامل مع آية الطور، أو أن كلا الآيتين تعبران عن نفس الحادثة، وخصوصاً مع تقارب لفظي [نتق الجبل] و[رفع الطور]؛ لذلك كان من الطبيعي وصف الطور بالجبل، وأن يصبح هذا المفهوم هو المفهوم المسيطر، والمهيمن على مفهوم الطور في كتاب الله.

عند تحليل الآيات الكريمة، وتحليل لفظ [نتق]؛ تبين لنا أن النتق والرفع شيئان مختلفان، والمفاجأة أن زمن آية رفع الطور يختلف عن الزمن الذي نتق الله الجبل فيه. فما هو النتق؟ النتق: هو الجذب مع التحريك؛ كما جاء في قاموس اللغة، ويختلف تماماً عن كلمة الرفع، والتي تعني: انتقال من أسفل إلى أعلى.

على ذلك نستطيع القول إن المقصود بنتق الجبل؛ هو تحريك وجذب الجبل ناحية بني إسرائيل، حيث مال عليهم وأصبح كالظلة؛ وكأنه على وشك السقوط عليهم، أو ما يسمى بلحظات ما قبل الانهيار الجبلي، إذ حدث تحريك في الكتل الصخرية للجبل، ولكنها لم تسقط عليهم، وهذا التحريك لا شك كان آية لهم، وتحذيراً لما ارتكبوه.

بالإضافة إلى جذر كلمة نتق ومدلولها، نجد أن الفترة التاريخية التي حدث فيها النتق كانت غير تلك التي حدث فيها رفع الطور، وذلك من خلال سياق الآيات في كتاب الله.

دعونا الآن نستعرض الآيات الكريمة في سورة الأعراف، والتي لو وقفنا عليها وتدبرنا معانيها لتوصلنا إلى معلومات قيمة عن ماهية الطور، ثم بعد ذلك نستكمل سرد الآيات التي تقص علينا نتق الجبل.

قال تعالى: (وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) وَأَسَاءَ لَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتُقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)) (سورة الأعراف: الآيات 160-166).

تحدث الآيات عن مجموعة من الأحداث، جميعها حدثت في وقت رفع الطور، رغم عدم ذكر لفظ الطور في سورة الأعراف. الدليل على أن هذه الأحداث المذكورة في سورة الأعراف أنها كانت وقت رفع الطور هو ارتباطها بواقعة يوم السبت والذي جاء ذكرها في سورة النساء مرتبطة بالطور بل كان السبت أحد أهم بنود الميثاق الذي تم رفع الطور بموجبه.

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِيثَاقَهُمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) (سورة النساء : آية 154) .

من الملاحظ أنّ زمن رفع الطور وما حدث في هذا الزمن من واقعة السبت قد عبرت عنه تلك الآيات الواردة في سورة الأعراف، من الآية (160) وحتى الآية (166)، بينما الآيات اللاحقة في سورة الأعراف، وبالتحديد الآية رقم (169) تتحدث عن زمن مختلف تمامًا، وبنص صريح لا يحتمل التأويل.

قال تعالى: (نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)) (سورة الأعراف: الآيات 169-171).

خلف من بعدهم خلف: أي جاء بعدهم جيل آخر؛ وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون آية رفع الطور موافقة لآية نتق الجبل زمنياً، ولا يمكن بحال من الأحوال الاعتقاد بأن رفع الطور ونتق الجبل شيء واحد.

بشيء من التفصيل سنجد أنّ الآيات من 160 وحتى 166 في سورة الأعراف - والتي واكبت رفع الطور- احتوت على مكافأة في صورة بركات لمن آمنوا، وقد تمثلت هذه البركات من خلال تظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى. خُتِمَتِ الآيات بالعقاب للمكذابين؛ وهو تحوّل أصاب القوم فصاروا قردة، فما علاقة الجبل بذلك إذا صح تفسير المفسرين بأن الطور هو الجبل؟ إذا كان الطور هو جبل تم رفعه فوق بني إسرائيل كما يقول المفسرون؛ فالنتيجة الطبيعية أن يقع عليهم الجبل أو يسحقهم، وهذا لم يحدث ولم يذكره القرآن.

الآيات الكريمة تخبرنا أنّ نتيجة المعصية هي تحوّل القوم إلى قردة، وهذا التحول لا يمكن تفسيره إلا من خلال ما يعرف اصطلاحاً بـ (التحول الجيني)، أو تطور جيني ولكن في

اتجاه عكسي. لو أردنا توصيف حالة تحول كائن من مرتبة أعلى إلى مرتبة أقل توصيفاً دقيقاً ، يمكننا أن نطلق على هذه الحالة ارتداد جيني بشكل عام.

من ناحية أخرى نجد أنّ القوم عندما أطاعوا الله، أنزل عليهم المنّ والسلوى؛ والمقصود بالمن والسلوى هو زيادة البركة ورغد العيش وليس طائر يسمى طائر السلوى أو طائر المن،. هذا الرغد والزيادة والبركات على علاقة وثيقة بالطور، وهو ما يعرف أيضاً بـ التطور الايجابي، بحيث تؤتي الزروع والثمار أضعاف المتوقع منها، وهو ما يقوم به الإنسان حالياً من خلال التعديل الجيني للمزروعات؛ فيما يعرف بالهندسة الوراثية.

قد يستشكل على الناس فهم كلمة [رفعنا]، التي جاءت مقترنة بالطور في المشاهد القرآنية الخاصة بقصص بني إسرائيل؛ مما يعزز الصورة التجسيدية لرفع الجبل، ويجعلها هي الأقرب للذهن. لكنّ كلمة رفعنا في كتاب الله لا تعني بالضرورة رفعاً مادياً؛ بل هي أقرب للمعنى غير الحسي، أو الرفع اللامادي منها للمعنى المادي كما في الآيات التالية:

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) (سورة مريم: الآية 57).

الرفع هنا في المكانة، والقيمة الإنسانية، والمنزلة، والذكر، وليس رفعاً مادياً.

وكذلك قول الله تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (سورة الزخرف: الآية 32).

الرفع هنا أيضاً خاصٌّ بمكانة هؤلاء القوم ودرجاتهم الاجتماعية، وليس المقصود رفعاً مادياً أبداً. الرفع كما هو واضح؛ هو وضع المرفوع في منزلة أعلى من المعتاد له، أو في وضع أعلى من وضعه الطبيعي، ومدلول التعبير القرآني (رفع الطور) لا يخرج عن هذا المعنى؛ وهو جعل تأثير الطور أعلى وأسرع من المعتاد، أو أعلى من الوضع الطبيعي الذي من المفترض أن يكون عليه.

من خلال الآيات الكريمة السابقة، وتحليل التعبير القرآني (رفع الطور)؛ نستطيع أن نستنتج أن [الطور] أو عملية التطور هي عملية مستمرة بمعدل طبيعي، وهذه العملية كما بينت الدراسات تحتاج لمدى زمني طويل جداً قد يصل لملايين السنين، وعلى ذلك يمكننا القول أن المقصود من رفع الطور هو تسريع عملية التطور عما هو معتاد، بحيث تحدث التحولات في زمن قصير نسبياً.

عملية تسريع معدل التطور عملية معروفة علمياً، حيث يتم بشكل مستمر إنتاج وتطوير سلالات محسنة من النبات والحيوان؛ لرفع الكفاءة وزيادة الإنتاج ومقاومة الأمراض عن طريق الهندسة الوراثية. لا شك أن مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل هو أحد الآيات الإلهية، التي أرسلها الله سبحانه وتعالى تأييداً لنبيه ودعماً لموقفه، ولكن سنرى أن الطور ذُكر في مواضع أخرى غير مقترن بكلمة [رفعناه]، وغير مرتبط ببني إسرائيل، وسوف نأتي عليه عندما يرد ذكر الآيات التي ورد فيها الطور بدون كلمة رفعناه.

الآية الثانية

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (سورة البقرة: الآية 93).

هذه الآية الكريمة تذكر الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل؛ وكان رفع الطور هو أحد ركائزه. من الأمور التي يجب أن نتوقف عندها، قول بعض المفسرين: (إنَّ الطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى)؛ لكن المتأمل لكتاب الله يجد أن كلام ربنا إلى نبيه موسى لم يكن على جبل قط، وهذا دليل يضاف إلى دليل نتق الجبل.

عندما كلم الله موسى كان في وادٍ، هذا الوادي هو الذي أمره ربه أن يخلع نعليه عنده، ولم يكن على جبل. قال تعالى:

(إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ

هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُورِ) (سورة طه: الآيات 10-12).

كذلك عندما طلب موسى عليه السلام رؤية ربه صراحة، وأخبره ربه أنه لن يراه؛ لم يكن على الجبل، ولكن كان في موضع يستطيع من خلاله رؤية الجبل، ولا بد أن يكون هذا الموضع بعيداً عن الجبل بمسافة كافية؛ فلو كان موسى على الجبل وقت التجلي، لدفن فيه عندما تجلى ربه للجبل وجعله دكاً؛ فكيف يكون على جبل سيصير دكاً بعد قليل؟

قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكِ وَلَكِنِ انظُرِ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأعراف: الآية 143).
ها نحن نقدم الدليل إثر الدليل؛ على أن الطور ليس هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وليس جبلاً من الأساس، ورغم إتياننا بتلك الدلائل نعلم صعوبة تقبل فرضية أن الطور هو عملية التطور بمفهومنا المعاصر؛ بسبب الإرث التراثي الثقيل، الذي يجعل الكثيرين يتقبلون فرضيات ليس عليها أي دليل، سوى تأكيدات السابقين ورفض أي فرضيات جديدة لا تتوافق مع ما تعارف عليه الناس.

بقدر الجرأة التي نسأل بها عن الدليل عن كل فكرة جديدة؛ فمن الإنصاف كذلك أن نسأل أين الدليل عن كل فكرة مترسخة في عقولنا، ولا يقوم عليها البرهان، بل وتتناقض مع المنطق والعقل. إن وصف الطور بالجبل لا علاقة له بالقرآن، ولا علاقة له باللغة؛ وإنما هي تصورات تخص أصحابها.

الآية الثالثة

قال تعالى: (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) (سورة النساء: الآية 154). الآية الكريمة تحمل إشارة واضحة إلى الميثاق، على شرط الطور الذي أخذه الله على بني إسرائيل، ومن أهم بنوده (لا تعدوا في السبت)، ولما عصوا واعتدوا حلت بهم مصيبة التحول الجيني؛ فتحولوا إلى قردة. توجد لدينا إشارة خفيفة تدعم قولنا بأن اللغة القرآنية وألفاظها هي ألفاظ حقيقية؛ تصف المسمى من حيث صفاته وخصائصه، ولا علاقة لها بمسميات البشر، وأن ألفاظ القرآن هي الألفاظ العربية حصراً. هذه الإشارة هي ما ذكره ربنا في كتابه عن مسمى الأيام.

ورد اسم يومين فقط من أيام الأسبوع، وهما يوم السبت، ويوم الجمعة، والسبت يعني الراحة والتوقف عن ممارسة ما هو معتاد (يوم عطلة)، والجمعة من الاجتماع والتجمع، أما باقي الأيام هي عبارة عن عد رقي لا أكثر، ولم يأت ذكرها في القرآن. جدير بالذكر أن العرب القدماء كانوا يطلقون أسماء مختلفة على أيام الأسبوع، ليست كالتي نطلقها اليوم، أو كالتي جاءت في كتاب الله؛ فمثلاً يوم الجمعة كان يسمى (عروبة)، ويوم السبت كان يسمى (شيار).

ألا يلفت هذا التبيان وهذا الفرق بين تسميات القرآن والتسميات التي كانت سائدة عند أهل الجزيرة نظر الباحثين المخلصين إلى أن اللفظ في كتاب فريد وله خصائص وصفات لم ينتبه لها القوم حتى يومنا هذا وأنه لفظ يصف حقيقة الأشياء.

الآية الرابعة

قال تعالى: (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) (سورة مريم: الآية 52). جاء هنا لفظ الطور بدون لفظ الرفع ومرة أخرى لو أن الطور جبل؛ فالجبل ليس له يمين أو يسار، لكن المفسرين يقولون: إن المقصود هو من جانب موسى الأيمن، بينما الآية صريحة وواضحة؛ وهي تتحدث عن جانب الطور الأيمن، وليس جانب موسى الأيمن.

وكما بينا أن الطور ليس جبلاً؛ وإنما هو عملية التطور، فيصحّ هنا أن يكون المقصود بجانب الطور الأيمن؛ هو جانب التحول الإيجابي. إنَّ التطور له مسار طبيعي؛ وهو تحسين الصفات حتى تصبح الأفراد الجديدة أكثر قدرة على التكيف، وملائمة وظائفها بكفاءة عالية. بينما هناك أيضاً جانب آخر للتطور؛ وهو الارتداد أو التطور السلبي؛ بحيث تحدث انتكاسات، فتعود الأفراد إلى حالة سابقة.

لفهم عملية جانب الطور الأيمن لا بد أن نفهم مسار عملية التطور؛ فلو افترضنا أن لدينا الكائن (أ)، وهذا الكائن حدث له عملية تطور ليصبح الكائن (ب)؛ إذاً الكائن (ب) هو الصورة المحسنة من الكائن (أ)، من هنا يصبح تأثير الطور أو التطور تأثيراً إيجابياً؛ وهو التأثير الأيمن الذي ذكره ربنا في كتابه. من هنا نستطيع القول إنَّ الكائن (ب) في الجانب الأيمن، فهل الكائن (أ) في الجانب الأيسر قياساً على أن مقابل الأيمن هو الأيسر؟

الكائن (أ) هو في الجانب السابق أو الماضي، وليس الأيسر، وقد جاء التعبير القرآني في هذه الجزئية غايةً في الدقة؛ عندما أشار إلى هذا الجانب بالجانب الغربي؛ أي الجانب الذي غادره التطور كما تغادر الشمس المكان، يسمى مغرب الشمس.

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (سورة القصص: آية 44). بما أن الله رفع الطور في هذه الفترة، أي زيادة معدل التطور؛ الذي يسبب تحسن صفات الكائنات، فإن نبي الله موسى كان له نصيب من هذا التطور، والذي يبدو أنه أهله لكي يتلقى كلمات الله بشكل مختلف عما كان يتلقى به الأنبياء السابقون.

سوف نأتي على تلك الطفرة التي حدثت في تاريخ البشرية، من خلال فصل: (كلم الله موسى تكليماً)، فلا شك أن عملية الاتصال بتجليات الخالق تحتاج لإعداد خاص، والأنبياء هم أكثر خلق الله صفاءً روحياً ونقاءً سلوكياً، يؤهلهم لهذا الاتصال أو تلقي الوحي.

هذه الآية الكريمة تجيب على سؤال في غاية الأهمية وهو: هل سيظل الإنسان يتطور؟ وما هي المرحلة التالية إذا كانت عملية التطور عملية مستمرة حقاً؟ يبدو أن عملية التطور تزيد

مدارك الإنسان؛ لدرجة يكون الاتصال بينه وبين تجليات الخالق على درجة عالية جداً، ولكن كما تُشير الآيات أنّ عملية التطور هذه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسلوك الإنساني.

قول ربنا سبحانه عن نبيه موسى أنّه ناداه من جانب الطور الأيمن، وقرّبه نجياً، أنّ موسى تطوّر لدرجة جعلته قريباً من ربّ العالمين، وأصبح مصطفىً من رب العالمين بهذه المكانة الرفيعة. إنّ التطور الذي طرأ على نبي الله موسى من حيث اليقين وقرّبه من ربه؛ نستطيع إدراكه بسهولة من خلال مشهدين من مشاهد القرآن الكريم:

المشهد الأول: عندما كلفه ربه بالذهاب إلى فرعون، وأن يقول له قولاً لنا: (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا لَمُخَافٌ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (45) (سورة طه: آيات 43-45).

رغم أنّ الوحي من الله، ويعلم موسى بالطبع أنّ الله بيده مقاليد كل شيء، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من التصريح بخوفه من أن يطغى فرعون عليه. هذا الموقف كان في بداية تكليف موسى بالنبوة، إذ يبدو أنّ قدرته على الإدراك لم تكن بالقدر الذي كانت عليه فيما بعد، بدليل وحي الله وتكليفه إليه؛ ومع ذلك يقول أخاف من طغيان فرعون. إنّ تطور الإدراك والوعي من سنن التطور الإلهية، والتي سوف نأتي عليها بالتفصيل، من خلال الباب الثاني في هذا الجزء. لقد تغيّر الأمر كلياً خلال المشهد الثاني، الذي تراءى فيه الجمعان، حيث أصحاب موسى في جانب وفرعون وجنوده خلفهم. عندها قال أصحاب نبي الله موسى إنّنا لمدركون.

(فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّنَا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)) (سورة الشعراء: آيات 61-62).

لكن نبي الله موسى كان له رأي مختلف تماماً مليئاً بالثقة والإيمان، كلا إن معي ربي سيهدين. إنّ مقارنة بسيطة بين الموقفين نستطيع من خلالها فهم ما حدث لنبي الله موسى على مستوى الإدراك والوعي، ونتيجة هذا الإدراك وهذا الوعي.

في المشهد الأول لم يستطع موسى الذهاب إلى فرعون وعبر عن خوفه بشكل صريح رغم الوحي الإلهي. بينما في المشهد الثاني يرى الجمعان كلُّ منهما الآخر، وليس أمام موسى وأصحابه مفر، وفرعون عازم على إبادة موسى ومن معه، ورغم كل الشواهد التي تدعم هلاك موسى وقومه؛ إلا أنه عندما اضطرب أصحاب موسى، وظنوا أنهم لمدركون؛ قال موسى بمنتهى الثقة: (كلا، إنَّ معي ربي سيهدين).

ما الذي حدث لموسى لكي يتحول الجزع والخوف إلى كل هذه الثقة والطمأنينة؟ رغم أنَّ المشهد الأول كان محملاً بالوحي الإلهي، بينما المشهد الثاني كان قائماً بشكل أساسي على يقين موسى وثقته بربه. هذا تطور على مستوى الوعي والإدراك لدرجة إخبار قومه بكل ثقة أنَّ فرعون لن يصل إليهم، وأنَّ الله سوف يهديه إلى المخرج من هذا المأزق. أميل لفهم الآية الكريمة التي جاء فيها. (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) (سورة مريم: الآية 52). أي طلبناه من حيث أنه أصبح أكثر وعياً وإدراكاً (أو أصبح متطوراً على المستوى المعرفي).

هل هذا التفسير يلغي كون الطور شيئاً مجسداً (جبل على سبيل المثال)؟

أنا لا أميل أبداً أن يكون الطور جبل بسبب بُعد هذه الفرضية عن سياق آيات الله كما بينا ولكن لا استبعد ان لفظ الطور قد ينطبق على بقعة معينة من الأرض وعندها لا بد لهذه البقعة أن تتصف بصفات وخصائص الاسم. بمعنى إذا أشار الطور في بعض المواضع إلى بقعة جغرافية فلا بد لهذه البقعة أن يكون من خصائصها التطور أو أنها تدعم التطور بشكل ما. لكن أن يكون المسمى بدون دلالة فهذا ما لا يمكن أبداً ولا يجوز على كلمات الله.

أيضاً من الاحتمالات المعتبرة هنا أن يكون رفع الطور على بني إسرائيل مرتبطةً ببقعة معينة من بقاع الأرض، وأنَّ هذه البقعة هي التي مر بها نبي الله موسى في رحلته؛ وإذا كان كذلك فنحن أمام بقعة من الأرض تدعم التحول الجيني أو التطور الإيجابي (أرض مباركة).

لفظ الطور مثله مثل جميع الألفاظ يمثل حالة عامة تنطبق على كل مسمى يحمل هذه الصفات والخصائص. مثال ذلك كلمة سماء فهي تصف كل ارتفاع يحيط بشيء ما وهكذا جميع ألفاظ القرآن كما بينا في أكثر من موضع.

عندما أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، كان من ضمن الميثاق رفع الطور؛ أي زيادة معدل التطور عن المعتاد، ومن خلال الآيات نجد أن هذا التأثير مرتبط بسلوكهم وتصرفاتهم. مما لا شك فيه أن التطور -سواء على المستوى البيولوجي أو على مستوى الوعي والإدراك- على علاقة وثيقة بسلوك وتصرف الإنسان. على المستوى البيولوجي فإن سلوك الأفراد ينتج عنه تطور بحسب الحاجة الجديدة. كذلك تصرفات الإنسان وسلوكه ناحية بيئته تؤدي بها إلى تطوير قدراته سواء البيولوجية أو حتى المعرفية.

الآية التالية سوف تضيف لنا دليلاً جديداً على أن الطور هو عملية التطور، وكذلك سوف تلقي الضوء على علاقة السلوك والتصرف الإنساني بعملية التطور.

الآية الخامسة

قال تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى) (سورة طه: الآية 80).

هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلى التأثير الإيجابي للطور؛ أو ما يسمى جانب الطور الأيمن. فإذا قال المفسرون عن المن و السلوى المذكورين في هذه الآية الكريم؟ يقول ابن كثير: «إن المنّ حلوى، والسلوى طائر». ويقول السعدي: «ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه بإنزال المنّ والسلوى، والرّزق الرّغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة». انتهى الاقتباس من التفسير.

لفظ واعدناكم هنا ينفي تماماً أن يكون الطور جبل رفعه الله عليهم كنوع من التهديد. لم يأتي لفظ بصيغة الوعيد بل جاء بصيغة واعدناكم وهو وعد بانخير وليس تهديد. أيد هذا الفرض ورود لفظ المن والسلوى في نفس الآية والذي يعني الخير والبركة والزيادة.

لو بحثنا عن أصل كلمتي المنّ و السلوى في قاموس اللغة؛ سوف نجد أنّ كلمة المنّ (الميم والنون) لها أصل، وهو اصطناع الخير، أمّا (السلوى) وتعني طيب العيش، أو بمعنى رغد العيش. إذا كان المنّ و السلوى هما الخير والبركات والرّغد في العيش؛ فعلينا أن نتساءل ما علاقة رفع الطور بهذا الرغد في العيش وهذه البركات؟

ولو أنّ الطور جبل كما ادعى المفسرون؛ فلا بد من بيان علاقة رفع الجبل بهذه البركات وطيب العيش؟ لا توجد أي علاقة واضحة بين رفع الجبل وبين البركات التي وعد الله بها بني إسرائيل إن هم استقاموا، في حين أنّ العلاقة بين الطور بوصفه التطور، وبين وفرة الرزق وطيب العيش والبركات تكاد تعلن عن نفسها؛ فهذا الرغد وطيب العيش والبركات هو عين التطور الإيجابي، الذي طال كلّ شيء، فتحسن الإنتاج وتضاعف.

ملح آخر شديد الأهمية وهو أن الآية الكريمة تشير بشكل مباشر لتلك العلاقة بين السلوك الإنساني وبين التطور؛ فعندما تكون نسب الخير والشر متوازنة، فإنّ التطور يسير في مساره الطبيعي دون زيادة أو نقصان، ويعمل داخل الأقدار والقوانين العادية، من حيث المدى الزمني الطويل و تراكم الطفرات و توارثها.

لكن إذا تغير السلوك الإنساني للأفضل، وفاقت نسب الخير نسب الشر بشكل ملحوظ؛ فهذا السلوك يعزز ويقوي الاتجاه الإيجابي للتطور، فتعمل آلية التطور بشكل أسرع من معدلها، وبكفاءة عالية في اتجاه الوفرة والرغد والزيادة الايجابية، أو ما نسميه نحن بالبركات. على الجانب الآخر نجد أنّ السلوك الإنساني المنحرف له القدرة على عكس عملية التطور الإيجابي؛ ليسير التطور في اتجاه التشوه والشح والانتكاس.

يبدو جلياً من تحليل اللفظ أن هناك علاقة قائمة بين التطور بمنظوره المادي وبين سلوك وتصرفات الإنسان وطبيعتها اللامادية وأن هذه العلاقة شديدة الأهمية وشديدة الحساسية. من التساؤلات الهامة حول هذه الجزئية؛ ليس هناك ثمة دليل علمي على أن السلوك والتصرف غير المنظور يؤثر في عملية التطور، فكيف أدعي ذلك؟

هدف الكتاب وطريقته في تناول الموضوعات قائمة على تحليل اللفظ القرآني من خلال منهج محدد بغض النظر عن النتائج. لا يعنينا هل وافق العلم هذه النتائج أو أن التاريخ يرفضها. ما نقوله أن نتائج اللفظ القرآني تقول أحياناً شيء آخر غير ما أشار إليه العلم أو التاريخ. لذلك نحن نضع هنا إشارة حمراء ونقول للباحثين هل يمكن أن تعيدوا البحث في هذه النقطة من خلال هذا المنظور الجديد. جميع النتائج التي حملها اللفظ القرآني هي نتائج لا تعارض الحقائق العلمية الثابتة وإنما تعطي بعداً إضافياً وعمقاً معرفياً لبعض النتائج أو النظريات العلمية وتشير إلى احتمالات مختلفة في بعض الأحيان.

لذلك نطلب من الباحثين محاولة فحص واختبار هذه الأفكار بطريقة علمية بعيداً عن الاعتقادات أو وجهات النظر الإيمانية. إن اكتشاف حقيقة واحدة، أو التحقق من فكرة جاءت في هذا الكتاب أو السلسلة بالكامل كقيلة بأن تفتح أبواب المعرفة على مصراعها أمام الباحثين عن الحقيقة بسبب. أطلب من القارئ التحلي بالصبر والتريث قليلاً قبل الحكم على فكرة قياساً على معلومات متداولة مهما كانت الثقة التي تحملها هذه المعلومات. فقط لنفكر بطريقة أخرى ونضع الاحتمالات لأننا بصدد وضع هذا الكتاب العظيم (كتاب الله) في المقدمة وفي المكانة التي يستحقها بحيث يقود العالمين إلى النور ويصبح هداية للناس كافة.

الآية السادسة

قال تعالى: (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) (سورة القصص: الآية 29).

لكي يكتمل فهم هذه الآية الكريمة ؛ لا بد أن نضيف إليها الآية التالية في نفس السورة.

قال تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (سورة القصص: الآية 30).

من خلال الآيتين يتبين لنا أن الطور - وهو حالة لا مادية - هو أحد صفات وخصائص البقعة المباركة الرئيسة، وتأثير الطور عليها هو ما جعلها مباركة، وهو ما يعني أن هذه البقعة تدعم التحولات الجينية الإيجابية.

فمن ذلك إذا قلنا أن هذه البقعة هي بقعة الطور؛ فإننا نقصد أن هذه البقعة تدعم التطور بشكل أعلى من مثيلاتها وليس مسمى اعتباطي بدون دلالة. أرجو الإلتباه إلى هذه الجزئية الخطيرة والتي قد يقع فيها أهل اللغة عندما يجعلون المسميات في كتاب الله بدون دلالة حقيقية، ويعتقدون إن هذا الأمر بسيط التأثير.

ما هي الشجرة المقصودة التي جاء ذكرها في معرض الحديث عن الطور وحملتها الآيات في سورة القصص؟ عندما حاول المفسرون بيان ما هي الشجرة المباركة؛ قالوا: إنها شجرة العليق، أو العسجة، أو العناب، وهي مسميات غريبة لم يرد ذكرها في القرآن، ولا ندرى ما الدليل على مثل هذه المسميات! في كتاب الله هناك إشارة إلى هذه الشجرة المباركة، والتي سوف نتناولها من خلال الآية السابعة.

الآية السابعة

قال تعالى: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ) (سورة المؤمنون: الآية 20).

يمكننا استنتاج أن الشجرة المقصودة هي نفس الشجرة المباركة المذكورة في سورة النور.

قال تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة النور: الآية 35).

يوجد إشارة أخرى على هذه الشجرة المباركة، وعلاقتها بطور سيناء، من خلال سورة التين، والتي سوف نتعرض لها بالتفصيل في السطور القادمة. الصفات المذكورة في الآيات الكريمة عن الشجرة المباركة، والخصائص المشتركة في أنها مصدر للزيت أو أنها تنبت بالدهن؛ تعزز بشدة فرضية أن هذه الشجرة هي شجرة الزيتون.

لكن ما الفرق بين الدهن والزيت من خلال وصف القرآن لهذه الشجرة؟

جذر كلمة دهن في قاموس اللغة له أصل واحد؛ وهو لين وسهولة وقلة؛ وهذا الوصف ينطبق تماماً على المادة الدهنية في الثمار قبل عصرها وتحويلها إلى زيت، بينما بعد العصر وتجميع المادة الدهنية بكثافة سماها القرآن زيت. التعبير الصحيح والدقيق هو شجرة تنبت بالدهن، وليس بالزيت، فكأن الدهن يصف حبيبات متفرقة قليلة، بينما الزيت يدل على غزارة، وهو السائل المستخدم في الإنارة كما جاء في سورة النور.

إذاً الشجرة المباركة التي تخرج من طور سيناء تعني الشجرة التي حدث لها تحول وتطور، بحيث أصبحت أكثر إنتاجاً وفائدةً، ولفظ سيناء - كما جاء في التفاسير - يعني المبارك؛ وعلى ذلك يصبح طور سيناء: هو الطور المبارك أو التحول الجيني الإيجابي. هذا الطور المبارك ورد ذكره مرة أخرى في سورة التين، والتي ذُكرت فيها شجرة الزيتون بشكل مباشر.

الحديث عن شجرة الزيتون هو حديث غاية في الروعة، يلقي الضوء على ملامح تطور جيني فريد لهذه الشجرة العظيمة، وتحول أثبتته العلم بالدليل والبرهان، ومع ذلك مازال هناك الكثير من الغموض الذي يحيط بهذه الشجرة، ونشأتها الفريدة وتحولاتها العجيبة. سورة التين هي المحطة التالية لنا، والتي سوف نتعرف من خلالها على ملامح تطورية رائعة لشجرة التين وشجرة الزيتون.

التين والزيتون

القرآن الكريم سلاسل وحلقات متصلة بعضها ببعض، وعن طريق معرفة بسيطة بالعلوم الطبيعية؛ سوف ندرك أننا أمام نسيج كوني مرتبط ببعضه ببعض، وملتفٍ بشكل يصعب تصديقه؛ فيبدو لنا أن شجرتا التين والزيتون يحملان أسراراً عن التطور، ومن خلالهما قد تنفك

الغاز تطورية عديدة. سورة التين قال تعالى: (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (1) وَطُورِ سَيْنِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)) (سورة التين: الآيات 1-4).

الآية الأولى: (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ)

مقدمة هذه السورة العظيمة بدأت بشجرة التين وشجرة الزيتون بشكل صريح، وهذه السورة بالمجمل دليل على أنّ الشجرة المباركة التي ذكرها ربنا في أكثر من وضع هي شجرة الزيتون تحديداً. والآية الثانية في سورة التين هي الدليل الذي لا يقبل الشك، على أنّ الشجرة المباركة هي شجرة الزيتون؛ بسبب علاقتها المباشرة بالتطور.

الآية الثانية: (وَطُورِ سَيْنِينَ)

الآية الكريمة تعلن علاقة قائمة بين التين والزيتون وطور السنين. الطور كما ذكرنا هو التحول الإيجابي (التطور)، ولسنا بحاجة لإعادة ما شرحناه من قبل عن الطور وشواهد القوية، ولكن هنا تبرز إشكالية كلمة سنين بزيادة حرف الياء، فما هو السنين؟ من خلال تفسير الطبري نجد ما يلي: « قوله: (وَطُورِ سَيْنِينَ) اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: هو جبل موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه ومسجده. وقال آخرون: الطور: هو كلّ جبل يُنْبِتُ. وقوله (سَيْنِينَ): حسن. عن عكرمة، في قوله: (وَطُورِ سَيْنِينَ) قال: هو الحسن، وهي لغة الحبشة، يقولون للشيء الحسن: سينا سينا. وقال آخرون: هو الجبل، وقالوا: سنين: مبارك حسن. عن مجاهد (وَطُورِ) : الجبل و (سَيْنِينَ) قال: المبارك. عن قتادة (وَطُورِ سَيْنِينَ) قال: جبل مبارك بالشام. عن قتادة (وَطُورِ سَيْنِينَ) قال: جبل بالشام، مبارك حسن.» انتهى الاستشهاد من التفاسير.

الرأي الذي أميل إليه هو أنّ سنين تعني (البركة أو المبارك)؛ كما قال بعض المفسرين، وليس اسم جبل، وخصوصاً عند مقارنة كلمة سنين بكلمة سينا، والتي تعني أيضاً المبارك. فيبدو أنّ كلمة سنين مشتقة من كلمة سينا، وتعني هنا البركات المتراكمة أو الطفرات الإيجابية

المترابكة، والتي تؤدي لظهور صفات جديدة محسنة. الآية الكريمة تشير إلى تطور إيجابي لكل من شجرة التين والزيتون، ويبدو أن هذا التطور كان له دور محوري في الحياة.

الآية الثالثة: (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

في تفسير (البلد الأمين) قال المفسرون: إنها مكة، مع أن مكة ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله، وذكرت في دعوة نبي الله إبراهيم بالبلد الآمن وليس الأمين؛ والفرق بين الآمن والأمين فرق كبير.

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (سورة البقرة: الآية 126).

وقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) (سورة إبراهيم: الآية 35).

بشيء من التفصيل نلاحظ أن لفظ البلد الأمين له علاقة بما قبله وما بعده، ووصف شيء ما بالأمين يعني أن هذا الشيء يحمل أمانة ما؛ فما هي الأمانة التي يحملها البلد؟ وكيف سيؤدي تلك الأمانة؟ وقبل كل ذلك ما هو المقصود بالبلد؟

جذر كلمة بلد - كما جاء في قاموس اللغة - له أصل؛ وهو الصدر، ويقال بلد الرجل بالأرض؛ أي: التصق، وفي شمس العلوم قال عدي بن الرقاع: «يقال للبلد الأثر». ربما سمي المكان بالبلد بسبب التصاق الناس بها، واجتماع آثارهم وذكرياتهم بها وهو معنى فرعي مشتق من الحالة التي يصفها لفظ البلد.

من خلال أصل الكلمة نستطيع القول بأن لفظ البلد في الآيات الكريمة في سورة التين تعني الأثر الملاصق لهاتين الشجرتين، ومدلول كلمة البلد بأنها الأثر أضاف وجهاً آخر للصورة، وأصبحت الآيات تعبر عن موضوع متكامل؛ بدأ بذكر التين والزيتون، ثم علاقتهما

بالطور المبارك أو التطور الإيجابي، ثم الإشارة إلى أنهما يحملان أثراً أميناً. لا يمكن القول ان البلد هو مكة فتصبح الآيات منقطعة الصلة عن بعضها البعض وكأن لا رابط بينها.

لا شك أنّ الأثر الأمين الذي تحمله شجرة التين وشجرة الزيتون هو أثر من آثار التطور، ودليل عليه، هكذا يسير السياق ويدفعنا تتبع الآيات لاستنتاج ذلك بكل بساطة.

يبدو جلياً أن الآيات تشير إلى أنّ التين والزيتون عبارة عن سجلات تحفظ معلومات قيمة عن عملية التطور، وما علينا إلا الانتظار حتى يستطيع العلم استخراج هذه المعلومات. ربما لا يوجد اليوم إتجاه بحثي بالقوة التي نستطيع أن نقول أن شجرة التين وشجرة الزيتون قد تمثلان ركيزة أساسية في فهم عملية التطور، لكن من المؤكد إذا استطاع هذا المنهج الذي نستخدمه لفهم اللفظ القرآني اثبات وجوده وقدرته على فهم اللفظ القرآني بشكل صحيح؛ ربما دفعت هذه المعلومات الباحثين للاتجاه بقوة لدراسة هذه النباتات وفهم العلاقة التطورية التي أشارت إليها الألفاظ القرآنية.

ها نحن مرة أخرى نتقدم خطوة، ونشير إلى معلومات علمية من خلال تحليل اللفظ القرآني فقط، ونقدمها للباحثين رجاء أن تهديهم لمعلومات عن عملية التطور، ولا نشك في أنّ التين والزيتون يحملان دلالاتٍ وأسرارَ عملية التطور، ولو استطعنا أن نقوم بتحليل متكامل لكل لفظ من ألفاظ هذه السورة بشكل أكثر عمقاً؛ لربما أخبرنا اللفظ القرآني الكثير والكثير عن التطور، ودور التين والزيتون فيه.

الآية الرابعة: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

الآية الرابعة تشير إلى علاقة ما بين التين والزيتون وتطورهما، وبين تقويم خلق الإنسان واعتدال و انتصاب قامته. تقويم الإنسان بهذه الطريقة هو تطور طراً على هذا الإنسان، وسوف نتطرق في الفصل القادم لخلق الإنسان وعلاقته بالتطور بالتفصيل. يبدو أننا أمام علاقة شديدة التشابك؛ بين تطور هذه الأشجار وبين تطور الإنسان، وبالتحديد تقويم خلق الإنسان. وفي قاموس اللغة: جذر كلمة تقويم هو قوم ولها أصلان؛ الأصل الأول: جماعة،

والأصل الثاني: انتصاب وعزم. تقويم خلق الإنسان هو الانتصاب والعزم، والذي يبدو أنه يشير إلى تقويم الهيئة الجسمانية للإنسان.

ما يدعونا للاعتقاد أن لفظ تقويم يشير إلى شكل جسم الإنسان؛ هو ارتباط فعل تقويم بلفظ خلق؛ وفعل خلق كما أشرنا سابقاً يشير إلى تكوينات مادية، وهو ما يتفق تماماً مع شكل جسم الإنسان، ويصبح التقويم منصباً على انتصاب وقوة الجسم.

ها نحن مرةً أخرى أمام إشارة ودلالة؛ يجب أن نقف عندها طويلاً، وهي علاقة التين والزيتون وتطورهما وما يحملان من دلائل بخلق الإنسان في أحسن تقويم. نحن لا نجزم أن المقصود هو التقويم الجسماني فقط؛ فقد تشمل كلمة تقويم مناحي عديدة؛ منها: التقويم الجسماني، والتقويم العقلي والمعرفي، أو حتى التقويم النفسي، من خلال تأثير ثمار هذه الأشجار أو أي منتجات تخرج منها على صحة الإنسان.

تحليل اللفظ القرآني يقودنا مباشرة لاستنتاج؛ أن تطور الإنسان مرتبط بتطور هذه النباتات، وقد يكون التين تحديداً هو المسؤول عن عملية التقويم؛ بسبب ما يعنيه لفظ [التين]. بالرغم من أن لفظ التين ليس له أصل في قاموس اللغة أو أي قاموس لغوي آخر، سوى أنه الفاكهة المعروفة، إلا أن لفظ المتين في كتاب الله قد يعطينا لمحة عن صفات وخصائص التين. بالإضافة إلى أن شجرة الزيتون أهم ما يميزها هو الدهن الذي يتحول إلى زيت الزيتون، فإننا نعتقد أن لفظ [تين] تعني قوة أو طاقة تحملها هذه الثمار، وقد تكون هذه الثمار بخصائصها وصفاتها هي مصدر قوة وطاقة تساعد الكائنات -وخصوصاً الإنسان- على اعتدال وتقويم هيئتها الجسمانية. لا شك أن كل الثمار والفاكهة تحمل سرعات حرارية، وتساعد الجسم بطريقة ما في بناء أنسجته، ولكن ليس هذا ما أقصده؛ ما أقصده أن التين يحمل أسراراً أكثر بكثير مما نظن عن قدرته، ومساهمته في تطور البنية الجسمانية للإنسان تحديداً.

التين والزيتون وعلاقتها بالتطور من المنظور العلمي:

لا توجد معلومات كافية عن علاقة كلٍ من التين والزيتون بمسألة التطور؛ لذا نعتقد أنّ هذا الباب مازال الكثير والكثير وراءه، ويحتاج لجهود مخلصّة لفهم هذه العلاقة، التي تعلن عن نفسها في كتاب الخالق، وبقدر ما أتيح لنا من اطلاع سوف نتعرض لهاتين الشجرتين؛ لتتعرف على ما قاله العلم عنهما بخصوص عملية التطور.

أولاً الزيتون

وفقاً لبحث منشور في مجلة (Proceedings of the Royal Society B) بتاريخ 5 فبراير 2013؛ فإنّ أول استئناس لشجرة الزيتون يُعتقد أنه كان ما بين 6000 إلى 8000 سنة مضت، وعن طريق التحليل الجيني لأكثر من 1900 عيّنة من عينات أشجار الزيتون في منطقة البحر المتوسط؛ استطاعت الدراسة استخلاص أنّ شجر الزيتون أصبح في هذه الفترة أكبر من أسلافه، وأكثر عصارة.

تشير الدراسة إلى أنّ شجر الزيتون ربما يكون قد زرع أول مرة من الأصناف البرية، عند الحدود مع سوريا وتركيا، أو ربما تمّت زراعته على عدة خطوات، شملت المناطق التي توجد فيها بلاد فلسطين والأردن ولبنان وسوريا.

والمكان الذي زرع فيه شجر الزيتون لأول مرة كان مثار جدل، وفي سبيل التحقق من الأمر فقد أخذ فريق البحث 1263 عينة من أشجار الزيتون البرية، و534 عينة من أشجار الزيتون في جميع أنحاء البحر المتوسط، ثم قام الفريق بتحليل المواد الجينية وهياكل النباتات الخضراء اعتماداً على عملية التمثيل الضوئي.

يقول الفريق أنه بسبب انتقال الحمض النووي من شجرة ما إلى الأشجار المنحدرة حولها؛ يمكن للحمض النووي أن يكشف عن التغيرات في سلالات النباتات. أعاد الباحثون بناء شجرة وراثية لشجرة الزيتون، ووجدوا أنّ ثمار الزيتون الصغيرة والمرة قد انتقلت، أو وجدت طريقها إلى الأشجار الأكثر عصارة والغنية والكبيرة، في المنطقة الجغرافية الواقعة على الحدود بين تركيا وسوريا.

هذه الدراسات قد تبدو متوافقة إلى حد ما مع الإشارات القرآنية عن البقعة المباركة والشجرة المباركة وعلاقة هذه الأشجار بطور سينين وهو التطور الإيجابي.

ثانياً التين

إنّ ذكر التين في كتاب الله، وربطه بطور سينين؛ قد يحمل الكثير من المعلومات لكلٍ من علماء النباتات وعلماء الأحياء والجينات والتطور، وسوف نحاول استعراض بعض المعلومات المتناثرة حول التين، والتي ربما فتحت المجال أمام متخصص ليُخرج لنا معرفة وعلومًا أعمق وأغزر.

تشير الأبحاث إلى أنّ شجرة التين ظهرت منذ ما يقرب من 80 مليون سنة، وأنّ هناك عدداً مهولاً من الكائنات الحية تتغذى على ثمار التين؛ مما جعل العلماء يعتقدون أنّ لشجرة التين الفضل في الحفاظ على الحياة البرية، أكثر من أي نوع من أشجار الفاكهة الأخرى. تشكل شجرة التين بثمارها وأوراقها ولحاءها غذاءً لأكثر من 1200 نوع من الكائنات الحية، بالإضافة إلى أنّ 10 بالمائة من الطيور تتغذى كذلك على منتجات شجرة التين. يعتبر علماء البيئة أنّ التين من الموارد الغذائية الأساسية على الأرض، ولو قدر له الاختفاء؛ فإنّ ذلك قد يؤثر سلباً على كل شيء آخر، بل قد يتسبب في انهيارٍ خطيرٍ في النظام البيئي والتنوع البيولوجي.

وجود التين على مدار العام كان من العوامل المهمة جداً في الحفاظ على السلالات البشرية منذ فجر التاريخ، وربما يكون التين قد ساعد سلالات الإنسان الأولى على تطوير أدمغة أكبر مما كانت عليه، وربما كان عاملاً مهماً في عملية التطور برأي بعض الأبحاث.

من اللافت للنظر أنّ هناك نوعاً من أشجار التين يسمى (فيكس سيكومورس Ficus Sycomorus) كان على وشك الانقراض، ولم تكن الأشجار وقتها تنتج ثماراً ناضجة حتى تتمكن من إعادة دورة الإنبات. لو اختفت الأشجار الموجودة وقتها لما أمكن إعادة إنباتها مرة أخرى. لكن في مشهد نادر الحدوث تشير الدراسات إلى أنّ المصريين القدماء وبطريقة ما استطاعوا مساعدة شجرة التين؛ لتنتج تيناً ناضجاً، وتنجو من الانقراض، عن طريق استخدام

شفرات لتحطيم شجرة التين بطريقة معينة. لا يعرف العلماء على وجه التحديد ماذا حدث بالضبط، أو آلية عمل هذه الطريقة، وهل هي مجرد ضربة حظ أم أنها عبقرية معينة.

انتهت معلوماتنا العلمية البسيطة عن التين، ونظنّ أنه مازال هناك الكثير والكثير مخبأ في هذه الشجرة العتيقة، وأنها تحمل أسراراً وراثية وجينية قيّمة للغاية، وربما يتم اكتشافها في المستقبل القريب.

لا يمكن أن نُغفل العلاقة بين لفظ التين والذي يشير إلى صفة من صفات القوة والطاقة - كما بيّنا عند تحليل لفظ التين- وبين لفظ تقويم؛ الذي يعني انتصاباً وعزماً، ويبدو أنّ دور التين في عملية الانتصاب والعزم للإنسان دور رئيس، وذلك فقط من خلال تحليل ومقارنة الألفاظ القرآنية.

لا شك أننا أصحاب حظ عظيم ببقاء هذا الأثر الأمين؛ والمتمثل في تلك النباتات والتي ذكرها ربنا بالبلد الأمين، فبعد التعرّيج على طور سينين وعرض بعض المعلومات عن التين والزيتون؛ أصبح لدينا يقين قوي أنّ المقصود بطور سينين هو التطور الإيجابي وليس مجرد جبل؛ كما رشح في أذهان الكثيرين.

الآية الثامنة

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (سورة القصص: الآية 46).

ليس لدينا ما نقوله في هذه الآية أكثر مما قيل عن الطور في الآيات السابقة؛ غير أنه يلزمنا التأكيد على أنّ الطور هو وصف حالة التطور، وأنّه إن كان هناك بقعة مباركة تتميز بأنها تدعم التحولات الجينية السليمة، يصح معها وصفها بالطور؛ بسبب خصائصها وتأثيرها في عملية التطور. وليس هي بحد ذاته. طور كما قد يظن البعض

ليس صعباً تحديد هذه البقعة المباركة، وإجراء الدراسات على جميع الكائنات الموجودة فيها، ودراسة الحفريات بها؛ لفهم تأثير هذه البقعة، ولماذا تدعم التحولات الجينية؟. إنّ مجرد

اكتشاف بقعة على وجه الأرض تدعم التحولات، ويتم فيها التطور بشكل أعلى من مثيلاتها؛ هو في حد ذاته فتح علمي للبشرية، يمكن أن يكون له تطبيقات لا حصر لها؛ فنحن أمام كنز أثمن من أي شيء آخر، لكن يحتاج لعقول راقية تطرح الأسئلة، وتضع الاحتمالات، وتجري التجارب بحثاً عن الحقيقة دون تحيز يذكر.

بعد أن استعرضنا الآيات الخاصة بالطور؛ سواء الآيات المتعلقة ببني إسرائيل، أو الآيات غير المتعلقة ببني إسرائيل، يتبقى لنا آية واحدة، وهي الآية التي ذكرت في سورة الطور. لقد عودنا كتابُ الله أن أسماء السور هي الموضوع الرئيس الذي تدور حوله السورة، وسورة الطور هي السورة التي نتحدث عن هذه العملية وتحيط بها؛ وسوف نحاول قدر استطاعتنا تحليل ألفاظ مقدمة السورة وإيجاد العلاقة بين الآيات بعضها ببعض. قبل أن نستعرض الآيات الأولى من سورة الطور؛ دعونا نعرج قليلاً على بعض المعلومات البسيطة، والخاصة بالحمض النووي ال (د ن ا)؛ حتى نتبين مدلول الألفاظ.

الحمض النووي

هو مستودع صفات الكائن، أو الذاكرة التي تحتفظ بجميع المعلومات الخاصة بالكائن الحي، ويحدث التطور نتيجة حدوث طفرات في الحمض النووي؛ مما يجعل الفرد من النسل الجديد أكثر ملاءمة وكفاءة من الأفراد السابقة، ولو جاز لنا التعبير؛ أطلقنا على هذا الحمض النووي مطبخ التطور.

الشريط الوراثي

جميع المعلومات الخاصة بالكائن الحي، والتي تعتبر خريطة متكاملة لهيئة الكائن وشخصيته المستقلة؛ مخزونة ومحفوظة - كما ذكرنا- في جزئيات الحمض النووي. - ويوجد نوعان من الأحماض النووية :

الحمض النووي (د ن ا) أو الحمض النووي منقوص الأكسجين.

والحمض النووي (ر ن ا) أو الحمض النووي الريبوزي أو الناقل.

الكائن الحي يتكون من خلايا، وكل خلية تحتوي على نواة، يتمركز داخلها الحمض النووي، الذي يشبه شكل السلم الحلزوني، ويتكون شريط الحمض النووي من جانين أو شريطين متوازيين، مكوّنًا ما يسمى بالكروموسومات، والتي بدورها تتكون من جينات؛ حيث يحمل كل جين معلومات وراثية محددة، عن صفة معينة من صفات الكائن الحي.

على سبيل المثال: هناك جين مسؤول عن لون العينين، وآخر مسؤول عن لون الشعر، وآخر عن الطول وهكذا، وتأتي هذه الكروموسومات من الأم والأب؛ ولذلك يحمل الجنين صفات مشتركة من الوالدين.

إضافة إلى النواة التي تحمل داخلها الحمض النووي هناك عضيات رقيقة منتشرة في الخلية؛ ولها دور هام وضروري في العمليات الحيوية، وتعتبر هذه العضيات مولدات طاقة في الخلية واسمها العلمي [الميتوكوندريا]، وهذه المولدات تأتي من الأم فقط، ولا دخل للأب بها.

تحتوي [الميتوكوندريا] أو مولدات الطاقة على شريط وراثي خاص بها، وحسب الباحثين توجد علاقة وثيقة بين الحمض النووي في النواة، والحمض النووي الموجود في مولدات الطاقة هذه. من المعروف أنّ أي خلل قد يصيب الحمض النووي الموجود في نواة الخلية، والحمض النووي الخاص بالميتوكوندريا؛ يمكن أن يسبب أضراراً خطيرة للكائن الحي.

كان يُعتقد في السابق أنّ دور الميتوكوندريا يقتصر على توليد الطاقة في الخلية، ولكن أبحاثاً حديثة أظهرت أنّ [الميتوكوندريا] تؤثر في مجموعة مختلفة من العمليات الحيوية داخل الخلية، مثل موت الخلايا ومناعتها، بل إنّ تغيرات في الحمض النووي الخاص بها له علاقة مباشرة بأمراض؛ مثل السرطان وأمراض الشيخوخة.

من الأشياء المثيرة للإعجاب في الميتوكوندريا أنّ الحمض النووي الخاص بها له القدرة على تراكم الطفرات بسرعة عالية جداً، بنحو عشرة أضعاف قدرة الحمض النووي الموجود في الخلايا. هذا الاختلاف بين قدرة الحمض النووي في الميتوكوندريا وبين الخلايا العادية ساعد العلماء بشكل كبير جداً في رسم شجرة السلالة البشرية، والتي يُعتقد أنها ظهرت في أفريقيا،

وانتشرت في العالم كله. بعد هذه المعلومات البسيطة عن الحمض النووي، وعن مولدات الطاقة في الخلية، نستعين بالله ونحاول فهم مقدمة سورة الطور .

سورة الطور

قال تعالى: (وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6)) (سورة الطور: الآيات 1-6).

الآية الأولى: (والطور)

لم يزد المفسرون على تفسير الطور - كما قلنا- بأنه الجبل، (الطور هو الجبل بالسريانية)، وقد بينا أن الطور ليس المقصود به الجبل أبداً، ولكن هو مراحل تطور المخلوقات. من هنا نستطيع القول إن آيات السورة لها علاقة مباشرة بعملية التطور، ووصف هذه العملية. عندما يقول ربنا في أول آية (والطور) هو لفت انتباه الإنسان إلى هذا المسمى العجيب، وهو أيضاً تنبيه لما سوف يأتي بعد ذلك، وعلاقته المباشرة بالطور.

الآية الثانية: (وكتاب مسطور)

الكتاب المسطور: لفظ كتاب يعني مجموعة المسائل والتعليمات والقوانين الخاصة بأمر من الأمور؛ كما وضعنا ذلك في أكثر من موضع، والكتاب لا يعني كياناً مادياً، بل هو مجموعة تعليمات عن شيء معين. مثال ذلك كتاب الصلاة: هو مجموعة التعليمات والأوامر والإرشادات الخاصة بالصلاة. والتعبير عن الكتاب بأنه مجموعة التعليمات والأوامر، وليس مجسم الكتاب كما نعرف، نجده شديد الوضوح في الآية التالية: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (سورة الأنبياء: الآية 104).

من خلال هذه الآية الكريمة يتضح لنا أن الكتاب: هو مجموعة التعليمات والقوانين والبيانات عن شيء ما، بينما السجل: هو الكيان المادي الذي يحوي هذه التعليمات والبيانات. الأفكار والمعلومات التي يتضمنها الجزء الثالث الذي بين يديك هو ما يصح أن نطلق عليه كتاب، بينما النسخة الورقية المدون عليها هذه المعلومات هي ما نعرفه بالسجل.

كلمة (المسطور) فسرّها المفسرون كآلآتي: يقول المفسرون أنّ لفظ (المسطور) يعني المكتوب، لكن عندما بحثنا عن جذر الكلمة، وعن مدلول الكلمة في كتاب الله؛ استطعنا فهم المعنى الدقيق للكلمة. جذر كلمة مسطور هو (سطر)، ومعناها اصطفاً الشيء، ولو نظرنا لكتاب الله لوجدنا أنّ كلمة سطر ومشتقاتها ذكرت في كتاب الله أربع مرات.

الآية الأولى هي الآية في سورة الطور، إضافة إلى ثلاث آيات أخرى كما يلي:

الآية الثانية: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (سورة القلم: الآية 1)

الآية الثالثة: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (سورة الإسراء: الآية 58).

الآية الرابعة: (النَّبِيِّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتِهِمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ

أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ

فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (سورة الأحزاب: الآية 6).

لكي نفهم كلمة سطر فهماً جيداً لا بد أن نلقي الضوء على كلمة شبيهة لها في كتاب الله،

وهي [صيطر] بحرف الصاد التي وردت في سورة الطور وسورة الغاشية.

(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ) (سورة الطور: الآية 37).

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ) (سورة الغاشية: الآية 22).

سطر وصطر لهما نفس الصوت تقريباً، مع ملاحظة الاختلاف في حرف السين

وحرف الصاد. حرف السين يدل على السلاسة والسهولة، بينما حرف الصاد فيه شيء من

الصلاية، كما تشير بذلك مراجع اللغة.

بخصوص كلمة صطر، لم تدل المعاجم على شيء ذي معنى يمكن الاستناد إليه؛ غير

أنّ السين قلبت صاد، وغير أنه من خلال مقارنة كلمة سطر وصطر ودلالة الحروف و مدلول

الكلمة في كتاب الله، سنجد أنّ صطر تدل على انتظام واصطفاً الشيء، ولكن بقوة جبرية.

إذا فهم لفظ [صطر] يقودنا مباشرة لفهم لفظ [سطر]، والذي يعني انتظام الشيء واصطفاف بسلاسة وسهولة؛ كأنّ الأشياء التي تُسطر أي تتبع قانوناً معيناً، بحيث تصطف وتنظم في مواضع محددة، بناءً على برنامج محدد.

من خصائص لفظ [سطر] نفسه؛ الانتظام والاصطفاف، وهي خواصُّ ضد العشوائية أو العبث، وكأنّ الآية الكريمة التي تتحدث عن الكتاب المسطور تريد أن تخبرنا عن تلك التعليمات والقوانين، التي تصطف وتنظم بشكل ذكي، وطريقة محددة تخضع لتقديرات دقيقة. قبل أن نغادر هذه الآية الكريمة، وجب علينا أن نلقي الضوء على الآية الكريمة التي ذُكرت في بداية سورة القلم، وجاء فيها لفظ [يسطرون]، وللأسف الشديد التفسيرات التقليدية حول هذه الآية أقرب للأساطير.

«قيل : المراد بقوله : (ن) حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط، وهو حامل الأرضين السبع، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر. فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة. ثم خلق (النون) ورفع بخار الماء، ففتق منه السموات، وبسطت الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإنها لتفخر على الأرض. عن مجاهد قال: كان يقال: النون: الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة.» انتهى التفسير.

لا يمكن فهم هذه الآية الكريمة إلا من خلال فهم مدلول كلمة القلم، وفهم ما هو السطر، والسطر - كما بينا آنفاً - هو نظم الأشياء واجتماعها، أما القلم فقد سبق وبيننا ما هو القلم (في الجزء الثاني - فصل علم بالقلم)، حيث جاء ما ملخصه؛ أنّ القلم هو الطريقة أو الآلية التي يتم بها نظم وترتيب أشياء معينة، غير مرتبة أو عشوائية؛ بغرض إنتاج هيئة مرتبة منتظمة، و صيغة مفهومة.

معنى القلم المعاصر مطابق تماماً لمدلول الكلمة في كتاب الله؛ فالقلم هو الأداة التي تصنع من الأشياء العشوائية أشياء منظومة ومرتبة، أو صيغة لها معنى، وهذا ما يفعله بالضبط القلم

المعروف؛ حيث يصنع من الحبر (والحبر هو المادة العشوائية أو غير المنتظمة) خطوطاً ويخط كلمات وجمل ذات معنى محدد ومفهوم. من هنا يمكن القول بأنّ النون على ما يبدو هو المادة الخام؛ نقطة البداية، أو المادة الأولية، والقلم هو الآلية التي رتبت هذه المادة المبعثرة، وخلقت منها تكويناً له معنى.

قد يكون هذا النون هو الاهتزازات الأولى (نظرية الأوتار الفائقة)، والقلم هو البرنامج المحمل على هذه الاهتزازات؛ والذي من خلاله استطاعت هذه الاهتزازات التجمع والانتظام؛ لتعطي أول ذرة في الكون، ومن ثم بدأ التضاعف في شكل متوالية هندسية؛ حتى صار الكون بهذا الشكل، وما زال يتسع ويمتد بشكل مستمر. قد تكون النون هي المادة الأولية التي جاء منها الحمض النووي أو أي مادة أولية ترتبت عن طريق القلم لتعطي كيان ذو معنى.

إذا كانت الآية الكريمة في سورة الطور تصف الاصطفاف والانتظام الذي أسس لوجود الحياة؛ فإنّ بداية سورة القلم تخبرنا عن النشأة الأولى لهذا الكون قبل وجود الحياة. (الكتاب المسطور) في سورة الطور يتطابق تماماً مع خصائص وصفات المعلومات، والبيانات المدونة داخل الحمض النووي المسمى بـ(DNA). مرة أخرى لا بد من التفريق بين المعلومات والبيانات؛ بوصفها شيئاً غير مرئي، وبين الكيان المادي الذي يحمل تلك المعلومات. إنّ هذه البيانات والمعلومات لا بد أن تكون مسجلة على شيء ما؛ مثال ذلك: المعلومات والبيانات المسجلة على الشريحة الذكية في أجهزة الاتصالات، فما هي الشريحة المسجل عليها البيانات والمعلومات الخاصة بالكائن الحي؟

الآية الثالثة: (في رَقٍّ مَنشُورٍ)

لم يزد المفسرون في تفسير الرق المنشور عن القول بأنه كتاب أو صحيفة، بينما أصل الكلمة في اللغة وفهمها من خلال السياق يشير إلى شيء آخر. جاءت كلمة رَقٍّ في معاجم اللغة بمعنى: جلد رقيق أو ورق، أما في قاموس اللغة لابن فارس: فجذر كلمة رَقٍّ لها أصلان؛ أولهما: صفة مخالفة للجفاء (رقيق)، والآخر اضطراب في شيء مائع.

إذن الرق هو شيء دقيق رقيق، من المفترض أن يكون الكتاب المسطور مدوناً عليه؛ أي أن الرق هو السجل أو الشريحة الذكية التي تحمل الكتاب المسطور. كلمة منشور جذرها: (نشر)، ولها أصل واحد كما في قاموس اللغة: وهو فتح الشيء وتشعبه؛ فنحن نتحدث عن انتشار هذا الرق بشكل كبير.

بمقارنة كل هذه المعطيات نجد أن أقرب وصف للرق المنشور هو شريط الحمض النووي؛ الموجود في النواة، والذي يحمل البيانات والتعليمات. رقة ودقة الشريط النووي، وقدرته على حمل كل المعلومات الخاصة بالكائن هي ما جعلتنا نقول: أن الرق المنشور هو شريط الحمض النووي.

الحمض النووي منشور حرفياً؛ حيث إن كل خلية حية تحوي شريط حمض نووي خاص بها. ولو أمكننا استخراج جزئيات الحمض النووي من خلية واحدة وربطها معاً؛ فسوف يصبح طول هذا الخيط ما يقارب مترين (8.1 متر)، وبفرض أن جسم الإنسان يحتوي على 100 تريليون خلية، فإننا نتحدث عن حمض نووي طوله 177 مليار كيلو متر.

الآية الرابعة: (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)

فسر المفسرون البيت المعمور أنه بيت في السماء السابعة، أو البيت الحرام؛ غير أن تفسير ابن عاشور يقول: إن هناك إجماعاً على أن هناك بيتاً في السماء السابعة؛ غير أن كونه المقصود بهذه الآية غير صريح. (حقيقة لا أدري ماذا يعني هذا الإجماع الذي يقول أن هناك بيتاً في السماء السابعة وكيف استطاع المجمعون التحقق والجزم هكذا بكل ثقة).

التفسير القديم لا يأخذ في الحسبان سياق الآيات الكريمة والموضوع الذي تتناوله، ويحاول دائماً تفسير الآيات بشكل منفرد؛ مما يخرجها من مضمونها. السؤال الذي يجب أن نطرحه هنا: ما المقصود بالبيت المعمور؟ وما علاقة هذا البيت بالرق المنشور؟

إن جذر كلمة [بيت] له أصل واحد كما جاء في قاموس اللغة: وهو المأوى والمآب، وجمع الشمل. ويقال لبيت الشعر بيتاً؛ لأنه مجمع الألفاظ والحروف والمعاني.

جذر كلمة [معمور] (ع م ر)، ولها أصلان: أولهما بقاء وامتداد الزمن، والثاني علو شيء. من خلال كتاب الله، وخصوصاً الآيات الثلاث التالية؛ نجد أن لفظ (عمر) يفيد البقاء، وهذا البقاء مدعوم بحركة مستمرة، قال تعالى: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) (سورة التوبة: الآية 17).

جاء لفظ يعمر بمعنى: إعمار المساجد بالتردد عليها، أي حركة مستمرة من وإلى المسجد. يقول تعالى: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (سورة هود: الآية 61). استعمار الأرض هنا: بقائهم مع الحركة الدائبة .

وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (سورة الروم: الآية 9).

عمارة الأرض في الآية الكريمة تعني بقائهم مع الحركة المستمرة. بمقارنة المعلومات التي حصلنا عليها؛ نجد أن البيت المعمور ربما يكون المقصود به المكان الذي يحوي الكتاب المسطور المدون على الرق المنشور، وهو النواة التي تقع في مركز الخلية، خصوصاً لو علمنا أن النواة تمتاز بالبقاء أطول فترة ممكنة حتى بعد فناء الكائن الحي نفسه.

العلم حالياً يناقش إعادة الحيوانات المنقرضة التي مر عليها ملايين السنين إلى الحياة مرة أخرى؛ عن طريق إصلاح جزيء الحمض النووي الموجود بالنواة الخاصة بها. إمكانية إعادة كائنات منقرضة منذ وقت قريب لا يعد مشكلة كبيرة؛ بسبب سلامة الحمض النووي لمعظم هذه الكائنات. لا غرابة إذا وصفت النواة بالبيت المعمور؛ وهي التي تتميز بالبقاء أكبر مدة ممكنة محتفظة بصفات وخصائص الكائن نفسه، داخل شريط الحمض النووي الخاص بالكائن.

حتى لا يتوهم القارئ أننا نذهب بعيداً فإننا نذكره أننا أمام كتاب رب العالمين والذي يشرح ويفصل كل شئ تفصيلاً، وعدم إمام الإنسان بمحتواه أو صعوبة الإمام بما فيه لا ينبغي كونه تفصيل وبيان كل شئ. لا يجب أبداً الركون إلى السطحية في تناول كلمات رب العالمين فهذا نوع من الاستخفاف لا يليق وإنما وجب على من لا يعلم التريث قليلاً قبل أن يصادر المعرفة لصالح معرفة سابقة قد تكون خاطئة بل في أحياناً كثيرة كارثية.

الآية الخامسة: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)

جاء في تفسير الطبري في تفسير السقف المرفوع كآتي: «وقوله: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) السماء، عن مجاهد (السقف المرفوع) : قال: السماء. عن قتادة (والسقف المرفوع) سقف السماء. قال ابن زيد، في قوله: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) : سقف السماء.» انتهى التفسير. جذر كلمة سقف له أصل واحد: وهو أطلال وانحناء.

وبالنظر لورود كلمة سقف في كتاب الله نجد أن كلمة سقف تدل على شيء مرتفع يحيط بشيء آخر؛ وكأنه حدود لهذا الشيء؛ وبما أننا نتحدث عن المستوى الخلوي فأعتقد أن المقصود بالسقف المرفوع هنا: الغلاف النووي الذي يحيط بمكونات النواة ويفصلها عن باقي مكونات الخلية.

قد يكون المقصود بالسقف المرفوع هو الغشاء الخلوي للخلية، والذي يفصل مكونات الخلية عن باقي الخلايا الأخرى، ولكنني أميل إلى وصف السقف المرفوع بالغلاف النووي.

لا أعتقد أن الألفاظ تصف شئ آخر فلدينا لفظ الطور والسورة الكاملة التي تسمى الطور وهي نتحدث عن عملية في غاية التعقيد وليست سهلة أبداً ولا بد للألفاظ المتابعة في هذه الآيات أن تكون على علاقة وثيقة بلفظ الطور وعملية التطور.

تفسير الآيات بشكل منفرد بحيث كل آية تذهب منفردة لوصف شئ ما دون ثمة علاقة بين هذه الأشياء بعضها البعض هو ما يجب أن يلفت الانتباه ويثير التساؤلات.

الآية السادسة: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

جاء في تفسير الطبري للبحر المسجور ما يلي: «وقوله: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) اختلف أهل التأويل في معنى البحر المسجور، فقال بعضهم: الموقد. وتأويل ذلك: والبحر الموقد المحمي. عن سعيد بن المسيب، قال: قال علي رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ فقال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً، (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ مخففة. عن شمر بن عطية، في قوله: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) قال: بمنزلة التُّور المسجور. عن مجاهد (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) قال: الموقد. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وإذا البحار مُلئت، وقال: المسجور: المملوء. عن قتادة قوله: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) الممتلئ.» انتهى التفسير.

الكلمات القرآنية كما نحب أن نؤكد تصف حالة معينة، ولا تصف جنساً، ولا يمكن فهمها إلا من خلال سياق الجملة؛ والبحر كما في قاموس اللغة لابن فارس: له أصل هو السعة والانبساط، ويقال فلان بحر علم، أي واسع الاطلاع، وبحر في المال؛ أي سخي وكريم.

لفظ [بحر] في كتاب الله جاء مرة يصف المساحات المائية العذبة، ومرة المساحات المائية المالحة. قال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة فاطر: الآية 12).

من خلال سياق الآيات التي تتحدث عن التطور وجزئيات ال (DNA) نجد أن أقرب وصف يمكن أن ينطبق على مفهوم البحر هو الخلية، وما تحتويه من سائل (سيتوبلازم الخلية)، ومما يعزز هذه الفرضية ويقويها هو وصف هذا البحر المسجور؛ أي أنه في حالة إيقاد أو اشتعال خفيف.

بالنظر إلى حجم العضيات داخل سائل الخلية وهي تسبح، ونسبتها إلى مساحة الخلية نفسها؛ لن نستغرب وصف هذا السائل بالبحر. لدينا دليل آخر على أن البحر المسجور يقصد به على الأرجح (سيتوبلازم الخلية)؛ وهو فهم عمل الخلية، ومدلول لفظ مسجور نفسه من خلال اللغة.

الخلية الحية تحوي بداخلها مكونات عديدة؛ منها النواة نفسها وعضيات وجسيمات عديدة، جميعها يسبح في سائل يسمى: السائل الخلوي، ويحيط بهذا السائل - كما ذكرنا - غشاء يسمى الجدار الخلوي، وهذا الوصف وهذه الحالة تنطبق تماماً مع وصف البحر؛ ولكن على المستوى الخلوي.

أصل كلمة [مسجور] هو (س ج ر)، وكما جاء في قاموس اللغة: الإيقاد. نلاحظ كذلك أنّ كلمة سجر تختلف عن كلمة أوقد؛ فصوت حرف السين فيه من السلاسة والخفوت ما يدل على أنّ عملية السجر هي عملية إيقاد خفيف.

بمقارنة تلك المعارف مع المعلومات العلمية نجد أنّ هذا المعنى ينطبق تماماً مع وظيفة مولدات الطاقة (الميتوكوندريا) في الخلية ووصفها، والتي من أهم صفاتها وخصائصها أنها تسبح في الخلية محملة بالطاقة. على هذا النحو يصف العلماء الميتوكوندريا؛ بأنها تسبح في سيتوبلازم الخلايا، وهي مصدر الطاقة؛ بحيث تزود الخلية بكل ما تحتاجه من الطاقة.

يقول العلم إنّ عدد (الميتوكوندريا) يصل إلى المئات في بعض الخلايا، باستثناء الخلايا البسيطة التي يمكن أن يوجد فيها عدد قليل. تسبح الميتوكوندريا في السائل الخلوي، وتنتج طاقة حرارية عن طريق تفاعلات كهروكيميائية داخلها؛ مما يجعلها مصدر الطاقة في الخلية. إننا بالضبط نتحدث عن بحر مسجور من خلال عدد كبير من مولدات الطاقة المسماة بـ(الميتوكوندريا).

تعتبر بداية سورة الطور من البدايات غير المفهومة للمفسرين، والتي جاءت معظم التفاسير متفاوتة حولها؛ وذلك بسبب المعارف العلمية المتواضعة وقتها، ولكن عندما أضفنا البعد الخاص بالمعلومات العلمية، وتفسير كلمة الطور، استطعنا إيجاد علاقة بين الآيات بعضها ببعض، المرتبطة بالتطور والمكونات تحت الخلوية.

ها نحن ننهي من تأويل الآيات الكريمة، ونصل إلى ما مفاده: إنّ التطور عملية قائمة ومستمرة، ودُكرت بالتفصيل بعدد غير قليل من الأدلة والبراهين والإشارات القرآنية التي لا تخطئها العين.

هل نظرية التطور ضد الأديان بصفة عامة؟

لابد للباحث أن يفرق بين ظاهرة التطور ونظرية التطور بوصفها فلسفة اعتمدت على الاستنتاجات العلمية.

نحن في كتابنا -الجزء الثالث- نناقش التطور من منظور كتاب الله، والذي يتفق في أحيان كثيرة مع ما جاءت به نظرية التطور لداروين، ويختلف معها في بعض النقاط اعتماداً على تحليل اللفظ القرآني. أما فلسفة نظرية التطور فهذا ليس شأننا؛ وهو تفاعل البشر مع النتائج العلمية لنظرية التطور، ويعكس مدى قدرتهم على فهم هذه النتائج. عندما تؤسس نظرية التطور أهم مبادئها: وهو الصراع من أجل البقاء، ثم يترتب على هذا المبدأ استعمار وقهر شعوب؛ فهذا ليس عيباً في نظرية التطور العلمية، ولكن العيب في الإنسان الذي يرغب في تطويع كل فكرة لتخدم أغراضه.

إن فكرة الصراع من أجل البقاء بين الكائنات قد لا تكون بنفس العنفوان الذي دونته نظرية التطور، ولكن هذا لا ينفي أبداً أن غريزة البقاء لدى المخلوقات هي المحرك الرئيس للتكيف وملائمة الكائن للبيئة. قد يكون تعبير غريزة البقاء أفضل من تعبير الصراع من أجل البقاء؛ للتعبير عن فكرة التطور، خصوصاً مع تمييز الإنسان بالإدراك والوعي؛ فإذا تحدثنا عن الصراع من أجل البقاء قبل وجود الإنسان، فإننا نعتقد أن هذا المبدأ ربما يكون المسيطر في الحقب السحيقة.

لقد أعطى القرآن إشارات على احتمالية وجود مثل هذا النوع من الصراع؛ عندما تحدث عن سفك الدماء الذي حدث من قبل المخلوقات التي سبقت وجود الإنسان على الأرض، كما ذكرت الملائكة هذه الحقيقة عندما قالت في سورة البقرة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة : آية 30).

من المستساغ أن يكون الصراع من أجل البقاء هو ديدن المخلوقات السابقة؛ ولكن بوجود الإنسان أصبحت غريزة البقاء هي المسيطرة على المخلوقات، غير أن الإنسان اعتنق مبدأ الصراع من أجل البقاء؛ بسبب حرية الإرادة التي يمتلكها، وبسبب جهله بالهدف والغرض من وجوده على هذه الأرض.

هذا الجهل تبلور في الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان، وفي كثير من الأحيان بين الإنسان والطبيعة. يبدو لنا أن مسألة الصراع من أجل البقاء مسألة في غاية الأهمية، ويبدو أيضاً أنها كانت سبباً مباشراً في الانقراض الكبير الذي حدث في التاريخ السحيق، والذي سوف نتناوله من خلال سورة الفيل في نهاية هذا الباب.

عندما تطور الإنسان وأصبح أكثر وعياً وأكثر إدراكاً؛ تبدلت المواقع وأصبح منوطاً به الانسجام مع الكون وتحقيق التوازن مع باقي المخلوقات، وتجنب فكرة الصراع من أجل البقاء التي اعتنقها أسلافه. لقد وضع الله نظام توازن في هذا الكون، وطلب من الإنسان الانسجام معه، بل محاولة إعادة الاتزان في حالة حدث خلل في هذا الاتزان.

بسبب النقص المعرفي أصبح الإنسان -للأسف- مصدر إزعاج في هذا الكون، بل أصبح الممثل الرسمي لفكرة الصراع من أجل البقاء، وإلا كيف نفسر استغلاله لفكرة علمية في تطبيق فلسفة الاستعمار والتعدي وإبادة الأجناس الضعيفة.

بعض المفكرين المسلمين يعتقدون أن نظرية التطور هي السلم الذي تسلقه الملحدين لإنكار وجود الله؛ عندما أنكرت النظرية حقيقة الخلق؛ وبالتالي وجود الله. الحقيقة أن النظرية في كثير من جوانبها لا تصطدم مع القرآن؛ لأن القرآن حالة خاصة جداً؛ فهو كلام الخالق، وهو مرآة الكون، واللفظ القرآني والكلمة الكونية يعملان بشكل منسجم، ومن خلال فهم أحدهما

يمكن فهم الآخر، ولا ينشأ الاختلاف والتعارض إلا بسبب نقص المعرفة وسوء الفهم. إذا كانت نظرية التطور في أغلبها لا تتعارض مع القرآن الكريم؛ لكن بالتأكيد تصطدم وتتعارض مع تأكيدات رجال الدين وفهمهم للقرآن الكريم؛ والقرآن لا يقول بالخلق المنفصل ويقول بالتطور فكيف يتعارض ذلك مع وجود الله.

بسبب إصرار رجال الدين على أفكارهم مقابل أدلة علمية والادعاء أنّ فهمهم هو مراد الخالق؛ كان لا بد للجانب الآخر وهو جانب الإلحاد أن يقول بعبثية فكرة الخالق، وإذا أصر رجل الدين على أنّ الخالق ذكر الخلق المنفصل وينفي التطور، بينما الأدلة تقول بالتطور؛ فالنتيجة لا يوجد خالق لأنه لا يعرف ما حدث.

بسبب بعض العقول المتحجرة حدثت فجوة بين نظرية التطور وبين كلام رب العالمين؛ مما أدى إلى وجود الأفكار المادية الصرفة؛ والتي تقول إنّ العالم ما هو إلا مادة بلا غرض أو غاية. إنّ الغرض والغاية من حياة الإنسان لا يمكن إثباتها بالعقل؛ على الأقل في الوقت الحالي. والأسئلة الثلاثة المحيرة وهي: (من أين جئنا؟ ولماذا نحن هنا؟ وما هو مصيرنا؟) تسيطر على عقول الفلاسفة منذ فجر التاريخ.

عندما نجد نصاً إلهياً يخبرنا من أين جئنا بشكل منطقي ومتوافق مع الأدلة والبراهين الثابتة؛ فمن السهولة قبول إجابة الأسئلة الأخرى عن طريق الإيمان الغيبي.

على الجانب الآخر عندما يعتقد الناس أنّ النص الديني يعارض الأدلة التي تثبت من أين جئنا، فلا يمكن إقناعهم بالطرح الذي يتبناه النص الديني لفكرة لماذا نحن هنا وإلى أين سنذهب.

للأسف الشديد كثيرون من يتصدون لنظرية التطور ويحملون درجات علمية من معاهد ومؤسسات في بلدانهم لا يفرقون بين الحقيقة وبين النظرية ويخلطون خلطاً لا يصح ولا يجوز أبداً.

بقدر ما منحنا نظرية الطور القرآنية فكرة عقلية يمكن إثباتها عن مفهوم التطور وكذلك عن نشأة الإنسان كما سوف نرى في الفصل القادم؛ فهي كذلك منحنا فكرة عن الهدف

والغرض من الوجود؛ وخصوصاً وجود الإنسان، والذي سوف نتناوله من خلال التطور المعرفي في الباب الثاني. لو لم يكن لنا في هذا الفصل سوى تصحيح مفهوم الطور، والإشارة إلى أنّ هذا المدلول هو مفهوم التطور المعاصر؛ لكفانا ذلك.

نود أنّ نشير إلى أنّ سورة الطور تحتاج إلى فريق بحثي من علماء اللغة، وعلماء البيولوجيا بكافة فروعها، وعلماء الرياضيات، والإحصاء الحيوي، وإني على يقين تام أنّ الكلمات والتعبيرات القرآنية في هذه السورة، وكذلك سورة القلم؛ سوف تفيض بالمعرفة وتفتح للباحثين طاقات نور لا حدود لها.

إنّ القرآن الكريم مليءٌ بالنظريات المعرفية، والتي لا سبيل لاكتشافها إلا من خلال مؤسسات متكاملة؛ تعي جيداً دورها في فهم وتحليل اللفظ القرآني؛ من خلال قراءة منهجية لكلمات الله، شريطة أن تكون قراءة متحررة من سيطرة التراث حتى تؤتي ثمارها. لك أن تتخيل كم فقدنا من معلومات، وكم تيبست العقول؛ بسبب إغفال مدلول كلمة الطور، والاعتقاد أنها اسم جبل في مكان ما.

لك أن تتخيل لو أنّ عقولاً استطاعت إدراك أنّ هذه اللغة إلهية، وأنّ فهم ألفاظ القرآن ممكن من خلال القرآن ذاته، مع الاسترشاد ببعض المعطيات البسيطة؛ كم من الفوائد كانت ستعود على البشرية من جراء قراءة على هذا النحو وكم من المعارف كانت ستفتح على أيدي هؤلاء الباحثين.

أقول وبكل بساطة لأولئك الذين يرتعبون من فهم كهذا: لا داعي للخوف، فكلمات الله التي أنزلها في كتابه نظمت في شكل يمكن فهمه بشكل علمي سليم، وإن حدث تقصير على مستوى المنهج أو مستوى الفهم فسوف يأتي من يصحح؛ حتى يستقيم لنا أمر منهج علمي سليم، نستطيع من خلاله تحليل اللفظ القرآني؛ وعندها لن يقوى أحد على القول إنّ هذا الكلام ليس كلام رب العالمين.

كم من السنوات مضت وبين أيدينا دليل عقلي على وجود الخالق؛ ولكن للأسف اختفى تماماً؛ بسبب الاعتقاد أنّ منشأ اللغة هم مجموعة القبائل التي كانت تعيش في الجزيرة العربية، بينما اللغة والقدرة على التسمية قديمة قدم الإنسان، وهي منحة إلهية جرى عليها تحريفٌ وتزوير، وجاء القرآن يعيدها إلى أصلها الحقيقي، وينطق بلغة حقيقية تصف المسمى بشكل سليم وحقيقي.

إنّ كما قد وصلنا لنهاية الفصل الخاص بتفسير كلمة الطور، وما حمله من نتائج على عملية التطور؛ فإنّ الفصل القادم يحمل قنابل معرفية - لو جاز لنا التعبير - من العيار الثقيل؛ إنّ خلق الإنسان وما أدراك ما خلق الإنسان.

ملخص الفصل

الطور المذكور في كتاب الله هو عملية التطور بفهمنا المعاصر، وليس له أي علاقة بالجبال.

رفع الطور على بني إسرائيل يعني زيادة معدل تأثير التطور عن معدله الطبيعي. قد توجد بقعة مباركة تدعم التحولات الجينية بشكل إيجابي، وينطبق عليها وصف الطور؛ بسبب صفة الطور الملازمة لها، وهو لا شك معنى فرعي مقتبس من حالة الطور ذاتها. سورة التين تحمل دلائل وإشارات على عملية التطور، وعلاقة التين بتقويم الإنسان. سورة الطور هي السورة المعنية بوصف عملية التطور على المستوى الخلوي؛ وخصوصاً الآيات الأولى منها.

التطور لا يعارض كتاب الله أبداً، بل جاء مفصلاً في القرآن الكريم، والتعارض يقع فقط عند بعض تفسيرات السابقين.

الفصل الثالث الإنسان

تناولنا في الفصل السابق نظرية التطور من خلال فهم مدلول كلمة الطور، وتساءلنا من أين أتى المنكرون لهذه النظرية بكل هذه الثقة ليقولوا: إنَّ الإنسان خُلِقَ خُلُقًا كاملاً دون تطور؟ مع أن ذلك لم يذكر صراحة في كتاب الله.

الحديث عن "آدم" بصفة خاصة، وخلق الإنسان بصفة عامة؛ جاء في كتاب الله في مشاهد قرآنية عديدة، وكل مشهد من هذه المشاهد الرائعة يعطي جزءاً من الصورة الكلية، وكل ما علينا هو محاولة تجميع أجزاء هذه الصورة، وترتيبها، وترتيبها لنحصل على الصورة كاملة.

أول آية في كتاب الله - من ناحية ترتيب المصحف - أشارت لبزوغ فجر الإنسان؛ قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: الآية 30).

هذه الآية الكريمة يفهمها الكثيرون على غير معناها، حيث يرون "آدم" خليفة لله عز وجل في الأرض، ومن الغريب أنك لا تجد هذا التأويل السائد في التفاسير؛ وإنما تجده في حكم القول الشائع، أو ربما ذكره أحد في كتبه، أو رددته أحدهم دون مرجعية حقيقية.

لو وقفنا فقط على كلمة [جعل] وكلمة [خليفة] وبحثنا معانيهما بتأنٍ كما وردت في كتاب الله، واستعنا بجذور اللغة؛ لتكشفت لنا حقائق، وحلت إشكاليات ومعضلات كثيرة. إنَّ استخدام كلمة [جعل] - حصراً - بدلاً من لفظ [خلق] أو لفظ [أنشأ] له دلالة يجب أن تلفت انتباهنا؛ لأنَّ الاعتقاد بأنَّ أفعال مثل [خلق وجعل وأنشأ] هي ألفاظ مترادفة؛ على نحو يمكن لأحدها أن يحلَّ محلَّ الأخرى هو اعتقاد ساذج وسطحي لدرجة كبيرة، واستهانة بقدر

كلمات الله و بلاغتها وإعجازها. سنحاول أن نبيّن سريعاً الفرق بين الخلق والنشأة والجعل، كما بيّنا في الفصل السابق الفرق بين الخلق والنشأة والإنبات.

تُعدُّ كلمة [أنشأ] هي الكلمة العامة التي اختص الله سبحانه بها نفسه؛ فكل المواضع التي ذكرت فيها كلمة [أنشأ] أو أحد مشتقاتها في كتاب الله كانت خاصة برب العالمين سبحانه وتعالى، وهي تعني التحول المطلق والكامل، بالعلم والقدرة المطلقة، على مستوى العلاقات المادية والعلاقات غير المحسوسة؛ إذا اعتبرنا أنّ المخلوق الحي هو مجموعة من العلاقات الفيزيائية المادية والعلاقات اللامادية، إضافة إلى العلاقات المعرفية التي تميز الإنسان عن باقي المخلوقات.

أما كلمة [خلق] فهي أقل درجة من كلمة [أنشأ]؛ وتعني التحول الذي يسبقه الإعداد والتقدير والتهيئة، وتعمل على المستوى المادي والعلاقات الفيزيائية؛ وهي بخلاف فعل [أنشأ] الذي اختص به رب العالمين نفسه في كتابه، نجد أن فعل [خلق] اتصف به الإنسان كذلك. احتمالية وجود خالقين غير الله قائمة، ولكن الله هو أحسن الخالقين؛ كما ذكر ذلك ربنا في كتابه.

قدرة الله على الخلق هي قدرة محيطة بعلم محيط، بينما قدرة المخلوق على الخلق محدودة بالعلم والقدرة المتاحة لهذا المخلوق. الخلق: هو التحول على المستوى المادي، وهذا المفهوم واضح بشكل كبير عندما كان نبي الله عيسى يصنع من الطين كهيئة الطير؛ فسمى القرآن هذه الحالة بالخلق؛ إذ كان التحول واضحاً من صورة إلى صورة أخرى، ولكن على المستوى المادي أو حتى الظاهري.

كلمة [جعل] تعني تحولاً جزئياً في الهيئة، ولا تعني أبداً تحولاً كاملاً وشاملاً كفعل [أنشأ] أو تحولاً كاملاً على المستوى المادي كفعل [خلق]. لو استعرضنا مواضع ذكر كلمة [جعل] في كتاب الله؛ سندرك بكل بساطة ما تعنيه عبارة تحول جزئي، أو تغيير في الهيئة نفسها دون تحول كامل.

سوف نستعرض بعض الآيات التي ورد فيها لفظ [جعل] دون كل الآيات؛ تجنباً للإطالة.

قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: الآية 22). الجعل هنا تغير في الوظيفة؛ فالأرض مخلوقة بالفعل؛ ولكن طرأت عليها تغيرات فتحوّلت فراشاً، وكذلك السماء أصبحت بناءً؛ لتناسب وظيفتها هنا؛ في أن تكون أحد أسباب نزول الماء.

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (سورة البقرة: الآية 136). الجعل هنا أيضاً تحوّل في حالة البلدة المخلوقة بالأساس؛ من كونها غير آمنة أو ذات حالة عادية، إلى حالة الأمان والاستقرار.

قال تعالى: (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (سورة آل عمران: الآية 41).

هذه الآية الكريمة تتحدث أيضاً عن جعل آية لنبي الله زكريا؛ فالآيات موجودة بالفعل، ولكن ما سوف يطرأ عليها هو أن تكون أحدها لنبي الله زكريا.

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) (سورة المائدة: الآية 20).

الأنبياء من البشر العاديين، ولكن حدث تغيير جزئي؛ وهو اصطفاء الله سبحانه وتعالى لهؤلاء البشر؛ فصاروا أنبياء؛ فالجعل هنا هو تحوّل من حالة الإنسان العادي إلى حالة الاصطفاء، واختياره نبياً. هذا باختصار شديد هو الفرق بين [جعل وخلق وأنشأ].

الآية الكريمة التي بين أيدينا تتحدث عن الجعل؛ أي أنّ هناك مخلوقاً أو موجوداً ما، ولكن ليس بخليفة، والتحوّل الذي سيحدث هو ما سوف يجعله خليفة.

فما هو مدلول كلمة خليفة؟

أصل كلمة [خليفة] هو خلف، وكما جاء في قاموس اللغة لها ثلاثة أصول: الأصل الأول: شيء جاء بعد شيء يقوم مقامه، والأصل الثاني: خلاف قدام، والأصل الثالث: التغيير. أرجح القول إنه لا يمكن أن يكون الإنسان خليفة لله، ولم يرد هذا التفسير في الكتب المشهورة؛ بل ذكرت التفاسير أنّ كلمة خلف تعني شيئاً جاء بعد شيء قام مقامه وحل محله؛ والإنسان لا يمكن أن يخلف الله بمعنى أن يقوم مقامه في الكون؛ فهذه الفرضية غير قائمة، ولا بد أن نقف على الآية القرآنية التي ذكرت أنّ الله جاعل في الأرض خليفة بدون إضافة الخليفة لشيء ما. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإنسان خلف الجن، وهذه الفرضية ينفيها القرآن ويدحضها؛ حيث إنّ جميع مشتقات لفظ خلف بينت نوعاً واحداً أو جنساً واحداً.

لا شك أنّ خلق الإنسان يختلف عن خلق الجن، وليس الإنس خليفة للجن؛ حيث إنّ المادة الأولية للمخلوقين تختلف اختلافاً بيناً؛ فهذا الإنسان مخلوق من طين، في حين أنّ الجن مخلوقون من نار، بنصّ القرآن. لقد عبر القرآن عن الخلق الجديد بتعبير قرآني آخر، غير تعبیر خليفة؛ حيث قال بشكل واضح: خلق جديد، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُودُ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) (سورة إبراهيم: الآية 10).

لو أنّ الإنسان حل محل الجن فهو بمثابة خلق جديد؛ وليس خليفة للجن، وكذلك الجن لم ينته وجودهم؛ بل يعيشون في بُعد آخر؛ غير البعد الذي نعيش فيه؛ ولذلك لا نستطيع رؤيتهم. إنّ الوقوف على لفظ خليفة وفهمه سوف يصيبنا بالذهول؛ من دقة تعبیر القرآن الكريم وإعجازه في استخدام الألفاظ؛ فكلمة خليفة تحمل مجموعة من الصفات والخصائص، وتصف حالة فريدة انطبقت تماماً على آدم عليه السلام، وكذلك انطبقت على نبي الله داوود.

دون الخوض في التفاصيل، سنكتفي بالقول إنّ لفظ خليفة تعني المخلوق الذي جاء من سلف مثيل، ولكن حدث له تغيير، وتم توريث هذا التغيير لمن يخلفه؛ فأصبح بذلك كأنه

مؤسس لشيء ما، أو رائد في شيء ما، وهذا الطرح يحل الإشكالية التي تقول: كيف للملائكة أن تعرف أن هذا الإنسان سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

من الواضح أن الملائكة عاصروا وشاهدوا سلفاً لهذا الإنسان لم يكن على قدر المسؤولية؛ حيث تعطي الآية الكريمة احتمالية أن هناك كائنات سابقة لوجود الإنسان الحالي، استعمرت الأرض وانتهى وجودها بسبب سوء تصرفاتها وسلوكها المنحرف. لن يكون قياس الملائكة صحيحاً إلا إذا كان لدى الملائكة معرفة سابقة بهذه الكائنات، وأن الخليفة الجديد قادم من سلفه القديم المنحرف؛ ولكن بالتأكيد كانوا يجهلون التغيير الذي طرأ عليه، وجعله خليفة أكثر ملاءمة وكفاءة لتحمل المسؤولية.

كذلك يحمل لفظ خليفة بعداً آخر وهو في حد ذاته تكليف، وكأن الإنسان بهذا الإعلان أصبح مسئولاً حقيقياً وأصبحت له السيادة وقوة ما سوف تعينه على تولى هذه المسؤولية. لقد تمثلت هذه القوة بسجود الملائكة كما سوف نرى وحرية الإرادة التي امتلكها؛ وكذلك الوعي والإدراك المتنامي والذي سوف يصبح من أهم صفات وخصائص هذا الخليفة القادم.

إن أي محاولة حقيقية لفهم خلق الإنسان، وبداية الخلق، وإمكانية التطور؛ لا بد أن تمرّ من خلال فرز وترتيب وفهم مدلول الكلمات التي استخدمت في وصف خلق الإنسان، مثل كلمة [بشر]، [إنسان]، [طين]، [تراب]، [أمشاج]. بعد ذلك لا بد أن نقف طويلاً أمام سورة الإنسان، ونحاول فهم وتأويل الآيات الأولى؛ لأنّ تسمية سورة كاملة في القرآن بمسمى معين عودنا أن يحل ألغازاً عديدة حول هذا المسمى.

الفرق بين البشر والإنسان

عندما حاول كلاً من حاج حمد المفكر السوداني، ومن بعده الدكتور شحور المفكر السوري فهم الفرق بين الإنسان والبشر، والانطلاق من هذا الفرق للقول بعدم الخلق المنفصل؛ جعلوا الإنسان أكثر رقياً من البشر ولكن عندما اتبعت المنهج الخاص بالكتاب وجدت أن النتائج مختلفة؛ فرغم أن هذا الفرق هو أحد الأدلة اللغوية من كتاب الله على الخلق المتصل،

أو ما نسميه بالتطور؛ إلا أنّ الأدلة التي سوف نقدمها تباعاً أكثر غزارة مما كنا نظن ونعتقد، وسوف نحاول جهدنا بيان الأدلة قدر استطاعتنا.

يصر التقليديون أنّ لفظ إنسان ولفظ بشر ما هي إلا مترادفات ليس بينها فروق تذكر، لكنّ هذه الفرضية لا تقيم وزناً للمسميات وطريقة التسمية. الكاتب المحترّف يتعمد استخدام لفظ معين في موضع ما، ويتجنب استخدام مرادف قد يؤدي نفس المعنى؛ بسبب رغبته في التعبير بدقة عن فكرة معينة؛ لا يقوم بها إلا هذا اللفظ من وجهة نظره؛ فما بالكم برب العالمين؟

أولاً: لفظ إنسان

جذر كلمة إنسان هو [أنس] ، الهمزة والنون والسين، ولها أصل واحد كما جاء في قاموس ابن فارس: وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف التوحش. الإنس يوحى بالمؤانسة، والقدرة على التعامل مع الآخرين بشكل منظم، وتكوين مجتمعات راقية نوعاً ما، تقوم على مبدئين أساسيين هما: الاطمئنان والثقة. والتوحش عكس الإنس؛ إذ عماد التوحش العدوانية والتحفز، مع عدم الاطمئنان أو الوثوق بأحد؛ ويتضح هذا المعنى من خلال آيات الذكر الحكيم التالية.

الآية الأولى

قال تعالى: (وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا) (سورة النساء: الآية 6). آنستم: أي اطمأنتم، ووثقتم بأنهم راشدون.

الآية الثانية قال تعالى: (إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى) (سورة طه: الآية 10).

آنس ناراً أي: اطمئن لها؛ لذلك ذهب إليها؛ لعله يجد هدى، ويأتي منها بخير. لفظ الإنس - كما يبدو من الآيات وجذور اللغة- هو لفظ يصف حالة سلوك اجتماعي، عماده

الأساسي الاطمئنان والثقة، وهي الدعائم الرئيسة لتكوين المجتمعات؛ مما يتيح تبادل المنفعة بشكل ما.

لفظ إنسان بالمجمل يوحي بقدره هذا الكائن على تكوين شكل من أشكال المجتمعات الراقية؛ حيث الاستقرار والقدرة على الاستفادة، وتوظيف مهارات الأفراد لصالح المجتمع بشكل يعكس اطمئنان وثقة كل فرد في محيطه بقدر معقول.

ثانياً: لفظ بشر

كلمة بشر جذرها - كما في قاموس اللغة- يعنى ظهور الشيء مع الحسن والجمال.

هذه الكلمة غير واضحة بشكل كامل في قاموس اللغة، ومدلولها في كتاب الله شيء آخر؛ فمن خلال تتبع الكلمة في كتاب الله -وبشيء من التريث- سوف نكتشف مدلولاً للكلمة يعطينا لمحة ودلالة لا يمكن تجاوزها عن مراحل تطور الإنسان.

جاءت كلمة [بشرى] المشتقة من كلمة بشر في كتاب الله بمعنى علامة ودلالة للمؤمنين، وجاءت مرة أخرى بمعنى علامة ودلالة للكافرين، وجاءت مرة ثالثة بمعنى علامة ودلالة للناس بصفة عامة.

الآية الأولى: قال تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (سورة البقرة: الآية 97). (بشرى للمؤمنين)؛ تنزيل الكتاب وتصديقه للواقع علامةً ودلالةً لأصحاب الإيمان؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

الآية الثانية: قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (سورة آل عمران: الآية 21).

(بشرى للكافرين)؛ فمن يكفر ويقتل النبيين ويقتل أهل المعروف وأهل القسط؛ هو بحد ذاته علامة ودلالة على استحقاتهم العذاب الأليم.

الآية الثالثة: قال تعالى: (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (سورة آل عمران: الآية 136). (بشرى للمؤمنين)؛ الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة تتحدث عن المدد الإلهي المتمثل في الملائكة؛ حيث جعله الله بشرى؛ أي علامة ودلالة على النصر.

الآية الرابعة: قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة الأعراف : الآية 57).

(بشرى للناس عامة)؛ إرسال الرياح - ولاحظ هنا لفظ الرياح الذي دائماً يقترن بالخير، بعكس لفظ الريح الذي يقترن دائماً بالعذاب والكوارث- هو علامة ودلالة شديدة الوضوح على الخير القادم . من خلال الآيات الكريمة السابقة، وجذر كلمة [بشر] نجد أن العامل المشترك هو العلامة والدلالة؛ حيث إن كلمة [بشرى] تعني دلائل وإشارات أو معارف معينة يستطيع من خلالها المرسل إليه بيان المقصود، أو استخلاص نتيجة معينة.

الفهم السائد أن البشرى شيء جيد وشيء من الخير؛ لا يدعمه مدلول الكلمة في كتاب الله؛ إذ جاءت تصف دلائل وعلامات تدل على العذاب الموجه إلى الكافرين كذلك. كلمة بشرى هي كلمة تصف حالة عامة لا خير ولا شر فيها؛ وإنما تدل على دلالة وإشارة. فهي مجموعة معطيات يستطيع الشخص التعامل معها، واستنتاج نتيجة محددة. إذا كانت المعطيات تصب في الاتجاه الإيجابي فهي علامة فرح وسعادة، وإن كانت تصب في الاتجاه السلبي فهي علامة للحزن والحسرة، وإن كانت مجرد معلومات فقط؛ فهي إخبار معرفي كما في حالة السحاب الذي يرسله الله بشرى بنزول المطر.

بعد هذا السرد والتفصيل لكلمة [بشرى]؛ نستطيع أن نقول إن لفظ البشرى يختلف عن الإنسان، وبينما الصفة الرئيسة للإنسان هي المؤانسة والاجتماع وتكوين مجتمعات، نجد أن

البشر امتلك صفة وخاصة لا يمكن إغفالها، دلت عليها التسمية؛ حيث امتلك هذا البشر قدرة على تحليل المعلومات والمعطيات التي بين يديه ليستخرج منها استنتاجات منطقية.

البشر هو المرحلة الراقية والمتقدمة من الإنسان، ولعل هذا التطور هو الذي حدث للإنسان؛ حيث أصبح بشراً قادراً على فهم الدلالات والإشارات والتعامل معها. التحول من إنسان إلى صفة بشر يبدو أنها كانت تحولات ساعدت على ظهور اللغة أو أن يصبح الإنسان جاهزاً لوصف المسميات والتعبير عن أفكاره.

إذا كان الإنسان هو المخلوق الاجتماعي، فإنّ البشر هم مجموعة ذات قدرات عقلية متطورة سمحت لهم بالتحليل والاستنتاج. على ذلك يمكننا استنتاج أنّ صفة الإنسانية قد سبقت صفت البشرية، أو أنّ طور البشر أكثر تطوراً من طور الإنسان؛ وفي السطور القادمة سوف نلتقي بمزيد من الأدلة على كون البشر مرحلة جاءت بعد الإنسان وهي مرحلة راقية ومتطورة نوعاً ما.

تطور الإنسان من كائنات أقل

كثيرة تلك الآيات في كتاب الله التي تلقي الضوء على خلق الإنسان، وتعطي لمحات على تطوره من كائنات سابقة وأقل رقياً كما سوف نرى في السطور القادمة ولكن دعونا نبدأ بهذا السؤال . إذا كانت بداية خلق الإنسان واضحة هذا الوضوح في كتاب الله؛ فما الذي دفع القدماء والمفسرين للقول بعدم إمكانية تطور الإنسان من سلالة قبله؛ بحجة أنه يعارض القرآن الكريم؟

هذا الانغلاق - في رأيي - كان بسبب ثلاثة أسباب رئيسة:

أولاً: قلة المعارف وندرة المعلومات التي تدرس عن تطور الكائنات؛ وفي قلبها الإنسان.

ثانياً: تفسير الآيات القرآنية منفردةً عن بعضها البعض.

ثالثاً: طغيان روايات العهد القديم، وتصورات بشرية عن خلق الإنسان باعتبارها

حقائق مطلقة.

أضف إلى ذلك العامل النفسي الذي يمنع الإنسان من تقبل هكذا حقيقة فهو يعد نفسه أهم بكثير من كونه كائن منحدر من كائنات أقل رقيًا.

عندما اكتشف العلم أن الأرض ليست مركز الكون وأنها نقطة ضئيلة في هذا الكون، كان هذا الاكتشاف صفة قوية لغرور الإنسان، الذي كان يعتقد أنه مركز الكون؛ وعندما جاءت نظرية التطور قضت على البقية الباقية لديه من غرور وكبر. اليوم أصبح من العسير على الإنسان الإنسحاب هكذا ببساطة من المركزية المتغلغلة في نفسه.

سوف نحاول فهم المشاهد القرآنية العظيمة التي ذكر فيها خلق الإنسان ووجود آدم، كما سوف نقرأ كلَّ مشهد على حدة، حتى إذا وصلنا إلى المشهد الأخير أعدنا ترتيب المعلومات، واستخلصنا النتيجة النهائية.

المشهد الأول في خلق الإنسان

قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (سورة آل عمران: الآية 59).

الله سبحانه وتعالى يشبه عملية خلق عيسى بعملية خلق آدم، ولا يمكن ضرب مثال كهذا إلا للتفكير والتدبر، فالله يعلم أن معارفنا عن خلق آدم تتمحور حول الخلق بشكل كامل بدون أي عملية بيولوجية، أما خلق عيسى فقد تم بعملية بيولوجية عادية، غير أنه تم دون عملية التخصيب المتعارف عليها. مقارنة كهذه يجب أن تلفت انتباه الباحثين، ويجب أن تخضع للفحص الدقيق.

عملية خلق عيسى عليه السلام معلومة من القرآن، بعكس عملية خلق آدم التي يحيطها الغموض؛ فخلق عيسى عليه السلام هو عملية بيولوجية بحتة. عيسى عليه السلام تكوّن في بطن مريم، ومريم من البشر، وأصلها كأصل كل البشر، ولا يمكن أن نعتقد أن عيسى عليه السلام تم تخليقه من تراب الأرض، أو تصويره بهيئة كاملة من التراب والطين، ثم وضعه في بطن

السيدة مريم. ما يقصه القرآن بشكل صريح في مسألة ميلاد عيسى عليه السلام هو أنه آية من آيات الله التي تحتاج للتدبر والتوقف.

حملت مريم بعيسى بدون وجود ذكر باشر هذه العملية بشكل طبيعي، ولكن الآيات التالية تشير إلى تولى ملك من ملائكة الله هذه العملية، والتي إن جاز لنا التعبير لوصفناها بعملية طبية بامتياز.

قال تعالى: (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلِيِّ هِينٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21)) (سورة مريم: الآيات 17-21).

عملية إنجاب البشر - كما نخبرنا العلم - لا تتم فقط عن طريق الالتقاء الجنسي التقليدي بين ذكر وأنثى؛ لكن هناك طرق طبية وعلمية يتم عن طريقها إنجاب أطفال، مثل عمليات الحقن المجهرية. وعملية ولادة عيسى نبي الله لا تخرج عن هذا الوصف، وإن كانت معجزةً في وقتها وآيةً للناس، إلا أن العلم حالياً استطاع تفسير كيف يمكن الإنجاب بطريقة أخرى غير طريقة الالتقاء الجنسي المباشر، حتى أن العلم قد تحدث عن استنساخ كائنات بشكل مذهل من الكائن ذاته، بدون الحاجة لذكر، وما زال العلم يتطور ويخبرنا كل يوم عن جديد في هذه العمليات.

سوف نفرّد لنبي الله عيسى ككاتب قادم نتحدث فيه عن التعبيرات القرآنية العجيبة وعلاقتها بميلاده والغموض الذي يلف قصته بشكل كامل. في هذا الجزء سوف نقوم بالتركيز على مسألة خلق آدم والتشابه بين خلقه وخلق عيسى عليهما صلوات ربي.

لدينا تشبيه خلق بخلق، ولدينا معلومات واضحة نوعاً ما عن خلق أحدهم؛ وهو عيسى المسيح، ولدينا شيء مشترك وهو التراب؛ فما هو التراب؟ مع العلم أن هذه هي الآية الوحيدة التي ذُكر فيها خلق آدم من تراب. باقي آيات الخلق التي ذُكر فيها التراب كان بصفة عامة وليست خاصة بآدم، كذلك لا يمكن لعقل القول بأن عيسى خلق من التراب الذي نعرفه، مثل الصورة الذهنية التي لدينا عن خلق آدم.

فما هو التراب؟

جذر كلمة التراب هو [ترب] ولها أصلان بحسب قاموس اللغة: الأصل الأول: هو التراب المعروف وما يشتق منه، والأصل الثاني: هو تساوي شيئين. ومن خلال كتاب الله نجد أن كلمة تراب قد ذُكرت في عشرين موضعاً، جميعها نكرة ما عدا موضعاً واحداً معرفة بـ (ال) وذلك في سورة النحل، قال تعالى:

(يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيَسْكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (سورة النحل: الآية 59).

اللافت للنظر وجود آيتين في كتاب الله يتحدثان عن مراحل التحلل بعد الموت، جاء فيها ذكر التراب سابقاً للعظام بعكس المشاهدات الطبيعية، والتي يكون فيها التراب آخر مرحلة من مراحل التحلل، وذلك عندما تتحلل العظام بشكل نهائي.

(قَالُوا أَأَنْذَرْنَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) (سورة المؤمنون: الآية 83).

(أَنْذَرْنَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ) (سورة الصافات: الآية 53).

عندما يذكر الله التراب قبل العظام فلا بد أن التراب له معنى آخر غير ما نفهمه ولا بد أن يثير هكذا ترتيب شبيهة الباحث لفحص هذا التعبير القرآني. حتى نقف على معنى تراب والفرق بينه وبين التراب المعروف بأل؛ لا بد أن نلقي نظرة على تحلل الجسم بعد الموت حسب الرؤية العلمية.

يقول العلم: إنّ الجسم بعد الموت يمر بعملية تحلل، تشمل جميع الأعضاء والأجهزة والأنسجة، ولا يبقى غير العظام في المرحلة الأولى، وفي هذه المرحلة تتم تجزئة وتفكك المواد العضوية لأبسط عنصر أو جزيء ممكن. المرحلة الثانية: يبدأ فيها الهيكل العظمي بالتحلل حتى يختفى تماماً.

من الواضح أنّ هناك اختلافاً بين نتيجة التحلل الأول للمواد العضوية، ونتيجة التحلل الثاني للعظام؛ لذا كان التعبير القرآني دقيقاً في القول؛ إنّ الإنسان عندما يموت يتحول إلى تراب (الأجزاء العضوية وهي أبسط جزء، جميعها متساوية)، أما العظام فهي تختلف في تركيبها عن الحالة الأولى. كلمة تراب ليست مقصورة على تراب الأرض؛ وإنما هو اسم حالة للمادة؛ وتراب الأرض هو الصورة الأشهر لها.

الوصف القرآني وصف دقيق، ويصف المسمى بكل دقة؛ فلا يمكن أن يكون التراب هو اسم جنس تراب الأرض؛ إذ إنّ تراب الأرض نفسه تختلف مكوناته من بقعة لبقعة، ومن مكان لمكان. بقعة معينة غنية بالمعادن مثل الحديد لا يمكن أن تكون ذات البقعة الغنية بالجير أو ذات البقعة الغنية بالمكونات العضوية؛ فالتركيب -لا شك- مختلف، لكنّ الحالة متشابهة.

ومن هنا تصبح التسمية الحقيقية للتراب هي: وصف الأجزاء الدقيقة المتساوية و المتشابهة. لاحظ أنّ جذر كلمة تراب في اللغة أيضاً هو: تساوي شيئين. هذا الوصف الدقيق ينطبق على كل الجسيمات الدقيقة والمتساوية والمتشابهة، وهي قد تشبه إلى حد كبير مسمى كلمة جزيء في العلوم الطبيعية. الجزيء هو أصغر وحدة من المادة الكيميائية و يحتفظ بتركيب وخواص وصفات المادة؛ أي إنّ جزيئات كل مادة متشابهة ومتساوية.

إذا اجتمعت دقائق من مادة معينة؛ بحيث تكون كل حبيبة تماثل كل حبيبة في التركيب دون زيادة أو نقصان؛ يمكن عندها أن يسمى هذا المكون تراباً؛ ولذلك تمّ فصل ذكر التراب عن العظام؛ إذ عند التحلل الكامل للجسد الميت، تنتج أجزاء متساوية ومتشابهة، تختلف هذه الأجزاء عن ناتج تحلل العظام الغنية بالكالسيوم.

يمكننا لفت نظر الباحثين إلى نقطة هامة لم نجد لها صدىً علمياً، ولكن اللفظ القرآني يشير إليها؛ وهي أنّ الأجزاء المتحللة عند موت كائن تختلف عن الأجزاء الناتجة عن تحلل العظام، وأعتقد أنّ فحص النواتج النهائية باستخدام أجهزة علمية حديثة؛ مثل الميكروسكوب الالكتروني، لكل من نواتج التحلل ليس بالأمر الصعب

عندما ذكرت كلمة التراب معرفةً في كتاب الله، فذلك يعني ما تعارف عليه الناس وهو المسحوق الذي يعلو سطح الأرض حيث تتماثل تركيب الجسيمات وتشابهه؛ ولكن إذا كان الحديث عن خلق شيء من تراب فلا بد أن يُحدد هذا التراب؛ بمعنى: تراب أيّ شيء؟

فإذا لم يحدّد يكون معنى التراب هو الأجزاء الصغيرة، أو جزء صغير متناسق مع غيره، ويحمل نفس الصفات والخواص، ويجب فهمه من خلال سياق الآيات. أحد أركان المنهج المستخدم الرئيسية هو صرف اللفظ إلى أشهر معانيه ما لم توجد قرينة تشير إلى غير ذلك. لدينا قرائن عديدة تشير إلى أن التراب المذكور في الآيات إنما يعني الأجزاء المتساوية بشكل عام ولا يعني التراب المتعارف عليه بين الناس حالياً. التراب المتعارف عليه هو معنى فرعي من لفظ التراب الذي يصف التساوي بين المكونات.

الأجزاء الصغيرة المتساوية من مادة ما هي في الحقيقة تراب؛ كما يدلّ على ذلك اللفظ القرآني ومدلوله أنها: (جزيئات أو خلايا أو أي جسيمات متساوية). بعد تفصيل كلمة تراب وبيان معناها؛ أعتقد أنّ إشكالية خلق آدم من تراب في الآية الكريمة، التي يشبه فيها ربنا سبحانه وتعالى خلق عيسى بخلق آدم؛ أصبحت أكثر وضوحاً وبيانا؛ بحيث صار المقصود بتراب في هذه الآية: الأجزاء الصغيرة المتماثلة، والتي قد تكون وصفاً للبويضات أو وصفاً للحيوانات المنوية.

في حالة نبي الله عيسى وُلد من أنثى بدون ذكر، ولا شك أنّ عملية الإخصاب تمت باستخدام الأجزاء الصغيرة المتساوية؛ وهي البويضات من السيدة مريم، الجزء الآخر وُكِّلَ

به ملك كريم؛ فيما يشبه عملية التلقيح الصناعي، أو ربما بشكل يشبه عملية الاستنساخ؛ كأنَّ الملك الموكل بذلك هو الطبيب الذي قام بإجراء هذه العملية الإلهية.

أُرِّجَّحَ أنَّ لفظ تراب هو وصف الخلايا المتشابهة والمتماثلة، والتي نطق عليها بويضات. ومما يقوي هذا الاستدلال؛ العلاقة الصوتية بين كلمة تراب وكلمة ترائب الواردة في كتاب الله في سورة الطارق، والمتعلقة بخلق الإنسان أيضاً.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (سورة الطارق: الآية 5-7).

عند تفسير كلمة [ترائب]؛ اختلف المفسرون في تأويلها على جوانب عدة، وقد نلخص الإمام الطبري ما قيل في الترائب على النحو التالي:

«واختلف أهل التأويل في معنى الترائب وموضعها، فقال بعضهم: الترائب: موضع القلادة من صدر المرأة. عن ابن عباس (الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) قال: الترائب: موضع القلادة. عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) يقول: من بين ثدي المرأة. وقال آخرون: الترائب: ما بين المنكبين والصدر. عن مجاهد، قال: (الترائب) ما بين المنكبين والصدر. وقال آخرون: هو اليدان والرجلان والعينان. عن ابن عباس، قوله: (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) قال: فالترائب أطراف الرجل واليدان والرجلان والعينان، فتلك الترائب.» انتهى الاقتباس من التفاسير. يظهر من قول المفسرين عدم اجتماعهم على معنى كلمة الترائب؛ فكل جماعة ذهبت مذهباً، فمنهم من قال: موضع القلادة على صدر المرأة، ومنهم من قال: بين الثديين، ومنهم قال: أسفل التراقي أو اليدين والرجلين.

هذا الاختلاف في وصف الترائب إن دل على شيء فإنما يدل على عدم وضوح المعنى لديهم. وهذا الاختلاف يجعلنا نتساءل: ما علاقة كل هذه المعاني والتفسيرات بالمكونات الأولية للجنين القادمة من الذكر والأنثى.

من خلال مقارنة كلمة تراب التي ذُكرت في كتاب الله كمرحلة من مراحل خلق الإنسان، ولفظ الترائب التي هي مصدر أحد المكونات الأساسية للجنين؛ نجد أن المعنى الأوقع والمطابق لهذه الحقائق هو المكان الذي ينتج التراب، فإذا كان التراب يعني البويضات؛ فالترائب تعني المبيض، وإذا كان التراب هو الحيوانات المنوية؛ فتكون الترائب هو مكان ومصدر هذه الحيوانات المنوية.

تقول المعاجم: إن كلمة ترائب مفردتها تريبة، ومصدرها راب وهو النقاء والصفاء. فهذا الاشتراك الصوتي بين كلمة تراب، وجذرها ترب، وكلمة ترائب التي من خصائصها النقاء والصفاء؛ يدعم ما ذهبنا إليه من أن المقصود بالتراب هو الأجزاء المتماثلة والمتشابهة؛ حيث أهم صفة التماثل والتشابه هو الصفاء والنقاء؛ أي تكون الأجزاء نسخة مكررة من بعضها.

إن آيات خلق الإنسان القرآنية التي ذكر فيها التراب جاءت جميعها متبوعة بكلمة نطفة، وهي المرحلة الأولى من مراحل تكوين الجنين، والنطفة هي بويضة مخصبة بحيوان منوي؛ مما يقوي الدليل أن المقصود بالتراب هو البويضات، أي قبل الإخصاب مباشرة.

لو سلّمنا جدلاً أن التراب المقصود به هو تراب الأرض؛ فلماذا لم يذكر الطين بعد التراب، أو الصلصال، أو أي مرحلة من المراحل المادية التي ذكرها ربنا في مواضع متعددة، في أي آية من الآيات التي تتحدث عن خلق الجنين. على العكس تماماً جاءت الآيات تتحدث عن التراب، ثم تخطت الطين والصلصال إلى النطفة، ثم العلقة، وهكذا.

لذلك يبدو واضحاً أن التراب هو الأجزاء الصغيرة المتساوية، وهي في الغالب البويضات، بينما الترائب هي المبيض مصدر تلك البويضات. والآيات التالية تضع التراب ضمن مراحل تكوين الجنين؛ من خلال العملية البيولوجية:

الآية الأولى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (سورة فاطر: الآية 11).

الآية الثانية: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة غافر: الآية 67).

الآية الثالثة: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا) (سورة الكهف: الآية 37).

الآية الرابعة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (سورة الحج: الآية 5).

لا بد أن نسأل أنفسنا السؤال المنطقي: لماذا جاء ذكر التراب في نفس السياق مع النطفة والعلقة، ومراحل تكوين الجنين؛ إذا كان المقصود هو تراب الأرض وبداية خلق الإنسان؟ هذا النظم الإلهي البديع، من ترتيب مراحل خلق الجنين، والتي تبدأ بالتراب بهذه الكثافة، ثم الإشارة إلى كلمة التراب، والتي لم يستطع العرب فهم مدلولها، تدل بشكل مؤكد على أن التراب على غير ما توارثنا معناه، وجاء كتاب الله ليصحح ويلفت نظرنا إلى هذه الحالة الفريدة؛ ليصبح التراب هو الأجزاء أو الأشياء المتساوية.

الموضع الوحيد الذي جاءت فيه كلمة تراب غير مرتبطة بكلمة نطفة وتصف خلق البشر هو الآية التالية: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) (سورة الروم: الآية 20)

لا بد من ملاحظة أنّ الآية تتحدث عن البشر، والذي قلنا أنه مرحلة ما بعد الإنسان، وهنا يجب التوقف طويلاً؛ لفهم كيف تحول الإنسان إلى بشر؟ هذه الآية الكريمة تعطينا الحد الأدنى الذي يمكن من خلاله فهم كيف جاء البشر؟ يبدو أنّ البشر جاء من بويضات؛ أي تمّ الانتقال من مرحلة الإنسان إلى مرحلة البشر عن طريق نطفة عادية (بويضة وحيوان منوي)، وما يدفعا للقول بأنّ أصل البشر هو التراب بمعنى البويضات؛ قول الله سبحانه عندما وصف بداية خلق الإنسان، أنّ البداية كانت من الطين: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) (سورة السجدة: الآية 7).

هذا دليل آخر على أنّ الإنسان سابق للبشر؛ إذ الإنسان من طين بينما البشر من تراب (البويضات)؛ فلو أنّ تراب الأرض هو المقصود لكنت الآية تشير إلى خلق الإنسان من تراب لأن التراب مرحلة سابقة للطين، ولكن ما حدث أنّ الآية الكريمة تقرر أنّ خلق الإنسان بدأ من طين، وسوف نتعرف على الآيات في سورة السجدة بشكل كامل في السطور القادمة.

لعل أحد المهتمين بالعلوم يوجه انتقاداً لهذا الطرح، بالقول: إنّ تفسير التراب بمعنى الأجزاء الصغيرة المتشابهة والمتماثلة لا ينطبق على وصف البويضة؛ لأنها تعتبر جزءاً واحداً، وليست أجزاءً متشابهة؟ لذلك كان لزاماً علينا أن نلقي الضوء على تكوين البويضات في الأنثى، وهل هي بويضة واحدة، أم أنه مخزن يحتوي على عدد هائل من البويضات جاهزة ومعدة سابقاً، وتخرج بقدر وحساب في دورات محددة.

الترائب (المبيض)

من المعروف علمياً أنّ البويضات لدى الأنثى يتم تطويرها في المراحل الأولى؛ وهي ما تزال جنيناً في بطن أمها، ويعتقد العلماء أنه عندما يتم تكوين البويضات الأولية لدى الأنثى وهي ما زالت جنيناً، لا يتم إنشاء مزيد من البويضات بعد ذلك.

تصل البويضات لدى الأنثى إلى أقصى نمو لها في 6 أسابيع إلى 20 أسبوعاً من عمر الحمل؛ أي والأنثى ما زالت جنيناً. في هذه المرحلة يتم إنتاج ما يقرب من 7 ملايين بويضة، تنقص من مليون إلى مليونين عند الولادة؛ أي إن الأنثى عند لحظة ميلادها تحمل في المبيض ما يقارب 2 مليون بويضة جاهزة، متماثلة ومتشابهة ومتساوية.

بعد اكتمال المبيض تنتظر البويضات اللحظة التي تنطلق فيها استكمالاً لدورتها؛ أي إن المبيض يحتوي على البويضات في شكلها النهائي، وتخرج في دورة بيولوجية معروفة، وهي على ذلك ينطبق عليها لفظ تراب؛ وهي الأشياء المتساوية. بعد تحليلنا للألفاظ ظهر التناسق والتكامل بين وصف الترائب؛ وهي المخزن المملوء بالبويضات، مع وصف البويضات بالتراب.

المشهد الثاني في خلق الإنسان

جاء في سورة الحجر: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)) (سورة الحجر: الآيات 26-29).

الآيات الأربع السابقة تضع حدوداً فاصلة بين الإنسان والبشر، في مشهد مهيب، ما علينا إلا أن نرتل القرآن، ونستمع لكلمات الله العليم الخبير. الآيات ترتب مراحل الخلق، إذ جاء ذكر الإنسان وذكر البشر خلال ثلاث آيات.

الآية الأولى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

الآية الكريمة تشير إلى خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، ومع أن التفاسير ذكرت أن الإنسان هو آدم عليه السلام؛ إلا أن الآية لا تقر ذلك، هي فقط تشير إلى ذلك، بل المقصود هو خلق الإنسان بصفة عامة.

الصلصال هو أحد مراحل الخلق الأول بعد مرحلة الطين، ومن ثم وصل الخلق إلى الإنسان المتربع على قمة الكائنات. في الطبعة الأولى للكتاب توقفنا عند هذا الوصف لأننا لم

نقوم بتحليل لفظ صلصال ولفظ حمياً؛ ولكن في هذا الطبعة وبعد أن قمنا بتحليل لفظ حمياً في الفصل السادس المضاف لهد الطبعة رأينا وجوب إضافة هذا التحليل لوصف هذه المرحلة المهمة في خلق الإنسان.

لمزيد من الشرح والتحليل الجذر الثنائي (حم) وعلاقة ذلك باسم أحمد واسم محمد المذكور في القرآن، يرجى مراجعة الفصل السادس من هذا الكتاب .

مدلول التعبير (صلصال من حمياً مسنون)

ورد لفظ تعبير حمياً مسنون في كتاب الله في ثلاث مواضع كلها في سورة الحجر تحكي عن خلق الإنسان وهي كما يلي:

الآية الأولى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) (سورة الحجر: آية 26).

الآية الثانية: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) (سورة الحجر: آية 28).

الآية الثالثة: (قَالَ لِمَ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) (سورة الحجر: آية 33).

أولاً: لفظ حمياً

لفظ حمياً كما سوف يأتي تفصيله في الفصل السادس قريش هو لفظ يصف حالة من استقبال الطاقة ومن ثم نقلها بشكل ما. إننا نتحدث عن طاقة حرارية تحديداً لأن الجذر الثنائي وهو "حم" ومشتقاته مثل حمى يشير إلى ذلك.

ثانياً: لفظ مسنون

وأصله (سن) ويعني جريان الشيء واطراده في سهولة . من خلال كتاب سنجد إن المعنى متوافق مع هذا الجذر تحديداً عند ذكر السنن في كتاب الله وهي وهي الأشياء التي يجريها الناس أو تجري عليهم بشكل مطرد بشكل تلقائي. هذا المعنى واضح في سورة آل عمران كما يلي:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (سورة آل عمران: آية 137).

ثالثاً: لفظ صلصال

يشير لفظ صلصال إلى اتصال متكرر ويشبه لفظ سلسال أو سلسلة ومع استبدال السين بحرف الصاد سوف ندرك أن لفظ صلصال يصف حالة من الاتصال المتكرر ولكن ليس في سهولة ويسر كما لفظ سلسال أو سلاله والتي تشير إلى تلقائية التكرار.

لفظ صلصال تحديداً يشير إلى تفاعل متسلسل ولكن غير تلقائي أو غير سلسل بالمعنى المتداول بسبب حرف الصاد الذي يشير إلى صلابه بخلاف حرف السين الذي يمنح اللفظ سهولة ويسر.

الآن أصبح لدينا مدلول كلمة حمياً وهي كلمة تصف حالة اكتساب الطاقة الحرارية والقدرة على بثها للوسط الخارجي ولفظ مسنون يصف اطراد هذا الاكتساب وتراكمه لو جاز لنا التعبير ، ثم لفظ صلصال والذي يصف تسلسل ليس تلقائي.

من خلال هذه المعطيات نستطيع القول أن عملية خلق الإنسان أو خلق الحياة بشكل أشمل تمت في مراحلها الأولى عن طريق انتقال حراري إلى ذرات أو جزيئات في البداية، هذا الانتقال كان في صورة متصلة ومطرده مكونا مركبات أكثر تعقيداً. تكوين هذه المركبات لم يكن بشكل تلقائي أو بشكل سلسل ولكن كان فيه نوع من عدم التلقائية.

نعلم أن في التفاعلات الكيميائية أن هناك تفاعلات تلقائية تحدث بشكل طبيعي دون تدخل خارجي وتفاعلات غير تلقائية؛ تحدث فقط في حالة وجود طاقة مساعدة أو ما يسمى بالازدواج. لذلك نستطيع القول إن التعبير القرآني (صلصال من حمياً مسنون) يعني سلسلة من التفاعلات الكيميائية المعتمدة على الانتقال الحراري بانتظام واطراد لتكوين البذرة الأولى من الحياة ولكن كانت تفاعلات غير تلقائية.

إن كانت الآيات تشير إلى بدايات الخلق إلا أن لدينا شواهد تدل على أن عملية انتقال الطاقة الحرارية تحديداً هي أساس التفاعلات الحيوية في جسم الكائنات وأن نظام التفاعلات

غير التلقائية في أجسام الكائنات الحية كثيرة ولا يمكن أن تتم إلا عن طريق الاندماج مع تفاعل آخر يسير بطريقة تلقائية. لن أطيل في شرح هذه العملية فهي عملية معقدة بعض الشيء ومرتبطة بقوانين الطاقة الحرارية والانظمة البيولوجية ويكفي هنا هذه الإشارة الخفيفة.

الآية الكريمة تشير إلى بؤادر التفاعل الأول الذي أدى إلى ظهور الحياة وهي علاقة وثيقة بين انتقال طاقة حرارية وبين الذرات الأولى الذي أسس للحياة. لا شك أن هكذا معلومات تحتاج لتخصص دقيق لفهمها بشكل كامل ولكن حسبنا أننا نحاول فهم اللفظ القرآني وفهم الحالة التي يصفها ونحاول إرشاد الباحثين لعلاقة اللفظ بالحقيقة الكونية.

الآية الثانية: (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

في الآية إشارة واضحة لترتيب الخلق؛ حيث إنَّ خلق الجن من نار السموم كان قبل خلق الإنسان، ولنلاحظ كلمة [قبل] التي تؤكد المعنى؛ فهي لم تأت عبثاً، ولكن إشارة لترتيب المراحل؛ فمن الواضح أن المقصود هو الخلق بصفة عامة، حيث الجن كان في البداية ثم جاء بعده الإنسان.

الآية الثالثة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

هذه الآية الكريمة تعلن عن المرحلة الثالثة من الخلق وتدشينها؛ وهي مرحلة البشر. الآية الأولى - كما رأينا- تحدثت عن الإنسان، ثم الآية الثانية تذكر خلق الجن الذي كان قبل الإنسان، وها هي الآية الثالثة تتحدث عن خلق البشر. ولا يمكن أن تكون الآية الأولى تحمل معنى الآية الثالثة نفسه، وأن الآيتين مجرد تكرار للمعلومة، وخصوصاً اختلاف مسمى المخلوق في كل مرة؛ حيث جاء في الآية الأولى بلفظ [الإنسان] وفي الآية الثالثة بلفظ [البشر].

الآية تشير إلى أن الإنسان والبشر لهم نفس البداية؛ وهي الصلصال من حمأ مسنون؛ كما ورد في الآية. فلا يظن أحد أن الإنسان خلق منفصل عن البشر؛ بحيث خلق الإنسان أولاً، ثم بعد فترة خلق البشر؛ لأن الآية تخبرنا أن الإنسان والبشر من نفس المصدر، ولكن تبعاً للترتيب فقد جاء الإنسان أولاً ثم ظهر البشر. يبدو لي أن الإنسان الحالي قد وصل إلى

ما هو عليه من خلال مراحل متعددة؛ المرحلة الأولى: هي خلق الإنسان الأول؛ والذي أنبته الله من الأرض نباتاً، ثم ترقى ووصل لمرحلة الإنسانية؛ كما شرحنا الفرق بين كلمة إنسان وكلمة بشر، ثم جاءت المرحلة الثانية: وهي ظهور البشر صاحب التطور الأهم؛ وهو التطور على المستوى المعرفي.

من خلال اشتراك كلٍّ من الإنسان والبشر في المصدر الأول للخلق؛ وهو الصلصال من حمأ مسنون؛ نستطيع أن نقول إنَّ البشر هم نسل من نسل الإنسان الأول.

إنها عملية منطقية بسيطة للغاية، إنَّ البشر انحدر بيولوجياً من الإنسان الأول؛ حيث إنَّ الإنسان الأول تحول عن طريق طفرة إلى إنسان بشري؛ والذي أصبحت لديه قدرة على التعامل مع المعلومات والاستنباط والاستدلال؛ مما يوحى بتطور القدرات العقلية لهؤلاء البشر.

الآية الرابعة: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

الآية الكريمة تتحدث عن مرحلة ثالثة في خلق الإنسان، أو مراحل تطور خلق هذا الكائن البشري. بعد خلق الإنسان ثم البشر يبدو أن التسوية حدثت، ومن ثم نفخ الروح (الوعي والقدرة على التسمية (اللغة)؛ ليتحول إلى كائن بشري مكتمل الأركان لتلقي المهام المنوط بها.

كلمة التسوية هنا تشمل التسوية المادية والمعنوية، وقد يكون حدث أن انتصبت قامة البشر واعتدلت، ولما أصبح جاهزاً لتلقي المسؤولية نفخ الله فيه من روحه؛ هذه النفخة حملت إليه البرنامج الإلهي الخاص باللغة، والذي أصبح من خلاله قادراً على التسمية ووصف الأشياء من حوله والتعبير عنها أو قل التعبير عن أفكاره وهذا هو التحول العظيم والذي أسس لنشأة الحضارة.

لا شك أن مسألة نفخ الروح والقدرة على التسمية هي الميزة التي حصل عليها آدم؛ من خلال الاصطفاء الذي ذكره ربنا في كتابه.

قبل أن تغادر هذا المشهد الرباني يجب أن نلقي نظرة على الآية الكريمة التي تتحدث عن التسوية والتعديل لخلق الإنسان؛ والتي تعطينا لمحة أخرى للهدى الزمني، وتطور الإنسان

البشري إلى صورة مستوية ومعتدلة. إن كان بعض المفسرين أرجع ذلك إلى حسن الهيئة والشكل الذي تم في الخلق الكامل؛ فإننا نرى فيها إشارة إلى البعد الزمني للتطور الشامل الذي حدث للإنسان حتى وصل لمرحلة آدم.

المشهد الثالث في خلق الإنسان

في سورة المؤمنون؛ هذا المشهد القرآني يعطينا تفصيلاً مهمةً لصورة خلق الإنسان؛ حيث يظهر التعبير القرآني الرائع بلفظ سلالة، والذي يحوي كنزاً معرفياً لا مثيل له، وكذلك الإشارة إلى التحول من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي؛ وهو دلالة لا تخطأها العين على التطور. أربع آيات لا نملك إلا أن نخر ساجدين أمامها مرددين تبارك الله أحسن الخالقين:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)) (سورة المؤمنون: الآيات 12-14) .

الآية الأولى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ)

هذه الآية - كسابقها في سورة الحجر- تتحدث عن خلق الإنسان بصفة عامة، وكيف جاء عن طريق سلالة من طين. الجدير بالتوقف والتدبر في هذه الآية الكريمة هو إضافة لفظ سلالة إلى لفظ طين، حيث يقول ربنا إنه خلق الإنسان من سلالة من طين؛ فإذا تعني كلمة سلالة وما مدلولها؟

الجذر الثنائي لكلمة سلالة: سل، ولها أصل واحد: وهو مدّ الشيء في رفق وخفاء، وفي لسان العرب لابن منظور: سلل: معناه انتزاع الشيء وإخراجه في رفق. فسر المفسرون كلمة سلالة في هذه الآية الكريمة بمعنى: سلّت، وأخذت من جميع الأرض. قول المفسرون فيه عور واضح؛ فالآية الكريمة تتحدث عن سلالة من طين، وليس سلالة من الأرض كما يدّعي المفسرون. التعبير القرآني سلالة من طين؛ أي خرجت من الطين بشكل متسلسل أو بمعنى أدق خروج بعد خروج.

- كلمة سلاله تحمل في طياتها فك لغز خلق الإنسان؛ فهي تعلن بشكل صريح أنّ الإنسان جاء من خلال سلاله من طين؛ أي جاء من خلال تسلسل أوله الطين؛ وبتعبير آخر يمكننا القول بأنّ هناك سلسله بين الطين وبين الإنسان؛ وهذا هو صلب التطور.

الآية الثانية: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ)

بدأت الآية الكريمة بالتعبير القرآني (ثم جعلناه) ؛ وكما وضحنا من قبل أنّ لفظ [الجعل] يختلف عن [الخلق]، والجعل هنا تحول جزئي أو تغيير في الحالة. تحمل هذه الآية الكريمة وصفاً واحتمالاً قوياً على التطور؛ لأنّ لفظ [جعل] يفيد التحول، ويبدو أنّ التحول هنا كان في طريقة التكاثر والتناسل خلال نسل هذا الإنسان؛ حيث جعل سبحانه وتعالى النطفة في قرار مكين.

إذا علمنا أنّ طرق التكاثر في الكائنات مختلفة؛ منها التكاثر اللاجنسي والتكاثر الجنسي، وأنّ قول الله سبحانه وتعالى (جعلناه نطفة) تعني أنّ هناك تحولاً حدث؛ من طور لم يكن التكاثر فيه عن طريق النطفة، إلى طور صار التكاثر فيه بالنطفة.

إنّ أهم ما يميز التكاثر الجنسي هو مسألة النطفة، والتي تتطلب ذكر وأنثى. فعندما يقول القرآن جعلناه نطفة؛ فهذا يعني أنّ ما قبله لم يكن نطفة، والجعل أو التحول الجزئي الذي حدث هو ما صيرّه نطفة. من المعروف أنّ التكاثر عند الكائنات البسيطة يتم بطريقة لا جنسية؛ مثل الانشطار أو الانقسام، بينما التكاثر عند الكائنات الأكثر رقيماً يكون تكاثراً جنسياً عن طريق النطفة.

الآية الرابعة: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا

الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

توضح هذه الآية الكريمة استقرار طريقة التكاثر الجنسي وتطور النطفة؛ من خلال عدة عمليات وصولاً إلى مرحلة الجنين. المشهد التالي في سورة السجدة يؤيد ويعزز الاستدلال على

أنَّ هناك تحولاً في طريقة التكاثر، حدثت في السلسلة الحيوانية؛ حيث تحولت طريقة التكاثر من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي.

المشهد الرابع في خلق الإنسان

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ^ط وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ^ط وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ^ج قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)) (سورة السجدة: الآيات 7-9).

تفسير هذه الآيات الكريمة من خلال المفسرين لم يذهب بعيداً عن التفاسير التقليدية، والتي جعلت الإنسان مرادفاً للبشر مرادفاً لآدم، وتحدثت عنهم كأنهم شيء واحد لا فرق بينهم. بالرغم من تعدد الآيات، وتعدد الصور التي يمكن رسمها من خلال كل آية؛ إلا أنها لم تلفت الانتباه؛ بسبب الصورة الطاغية على مشهد خلق الإنسان، والتي تنص على أن الإنسان خلق خلقاً منفصلاً عن باقي المخلوقات.

الآية الأولى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ^ط وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

إنها زاوية أخرى تساعدنا في فهم الصورة الكلية لكيفية بداية الخلق، والمراحل التي مر بها. فهذه الآية في بدايتها تتحدث عن خلق وإعداد وتهيئة كل شيء قبل بدء خلق الحياة، والتي على رأسها الإنسان. لا شك أن قول ربنا (الذي أحسن كل شيء خلقه) يدل على تمام خلق جميع أسباب الحياة ومقوماتها، ويبدو أن هذه المرحلة قد استغرقت مدة زمنية طويلة قبل بدء الحياة؛ بدليل استخدام حرف العطف [ثم] الذي يفيد التراخي.

بعد عملية التهيئة والإعداد التي طالت الكون كله، بدأ خلق الإنسان من الطين كما يخبرنا ربنا، لفظ [بدأ] يشير إلى مجموعة التفاعلات الأولية التي تسببت في وجود الحياة؛ فالمعنى المقصود واضح تماماً أنه يتحدث عن البداية، ومع ذلك لم يستخدم القرآن الكريم تعبير التراب في

وصف البداية؛ كما بينا عند تحليل لفظ تراب؛ فالبداية كانت من الطين، ثم تأتي الآية التالية لتخبرنا عن التحول الهام الذي طرأ على الخلق.

الآية الثانية: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ)

تبدأ الآية بالتعبير القرآني (جعل نسله)، وكما ذكرنا أنفاً أنّ كلمة [جعل] تعني التحول الجزئي، مما يفيد أنّ تحولاً ما حدث لهذا الخلق الأول؛ فصار النسل من ماء مهين. الماء المهين هو الطريقة التي جاء بها النسل، وتكاثر بها؛ وهي الطريقة الجنسية. الماء في (جعل نسله) تعود إلى الطين وليس إلى الإنسان؛ إذ إنّ الإنسان من بدايته - كما نعرف - نسله من ماء مهين. الآية الكريمة تحكي قصة تحول النسل الخارج من الطين إلى تكاثر عن طريق الماء المهين، والذي انتهى بالإنسان.

هذه الآية تضيف دليلاً آخر على عملية التطور التي لحقت الكائنات، وجاء على رأسها الإنسان. فلو أنّ الإنسان خلق خلقاً كاملاً، ما الذي يدعو للتحول والجعل الذي ذكره القرآن، حتى جاء النسل من ماء مهين؟

من خلال ملاحظة ترتيب الآيات؛ سنجد أنّ مرحلة التسوية ونفخ الروح لم تظهر بعد، ومن يعتقد أنّ الترتيب هنا ليس له معنى، أو أنّ التكرار هنا بلا فائدة؛ فما قدر كتاب الله حقّ قدره، واتّهم كلام الله بعدم البلاغة، وجعله أقرب للعشوائية والقول بالصدف؛ عن القول بالتقدير الحكيم. هذا الترتيب هو جزء لا يتجزأ من النظم الإلهي البديع، الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان لفهم وبيان الآيات الكريمة.

مرحلة التسوية ثم النفخ ذكرت في الآية الثالثة، بعد مراحل متعددة؛ مما يؤكّد البعد الزمني للخلق والتسوية ثم النفخ.

الآية الثالثة: (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ^ط وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ^ج قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

بعد عملية التحول في طريقة التكاثر، جاءت عملية التسوية، ثم عقبها عملية نفخ الروح. وقد يختلط على البعض أن عملية نفخ الروح هي عملية الحياة ذاتها؛ وهذا خطأ بين. عملية نفخ الروح هي عملية خاصة بالإنسان جعلته ملائماً لوظيفته التي سوف يقوم بها، وقد بينا ذلك في الجزء الثاني، وسوف يأتي أيضاً خلال هذا الجزء بيان عملية النفخ والمقصود منها، والتي كان من ضمنها قدرة آدم على تسمية المسميات، أو نشأة اللغة لدى الإنسان.

لو أردنا تعبيراً دقيقاً يصف عملية نفخ الروح فلن نجد تعبيراً أكثر ملائمة من عملية الوعي والإدراك التي تصاحب الإنسان والتي هي مصدر كل معرفة.

في نهاية الآية لمحة تطويرية في غاية الروعة لا بد أن نقف أمامها طويلاً، ويقف العلماء إجلالاً واحتراماً لهذه المعرفة القرآنية العظيمة > إنها الإشارة إلى تطور حاسة السمع وحاسة البصر، وتطور عمل القلب ومجاله لدى المخلوق الذي سواه ونفخ فيه ربه من روحه. [الجعل] - كما قلنا- هو تحول جزئي؛ وهذا ما يفيد أن السمع والأبصار والأفئدة كانت من ضمن الوظائف في الكائن السابق، ثم جرى عليها عملية تحول معين.

هذا التحول الجزئي الذي طال السمع والبصر والفؤاد هو ما يسميه العلم تطوراً، وهو تطور في غاية الأهمية؛ إذ إنه تطور في أدوات الإدراك. السمع والبصر وعملية الاتصال والإحساس عن طريق القلب (راجع الجزء الأول - فطرة الله التي فطر الناس عليها)، هي الأدوات الرئيسة التي يقوم عليها الإدراك وتحصيل المعرفة. هذا التطور الهام يبدو أنه اللمسات الأخيرة، والتي من خلالها سوف يصبح هذا الإنسان مؤهلاً لتولي المسؤولية المنوطة حيث توفر له هذه الأدوات تكوين الأفكار وبالتالي سوف يحتاج أن يعبر عنها بالشكل السليم.

هل تذكرون الإشكالية الخاصة بتركيب العين؛ التي جعلت الباحثين يعتقدون أنها لم تخلق خلقاً منفصلاً؛ إذ لو أنها خلقت بشكل منفصل لكنت بشكل آخر..
فرضية الباحثين أنه لكي تكون العين بهذا الشكل؛ لا بد أنها تطورت عن وضع سابق، يشير إليها القرآن. ليست العين وحدها؛ بل العين والسمع والأفئدة جرى عليهم تحولات، وتطورت هذه الحواس عن حالات سابقة؛ أدت بالنهاية إلى الصورة التي يمكننا أن تكون أكثر كفاءة وملاءمة لوظيفتها القادمة. إن تطور هذه الأجهزة هو ما ساعد الإنسان في تطوير قدراته العقلية وتوسيع مداركه، وكانت خطوة في غاية الأهمية في سلم تطور الإنسان. أو سلم تطور وعي وإدراك الإنسان بصورة أكثر تحديداً.

المشهد الخامس في خلق الإنسان

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (سورة ص: الآية 72).

الآية الأولى لا تحتاج لبيان؛ لكثرة ما تناولنا هذا التعبير القرآني في آيات سابقة؛ المقصود بالخالق من طين هنا هو البشر، وكما بينا من قبل أن البشر هو المرحلة المتطورة من الإنسان، وهي دلالة على أن الإنسان والبشر من الأصل نفسه أو المنشأ نفسه.
لفظ السجود في الآية الثانية يدل على أن هذا البشر وصل لمرحلة من الإعداد والتهيئة وزيادة القدرات العقلية؛ تمكنه من أن يصبح جاهزاً لتسلم المهام الموكلة إليه، ولم يبق إلا سجود الملائكة؛ وهو أمر ضروري من ضروريات وجود البشر على الأرض.
سجود الملائكة ليس حالة عرضية بل هو حالة مستمرة؛ كما يدل على ذلك كتاب الله وهو حالة أعمق بكثير مما نظن.

ماذا يعني سجود الملائكة لهذا الإنسان؟

جذر كلمة [سجد] في قاموس اللغة لها أصل واحد: وهو تطامن وذل، أي هدوء وسكينة. في كتاب الله ورد جذر [سجد] في ثمانين موضعاً، وسوف نحاول فهم مدلول الكلمة من خلال آيتين في كتاب الله كما يلي:

الآية الأولى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فكلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (سورة البقرة: الآية 58).

فسرت التفاسير كلمة (سُجَّدًا) أي منحنين، بالرغم من أن مدلول السجود المتعارف عليه هو وضع الجبهة على الأرض؛ فإذا كان مدلول كلمة السجود هو وضع الجبهة على الأرض في هذه الحالة تحديداً؛ فهنا يتعذر على بني إسرائيل دخول الباب سُجَّدًا، ولكن بالعودة لجذر الكلمة نجد أن كلمة (سُجَّدًا) تعني الاطمئنان والهدوء؛ فيصح هنا القول إنهم أمروا بالدخول في حالة من الهدوء والاطمئنان.

الآية الثانية: (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) (سورة الانشقاق: آية 21).

هذه الآية الكريمة في سورة الانشقاق، سبقها آيات تتحدث عن ظاهرة ما يسمى بالחסوف، وقد استطعنا من خلال المنهج الذي نستخدمه أن نبيّن أن الآيات الكريمة وصفت ظاهرة انتظام القمر مع الأرض والشمس وتم تسميتها بالانساق (الجزء الثاني فصل القمر إذا اتسق). الآيات الكريمة السابقة لهذه الآية تتطلب قراءة؛ أي فهماً وتحليلاً؛ وهذا أمر منطقي للغاية لأن الآيات تشير وتصف ظواهر كونية.

عندما نجد لفظ قرأ أو قراءة في القرآن فإننا أمام آيات يمكن اعتبارها دلائل عقلية ومنطقية عالية الدقة وسهلة الاستنباط قائمة بالأساس على الدليل والبرهان الواضح. لذلك جاءت الآية الكريمة -التي نحن بصدددها- تتعجب من أولئك الذين إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون.

يسجدون لا تعني هيئة السجود المعروفة، ولكنّ المعنى هنا: أي لا تزيدهم قراءة القرآن اطمئناناً وثقةً ورسوخاً واستقراراً. (مرة أخرى قراءة القرآن تعني تحليل وفهم آيات القرآن ولا تعني أبداً ترديد ألفاظ القرآن إذ لو كان المقصود بقراءة القرآن هنا ترديد الآيات فقط لأصبحت الآيات متقطعة لا رابط بين تعبيراتها).

استنتاجاً من هذه الآية؛ لا بد أنّ قراءة القرآن بشكلها الصحيح؛ وهي تحليل وفهم الآيات أن تزيد الإنسان ثقةً واطمئناناً، ولكنّ هناك بعض المكذّبين إذا قرئ عليهم القرآن لا يحدث لهم أي تغيير في حالتهم، بل إنّ بعضهم يتخذ قراءة القرآن هزواً.

للأسف الشديد إقناع الناس بكون القراءة لا تعني ترديد الكلمات والعبارات وإنما تعني التحليل والاستنتاج أمر شديد الصعوبة بسبب استقرار معنى القراءة في نفوسهم على أنه تلاوة المكتوب فقط. لقد كرس الجموع هذا المفهوم الخاطئ لدى الناس منذ القدم ومحاوله تغييره أشبه بالحرث في الماء، رغم وضوح المعنى تماماً في كتاب الله. أتعجب من أولئك الذين يدعون الإيمان بكلمات الله وآيات الله ويكرسون اوضاعاً خاطئة سواء عن علم أو دون معرفة، ويساهمون ولو بكلمة في إضلال الناس وتحريف المعاني وضياع الفهم المنضبط لكلمات الله.

لماذا إذا قرئ القرآن على الناس لا يسجدون؟ لماذا إذا تم تحليل كلمات القرآن واستنباط مفاهيم جديدة توافق المفاهيم العقلية لدى الناس لا تزيد هذه الاستنتاجات الناس إلا قلقاً ونفوراً؟

عدم الشعور بالاطمئنان، أو عدم زيادة جرعة الثقة الإيمانية التي تسببها قراءة وفهم آيات القرآن؛ قد تكون بسبب تحيز معرفي بسبب الميراث الثقيل والذي في الغالب لا يعرف المتلقي غيره، مما يمنع صاحبه من فهم الآيات بصورة مستقلة، أو بسبب قدرة عقلية متواضعة لا تستطيع فهم العمليات المنطقية، أو بسبب عوامل نفسية خاصة بصاحبها.

الآيات في سورة الإنشقاق بعد هذه الآية الكريمة لو تدبرها أحدهم لما غمض له جفن بسبب الوعيد الذي ينتظر هؤلاء بسبب سلوكهم في التعامل مع قراءة القرآن، ولكن يستمر

العناد والمكابرة إلى أقصى نقطة. (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24)) (سورة الانشقاق: آيات 22-24).

تشرح الآيات سبب عدم سجود هؤلاء لقراءة القرآن لأن الكفر والكذب من صفاتهم . المحجة تقام على هؤلاء كل يوم من خلال بيان آيات الله فلا يسجدون ولا يذعنون لأنهم محملون إلى أقصى درجة بالتحيز وغير قادرين على التخلص من ثقل وعبء المجتمع الذي غرس في رؤوسهم مفاهيم منافية لكلمات الله.

أكثر هؤلاء لا يقدرّون الله حق قدره وإنما الناس في نفوسهم أعز وأجل فلا يقفون موقفًا ينصرون فيه الحق رهبة من الناس أو طلباً للسلامة من الجاهلين. لو علم هؤلاء ما يفعلون ومصائرهم وكيف ينشدون سلاماً زائفاً مقابل حياة طيبة وعدها الله عباده المخلصين؛ لما تهاونوا لحظة في السجود إذا قرئ عليهم القرآن، ولكنها سنة الله في الخلق أن أكثرهم لا يعقلون.

نعود للفظ السجود مرة أخرى، فمن خلال جذر الكلمة ومدلول الكلمة في كتاب الله؛ نجد أن معنى السجود وصفٌ لحالة من الاطمئنان والاستقرار، فالإنسان الذي يسجد عند كلمات الله أو يسجد عند ذكر الله هو في الحقيقة يستمد ويطلب الاطمئنان والاستقرار من الله. هذا المعنى قرّته الآيات الكريمة في سورة العلق:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (13) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا
بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا
تُطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)) (سورة العلق: الآيات 13-19).

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن كيفية التعامل مع ذلك المكذب والمعاند ومثير القلاق، من خلال التوجيه الرباني (كَلَّا لَا تُطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)؛ أي اطمئن واستقر، ولا تلتفت إليه، ثم اقترب.

مما سبق؛ كيف نفسر سجود الملائكة لآدم؟

عملية السجود التي قامت بها الملائكة هي عملية تطمينٍ ودعم واستقرار لهذا المخلوق، الذي سوف يحمل على عاتقه مهمة جليلة بعد قليل.

بث الطمأنينة ودعم الاستقرار حاضر في كثير من آيات القرآن، والتي تصف العلاقة بين الملائكة والإنسان. نستطيع بكل سهولة فهم الآيات التي يقول فيها ربنا إنه أمد المقاتلين في سبيله بألف من الملائكة:

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ) (سورة الأنفال: الآية 9).

يقول بعض المشككين في القرآن: إن هذه الآية دليل على أن القرآن مجرد مجموعة من القصص و الروايات غير الواقعية؛ إذ كيف يمد الله المسلمين في غزوة بدر بألف من الملائكة؟ ومع ذلك مجموع العدد المقتول من المشركين يومئذ -في أصح الروايات التاريخية- هو سبعون رجلاً. إن كتب السير والتراجم تذكر أسماء أغلب المقتولين في هذه المعركة، إن لم يكن كلهم، وتذكر كذلك قاتليهم، فماذا فعلت الملائكة في هذه المعركة؟.

إذا كان الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة، وبحسب روايات التراث إن ملكاً واحداً من الملائكة قادرٌ على تدمير الأرض بمن عليها؛ فكيف بألفٍ من الملائكة لم تهلك كفار مكة عن بكرة أبيهم وتفنيهم تماماً؟

كتب التراث التي قامت على التصورات الشخصية دون أي سند حقيقي من كتاب الله، أساءت كثيراً لفهم كتاب الله للأسف، وسببت لغطاً عند كثير من أولئك الذين لا يستطيعون فهم الفرق بين كتاب الله وتفسير كتاب الله.

فهم مدلول السجود ومعناه بالطريقة التي عرضناها في كتابنا يجيب على هذه الإشكالية بكل سهولة. وظيفة الملائكة بالنسبة إلى الإنسان هي دعم استقراره وطمأننته، دون سلطان

مادي حقيقي. السجود عملية نفسية غير ملهوسة؛ فعندما يسجد الإنسان يتصل بخالقه، وهذا التواصل هو ما يمنح الإنسان القوة الروحية اللازمة لاستمرار حياته بشكل سليم. كذلك سجود الملائكة؛ هو اتصال بين الملائكة والإنسان؛ بحيث ينتقل الدعم والاستقرار من الملائكة إلى الإنسان، فهي حالة شبيهة لانتقال الطاقة؛ حيث تنتقل الطاقة من المستوى الأعلى إلى المستوى الأقل. في الثقافات القديمة نجد أن الناس أدركوا هذه الحقيقة بشكل بسيط.

عندما يسجد الإنسان لإنسان آخر، أو يسجد للشمس، أو للقمر، أو حتى يسجد للملائكة؛ هو في الحقيقة يطلب قوةً ودعمًا ومددًا يعينه في حياته؛ لهذا السبب نهى ربنا أن يسجد الإنسان للشمس أو القمر أو أي مخلوق؛ لأنه وضع غير صحيح، والمطلوب من الإنسان السجود عند الله فقط؛ لأنه هو المصدر الرئيس للقوة.

من هنا نستطيع القول إنَّ المدد الذي أرسله الله للمؤمنين في المعركة كان بمثابة دعم وقوة روحية، تنتقل من الملائكة إلى المؤمنين في صورة من صور سجود الملائكة للإنسان. لقد قرر القرآن الكريم وظيفة الملائكة تمامًا؛ من خلال هذا المدد في الآية رقم (10) والآية رقم (12) في السورة نفسها، والتي تتطابق بدقة مع مدلول السجود الذي ذهبنا إليه.

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة الأنفال " آية 10).

الآية الكريمة تقرر أنَّ مدد الملائكة ما هو إلا بشرى وطمأنة للذين آمنوا، وبالطبع هذه البشرى والطمأنينة سوف تعود بالاستقرار والثبات على هؤلاء المؤمنين. عملية الاستقرار والتثبيت هذه التي تقوم بها الملائكة، والتي أعلن عنها ربنا عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ نجدها واضحةً بشكل لا ريب فيه في الآية التالية:

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (سورة الأنفال : آية 12)

مما سبق نجد أنّ طلب ربنا سبحانه وتعالى من الملائكة السجود لآدم لا يعني أبداً الشكل الطقوسي أو الحركي المتعارف عليه؛ وإنما يعني أنّ يقتربوا منه وأن يحاولوا التواصل معه بشكل هادئ ومطمئن لبث السكينة فيه، وثبتيته ودعم استقراره.

ما نستطيع استخلاصه من آية سجود الملائكة لآدم؛ هو التحول العظيم الذي حدث بعد مرحلة البشر: فالله نفخ فيه من روحه، وأعطاه القدرة على التسمية، ثم وهبه ميزة وهي دعم الملائكة له؛ بحيث تشد أزره وتدعم استقراره حتى يستطيع أداء وظيفته.

المشهد السادس في خلق الإنسان

إنّ سورة الإنسان وبالتحديد الآيتين الأولى والثانية من هذه السورة العظيمة تخبرنا بمرحلة عن أهم مراحل خلق الإنسان: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)) (سورة الإنسان: الآية 1-2).

الآية الأولى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)

في تفسير الآية الأولى جاء تفسير الطبري «عن قتادة، قوله: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ) آدم أتى عليه (حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) إنما خلق الإنسان ها هنا حديثاً، ما يعلم من خليقة الله كانت بعد الإنسان. عن سفيان (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ) قال: آدم.

وقوله: (حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ) اختلف أهل التأويل في قدر هذا الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو أربعون سنة، وقالوا: مكثت طينة آدم مصورة لا تنفخ فيها الروح أربعين عاماً، فذلك قدر الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع، قالوا: ولذلك قيل: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)؛ لأنه أتى عليه وهو جسم مصور لم تنفخ فيه الروح أربعين عاماً، فكان شيئاً، غير أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، قالوا: ومعنى قوله:

(لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) لم يكن شيئاً له نباهة ولا رفعة، ولا شرف، وإنما كان طيناً لازباً وحمماً مسنوناً.» انتهى الاقتباس من التفاسير.

يكاد المفسر ينطق بالقول إنّ الإنسان كان قبل مرحلة البشر في مرحلة أقل رقياً؛ ولو توفر لهؤلاء الباحثين جزء بسيط من المعارف التي بين أيدينا؛ لقالوا بتطور الإنسان البشري الحالي عن مخلوق أقل رقياً .

حاول المفسرون توضيح المدة الزمنية التي جاءت على الإنسان التي لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، وذهبوا إلى أنّ ذلك عندما خلق الله آدم، ثم ظلّ هكذا طيناً حتى نفخ الله فيه الروح ومنهم من قال كانت مدة بقاء الإنسان أربعين سنة، ومنهم من قال إنها غير محددة، وكلها اجتهادات شخصية لا تقوم على أدنى دليل.

لو كان المقصود بالإنسان في هذه الآية هو آدم، ولو كان كما يقول المفسرون إنّ آدم خلق بشكل منفصل وبخلق كامل؛ فما العمل مع الآية الثانية والتي تقول إنّ الإنسان خلق من نطفة أمشاج؟ ولماذا لم يقل ربنا (هل أتى على آدم حين...) بدلاً من التعبير بلفظ الإنسان إذا كان الحدث واقعاً على آدم فقط، وليس على الإنسان بصفة عامة؟

الإجابة ببساطة؛ لأنّ السورة الكريمة ليس لها علاقة بوجود آدم، وإنما تتحدث عن تاريخ وجود الإنسان، وربما من خلال فهم كلمة الدهر نستطيع تحديد المقصود.

مدلول لفظ الدهر

جذر كلمة [الدهر] لها أصل واحد؛ وهو: غلبة وقهر؛ كما جاء في قاموس اللغة. وقد وردت كلمة الدهر في كتاب الله في موضعين؛ الموضع الأول: الآية التي نحن بصدددها، بينما الموضع الثاني في سورة الجاثية: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (سورة الجاثية : الآية 24).

نلاحظ أنّ في هذه الآية الكريمة صفةً وخاصيةً للدهر المذكور؛ وهي القدرة على الإهلاك. وعن طريق فهم معنى الدهر؛ وهو كما نرى فترة زمنية، ومن خلال جذر الكلمة

في اللغة؛ وهو الغلبة والقهر، ومن خلال مدلول الآية التي بين أيدينا؛ نستطيع أن نقول: إنَّ الدهر هو فترة زمنية تتميز بالشدة أو ما يمكن أن نسميه أوقاتاً عصبيةً.

من هنا تصبح أول آية في سورة الإنسان تتحدث عن فترة عصبية مرت على الإنسان، لم يكن فيها شيئاً مذكوراً؛ أي انقطع ذكره أو قارب على الانقراض، أو انتهى وجوده فعلياً إلا من أفراد قليلة جداً لا تكاد تذكر، وقد يكون هذا الهلاك الذي أصاب نسل الإنسان الأول حدث في زمن الانقراض الكبير، الذي صاحبه انقراض الديناصورات، وسوف نأتي على هذا الانقراض من خلال سورة الفيل في هذا الجزء.

فترة الانقراض التي حدثت، والتي -غالباً- هي التي أهلت نسل الإنسان إلا من القليل، أعقبها -كما تبين الآيات- تغييرٌ محوري في مجرى خلق هذا الإنسان؛ هذا التغيير نصّت عليه الآية التالية التي تحدثت عن خلق الإنسان من نطفة أمشاج.

الآية الثانية: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

من خلال الآية الكريمة وترتيبها بعد الآية التي تحدثت عن فترة غياب الإنسان واندثار وجوده يتبين لنا أنّ المقصود هنا؛ تحولٌ ما حدث على غير العادة؛ حيث جاء الإنسان الثاني من نطفة أمشاج. فما المقصود من كلمة أمشاج؟ وماذا يمكن أن نستفيد من إضافة لفظ الأمشاج -التي تعني الخلط- إلى لفظ النطفة التي هي بالأساس خليط من ماء الرجل وبويضة المرأة؟

مدلول لفظ أمشاج كلمة أمشاج تعني أخلاط كما وضحها المفسرون، وهي كذلك في قاموس اللغة لابن فارس؛ فجذر [أمشاج] هو مشج، ولها أصل واحد هو الخلط. كلمة [أمشاج] ذكرت في كتاب الله مرة واحدة لوصف النطفة في هذه الآية الكريمة، أضف إلى ذلك الإشارة القرآنية إلى التحول الذي طرأ على الإنسان. نتيجة هذه النطفة الأمشاج أصبح سمياً بصيراً.

ذُكرت كلمة نطفة في كتاب الله اثنتي عشرة مرة، منها إحدى عشرة مرة بدون إضافتها إلى كلمة أمشاج، وظهور كلمة أمشاج هنا مع النطفة في هذا المشهد المزدحم بالمعلومات عن فترة غياب الإنسان، ووصوله إلى مرحلة الانقراض؛ لا يمكن أن تمر هكذا مرور الكرام. النطفة هي خليط من خلايا الذكر وخلايا الأنثى بالأساس، فعندما يتم إضافة أمشاج إلى النطفة التي هي بالأساس خليط؛ فنحن أمام نطفة مركبة، ويبدو لي أنّ لفظ أمشاج هو إشارة إلى تداخل سلالتين لإنتاج الإنسان الجديد.

عندما نستكمل قراءة الآية الكريمة سنجد أنّ علة هذه الأمشاج هو جعل الإنسان سمياً وبصيراً. وكما ذكرنا من قبل أنّ [الجعل] هو مسألة تحول جزئي؛ لذلك يبدو أنّ عملية الاندماج التي حدثت أعطت أفراداً أكثر تطوراً على مستوى السمع والبصر.

تحسّن السمع والبصر هو بداية الطريق للإدراك والوعي، فمن خلال تطور وظيفة السمع، وكذلك وظيفة البصر تحسّن قدرة الإنسان على التقاط الأحداث حوله، ومن ثمّ معالجتها والتعامل معها. لكي نستطيع فهم ماهية الأمشاج، ومن أين أتى الإنسان لابد من العودة إلى فهم الطور والآيات المتعلقة بالإنسان، وخاصة الآيات التي تحدثت عن مسخ الإنسان إلى قردة وخنازير.

القردة والخنازير وعلاقتها بالأمشاج

ها هي الآية الكريمة التي نتحدث عن علاقة الطور بما حدث لمجموعة من العصاة من بني إسرائيل، وكيف تحول هؤلاء العصاة إلى قردة وخنازير:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65)) (سورة البقرة: الآيات 63-65).

لنستعرض بعض الأقوال حول هذه الآية الكريمة، ومن ثم نحاول فهم هذا التحول في ضوء المعلومات المتاحة لدينا، وفي ضوء النتائج التي توصلنا إليها:

جاء في تفسير الطبري ما يلي: «وقوله: (الذين اعتدوا منكم في السبت)، أي الذين تجاوزوا حدي، وركبوا ما نهيتهم عنه في يوم السبت، وعصوا أمري. عن مجاهد في قوله: (الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ). قال: لم يُمسخوا، وإنما هو مثلٌ ضربه الله لهم، مثلها ضرب مثل الحمار يحمل أسفاراً. عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد: (وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ). قال: مسخت قلوبهم، ولم يُمسخوا قردة، وإنما هو مثلٌ ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفاراً. فكذلك معنى قوله: (كونوا قردة خاسئين) أي؛ مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين. عن مجاهد في قوله: (كونوا قردة خاسئين) قال: صاغرين.» انتهى الاقتباس من التفسير.

حتى نفهم الآية الكريمة لا بد أولاً أن نعي جيداً أنّ كل أفعال الله - كما أخبرنا- بقدر؛ أي بقوانين وتعليمات إلهية؛ ليس هناك شيء اعتباطي كما يظن أصحاب الإيمان الوراثي، وإنما كل شيء خاضعٌ للتقديرات التي أخبرنا عنها الله في كتابه.

سوف نقدم هنا الحجّة والدليل على موضوع أعدّه من أخطر المواضيع المثارة، ولا سبيل لردّه إلا بالحجّة والدليل والبرهان. لكي نفهم الآية الكريمة التي تتحدث عن تحول العصاة من بني إسرائيل إلى قردة في هذه الآية، وإلى قردة وخنازير في آيةٍ أخرى؛ لا بد أن نفهم فحوى الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وما تبعه من رفع الطور.

في ظل فهمنا للطور بأنه حالة تصف التطور بمفهومنا المعاصر؛ كان لا بد أن نقف ونسأل: لماذا قردة وخنازير تحديداً؟ وما علاقة الطور بهذا التحول؟

الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل هو رفع الطور، وكما بينّا في الفصل الأول أنّ معنى رفع الطور هو زيادة تأثير التطور عن حالته الطبيعية، أو تسريع عملية التطور عن معدلها

الطبيعي. فلها عصى بنو إسرائيل تحولوا إلى قردة وخنازير، وهذا التحول لا يمكن أن يفسر إلا من خلال ما يُعرف بالتحول الجيني أو الارتداد الجيني.

ما حدث ليس سحراً تنزهه ربنا عن ذلك، وعلا علواً كبيراً، ولكنه بقدر قدره الله، وذكره في كتابه هكذا ليس ذكراً عابراً؛ بل دعوة للتدبير وطرح الأسئلة. لدينا كلمتان في الآية الكريمة تحتاجان لبيان مدلولهما؛ حتى تكتمل الصورة، ونستطيع إدراك الجزء المفقود منها، الكلمة الأولى: هي كلمة [جعل] والكلمة الثانية: [خاسئين]:

كلمة [جعل] كما وضعنا من قبل تعني تحولاً جزئياً؛ أي إن طارئاً طراً عليهم فحولهم من صورة إلى صورة، ولا خلاف في مدلول كلمة [جعل] هنا.

أما كلمة [خاسئين] وأصلها خساً، فقد قال عنها المفسرون: إنها تعني انطرد ذليلاً صاغراً حقيراً. جذر كلمة [خساً] في قاموس اللغة له أصل: هو الإبعاد. أما الجذر الثنائي [خس] له أصلان: الأول: هو حقارة ودناءة، والثاني: تداول الشيء.

لو حاولنا فهم مدلول الكلمة من خلال كتاب الله سنجد أن لفظ خساً ومشتقاته قد ورد في كتاب الله في أربعة مواضع: اثنان منها خاصان بتحول عصاة بني إسرائيل إلى قردة وخنازير، واثنان كالتالي:

الآية الأولى: (قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) (المؤمنون: الآية 108). بالرغم من أن المفسرين قالوا: إن اخسوا في الآية تعني امكثوا، لكن تبعاً لجذر الكلمة وسياق الآية فإنهما يدلان على أن اخسوا تعني عودوا أو تراجعوا. الآية الثانية: في سورة الملك عن البصر (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) (سورة الملك: الآية 4) أيضاً قال المفسرون عن (خاسئاً وهو حسير) أي راجعاً وهو ذليل منكسر.

لفظ [خساً] يصف حالة من التقهقر والتراجع؛ بمعنى الشيء الذي يصيبه الخسأ لا بد أن يكون تقدم خطوات، حتى إذا خسأ عاد متقهقراً متراجعاً، وهذا التقهقر يحمل انكساراً

وذاً بالتأکید، وهذه الكلمة تصف حالةً كاملةً تنطبق تماماً على بني إسرائيل؛ إذ كانوا بشراً عاديين وخسئوا؛ أي تفهقروا في المرتبة، وعادوا إلى مرتبة القردة والخنازير. إنَّ هذا التراجع ليس عبثياً أو فوضوياً؛ وإنما بقانون وسبب. والسبب الذي ذكره القرآن هو أنهم اعتدوا وعصوا؛ أي إنَّ سلوكاً منحرفاً هو ما سبَّب تحولهم إلى قردة وخنازير. لاحظ أنَّ هذا السلوك المنحرف تم في وجود رفع الطور، والذي - كما قلنا - هو زيادة معدل التحولات الجينية عن معدلها الطبيعي، ولا شك أنَّ سلوك الإنسان المتعمد والصادر عن وعي كامل هو جزء من المنظومة الكونية؛ يؤثر في محيطه، ويتأثر بما حوله. (راجع فصل فطرة الله التي فطر الناس عليها - الجزء الأول).

من الواضح أنَّ السلوك المنحرف - وفي ظل زيادة تأثير الطور عن معدل الطبيعي - كان العامل الأساسي في الارتداد الجيني الذي أصاب بني إسرائيل، وتحولوا إلى قردة وخنازير. (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُثَبِّتَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) (سورة المائدة: الآية 60) لكن، لماذا قردة وخنازير بالذات؟

كلمة [خسأ] - كما قلنا - توحى بالتراجع والعودة، ومما يبدو أنَّ البشر مرحلة متقدمة من كائنات أقل رقياً، وبالتحديد القردة والخنازير، وكما قلنا تسمى هذه الحالة ارتداداً جينياً؛ حيث يعود الفرد إلى الوضع الجيني السابق لوضعه الحالي.

لا نستبعد أنَّ تكون إشارة القرآن الكريم إلى النطفة الأمشاج - أي الأخلاط - أن تكون قد سُطرت من قردة، والشطر الآخر من خنازير. نلاحظ أنَّ الآيات التي تحدثت عن هذا التحول هي ثلاث آيات، منها آيتان ذكرتا تحول العصاة من بني إسرائيل إلى قردة دون ذكر لفظ خنازير، والآية الثالثة ذكرت لفظ القردة مع لفظ الخنازير.

ملاحظة أخرى: وهي لفظ [القردة] مؤنث، ولفظ [الخنازير] مذكر؛ مما يدفعنا للقول إنَّ نجاة الإنسان، أو بالأحرى نسل الإنسان تم عن طريق تزاوج خنزير مع أنثى قرد، أو مع

ثلاث إناث من القردة، ثم إنَّ النسل الناتج كان البذرة الأساسية للإنسان الحالي، من خلال عمليات تزاوج بين هذا النسل بعضه ببعض.

قد يكون مدلول ذكر القردة ثلاث مرات مقابل ذكر مرة واحدة للخنازير إشارة للنسب الجينية بل واعتقد بنسبة كبيرة أن الأخذ في الاعتبار هذه النسبة سوف يعجل بشكل كبير في اكتشاف هذا السر الخطير والمزعج للكثيرين.

هذا التزاوج بين القردة والخنازير، يبدو أنه أنتج نسلًا جديدًا ذو قدرات سمعية وبصرية متطورة؛ للحد الذي جعله أكثر تطوراً ورقياً من الأفراد السابقة.

لو سألتني عن هذه التحليلات بصورة شخصية أستطيع القول؛ إنَّ لديّ قناعة أن الإنسان الحالي قد تطور نتيجة لهذا التزاوج الغريب، والذي كان من حتميته تطور قدراته، ودخوله مرحلة القدرات العقلية المتطورة، ولكن إن أردنا أن نتحدث بشكل علمي فلا يمكن القطع أبداً بذلك، ولكن اللغة العلمية السليمة هي أن نتحدث بلغة الاحتمالات؛ حيث يمكننا القول إنَّ احتمالية أن يكون الإنسان المنحدر من تزاوج القردة والخنازير هي احتمالية قائمة وبشدة .

قد يكون ما ذهبُ إليه خطأً في التحليل، وأنَّ ما حدث هو تشوُّه واضطراب جيني سبَّبَ تحوُّلَ البشر إلى قردة وخنازير، ودون أن يكون أصل البشر قادمًا من تزاوج قردة وخنازير فعلاً، وفي هذه الحالة فإنَّ العلم هو ما سيحدد أي من الفرضيات صحيح.

إنَّ الأدلة اللغوية التي تشير إلى فرضية أن الإنسان جاء من هذا الأصل كثيرة وغزيرة، ولدينا كذلك إشارة في كتاب الله لا بد أن تدرس جيداً، وهي إشارة قد تعزز فرضية أن جينات البشر الحاليين هي جينات مشتركة في الأصل الأول بين القردة والخنازير، وهذه الإشارة هي تحريم أكل الخنزير بنصٍ صريحٍ في كتاب الله.

يبدو أن مسألة تحريم أكل لحم الخنزير ليست كما يعتقد البعض حالياً؛ من أنه حيوان نجس وقذر ومن الحيوانات التي غضب الله عليها؛ وإنما يبدو الأمر متعلقاً بالجينات، وما يمكن أن يسببه أكل هذا الحيوان الأقرب لنا في التركيب الجيني من تشوُّه واضطراب.

تحريم أكل الخنزير

لقد لاقى هذا الحيوان من البغض والكره ما لم يلاقه حيوان مثله لدى (المسلمين)؛ بسبب تحريم أكله، حيث أن القرآن الكريم لم يتطرق إلى تحريم أكل حيوان بشكل مباشر وصريح ومحدد، إلا هذا الحيوان، مما عزز نفور وعداء الناس لهذا الكائن.

لقد ورد لفظ الخنزير في خمسة مواضع في كتاب الله كالاتي:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة النحل: الآية 115).

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة الأنعام: الآية 145).

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْقُ الْيَوْمِ يَتَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة المائدة: الآية 3).

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 173).

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (سورة المائدة: الآية 60).

الخنزير بوصفه حيواناً ليس هناك ما يشينه أو ما يسبب كل هذا النفور تجاهه، ولكنّ النهي موجه إلى أكل لحم الخنزير على وجه التحديد. من وجهة نظري أنّ تحريم أكل لحم الخنزير ربما يكون متعلقاً بالجينات، وما يمكن أن تسببه من اضطراب، أو ما يمكن أن يسببه هذا النوع من الطعام من تأثير سلبي على الجهاز العصبي والمخ. إن عملية أكل لحم الخنزير أشبه بما أن يأكل الحيوان نفسه أو أحد من جنسه فيما يسمى بعملية "Cannibalism"``

بالنسبة إلى "المسلمين"؛ يتجلى في آيات تحريم أكل لحم الخنزير نوعان من الإيمان: إيمان غيبي؛ وهو التصديق والطاعة وعدم أكل هذا اللحم، وإيمان عقلي؛ يبحث عن السر خلف هذا التحريم، وهو على يقين تام أنّ هناك سبباً ما، باكتشافه يرتقي الإيمان الغيبي إلى درجة الإيمان العقلي.

لكن لماذا نصّ الكتاب على تحريم أكل لحم الخنزير بشكل مباشر وصريح دون باقي الحيوانات مثلاً؟

الخنزير يعتبر من الحيوانات العشبية، واحتمال اختلاط الأمر على الناس احتمال وارد، لذا كان الأمر الصريح والمباشر بتحريم أكل هذا الحيوان؛ بسبب العلاقة الجينية بين هذا الحيوان وبين الإنسان .

يعتقد بعض الناس أنّ القرآن لم يفصلّ المباح وغير المباح في الأكل، بخلاف لحم الخنزير؛ ولكنّ الحقيقة على غير ذلك، وسوف نلقي الضوء على هذه المعلومات من خلال الفصل القادم؛ الذي سوف يتناول الأنعام ووظيفتها، ومن أين جاءت، وعلاقتها بالتطور، في لفظة قرآنية لا يمكن تجاوزها.

التشابه بين الخنزير وبين الإنسان.

صدرت مؤخراً أوراق بحثية عن إمكانية استخدام أعضاء الخنزير كأعضاء بديلة للإنسان؛ لما لها من تشابه واضح بينها وبين أعضاء الإنسان، ونجاح زراعة أعضاء من الخنزير إلى الإنسان تعتمد على جين معين؛ يساعد في تقبل جسم الإنسان لزراعة الأعضاء دون لفظها أو مهاجمتها من قبل جهاز المناعة.

الثدييات المعروفة لديها نسخة فعالة من هذا الجين، وجود هذا الجين يجعل جهاز المناعة يقوم بمهاجمة العضو المزروع؛ مما يؤدي لفشل عملية الزراعة، ولفظ الجسم للعضو المزروع. أما في حالة الخنزير؛ وجد العلماء حلاً لهذه المشكلة بالتعديل الجيني للخنزير؛ حتى تتشابه إلى حد كبير مع الإنسان.

"يوغين مكارثي" باحث في جامعة "جورجيا" الأمريكية، ومن خلال مجموعة من الفرضيات ادعى أنّ الإنسان هو نتاج تزاوج بين ذكر خنزير وأنثى شمبانزي. يقول الباحث بحسب صحيفة "ديلي ميل" البريطانية: إنّ التشابه المذهل بين الإنسان والخنزير شيء واقع ولا يمكن تجاوزه.

بالرغم من أنّ المجتمع العلمي تلقى هذه المعلومات بكثير من الاستهجان والاستنكار أحياناً؛ بسبب ضعف الأدلة العلمية، إلا أننا من خلال تحليل اللفظ القرآني، ومن خلال المنهج المستخدم نؤيد ما ذهب إليه "مكارثي".

هناك إشارات علمية متفرقة على علاقة ما بين الخنازير والإنسان، فكما جاء في موقع MNN المختص بالطبيعة وشؤونها، بتاريخ 28 سبتمبر 2015م، تم نشر مقال علمي تحت عنوان: (تشارك الخنازير والبشر في تشابهات جينية أكثر مما كان يُعتقد سابقاً)، وجاء فيه:

تشارك الخنازير مع الإنسان في عدد من الصفات الواضحة، وعلى سبيل المثال: البشرة الملساء، و الطبقة السميكة من الدهون أسفل الجلد، والعيون فاتحة اللون، والأنوف البارزة، والرموش الثقيلة، كما تشير الدراسة إلى أنه أمكن استخدام أنسجة جلد الخنزير وصمامات القلب كبداية للإنسان؛ بسبب توافق هذه الأنسجة عند الخنزير مع جسم الإنسان.

وبحسب الموقع فقد ركزت الدراسة على عناصر جينية تدعى SINES (العناصر القصيرة المتخللة) . حيث تم اعتبار Sines ، التي تشكل حوالي 11 بالمائة من الحمض النووي البشري DNA غير المرغوب فيه. فبات الباحثون يعتقدون أنّ تحليل هذه العناصر يمكن أن يستخلص تلميحاتٍ مهمة حول تاريخ تطور الثدييات.

على الرغم من وجود الأبحاث المتقدمة والمعلومات الغزيرة عن التحليل الجيني؛ إلا أنّ العلماء غير قادرين على القطع بالعلاقة التطورية بين القرود والخنازير من جهة والإنسان من جهة، ولكن ما استطاع العلماء التكهن به هو أنّ ثمة علاقة قوية تربطنا بهذه الكائنات. مدلول لفظ قرد وخنزير وعلاقتها بالسياق الذي ذكرنا خلاله. لم يكن من المنطق ترك مفردات مثل قرد وخنزير أن تمر دون فهم الحالة التي تصفها ودون أن نقف على معناها بشكل كامل ونحاول فهم الارتباط بين ذكر هذه الحالات وبين الطور وتحول جماعة من البشر إلى قردة وخنازير كما نص القرآن.

أولاً مدلول كلمة قرد

لفظ قرد كما جاء في قاموس اللغة تدل على تجمع في شئ مع تقطع. كذلك صوت كلمة قرد قريبة الشبه بلفظ قرض والتي تدل على قطع شئ من شئ.

بما أن لفظ القرد ذكر في سياق تحول جيني كما ذكرنا، فإن مدلول الكلمة نراه يشير إلى انقطاع أو تقطع الحالة المرتبطة بالجينات. بمعنى أكثر دقة تدفعنا المعطيات التي بين أيدينا إلى القول بأن القرد وصف لحالة ينقطع أو يتوقف عندها الامتداد الجيني الطبيعي، أو أن القرد هو نهاية السلسلة التطورية فلا يمكن أن يتطور إلى أبعد من ذلك، وهذا الاعتقاد قائم بالأساس على فهم الحالة التي تصفها كلمة قرد.

هذا يعني أن حلقة التطور اكتملت بهذا الحيوان، وهذا الاكتمال له نظائر متعددة في الكون بحيث تكتمل الحلقة، وأي زيادة تعقبها إن حدثت تكون غير مستقرة، أو إنها لا تحدث بالأساس بسبب عدم الاستقرار.

حلقات كثيرة سباعية أي تتكون من سبع دورات قد أشار إليها القرآن على أنها حلقات مكتملة ولا يمكن الزيادة بعدها بسبب عدم الاستقرار الذي يسببه أي نوع من الزيادة. سوف يتم شرح الحلقات السباعية وارتباطها بحالة الاستقرار من خلال مدلول الرقم سبعة وارتباطه بحيوان السبع المذكور في القرآن وعلاقة كل ذلك بوصف السموات السبع في الكتاب الرابع (قولاً ثقيلاً).

هكذا يبدو لنا القرد هو إحدى نهاية هذه الحلقات ولا يمكن التقدم بعده إلى حيوان أكثر تطور بالوضع الطبيعي لأن التطور وصل إلى ذروته بحسب مدلول الكلمة.

ثانياً مدلول كلمة خنزير

جذر الكلمة هو خنز ويقول ابن فارس فيها أنها من باب المقلوب وليست أصلاً، ومعنى خنز اللحم أي تغيرت رائحته وخنز. يمكن الاستعانة أيضاً بلفظ خنس المقارب لصوت خنز، حيث أن لفظ خنس تعني اختفاء وتستر. من هنا يمكننا القول أن لفظ خنز يحمل صفات التغير أو الخزن أي تكس الأشياء بعضها فوق بعض وكذلك صفة الخفاء بسبب أن الأشياء المكدسة بطبيعتها مخفية.

بما أن لفظ خنزير جاء كذلك في معرض الحديث عن التحولات الجينية وجاء أيضاً في سياق تحريم اللحم، وبما أننا كنا قد اشرنا إلى أن علة التحريم تبدو مرتبطة بشكل مباشر بالعلاقة الجينية المحتملة بين هذا الحيوان وبين الإنسان فإننا نرى أن لفظ خنزير يصف حالة من خزن واخفاء جيني بصورة سيئة أو تكس جيني تسبب في تلف أو ضرر في هذه الجينات فلا تؤدي وظيفتها بالشكل المطلوب.

إضافة الياء والراء في نهاية الكلمة يشير إلى مد منخفض مع التكرار مما يدل على تراكم هذا التكس بشكل سلبي وليس في الاتجاه الصحيح المعتدل. لفظ خنزير هنا وصف لحالة من تكس جيني بصورة غير صحيحة مما سبب تلف أو تعطيل هذه الجينات حيث لا تعمل بشكل صحيح. بشكل أكثر وضوح، هذا الوصف ربما يصف طفرات جينية متعددة مكدسة بشكل كبير لم تعمل وكامنة في هذا الحيوان.

لقد أشار بعض المفسرين إلى أن الخنزير سمي بذلك بسبب أنه يكس طبقات الدهن ويخبي فيها كثير من السموم معتمدين على مدلول لفظ خنزير، ونحن نتفق معهم في حالة اللفظ غير أننا نذهب بعيداً ونقول أن التكس حدث بالفعل في الجينات مما جعل هذا الحيوان على ما يبدو مخازن للطفرات المعطلة. الآن، ماذا يمكن أن يفيدنا فهم مدلول لفظ القرد و مدلول

لفظ الخنزير في فهم تطور الإنسان ؟ من خلال فهم مدلول الكلمات نستطيع أن نضع تصور أمام الباحثين عن حلقة من حلقات التطور الأكثر صعوبة على الإطلاق وهي كالآتي :

التزاوج الذي تم بين القرد والخنزير والذي أشرنا إليه وقلنا أنه يمكن أن يكون قد حدث قبل 60 مليون سنة أو بعد الإنقراض الكبير كان نتيجة متوقعة ولها أسبابها بسبب خصائص التي يتمتع بها كل كائن على المستوى الجيني.

القرد الذي وقفت حلقة تطوره، ولم يعد في الإمكان الاستمرار بالتطور أكثر من ذلك بسبب الانقطاع الذي دلت عليه كلمة قرد، لديه فرصة لإنتاج كائن مختلف تماماً عن طريق التزاوج مع الخنزير صاحب مخزن الطفرات العملاق.

المسألة تشبه إلى حد كبير إذابة شئ مركز في مذيب لتخفيف هذا المركز والاستفادة منه، بمعنى فك الطفرات المكدسة من خلال إذابتها في جينات القرد لإنتاج فرد جديد. ما حدث واستطيع تصوره من خلال تحليل جميع الكلمات هو أن تزاوج حدث، لا شك أنه عجيب بحيث ينقل جزء من الطفرات المكدسة لدى الخنزير إلى القرد لينتج فرد جديد تماماً.

هذا التزاوج هو البذرة الأولى للإنسان الأول. هذا التزاوج كما بينا من قبل قد أدى بشكل مباشر لتطور القدرات السمعية والبصرية وجهاز الإحساس لدى الكائن الجديد بحيث تصبح ملائمة تماماً لعملية التقاط المعلومات من حوله ومن ثم التعامل معها بشكل راقى.

أيضا قد يفسر إسم الخنزير وخصائص هذا الإسم، التنوع البشري و تنوع الأجناس بسبب كم الطفرات المخزنة في هذا الكائن أيضا والتي انتقلت بدورها إلى القرد والذي ربما أتاح بعد ذلك ظهور اعراق مختلفة من البشر.

بعد هذه المعلومات، ومن خلال تحليل اللفظ القرآني؛ يمكننا أن نسجل وقبل أن يثبت العلم ذلك، أنّ احتمالية النحدر الإنسان من تزاوج قرده وخنزير هو أمر وارد وغير مستبعد.

السؤال هنا: أين آدم من كل هذا؟

لا توجد آية واحدة في كتاب الله تتكلم عن الخلق الكامل لآدم، ولا توجد آية واحدة تتحدث عن خلق زوجة آدم من أحد أضلاعه كما يدعي التراث، والمعلومات التي بحوزتنا هي معلومات تراثية بشرية بامتياز، تم تكييف وليّ عنق الآيات القرآنية حتى توافق أو تبدو موافقة لأفكارنا عن خلق آدم وخلق زوجه. الفكرة السائدة عن خلق آدم وزوجه هي فكرة من تراث مللي أخرى غالباً أو حتى بعض الأساطير.

دعونا قبل الحديث عن آدم نلقي نظرة سريعة على الآيات التي يستدل بها المتخصصون والعامّة على حد سواء في خلق زوج آدم من آدم نفسه.

الآية الأولى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) (سورة النساء: الآية 1).

الآية الثانية: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) (سورة الأعراف: الآية 189).

الآيات لا علاقة لها بخلق زوج آدم على الإطلاق، بل هي دلالة أخرى على التطور، وأن الخلق بدأ من خلية واحدة، والتي تكاثرت وتطورت بعد ذلك حتى الوصول إلى التحول من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي؛ كما بينا آنفاً.

على الرغم من أنه لا توجد آية واحدة في كتاب الله تدل من قريب أو بعيد على خلق زوج آدم من آدم؛ نجد في المقابل أن ذكر زوج آدم جاء معه؛ وكأنها مصاحبة له في وضع طبيعي جداً. وحتى نفهم من أين جاءت زوجه؛ لا بد أن نفهم من أين جاء آدم، وكما ذكرنا لا توجد آية واحدة تصف الخلق الكامل المنفصل لآدم.

الآية القرآنية الوحيدة التي ينطلق منها من يعارض التطور البشري هي الواردة في سورة

(ص):

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي^ط أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ) (سورة ص: الآية 75).

بالرغم من غزارة الآيات التي تتكلم عن مراحل الخلق إلا أن هذه الآية وعلى الرغم من عدم إشارتها إلى الخلق الكامل المنفصل أشكلت على الناس. لقد سبق هذه الآية الكريمة آيتان قد استفضنا في شرحهما وهما:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73)) (سورة ص: الآيات 71-73).

لعل ما أشكل على الناس وجعلهم يظنون أن آدم خلق خلقاً كاملاً، كتمثال ثم تم نفخ الروح فيه؛ هو قول الله سبحانه (لما خلقت بيدي). التصور التجسيدي لمفهوم اليد هو ما أشكل على الناس، بينما مفهوم يد الله ومدلولها من خلال كتاب الله تعني القدرة المشمولة بالرعاية، ولدينا ثلاث آيات كريمة في كتاب الله تعزز هذا القول:

(وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالَّذِي آمَنَ بِكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (سورة آل عمران: الآية 73).

لم يقل أحد من المفسرين إن المقصود من هذه الآية يد الله بشكل تجسيدي؛ وإنما المقصود أن الله يحسن إلى عباده، وأن الفضل متعلق بالله.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنَا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (سورة المائدة: الآية 64).

فسر المفسرون أيضاً (يد الله مغلولة) تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً- بقولهم: أي عطاؤه محبوس وممسوك.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَا يَكْفُرُ بِهِ أَلْتَبِئْتُمُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (سورة الفتح: الآية 10).

فسر المفسرون (يد الله فوق أيديهم) على قولين: القول الأول: قوة الله فوق قوتهم ، والقول الثاني: هو أنهم كانوا يبايعون الله وقت كانوا يبايعون رسوله.

من خلال كتاب الله نجد أن مدلول كلمة [يد] يعني: أداة القوة القادرة على الفعل المتصلة بالفاعل؛ فعندما يقول ربنا إنه خلقه بيده، فذلك يعني: خلق آدم بأداة متصلة بالخالق، وهذا ما نسميه التداخلات الإلهية التي تحدثنا عنها، وسوف نتعرض لها فيما هو قادم.

كلمة [يد] هنا تحل كثيراً من الإشكاليات التي وقف عندها العلم عاجزاً، مثل قدرة البشر على تعلم اللغة، أو حتى بعض الطفرات غير المفهومة علمياً؛ هنا تأتي يد الله لتفعل.

ما بين من يقول بالصدف والتطور المادي العشوائي في تفسير نشأة الكون، ومن يقول بالخلق الكامل والمنفصل دون أي طور ودون تدرج؛ تأتي الآيات الكريمة لتخبرنا بالتدرج والتطور، أو ما يُعرف بالتصميم الذكي، وفي الوقت نفسه تشير إلى القوة الفاعلة التي ترعى وتتدخل وفق حسابات وتقديرات العزيز العليم. إذا كان الإنسان خلقاً بشكلاً متطوراً، فما موقف آدم، وما محله من الإعراب في هذه السلسلة التطورية المعقدة؟

آدم ليس والد البشر

عندما نقول إن آدم ليس والد البشر فإننا نعني ذلك حرفياً؛ إذ إن لفظ [والد] يعني الفعل البيولوجي، وهذا ما نقصده بأن آدم ليس والداً بيولوجياً للبشر؛ وإنما يصح فيه القول بأنه الأب الروحي للبشر، وإن كان هذا لا ينفي أن لآدم نفسه أولاداً وذرية، وسوف نتعرض لهذا خلال السطور القادمة. سوف نتبع ورود ذكر آدم في كتاب الله، ونرى كيف نقرأ هذه الآيات الكريمة في ظل المعطيات والمعارف الحديثة، وفي ظل ما توصلنا إليه من معلومات .

ورد ذكر آدم في 25 موضعاً في كتاب الله، ولو استطعنا تفسير آيتين فقط لفهمنا أين يقع آدم من هذه الكون العملاق.

الآية الأولى: وهي الآية التي تعرّضنا لها في أول الفصل، والمقارنة بين خلق آدم وخلق عيسى عليه السلام، ووجه الشبه بينهم في الخلق من تراب، وقد أسهبنا في وصف وشرح التراب وماذا يعنى. لقد استنتجنا من هذه الآية أنّ خلق آدم عليه السلام كان خلقاً بيولوجياً كما كان خلق عيسى عليه السلام، ويبدو أنّ خلق آدم تم بطريقة غير الطريقة الطبيعية المعروفة، ولكن تم بشكل ما بصورة بيولوجية؛ فقد تكون عملية الإخصاب تمت تحت شروط معينة، كما حدث مع نبي الله عيسى؛ ليصبح آدم ملائماً تماماً للمهمة التي سوف يقوم بها؛ وهي تعلم اللغة أو القدرة على التسمية، ونقلها إلى المعاصرين له.

لا يمكن الجزم بكيفية خلق آدم بشكل تام إلا أن مدلول كلمة تراب وتشبيهه خلق عيسى بخلق آدم يدفعنا للقول إنّ آدم جاء بطريقة بيولوجية وليس خلق منفصل.

الآية الثانية التي تستكمل المشهد: هي الآية التي يقول فيها ربنا أنه اصطفى آدم: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (سورة آل عمران: الآية 33).

عندما تعرض المفسرون لهذه الآية الكريمة؛ لم تخرج عما دونه الطبري في كتابه: «القول في تأويل قوله: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ الله اجتبي آدم ونوحاً واختارهما؛ لديهما، وآل إبراهيم وآل عمران؛ لديهم الذي كانوا عليه؛ لأنهم كانوا أهل الإسلام. فأخبر الله عز وجل أنه اختار دين من ذكرنا على سائر الأديان التي خالفته. وإنما عني بـ"آل إبراهيم وآل عمران" المؤمنين. « انتهى الاقتباس من التفسير.

رغم محاولات المفسرين فهم وتأويل هذه الآية؛ إلا أنّ هناك معنى غائباً، يجب ان لا يمر هكذا مرور الكرام؛ وهو مفهوم الاصطفاء.

ما هو الاصطفاء؟

الاصطفاء: هو اختيار من بين مجموعة، وتفضيل على آخرين. كذلك دلت الآية التي تخبرنا أنّ الله اصطفى أحداً من خلقه على العالمين، النص القرآني يقول إنّ آدم تم اصطفاه على العالمين؛ أي اختياره وتفضيله من بين العالمين، وهذا الاصطفاء مشابه تماماً للاصطفاء الذي تمّ على نوح وإبراهيم وآل عمران؛ ولا يمكن أن يمرّ تعبير قرآني كهذا مرور الكرام ولا نلتفت إلى المقارنة والعامل المشترك بين جميع من ذكرهم ربنا في الآية الكريمة.

عن طريق ربط الآية الكريمة في هذا المشهد القرآني بالآيات الأخرى يتضح لنا أنّ مرحلة آدم هي الحلقة الأخيرة والأرقى بين المخلوقات، ويبدو من ترتيب الآيات السابقة أنّ مرحلة البشر جاءت بعد تطور الإنسان بشكل كبير، وهؤلاء البشر امتلكوا قدرات عقلية ومنطقية لم تكن موجودة من قبل؛ بسبب التطور الذي أدى إلى زيادة كفاءة السمع والبصر.

إن كان البشر لديه قدرات متطورة من الاستدلال والاستنتاج كما بيّنا عند تحليل مفهوم البشر ومفهوم الإنسان، إلا أنّه ما زال هناك لبنة لم تكتمل بعد، على نحو يستطيع البشر معه إنشاء حضارة واستلام الدفة وتولي زمام الأمور؛ وهذه الحلقة المفقودة هي اللغة، أو الدلالات الصوتية المعبرة، أو القدرة على التعبير عن الأفكار.

لا شك أنّ هذا البشري أصبح بحاجة ماسة للتعبير عن أفكاره، ونقلها إلى أمثاله، والتفاهم حولها، فدون التعبير بطريقة صحيحة ومفهومة عن الأفكار لا يمكن أن يكون هناك أيّ إنتاج لحضارة، أو بوادر لمجتمعات راقية؛ لأنّ طرق التواصل الصحيحة على نحو يصبح مسمى الشيء دالاً عليه، هي الضامن الوحيد لتنظيم ودفع عجلة الحياة خطوة للأمام، وذلك يحدث عن طريق الاتفاق، وتجنب الاختلاف، ونقل الأفكار بشكل صحيح.

من هنا جاء دور آدم ليقوم بدور المعلم والأب الروحي للبشرية؛ ولكي يقوم آدم بهذه المهمة الجليلة تمّ إعداده عن طريق التدخل الإلهي المباشر، منذ لحظة تكوينه الأول في الرحم

التي أنجبتته، فيما يشبه خلق المسيح عيسى بن مريم؛ حتى يلائم الوظيفة التي سوف يقوم بها، وهي تعلم الدلالات الصوتية المعبرة ونقلها إلى البشرية فيما بعد.

جاء التعليم الإلهي والتدخل الرباني ليمنح آدم علم الأسماء الذي ذكره ربنا في كتابه؛ وهو القدرة على التسمية، والذي يعتبر نقلة نوعية في حياة البشرية. هذا العلم الذي حاز عليه آدم، واستطاع من خلاله توظيف الدلالات الصوتية في التعبير، تعبيراً حقيقياً عن المسميات ووصفها بكل دقة؛ هو التحول الحقيقي ذو القيمة العظمى في تاريخ البشرية.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: إذا كان آدم حقاً هو أول من تعلم الدلالات الصوتية، وليس كما نفهم هو الأب البيولوجي للبشرية، فماذا حدث لباقي البشر المعاصرين لآدم؟ ولماذا الخطاب في كتاب الله دائماً ما يستخدم لفظ [بني آدم]؟
هناك فرضيتان يمكن أن تفسر هذه الجزئية:

الفرضية الأولى: قد يكون حدث انقراض لباقي البشر مع مرور الزمن؛ بسبب عدم قدرتهم على التكيف، وبقي آدم وذريته فقط، التي تناسلت وأنتجت الأجيال الحالية. وهذه الفرضية ضعيفة جداً، ولا أرحمها؛ بسبب دلالة الألفاظ في كتاب الله، والتي فرقت بين بني آدم وذرية آدم.

الفرضية الثانية: إن آدم هو معلم البشرية، وهو الذي اصطفاه الله لتعليم باقي البشر علم القدرة على التسمية، وكان أول من استخدم اللغة، واستطاع بالفعل تعليم البشر المعاصرين له الدلالة الصوتية المعبرة عن المسمى بشكل صحيح.

أميل للفرضية الثانية؛ أي استطاع آدم تعليم معاصريه اللغة بالطريقة الصحيحة التي تلقاها من ربه، ومن ثم انتقل هذا العلم إلى ذريته ومعاصريه، وقد تكون هذه الطريقة في نقل علم اللغة هو ما يفسر تشعب اللغات والألسنة. بقدر استيعاب كل فرد للعلم الجديد وتفاعله معه، وبقدر تباعد المجتمعات واختلافها، سوف تبرز حاجات جديدة تحتاج للتعبير عنها، وقد تنفرع اللغة الأصلية إلى لغات فرعية تستمر في التمايز والاختلاف بمرور الزمن.

ليس لدي شك أنّ ذرية آدم وأقصد أولاده البيولوجيين كانوا أكثر حظاً في الاحتفاظ باللغة الأم، وإن كان حدث بعض التحريف؛ فهو لا شك أقل من التحريف والزيغ في المجتمعات والأفراد الأكثر بعداً عن آدم، أو غير ملتصقين به مثل التصاق أولاده به ومعايشته لهم. على ذلك أرجح بشدة أنّ انتشار اللغة واختلاف الألسن يرجع بالأساس إلى طريقة انتقال اللغة من آدم إلى محيطه.

فهم الفرق بين التعبيرين القرآنيين، [أبناء آدم وذرية آدم] سوف يلقي الضوء على كثير من الجوانب الغامضة، وسوف يعزز فرضيات التطور وخلق آدم بشكل تطوري. بالقدر الذي أمكن لفهم الفرق بين [الذرية والأبناء] أن يمدّنا بصورة واضحة عن سبب اختلاف اللغات عن بعضها البعض، يمكن أن يؤيد هذا الفرق الفرضية التي تقول إنّ آدم ليس أول البشر؛ بل هو معلم البشر، وليس هو الأب البيولوجي للبشرية؛ إنما الأب الروحي لها.

أبناء آدم وذرية آدم

التعبيرات القرآنية دقيقة بالقدر الذي يجعلنا نتساءل: لماذا استخدام القرآن لفظ [أبناء] أو [بنو آدم]، ولم يستخدم لفظ [أولاد] على سبيل المثال، بالرغم من أنّ لفظ [أولاد] هو لفظ قرآني بامتياز؟. إنّ مدلول لفظ [أولاد] هو لفظ بيولوجي يعبر عن النسل؛ أي التوالد البيولوجي، بينما لفظ [أبناء] أكثر شمولية؛ فهو يعبر عن كل ما يقع تحت الرعاية أو الوصاية. حتى إنّ اليهود عندما قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه؛ كانوا يقصدون أنهم المقربين من الله وأصحاب الحظوة، ولا يقصدون أنهم أولاد الله البيولوجيين حرفياً.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (سورة المائدة : الآية 18).

لم يصف ربنا قول اليهود بالقول العظيم والبهتان الكبير؛ إذ لا يشكل إساءة للخالق بقدر ما يمثل غرورهم واحتكارهم الهدى، وكبرهم يجعل رحمة الله مقتصرة على بعض البشر.

مدلول [أبناء] يشير إلى أولئك الذين يقعون تحت رعاية وحماية وكنف الأب، ولا يشترط أبداً أن يكون الأب أباً حقيقياً أو أباً بيولوجياً.

على الجانب الآخر نجد القول بأن الله له ولد هو قول عظيم؛ لأنه قول يصف فعلاً بيولوجياً، يضع الخالق ضمن قوانين المخلوق، وهذا منطقياً لا يمكن. مجرد خضوع الخالق لقوانين المخلوق تنتفي عنه صفة الخالق، ويصبح أسيراً لهذه القوانين، ولا يمكنه الخروج من دائرتها مرة أخرى.

لفظ [بني آدم] هو اللفظ المعتمد قرآنيًا في التعبير عن البشرية أو مخاطبة البشر؛ كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية عديدة .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (سورة الأعراف: الآية 26).

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (سورة يس: الآية 60).

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (سورة الأعراف: الآية 27).

(يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة الأعراف: الآية 35).

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (سورة الإسراء: الآية 70).

لا يمكننا الجزم بأن التعبير القرآني [بنو آدم] يصف البشرية بشكل شامل، إلا إذا كان هناك تعبير آخر أكثر تخصيصاً؛ ويصف حالة مغايرة. [ذرية آدم] هو ما نقصد حين يصف هذا التعبير نسل آدم نفسه حصراً؛ كما دلّ على ذلك مدلول لفظ [ذرية] في كتاب الله.

جميع الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ ذرية تعبر عن النسل البيولوجي بشكل دقيق ومحدد: (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة آل عمران: الآية 34).

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) (سورة آل عمران: الآية 38).

(وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) (سورة النساء: الآية 9).

التعبير القرآني [ذرية آدم] جاء معبراً عن فئة معينة من البشر، وهم الأنبياء رغم غزارة استخدام لفظ [أبناء آدم] المعبر عن جميع البشر.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (سورة مريم: الآية 58).

استخدام القرآن وصفين مغايرين للتعبير عن البشر -إذ لفظ [الأبناء] هو اللفظ العام، والذي يشمل الذرية وغير الذرية، ولفظ [الذرية] الذي يصف النسل البيولوجي- يضيف لنا دليلاً جديداً على أن آدم ليس الأب البيولوجي لجميع البشر، وإنما هو الأب الروحي أو المعلم الذي اصطفاه الله لتعليم معاصريه، وقيادة البشرية للتعبير عن المسميات بتلك النفخة الروحية التي حباه الله بها.

الآية التالية تقيم المحجة والبرهان على أن لفظ [أبناء] يقصد كل البشرية بغض النظر عن انتمائهم البيولوجي لآدم، بينما لفظ [ذرية] مخصص للنسل البيولوجي.

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (سورة الأعراف: الآية 172).

لو أن كل البشر هم من نسل آدم لصح أن يكون التعبير القرآني (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)، لكن لأن آدم ليس هو أبا البشر البيولوجي، وهو فقط بمنزلة الأب المعلم والمرشد فقد جاء التعبير القرآني الدقيق بالقول: إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ ذُرِّيَّتَهُمْ. فالقرآن يلفت انتباهنا إلى أن البشر الحاليين هم من نسل ذرية أبناء آدم، وليس من نسل آدم نفسه، وأبناء آدم هم ذريته والمعاصرون له، الذين دخلوا تحت عباءته. إن مجرد فهم الفرق بين ذرية آدم و ذرية أبناء آدم كفيلاً بأن يمنحنا دليلاً إضافياً على أن آدم ليس هو والد البشر البيولوجي؛ وإنما هو بمثابة الأب الروحي للبشرية.

إشارة أخرى في سورة الأنعام خاصة بلفظ ذرية؛ حيث توجد إشارة واضحة إلى فترة انقراض واندثار وتحويل ما قد حدث.

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ) (سورة الأنعام: الآية 133).

هذا الانقراض تعرضنا له عند تفسير بداية سورة الإنسان، عندما أخبر ربنا عن الدهر الذي جاء على الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، ولفظ [ذرية قوم آخرين] يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن النسل الحالي للبشر ليس مصدره آدم فقط.

دليل تلو الدليل، ومشاهد قرآنية عظيمة تدعم بعضها بعضاً؛ تعطينا صورة تفصيلية عن تاريخ الحياة وخلق الإنسان، ولا أزعج أبداً أنني أحطت بمسألة التطور من كافة جوانبها، فالمسألة أعمق وأعمق بكثير مما نظن. حسبي أني أشرت للفكرة، وقدمت بعض الأدلة؛ على أمل أن يأتي يوم نرى فيه مؤسسة بحثية تستخدم منهجاً علمياً في فهم اللفظ القرآني، وتنتبه إلى أهمية تطبيق النظرية التوقيفية في فهم الألفاظ القرآنية، دون تحيز معرفي قد يفسد النتائج.

كتاب الله هو كتاب نظرية كل شيء، والذي ينبغي أن نتعامل معه بما يستحق من البحث العميق، والتدبر، والقراءة المستمرة؛ فهو الكتاب الذي لن تنقضي عجائبه، ولن تنفص أسراره، وسيظل يفيض بالمعرفة والعلم لكل مدرك.

السؤال الأخير الذي نود طرحه هو: إذا كان التطور عملية مستمرة؛ فهل معنى ذلك أن الإنسان ربما يتطور إلى شيء آخر؟

لا شك أن التطور عملية مستمرة، والإنسان يجري عليه قوانين الكون كما تجري على جميع المخلوقات، ولكن مسألة أن يتحول الإنسان الحالي إلى كائن آخر، وإن كانت فرضية قائمة؛ إلا أنها تحتاج لمدى زمني طويل جداً، قد يصل لملايين السنين.

نستطيع أن نلاحظ التطور المعرفي على الإنسان من خلال متابعة وقراءة التاريخ، ونستطيع أن ندرك أن الإنسان في تحسن مستمر، وأن الأفراد التي تقف عند الماضي ولا ترغب في مغادرته سوف تندثر لا محالة. إنها السنن الكونية التي تدعم الأفراد المحسنة، وتستبعد الأفراد غير القادرة على التكيف والتأقلم والتطور، والتاريخ الحديث زاخر بالقصص عن انقراض القبائل البدائية المنعزلة والرافضة للتطور والتحسن معرفياً. قد يستغرق انقراض المجتمعات البدائية وهلاك الأمم الرافضة للتطور بعض الوقت، ولكن بالنهاية لا وجود لمن لا يستطيع تحسين أدائه توافقاً مع السنن الكونية.

ملخص الفصل

نستطيع الآن أن نلخص ما وصلنا إليه في مسألة خلق الإنسان، كما قرأناها من خلال كتاب الله، والتي تتوافق إلى حد كبير مع نظريات علمية عن تطور الإنسان، ونلخصها كالآتي:

الخلق بدأ من الطين، ومرّ بعدة مراحل تطورية على المستوى المادي قبل وجود الحياة؛ هذه المراحل منها الطين اللازب، والصلصال، والحما المسنون.

حدثت تحولات جذرية في هذا الخلق، منها: تحول التكاثر من اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي. تطورت المخلوقات خلال مدى زمني طويل، حتى وصلت إلى ما يُعرف بالإنسان الأول أعلى رتبة الإنسانيات. حدث ما يشبه الانقراض لهذا المخلوق، الذي هو أصل الإنسان، ولكن بعد فترة وتدخل إلهي عاد مرة أخرى لمساره الطبيعي في الحياة.

عودة هذا المخلوق تبدو أنها كانت عن طريق نطفة من أخلاط، والتي أُرِجَّ أنها جاءت من خلال تزواج قرودة مع خنزير.

هذا التزاوج يبدو أنه أضاف ميزات جديدة للمخلوق الجديد، على مستوى السمع والبصر والأفئدة؛ بحيث أصبحت حواسه أكثر كفاءة، مما ساهم بشكل كبير في تطور القدرات العقلية لهذا الكائن الجديد.

يختلف الإنسان عن البشر، حيث تميز البشر بقدرات عقلية متطورة أهلتهم لكي يستنتج ويستنبط بقدر ما.

ميلاد آدم تم بطريقة بيولوجية، ولكن فيها سرّاً عظيماً، كما حدث مع نبي الله عيسى، كما أنّ آدم ليس والد البشر البيولوجي وإنما لو جاز لنا التعبير هو الأب الروحي للبشرية. آدم هو أحد البشر، وليس والد البشر، واصطفاه الله لكي ينقل القدرة على التسمية، ووصف المسميات، إلى جميع البشرية، والتي تشمل ذريته ومعاصريه.

يبدو لي أنّ اختلاف اللغة يعود إلى اختلاف استيعاب ذرية آدم ومعاصريه للعلم الجديد الذي جاء به آدم.

بعد الانتهاء من فصل الإنسان، لدينا تساؤل من خلال كتاب الله، قد يحلّ بعض الإشكاليات في نظرية التطور، وقد يفسّر بعض الغموض في جوانبها:

هل جميع المخلوقات حدث لها تطور، أم أنّ هناك نوعاً من المخلوقات يبدو أنه لا يخضع لهذه القاعدة؟ سوف نجيب على هذا السؤال من خلال الفصل القادم، والذي يتناول الحديث عن الأنعام وكيف جاءت.

الفصل الرابع الأنعام

الجدل حول نظرية التطور هو جدل قديم حديث، فما بين مؤيد ومعارض يقدم كل حزب أدلته، ويدحض أدلة الجانب الآخر. لا يبدو في الأفق القريب أن أياً من الحزبين مستعد لتقبل وجهة النظر الأخرى.

إن كما من خلال الفصلين السابقين قد تناولنا مفهوم التطور بصفة عامة، وتطور الإنسان بصفة خاصة، وتوصلنا نتيجة مفادها أن التطور عملية تتبع السنن والقوانين والتقديرات الإلهية التي تخضع لها كل المخلوقات على سطح الأرض، إلا أن هناك استثناء كما يبدو لنا.

سوف نتعرض في هذا الفصل لكم من المعلومات لا تتفق مع العلم الحديث، أو على الأقل ليس هناك إشارة لهذه المعلومات من قبل في المراجع العلمية، وكذلك الفكر التقليدي القائم على النظرة الدينية المتوارثة لا يتماشى مع ما ذهبنا إليه.

على ذلك نحب أن نؤكد مراراً أن كل ما ورد في كتاب (تلك الأسباب) هو اجتهاد؛ تبعاً لمنهج محدد يقوم على تحليل اللفظ القرآني، ويسلك دائماً لغة الاحتمالات، وإن كان لدي درجة عالية من اليقين بكل معلومة دونتها وكل فكرة سجلتها؛ فعلى ذلك لا أطلب من القارئ الإيمان بما أكتب، وإنما اختبار ما يقرأ والبحث خلفه، سواء على المستوى اللغوي أو على المستوى العلمي، وذلك بعد الاطلاع على المنهج المستخدم في هذا الكتاب.

عند الحديث عن الطور وإثبات أن التطور عملية طبيعية مستمرة، وأن الخلق بدأ من خلية واحدة، فلم يكن منصفاً أن نمرّ على آية كريمة وشواهد عديدة في كتاب الله تعطي صورة مغايرة لما ذهبنا إليه، عن صنف المخلوقات التي تعيش على هذا الكوكب معنا.

إنها الأنعام التي يقول عنها ربنا في كتابه إنه أنزلها للإنسان، ثم يحدد صفاتها، ويشير إلى فائدتها. غزيرة المعلومات عن تلك المخلوقات ومتشعبة وثمينة الفوائد، لذا سوف نحاول قدر استطاعتنا الوقوف على بعضٍ منها وفهم دلالته.

لقد ذُكرت الأنعام في كتاب الله في ثلاثين موضعاً، كل آية كريمة تعطينا لمحةً، وتفتح لنا باباً لفهم كثير من الأمور المهمة. سوف نحاول استقراء بعض الآيات المتعلقة بعملية وجود الأنعام وفائدتها، فوجود سورة كاملة في كتاب الله باسم الأنعام دليلٌ دامغ على تفرد هذه المخلوقات بصفات وخصائص جديرة بالبحث والدراسة.

المشهد الأول في خلق الأنعام

المشهد الرئيس الذي لفت انتباهنا إلى خلق هذه المخلوقات بطريقة متفردة عن بقية المخلوقات جاء في سورة الزمر، حيث الحديث عن بداية الخلق ونزول الأنعام في تعبيرين قرآنيين منفصلين:

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) (سورة الزمر: الآية 6) كما قد عرجنا على الشطر الأول من الآية عند الحديث عن التطور، وكيف أنّ الآية دلالة واضحة على أنّ الخلق بدأ من وحدة واحدة أو خلية واحدة؛ عندما قال ربنا (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ). الشطر الثاني: (ثم جعل منها زوجها) تدلُّ على أنّ هناك تحولاً حدث، بحيث أنتجت النفس الواحدة زوجها، وذلك اعتماداً على مدلول كلمة [جعل]، والتي تفيد التحول الجزئي.

هذا الجعل الذي ذكره ربنا في كتابه قد يكون هو التحول من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي، والذي تحدثنا عنه في فصل الإنسان.

بعد هذه المقدمة عن الخلق الأول، ثم التحول في شكل التكاثر في المخلوقات، جاء ذكر الأنعام بشكل منفصل، حيث يقول ربنا: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) .

دعونا نستعرض التفاسير في قول ربنا: (أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) يقول الطبري في تفسيره :

(وقوله: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) يقول تعالى ذكره: وجعل لكم من الأنعام ثمانية أزواج من الإبل زوجين، ومن البقر زوجين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، كما قال جل ثناؤه: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ. عن مجاهد، قوله: (مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) قال: من الإبل والبقر والضأن والمعز. عن قتادة، قوله: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، من كل واحد زوج.) انتهى التفسير .

المفسر جعل كلمة [أنزل] مرادفة لكلمة [جعل]، في حين نجد كلمة [أنزل] جاءت في كتاب الله تدل على إنزال شيء من علو بالنسبة للإنسان، ولا يمكن أن يكون مرادفها [جعل]. جاءت كلمة [أنزل] في مواضع عديدة في كتاب الله تدل على إنزال الكتاب، أو إنزال الماء، أو إنزال الهدى، أو إنزال المن والسلوى، أو إنزال الحديد.

مدلول التعبير القرآني (أنزل لكم) جاء في كتاب الله في موضعين: أحدهما يصف نزول الماء من السماء، والآخر يصف نزول الأنعام.

التعبير القرآني (أنزل لكم) هو إشارة للطريقة التي وجدت بها الأنعام على هذا الكوكب، والآية الكريمة صريحة، تحدثت عن خلق الإنسان، وذكرت التعبير القرآني (خلقكم)، ثم ذكرت التحول الذي طرأ على المخلوقات عندما ذكرت الآية الكريمة تعبير (جعل منها)، وبدلاً من القول [خلق لكم من الأنعام] جاء التعبير القرآني مباشرةً بعبارة مباشرة (أنزل لكم).

الآية الكريمة تتحدث عن الخلق أو بداية وجود الأشياء، والاعتقاد بأن [الخلق والجعل والإنزال] في الآية نفسها تحمل المعنى نفسه، أو ما هي إلا كلمات مترادفة سوف يقيد البحث ويوقف عملية التدبر. إن لم يكن لفظ [الإنزال] قد أثار حفيظة الباحثين في آية تتحدث عن بداية الخلق، فلها لم تثر حفيظتهم الأزواج الثمانية تحديداً من الأنعام التي قص القرآن علينا قصة نزولها؟

إن كان الأمر هو مجرد [خلق أو جعل]، فماذا عن بقية الأنعام خلاف الأزواج الثمانية؟ ولماذا الأزواج الثمانية بالتحديد؟

بالرغم من أن لفظ أنزل جاء دوماً مع أشياء تنزل من أعلى، إلا أن هناك بعض الآيات التي قد تُشكل على الناس، ويبدو من التفسير التقليدي أنها لا تعني النزول من أعلى؛ مما يجعل الأنعام تدور في نفس الفلك.

الآية الأولى: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (سورة البقرة : الآية 57).

قد سبق شرح هذه الآية في فصل الطور، حيث إنَّ المن والسلوى هو رغد العيش والوفرة، أو ما يمكن أن نسميه البركات أو زيادة الانتاج، وهذه البركات هي معنى حسي، وليست شيئاً مادياً، مثلها مثل الهدى والبينات التي يقول الله سبحانه وتعالى أنه أنزلها في آيات أخرى.

إذا فسر المفسرون المن بأنه طائر، والسلوى بأنها الحلوى؛ فهنا يحدث ارتباك في فهم المقصود بمعنى أنزل المن السلوى، ولكن إذا كانت المن والسلوى تعني الرغد والبركات وطيب العيش فليس هناك ما يدعو للاستغراب إطلاقاً من استخدام لفظ [أنزل]؛ لأنَّ هذه البركات تنزل من أعلى أو من مرتبة أعلى لنكون أكثر تحديداً، مثلها مثل جميع المعاني الحسية، مثل الهدى والرحمة.

الآية الثانية: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (سورة الأعراف : آية 26).

هذه الآية الكريمة من أكثر الآيات إشكالاً على الناس؛ حيث ذهب المفسرون إلى القول: إنَّ اللباس هو ما يلبس من الثياب؛ وسوف نتعرض لهذه الآية في الفصل القادم عند الحديث عن بداية التطور المعرفي، وإعداد آدم لتولي المسؤولية، ولنحاول هنا فهم ألفاظ الآية الكريمة وفهم مدلولها.

[السوءة] كما سوف يأتي، ومن خلال اللغة: هي كل ما يسوء الإنسان أو يكره أن يطلع عليه الآخرون. لو حاولنا فهم [السوءة] بتعبيرات عصرنا الحديث فنحن نتحدث عما يسمى: الفضيحة، أو ظهور عيوب الإنسان وتجاوزاته.

سوءة آدم عندما أكل من الشجرة هي حدوث خلل في النظام، وتساقط أوراق الشجر إعلاناً عما اقترف، وبما جنت يداه، وليست السوءة مختصة بالأعضاء التناسلية كما ذهب المفسرون، وإنما هي ظهور وافتضاح أمره، والذي كان يرغب أن يكون مستوراً.

التعبير القرآني (أنزل عليكم) تدل على شيء يحيط بالإنسان، ونلاحظ أن تعبير [أنزل عليكم] دائماً يرد في وصف أشياء حسية، وليست مادية مثل: أنزل عليكم من الكتاب، وأنزل عليكم أمانة نعاساً: (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 231).

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نِعَاسًا يُغَشِّي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (سورة آل عمران: الآية 154).

لا شك أن تعبير [أنزل لكم] يختلف عن تعبير [أنزل عليكم]، ومن خلال تتبع التعبير القرآني، واعتماداً على ما سبق نستطيع القول إن اللباس الذي يوارى السوءة هو الستر، أو الشيء الذي يحجب العيوب عن الآخرين.

إنَّ ستر الله هو اللباس الذي أنزله على الإنسان الذي يفعل أمرَ سوء ثم يستره الله. عدم افتضاح أمر الإنسان، وبيان سوءته للناس هو فعل الستر الجميل الذي أنزله الله على عباده؛ بحيث يبدو الإنسان في حال طيبة رغم أفعال لو اطلع عليها الناس لما رأوا فيه خيراً أبداً.

تفسير اللباس في الآية الكريمة بالستر يعززه كذلك لفظ الريش الذي جاء في الآية الكريمة، ويعتقد الناس أنه نوع من اللباس المادي؛ لكن لفظ ريش كما جاء في قاموس اللغة يعني حُسن الحال، وليس نوعاً من اللباس المادي، بل إنَّ حسن الحال شيء معنوي، ويتفق تماماً مع مفهوم الستر.

الآية الكريمة ترشدنا لمبدأ هام جداً، هو الرصيد الإلهي من الستر وحسن الحال الذي تكفل الله بهما لكل إنسان لا يتمادي في المعاصي. إذ إنَّ الإنسان يظل في نعمة وحال طيب، ويظن به الناس خيراً طالما لديه رصيد من الستر الإلهي؛ على الجانب الآخر التماذي في الاعتراف من الذنوب هو المنذر بنزع اللباس، ونزع حسن الحال، وافتضاح ما كان خافياً عن الآخرين.

الآية التالية دليل آخر على أنَّ المقصود باللباس هو الستر، وليس لباساً مادياً يغطي العورة كما ذهب بعض المفسرين.

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ^{قُلْ} إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (سورة الأعراف : الآية 27).

لا يظنُّ أحدٌ أنَّ الشيطان في هذه الآية له سلطان مادي أو يستطيع نزع لباس الإنسان المادي، والمقصود به الثياب، ولكنَّ أقصى ما يفعله الشيطان هو تحفيز الإنسان على المعاصي حتى يعتادها، ومن ثم ينزع عنه اللباس وهو الستر وحسن الحال الظاهر منه للناس؛ فليس للشيطان أي سلطان مادي على الإنسان يستطيع من خلاله إجباره على شيء أو الإضرار به بشكل مباشر، وهذا المفهوم نجده في كتاب الله من خلال الآية الكريمة في سورة إبراهيم:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة إبراهيم : آية 22).

بعد تحليل التعبير القرآني (أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى) وكذلك التعبير القرآني (أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ بِأَسَافًا) نستطيع القول إن لفظ أنزل في كتاب الله متعلق بالإنزال من مرتبة أعلى، وأن التعبير القرآني (أنزل لكم) يصف إنزال الأنعام بشكل حقيقي ليستفيد منها الإنسان.

الأنعام مخلوقات يبدو أنها جاءت لمنفعة الإنسان تحديداً، وهي أحد المكونات الرئيسية في المنظومة البيئية على سطح الأرض، وحلقة غذائية بالغة الأهمية بالنسبة إلى الإنسان. إن نزول الأنعام يشبه بشكل كبير نزول الماء أو نزول الحديد الذي تحدث عنهم آيات كريمة في كتاب الله. ومن خلال إلقاء الضوء على مفهوم نزول الماء ومفهوم نزول الحديد كما جاء في كتاب الله؛ سوف يصبح لدينا تصور كامل عن مفهوم نزول الأنعام.

أولاً نزول الماء

أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع الآيات القرآنية التي تتحدث عن نزول الماء هو نزول الماء من السحاب، وهي الظاهرة المتكررة التي نستطيع متابعتها بشكل دوري، لكن المدقق في الآيات القرآنية التي تصف هذه الحالة، والمتابع لسياق الآيات، سوف يكتشف أن بعض الآيات تخبرنا بالنشأة الأولى للماء، وليست مجرد دورة طبيعية للمياه على سطح الأرض؛ كما نرى في الآيات التالية:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة : الآية 22).

في هذه الآية الكريمة يبدو واضحاً أنّ الحديث منصبٌ على بداية الخلق؛ حيث كانت الأرض فراشاً، والسماء بناءً، ومراحل التسوية والتمهيد الأولى والتي كان من ضمنها - كما يبدو - نزول الماء من السماء. الآية التالية تضيف لنا دليلاً آخر على أنّ المقصود بنزول الماء من السماء هو مصدر الماء الأول؛ وليس تساقط المطر من السحاب:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة البقرة : الآية 164).

نلاحظ في الآية الكريمة أنها بدأت بخلق السماوات والأرض، ثم اختلاف الليل والنهار، وهذه الدلائل تشير إلى البدايات، ثم ذكرت الآية أنّ الفلك تجري في البحر بما ينفع الناس، وهو مظهر من مظاهر الحياة اليومية، ثم ذكرت أنزل من السماء من ماء، وهذا الماء كان سبباً في إحياء الأرض بعد موتها، ثم بثّ فيها من كل دابة، و(بث فيها من كل دابة) عودة مرةً أخرى للبدايات، ثم تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

ملاحظة خفيفة هنا تحتاج للتوقف وطرح السؤال؛ هل كان يوجد في البداية ماء خرج من باطن الأرض أو كان من ضمن تكوين الأرض الأول، ولكنه لم يكن بالقدر الكافي الذي يمكن معه نشأة الحياة؛ ثم أنزل الله الماء من السماء لزيادة نسبة الماء على الأرض والذي ساهم في إحياء الأرض وعمليات الإنبات؟

السحاب هو أحد أركان دورة المياه الطبيعية على الأرض، وعبر عنه ربنا بقوله بين السماء والأرض، وليس كما عبر عن الماء الأول بأنه أنزله من السماء. السحاب كان نتيجة لنزول الماء من السماء حيث انتظمت الدورة وأصبح على الأرض ماء كافي يتم إعادة إنتاجه من خلال دورة منتظمة، السحاب أحد أركانها.

، برغم أنّ الآية تحمل الكثير، وليس من السهل فهمها بشكل كامل؛ إلا أنه يمكننا استنتاج الفرق بين ماء السماء الذي نزل لإحياء الأرض، وماء السحاب في دورته الطبيعية وهو بين السماء والأرض.

الآيات التالية في سورة الواقعة تعطي دلالةً أخرى وبرهاناً على هذا الماء الذي أنزله الله في بداية تكوين الأرض، والحديث في سورة الواقعة عن خلق الأشياء وبداية نشأتها، ومن ضمن هذه الأشياء الماء الذي قال عنه ربنا إنه أنزله من المزن:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)) (سورة الواقعة: الآيات 68-70).

ما هو المزن؟

تقول التفاسير: إنّ المزن هو السحاب، ولكن كما نعلم أنّ الترادف بشكل كامل غير وارد في اللغة العربية، ولو حاولنا فهم الحالة التي يصفها المزن؛ ومن خلال قواميس اللغة سنجد: أنّ وصف المزن بالسحاب هو أحد مدلولات الكلمة، والتي يبدو أنّ هذا الوصف عرّف طريقه إلى معاجم اللغة من خلال التفاسير التي حاولت فهم الكلمة من سياق الآية القرآنية.

من ناحية أخرى نجد أنّ ابن فارس أورد مدلولاً للكلمة؛ وهو النمل الأبيض، وفي كتاب الاشتقاق لابن دريد: المزن هو السحابة البيضاء، ويقال سُمي النمل الأبيض مزناً؛ بسبب حركته وسرعته وبياض لونه. من هنا نستطيع أن نستخلص الحالة التي يصفها المزن: بأنّها حالة من البياض ومن الحركة. السحاب الممطر ليس أبيض؛ بل هو كما سماه القرآن ظلمات و سحاب مراكوم.

قد يكون المزن هو أجسام يغلب عليها البياض، متحركة تنزل من السماء، وهي مصدر هذا الماء، أو أنها كرات من الثلج الأبيض تساقطت من الفضاء في بداية تكوين الأرض، وكانت هي مصدر الماء، أو أحد أهم مصادر المياه على الأرض.

لكن هل هذا الوصف ينطبق على أي نظرية من نظريات تفسير نشأة الماء على الأرض؟ لا يمكننا الجزم بأن هناك نظريةً صحيحةً ومؤكدةً مائة بالمائة استطاعت تفسير نشأة الماء على سطح الأرض، إلا أن هناك رأياً علمياً يشير إلى أن مصدر المياه على الأرض جاء من خارج الكرة الأرضية.

وبعض هذه النظريات تقول: إن الماء جاء إلى الأرض عن طريق اصطدام المذنبات بسطح الكرة الأرضية؛ حيث إن المذنبات تحتوي على صخور وجليد وأحادي ثاني أكسيد الكربون وغاز الميثان والأمونيا. فقد يكون المزن هو الجليد الأبيض؛ والذي هو أحد مكونات تلك المذنبات، والتي كانت تسقط بكميات كبيرة في بداية تكوين الأرض؛ مما جعل الأرض تحتوي على كميات كبيرة من المياه.

يبدو أن عملية وجود الماء على هذا الكوكب عملية ليست سهلة بالمرّة؛ فلدينا آية كريمة تتحدث عن خروج الماء من الأرض في سورة النازعات، وسياق الآيات يتحدث أيضاً عن بدايات الخلق:

(أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ^ج بَنَّاها (27) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31)) (سورة النازعات: آيات 27-31).

بما أن لدينا آيات تتحدث عن نزول الماء من السماء في بدايات الخلق، وآيات أخرى تتحدث عن خروج الماء كما ورد في سورة النازعات من الأرض، فيصبح لدينا احتمالان لوجود الماء على سطح هذا الكوكب:

الاحتمال الأول: في بداية نشأة الأرض تم قذفها بعدد كبير جداً من المذنبات، والتي تحتوي على كتل من الجليد، فغاصت هذه المذنبات في باطن الأرض؛ بسبب هشاشة السطح وقتها، واستقرت داخلها، ومع مرور الوقت واستقرار القشرة الأرضية شيئاً فشيئاً، وخلال مرحلة الثورات البركانية الكثيفة التي انتابت الكرة الأرضية بعد ذلك؛ خرج هذا الماء من باطن

الأرض على هيئة بخار ماء، وتكثف في الغلاف الجوي، ثم سقط على هيئة أمطار، وكون المجاري المائية المختلفة.

الاحتمال الثاني: هو أنّ الماء كان من ضمن مكونات الأرض، وكان في باطنها، نخرج مع الثورات البركانية، ولكنّ هذا الماء كان غير كافٍ، وتمّ إمداد الأرض بمياه أخرى، عن طريق الجليد الموجود في المذنبات.

نعود لفعل [أنزل] الذي عبّر به ربنا عن نزول الماء، وسواء فعل [أنزل] يعبر عن مصدر الماء الأول أو عن نزول الماء من السحاب من خلال الدورة الطبيعية فهو في كلا الحالتين يعبر عن نزول شيء من أعلى، مما يدفعنا للقول بأنّ نزول الأنعام يتبع نفس الآلية.

ثانياً نزول الحديد

توجد سورة كاملة في كتاب الله تسمى سورة الحديد، وتوجد فيها إشارة إلى مصدر الحديد وكيف وصل إلى الأرض.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (سورة الحديد: آية 25).

يمثل وجود الحديد على سطح الأرض لغزاً محيراً للعلماء؛ إذ كيف تشكّل الحديد وكيف وصل إلى الأرض، ولعل هذه الآية تشير إلى نزول الحديد، أو على الأقل الحديد السطحي؛ أي الموجود على سطح الكرة الأرضية من أعلى، وعن طريق النيازك التي ضربت وتضرب الأرض بصفة مستمرة.

تعتبر النيازك هي المصدر الرئيس للحديد على سطح الأرض، ولكنّ المشكلة تكمن في الحديد الموجود في قلب الكرة الأرضية، فهل هو قادم من مصدر خارج الأرض؟ أم أنّه جزء من تركيب الأرض؟

الآية التي بين أيدينا تشير إلى نزول الحديد من خارج نطاق الكرة الأرضية، وليس كما يدعي بعض المفسرين أنّ المقصود بنزول الحديد هو ليوته وتسخيره للإنسان، بحيث أصبح الإنسان قادراً على تشكيل الحديد؛ والقدرة على تشكيل الحديد مشروحة بالكامل من خلال الفصول القادمة وعند الحديث عن نبي الله داوود. إذا كان اللفظ القرآني يشير إلى مسألة نزول الحديد من خارج الكرة الأرضية؛ فلكذلك الشواهد العلمية تكاد تؤكد مسألة نزول الحديد واستحالة تكوينه على الأرض.

ما هي قصة الحديد؟

هذا الكون المترامي الأطراف يمثل غاز الهيدروجين حوالي 74 بالمائة من مكوناته، يأتي غاز الهيليوم في المرتبة الثانية، ويمثل 24 بالمائة من مكونات الكون. لك أنّ تخيل أنّ عنصرين فقط من عناصر الكون يمثلان ما يقارب 98 بالمائة من مكونات الكون، بينما باقي العناصر والتي تصل إلى أكثر من مائة عنصر لا تمثل إلا نسبة 2 بالمائة من مكونات الكون.

هذه الوفرة في غاز الهيدروجين قادت العلماء إلى استنتاج أنّ غاز الهيدروجين هو الوحدة الأساسية التي كونت باقي العناصر؛ عن طريق دمج نوى الهيدروجين مع بعضها بعضاً أو مع عناصر أخرى في شكل متسلسل.

عملية الاندماج النووي تتم في قلب النجوم؛ حيث تحتاج عملية الاندماج إلى درجات حرارة مرتفعة للغاية لا تتوافر بسهولة. عملية الاندماج تبدأ عن طريق أصغر النوى؛ حيث تتحد نواتان صغيرتان سوياً لتكوين نواة أثقل لعنصر جديد، وعملية الاندماج عملية مستمرة؛ إذ تتكون عناصر أثقل وأثقل في شكل تفاعلٍ متسلسلٍ حتى الوصول إلى عنصر الحديد، ومن ثم يتحول قلب النجم إلى حديد، ثم ينفجر ويتناثر في الفضاء.

في حالة الشمس نجد أنّ غاز الهيليوم يتكون نتيجة اندماج نواتين من نوى الهيدروجين؛ مما يتسبب في ارتفاع درجة الحرارة، وهذا الارتفاع في درجة الحرارة يحفز اندماج نوى من ذرات الهيدروجين مع نوى من ذرات الهيليوم، مكونةً عناصر أثقل، مثل الليثيوم، هذا وكلها

ارتفعت درجة الحرارة حدث اندماج آخر، في شكل تفاعل متسلسل، وتظهر تبعاً لذلك عناصر مختلفة، مثل: الكربون والأكسجين إلخ.

إن أعلى درجة حرارة للشمس هي درجة حرارة باطنها، وتصل إلى 15 مليون درجة مئوية، ويقول العلماء إن درجة حرارة الشمس يمكن أن تصل إلى مائة مليون درجة مئوية عندما تتحول نصف كمية الهيدروجين في الشمس إلى هيليوم، وهذا الارتفاع الكبير في درجة الحرارة سوف يحفز ذرات الهيليوم على الاندماج لتكوين عناصر أعلى، مثل: الصوديوم والكربون.

عند درجة حرارة تساوي ستة مائة مليون درجة تبدأ العناصر الأثقل في التكوّن؛ حيث يتحول الصوديوم إلى مغنسيوم، ويستمر التفاعل المتسلسل، وينتج عناصر مثل: الألومنيوم والسليكون والكبريت والفسفور والكلور والبوتاسيوم والكالسيوم.

إن كل اندماج يحدث تزيد معه درجة حرارة النجم (الشمس نجم متوسط)، وبالتالي يتم تحفيز عناصر أخرى على الاندماج، ومن ثم تكوين عناصر جديدة. عندما تصل درجة الحرارة إلى ألفي مليون درجة مئوية تبدأ عناصر مثل: التيتانيوم والفاناديوم والكوبلت والنيكل والكروم في التكوّن، وهي عناصر تحتاج كمية مهولة من الطاقة.

عملية تكوين الحديد نفسه تحتاج إلى طاقة أعلى بكثير من الطاقات السابقة، وهذه الطاقة لا تتوافر إلا في النجوم العملاقة، فعندما يتحول قلب النجم إلى حديد تنفجر هذه النجوم، وتسمى: المستعرات العظمى. عند الانفجار تتناثر أجزاء النجم في الفضاء وتسبح في السماء، وعندما تدخل نطاق جاذبية أحد الأجرام السماوية تنجذب إلى هذا الجرم وتسقط عليه؛ وهذا هو تفسير العلماء لوجود الحديد على الأرض.

الشمس في مجموعتنا هي عبارة عن نجم متوسط الحجم، وهي غير قادرة على تصنيع هذا الحديد، لذا اقترح العلماء تصوراً آخر؛ وهو أن النجوم خارج مجموعتنا الشمسية هي مصدر الحديد الموجود في الأرض، وفي باقي كواكب المجموعة الشمسية، وحتى أنه مصدر الحديد الموجود داخل الشمس نفسها.

الشواهد العلمية تؤيد فكرة نزول الحديد على الأرض من خارج نطاق مجموعتنا الشمسية. اللفظ القرآني يشير إلى عملية النزول هذه بألفاظ واضحة وصریحة، والألفاظ القرآنية متوافقة مع الرؤى العلمية.

من هنا يمكننا الآن استنتاج ما يعنيه التعبير القرآني الخاص بنزول ثمانية أزواج من الأنعام، فنزول هذه الأزواج يعني أنها لم تتطور من أفراد سابقة، وليس لها أسلاف على الأرض، وإنما جاءت للأرض من خارج نطاقها.

لكن هل نزول الأنعام يعطى احتمالاً على أنّ هذه الأنعام كانت في عالم آخر من هذا الكون اللانهائي؟ قد تكون هذه الآية الكريمة إشارة إلى وجود حياة أو حيوات متعددة في هذا الكون، وفي جانب منه لا نعلم عنه شيئاً.

كل الاحتمالات قائمة، ولا نستطيع نفي أو إثبات أي شيء في الوقت الحالي، وربما دراسة مستفيضة للفظ القرآني تعطينا مزيداً من الملاح عن أصل هذه الأزواج الثمانية، ومكان نشأتها، بل كيف وصلت إلى هنا أيضاً؟

هذا الاستنتاج لا يجب أن يتم تناوله وقياسه بالمعارف المتاحة حالياً ولكن الصحيح هو تناوله بشيء من لغة الاحتمالات . ليس من المنطقي أن تشير كل الألفاظ إلى معارف في تناول الإنسان ومن ثم ينكر الإنسان أي معلومات يمكن استنتاجها من خارج دائرة معارفه.

إننا نتحدث عن كتاب الخالق والذي لا بد أن تتكشف من خلاله حقائق جيل بعد جيل ليكون أداة برهان على وجوده سبحانه. الحل الأمثل للمؤمنين بهذا الكتاب هو بذل الجهد المضاعف لفهم تقديرات هذا الكتاب ، بينما دعوتنا لمن لا يؤمن بهذا الكتاب باختبار كلماته وتعبيراته بشكل علمي بعيداً عن التحيز العقائدي. أنا لا أزعم أنني وضعت تصور كامل لفهم اللفظ القرآني ولكن أستطيع أن أقول أنني أشرت للطريقة التي يجب اتباعها في فهم اللفظ القرآني والتي يمكن من خلالها اكتشاف هذا الكون وقوانينه. الخطوة التالية في بحثنا هذا هي محاولة تحديد هذه الأزواج الثمانية من خلال كتاب الله.

في سورة الأنعام توجد إشارة لا يمكننا تجاوزها على هذه الأزواج الثمانية، ومن خلال مشهد قرآني بديع، بدأ بذكر نعمة الله في أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، ثم ذكر الأنعام في الآية التالية معطوفة على الإنشاء، ثم تفصيل هذه الأزواج الثمانية:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ^ج كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ^ط وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ ^ج كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ^ط مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرَاثَيْنِ ^ط قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ^ط نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ^ط قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ^ط أُمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ^ج فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)) (سورة الأنعام: آيات 141-144).

عندما فسر المفسرون قول الله تعالى (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) قالوا إن المقصود ما يُستخدم من هذه الأنعام في حمل الأشياء، مثل الإبل والبقر، ومنها ما لا يستخدم في الحمل لصغر حجمه، مثل الضأن والماعز.

لكن إذا حاولنا فهم لفظ [حمولة] ولفظ [فرش] وكلا اللفظين لهما علاقة مباشرة بمسألة الطعام، وليس هناك إشارة لمسألة حمل الأمتعة أو الركوب، إذ يقول ربنا في الآية الكريمة نفسها (كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ). الأنعام الحمولة والفرش هي أنعام تؤكل، ويمكن فهم مدلول كلمة حمولة من خلال (الآية 146) في سورة الأنعام، حيث يقول ربنا إنه حرم على بني إسرائيل كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرم عليهم شحومها، إلا ما حملت ظهورها.

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلًّا ذِي ظُفْرٍ^ط وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ^ج ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ^ط وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (سورة الأنعام : آية 146).

يبدو أنّ المقصود بالأنعام الحمولة هي ما تحمل الدهن، أو الغنية بالدهن، وهذا الوصف ينطبق تماماً على البقر والإبل والغنم. بينما لفظ [فرش] يعني شيئاً آخر، وهو ما سوف نحاول تحليله في السطور التالية:

مدلول لفظ فرش

الفرش في اللغة: هو انبساط وتمهيد، ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله نجد أنّ من خاصية الفرش أيضاً الخفة: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (سورة القارعة : آية 4). فمن خلال مدلول كلمة [فرش]، ومن خلال مقابلة الكلمة مع كلمة حمولة ومدلولها، يتبين لنا أنّ المقصود بالفرش هو الأنعام صغيرة الحجم فقيرة الدهن، وهي في الأغلب الطيور الداجنة.

ما يدفعنا للقول إنّ الأنعام تنقسم إلى قسمين: حمولة؛ أي تحمل الدهن، وفرشاً؛ أي خفيفة وفقير الدهن، هو الإشارة القرآنية في الآية الكريمة عن تحريم رب العالمين كل ذي ظفر، والبقر والغنم. التعبير القرآني استخدم كل ذي ظفر للتعبير عن أنعام معينة، ثم أشار إلى شحوم البقر والغنم واحتوائهم على شحوم كما جاء في الآية الكريمة.

عندما حاول المفسرون تفسير كل ذي ظفر قالوا: إنها الطيور مثل النعام، والإوز، بالإضافة إلى الإبل؛ كما جاء في كتاب الإمام الطبري: «القول في تأويل قوله: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلًّا ذِي ظُفْرٍ) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وحرّمنا على اليهود (كل ذي ظفر)، وهو من البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط . عن ابن عباس قوله: (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر)، وهو البعير والنعام . عن سعيد: (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر)، قال: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع.

عن مجاهد قال: (كل ذي ظفر)، النعامة والبعير. عن قتادة: (كل ذي ظفر)، قال: الإبل والنعام، ظفر يد البعير ورجله، والنعام أيضاً كذلك، وحرم عليهم أيضاً من الطير البط وشبهه، وكل شيء ليس مشقوق الأصابع.» انتهى الاقتباس من التفاسير.

رغم أن المفسرين قالوا إنّ ذي ظفر تشمل جنس الطيور، مثل: النعام والأوز والبط، وكذلك الإبل، إلا أنّ المدقق سوف يدرك أنّ الإبل لا يمكن اعتبارها من ذوات الأظافر؛ فهي مشقوقة القدم، مثلها مثل البقر، وهي كذلك حاملة للشحوم.

أضف إلى ذلك أنّ لفظ [ظفر] في اللغة يعني القوة في الشيء والغلبة والقهر، وهو ما يتوافق مع مفهوم الأظافر لدى الطيور مثل الدجاج والأوز والبط والنعام؛ حيث أرجلها أقرب لما نسميه بالمخالب. هذا التحليل يقودنا مباشرة إلى الأزواج الثمانية من الأنعام، وهي اثنين من الضأن، اثنين من الماعز، واثنين من الإبل، اثنين ومن البقر.

الأزواج الثمانية على هذا النحو هي النواة الأولى لهذه الأنعام على الأرض؛ إذ كل نوع من هذه الأنواع الأربعة يشمل ذكراً وأنثى لأجل أن يتم التكاثر بالطريقة التي يتم بها التكاثر في جميع المخلوقات المشابهة.

كما عوّدنا القرآن الكريم أنّ الأسماء تصف حالات معينة؛ فإننا نرجح أنّ كل صنف من هذه الأنعام ربما يشمل تحته مجموعة متنوعة من نفس الفصيلة، تطورت من الفصيلة الأم مع طول الفترة الزمنية. البحث الدقيق والمتأنى هو القادر فقط على تحديد المقصود بالإبل، وخصوصاً أنّ لفظ [بعير] ولفظ [ناقة] من ألفاظ القرآن، وقد يكون لفظ [إبل] يضم الجمال التي نعرفها، ويضم كذلك حيوانات اللاما، والتي يعتبرها العلماء من نفس الفصيلة.

لفظ [بقر] يبدو كذلك اسماً لفصيلة معينة، وليس اسم جنس البقرة المعروفة، وقد ينطوي تحت هذه الفصيلة كثير من الكائنات. إذا كان رأي العلم أنّ الخراف وما نطلق عليه نحن الماعز يقع تحت رتبة البقريات، فإننا لا نستبعد أبداً أنّ لفظ [البقر] أو [بقرة] هو وصف لكل حيوان يقع تحت هذه الفصيلة.

حادثة بني إسرائيل وارتباكهم عندما قال لهم نبي الله موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، يمكن أن تمدنا بمعلومة عن فصيلة الأبقار هذه:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً ۗ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۗ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (سورة البقرة: آية 67).

برغم أن المفسرين قالوا إن هذه القصة تدل على تعنت بني إسرائيل وعدم رغبتهم في تنفيذ الأمر الإلهي، إلا أن المتتبع للآيات الكريمة يدرك تماماً الحيرة التي وقع فيها بنو إسرائيل، ورغبتهم في معرفة هذه البقرة، ويبدو أن اختيار بقرة كان اختياراً ليس سهلاً، وخصوصاً إذا كان لفظ [بقرة] يعني فصيلاً معيناً، يقع تحته مجموعة كبيرة من المخلوقات.

فلك أن تتخيل أن البقر المعروف لدينا، والجاموس، والبقر الفريزيان، والبقر الوحشي، ومجموعة كبيرة تدخل ضمن مسمى البقر، ثم يأتيك أمر إلهي بذبح بقرة. قد يقول إنسان: كان يجزيهم أن يذبحوا أي بقرة، دون السؤال عن التفاصيل أو معرفتها؛ وهذا الرأي له وجهته، لكن بالنظر إلى طبيعة بني إسرائيل التي تميل إلى السؤال والتدقيق ما كان لهم أن ينفذوا هذا الأمر إلا بعد أن يثقوا أنهم على الطريق الصحيح. لذا بادروا نبي الله موسى بالسؤال عما هي هذه البقرة؛ حتى يتم تقليل المجموعة التي يتم الانتقاء والاختيار منها:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) (سورة البقرة: آية 68).

رغبة منهم في أن يكون اختيارهم صحيحاً مائة مائة استنفهموا مرة أخرى من نبي الله موسى عن لونها؛ رغبة في تضيق الفارق:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لونها ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لونها تَسُرُّ النَّاطِرِينَ) (سورة البقرة: آية 69).

ما يدفعنا للقول إنّ بني إسرائيل لم يكونوا متعنتين؛ بل كانوا يسألون رغبة في معرفة المطلوب بالضبط، هو قولهم في الآية التالية: إنا إن شاء الله لمهتدون.

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) (سورة البقرة : آية 70).

قول بني إسرائيل: إنا إن شاء الله لمهتدون؛ يدل على رغبة منهم في الوصول للحقيقة، وقولهم: إنّ البقر تشابه علينا؛ يدل على أنّ هناك مدى متسعاً من الكائنات التي ينطبق عليها لفظ [البقر]، وليس كما نعتقد هو البقر الذي نعرفه نحن، أو نعرف صنفاً واحداً منه.

إذا كان المفسر القديم رأى أنّ موقف بني إسرائيل يدل على خبث وعدم رغبة في تنفيذ أمر الله، دون دليل حقيقي على ذلك سوى انطباعات من آيات أخرى، فلي الحق في الاعتقاد أنّ بني إسرائيل في هذا الموقف كانوا يرغبون في معرفة نوع البقرة بشكل صحيح، معرفة يقينية، بدليل إخبار القرآن أنهم قالوا: وإنا إن شاء الله لمهتدون.

المسميات في كتاب الله تصف حالة معينة، ولا تصف جنساً محدداً؛ بحيث إذا انطبقت الحالة على جنس معين تصحُّ معه تسمية هذا الجنس بهذه الحالة. لذلك لو تمكنا من فهم التسمية في كتاب الله لزال كل غرابة، ثم أدركنا أنّ مسمى [بقر أو بقرة] هي مسمى لحالة معينة، قد تشمل مدى واسعاً من الكائنات، يشترك جميعها في أغلب الخصائص والصفات.

إنّ لفظ [بقرة أو بقر] يشبه بشكل كبير أن نقول: حيوان مجتر؛ أي يجتر الطعام، أو -بشكل دقيق- حيوان مشقوق الإصبع، وبالمنطق نفسه سنجد أنّ الإبل تصف فصيلاً كاملاً من الحيوانات، وكذلك الضأن يصف فصيلاً كاملاً، والماعز أيضاً هو وصف لفصيل كامل من الكائنات. عدم شيوع الأنعام المختلفة في أرض العرب مثل: النعام والإوز والبط والدجاج، يجعلنا نترث قليلاً في قبول تسمية العرب للضأن على أنه الخراف، والماعز هي الماعز المعروفة.

لا بد من البحث تاريخياً وعلماً ولغوياً بشكل دقيق؛ لفهم أصل هذه المسميات، والتي ربما نخصص لها فصلاً في أجزاء قادمة. بالرغم من أنّ التصنيفات العلمية وضعت البقر والضأن والماعز تحت نفس الفصيلة، والتي تسمى بقرّيات، والتي انحدرت - كما تقول النظريات - من حيوان يشبه الغزال الحالي صغير الحجم، إلا أنّ اختلاف المسميات يدفعنا للقول إنّ المسميات الثلاث إضافةً إلى الإبل قد وُجدت على الأرض من أصولٍ مختلفة، وليست من أصل واحد. أكرر هنا أقصد المسميات وليس الأجناس التي تعارف عليها الناس حالياً.

ما أستطيع قوله الآن أنّ لدينا ثمانية أزواج من الأنعام نزلت إلى الأرض، وأنّ دلالة الألفاظ تقودنا للقول إنّ هذه الانعام تشمل البقر وما يقع تحته، والإبل والخراف والماعز المعروف، وكذلك كائنات مثل الدجاج، أو ما ندعوه الطيور الداجنة بصفة عامة، وهي كل ذي ظفر كما ذكر القرآن.

إنّ كما لا نملك أدلةً كافيةً على أنّ البقر والإبل لم تتطور من أسلاف سابقة؛ فلدينا بعض الآراء العلمية التي تزعم أنّ الدجاج وبعض الطيور الداجنة تطورت من الديناصورات. التنوع البيولوجي المذهل لأكثر من 10 آلاف نوع من الطيور هو لغز محير للعلماء؛ إذ التفاصيل الجزئية لهذه المخلوقات غير معروفة بشكل كامل، كما أنها تسبب ارتباكاً لكثير من العلماء.

إلا أنّّه من خلال دراسةٍ قام بها فريق علميٌّ من جامعة "كينت" البريطانية، بقيادة الدكتور "دارين جريفين" توصلت إلى أنّ الدجاج والديك الرومي هما الأقرب إلى الديناصورات. ويعتقد العلماء أنّ الدجاج والديك الرومي قد انحدروا من أسلافهم الديناصورات، ثم تابعت هذه المخلوقات التطور بعد انقراض الديناصورات.

تقول الدراسة إنّ كلاً من الدجاج والديك الرومي قد عانيا أقل عدد من التغيرات الجينية من مثيلاتها من الطيور الأخرى؛ بسبب تطورها عن الديناصورات. عن طريق جمع المعلومات اللغوية ومن خلال تحليل اللفظ القرآني، إضافة إلى المعلومات العلمية؛ يمكننا القول إنّ احتمالية أن يكون الدجاج أو فصيلة الطيور الداجنة من ضمن الأزواج الثمانية التي ذكرهم

القرآن، وأشار إلى نزولهم دون خلقهم، أو دخولهم ضمن مجموعة المخلوقات التي قال عنها إنها خلقت من نفس واحدة.

اعتقاد العلماء بأن الدجاج والديك الرومي قد مرَّ بأقل عدد من المتغيرات الجينية مقارنة بأنواع الطيور الأخرى؛ يبدو لنا دليلاً معقولاً على نزول هذه المخلوقات إلى الأرض بشكل منفصل، غير أن العلماء يقولون إنَّ هذه المخلوقات تطورت عن الديناصورات، لذا أجد نفسي مدفوعاً من خلال تحليل اللفظ القرآني للقول بأنَّ هذه المخلوقات لم تتطور من أسلاف سابقة، ووجدت على الأرض بشكل منفصل، ثم تطورت بعد ذلك.

ربما بحث دقيق عن الأزواج الثمانية، أو الأصناف الأربعة من الأنعام، ودراسة سلسلة تطورها بشكل علمي سوف يثبت أن هذه الأصناف الأربعة لم تتطور من أسلاف سابقة، وإنما وُجدت على الأرض بشكل منفصل.

متى نزلت هذه الأنعام إلى الأرض؟

إلى الآن لا يوجد أي إشارة لفظية يمكننا الاعتماد عليها في تحديد متى وُجدت تلك الأزواج الثمانية على الأرض، في المقابل هناك بعض الإشارات العلمية ترحح أن بعض هذه الأنعام ظهر منذ ما يقرب من 60 مليون سنة، كما في موضوع الدجاج، أي تقريباً بعد الانقراض الكبير الذي حدث على الأرض، والذي سوف نتناوله من خلال سورة الفيل في الفصل القادم.

لا استبعد أن يكون الانقراض الكبير هو الحدث الهام في تاريخ الكرة الأرضية، والذي كان بمنزلة الإعلان عن قدوم الإنسان الحالي وتطوره على هذه الأرض.

لو فرضنا أن الانقراض الذي حدث منذ ما يقرب من 65 مليون سنة كان يؤسس لمرحلة سيادة الإنسان، فإنه يمكننا القول إنَّ وجود الأنعام ربما يكون كان مصاحباً لتلك الفترة.

هل الأزواج الثمانية هي فقط الأنعام أم أنّ هناك أنعاماً أخرى ؟

لا شك أنّ هناك أنعاماً أخرى، والتي وصفها ربنا بأنها آكلات العشب، وأنّ منها ما يُركب ومنها ما يؤكل، ومجموعة الآيات التالية تعطي وصفاً تفصيلياً لمسمى الأنعام: الأنعام منها ما يركب.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (سورة غافر: الآية 79).

الأنعام منها ما يؤكل.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة يونس: الآية 24).

الأنعام تأكل من نبات الأرض؛ أي آكلات عشب.

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسْقِيَهُمْ مِّمَّا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا

لِلشَّارِبِينَ) (سورة النحل: الآية 66).

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ

ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) (سورة النحل

:الآية 80).

هذه الآية الكريمة تمنحنا بعض المعلومات الإضافية عن هذه الأنعام، إذ منها ما له

صوف، ومنها ما له وبر، ومنها ما له شعر.

لدينا هنا ملاحظة جديرة بالاهتمام، إذ إنّ الإشارة أنّ الانتفاع قد يكون من جلود

وأصواف وأوبار وأشعار الأنعام حصراً، ولا يجب أن يتعدى للمخلوقات الأخرى، والتي يبدو

أنّ لها دوراً مختلفاً في الاتزان البيئي، وليست مخصصة للإنسان، مما يدق جرس إنذار في وجه

أولئك الذين يعيشون في الأرض قتلاً لكائنات ليست من الأنعام؛ من أجل جلودها، أو من أجل منافع أخرى.

على ذلك يمكننا القول إنّ الأنعام تشمل كل آكلات العشب تقريباً، ولكنّ المخصص بالنزول هو الأزواج الثمانية التي ذكرها الله في كتابه، والتي نعتقد أنها هي الأزواج الثمانية في سورة الأنعام. إنّ حيوان الفيل والخنزير يبدو لنا من الأنعام؛ لأنها آكلات عشب، والحصان والحمار كذلك من الأنعام، والأنواع الأخرى عدا الأزواج الثمانية تبدو لنا أنها عانت التطور من أنواع سابقة، بخلاف الأزواج الثمانية التي أنزلها الله للإنسان، والتي لم يحدث له تطور من أنواع سابقة.

المشهد الثاني في خلق الأنعام

إذا كانت الأنعام نزلت دون تطور من أفراد سابقة على الأرض، فهل حدث لها تطور منذ وجودها وحتى اليوم؟ بمعنى آخر هل قوانين التطور انطبقت عليها مثل باقي المخلوقات؟ في سورة الشورى آية كريمة تشير بلطف إلى مبدأ انتشار الأنعام، واتباعها قانون المخلوقات على الأرض؛ حيث يقول تعالى:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (سورة الشورى: الآية 11).

إذا استطعنا فهم لفظ [يذُرُّكُمْ] فسوف ندرك المقصود، فماذا قال المفسرون عن مدلول لفظ يذُرُّكُمْ؟. جاء في تفسير الطبري:

(اختلف أهل التأويل في معنى قوله: (يَذُرُّكُمْ فِيهِ) في هذا الموضع، فقال بعضهم: معنى ذلك: يخلقكم فيه. عن مجاهد، في قوله: (يَذُرُّكُمْ فِيهِ) قال: نسل بعد نسل من الناس والأنعام. عن السدي، قوله: (يَذُرُّكُمْ) قال: يخلقكم. وقال آخرون: بل معناه: يعيشكم فيه. عن ابن عباس، قوله: (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ)

يقول: يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها. عن قتادة (يَذَرُوكُمْ فِيهِ) قال: يعيشكم فيه. انتهى التفسير.

لفظ [ذراً] كما قال المفسرون يعني: نسلٌ من بعد نسلٍ، ومن خلال اللغة نجد أنّ لفظ [ذر] تعنى اللطف والانتشار، أما [ذُرئ] فلها أصل هو يُبذر ويُزرع. من هنا نجد أنّ لفظ [ذراً] يعني على وجه التحديد الذرية .

والآية الكريمة أشارت إلى أزواج من أنفسنا، وأزواج من الأنعام، وكلاهما يتبعان قانون الذرية؛ وهو انتقال الجينات عبر التزاوج، مما يشير إلى خضوع الأنعام لقانون التزاوج المنطبق على جميع الكائنات، وبالتالي ما يجري على الكائنات من تطور وطفرة سوف يجري على المخلوقات المنتسبة للأنعام تبعاً.

هناك أيضاً إشارة إلى تنوع مصادر المخلوقات في سورة يس عندما يقول ربنا: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) (سورة يس : آية 36).
الآية تشير إلى وجود الأزواج في النبات وفي أنفسنا، والتي أثبتنا من خلال الفصول السابقة عملية التطور التي جرت عليها، وكذلك التحولات التي حدثت فجعلت الكائنات تتكاثر جنسياً بدلا من التكاثر اللاجنسي؛ فيبدو أنّ هذه التحولات كانت على مستوى الخلايا الحية (الحيوانية) من جهة، وعلى مستوى الكائنات النباتية من جهة أخرى.

الشرط الأخير في الآية والذي يشير إلى خلق الأزواج مما لا نعلم، يبدو لي أنه يشير إلى الأنعام التي أنزلها الله سبحانه وتعالى؛ فنزول الأنعام أو وجودها دون تطور من أفراد سابقة يجعلها مبهمة لنا وغير مؤكدة المصدر، ولا نستطيع على وجه الدقة تحديد من أين جاءت.

المشهد الثالث في خلق الأنعام

أصل كلمة [أنعام] هو نعم، وأصلها كما في قاموس اللغة: ترفه وطيب عيش وصلاح، وبالنظر إلى الأنعام بصفة عامة نجد أنها كما يقول ربنا وفرت للإنسان مصدر غذاء هاماً، وهو

اللحوم والألبان، وكذلك استطاع الإنسان ركوب بعض هذه الأنعام؛ مما سهّل له عملية التنقل، واستخدم بعضها لمساعدته في كثير من شؤون الحياة.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (سورة النحل: الآية 5).

(زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ) (آل عمران:
الآية 14).

منافع الأنعام عديدة على جميع المستويات، حتى على مستوى الجلود والقرون والأظافر والأجزاء الداخلية، كلها مدّت الإنسان بأنواع عديدة من الفوائد.

لكن هل تُؤكل الأنعام جميعها؟

وهل فصل الله في كتابه ما يحلّ من الرزق وما لا يحلّ، أم لم يفعل؟

من تبعات عدم فهم ألفاظ القرآن مسألة غريبة، اختلف فيها الفقهاء، وهي مسألة أكل الضبع، وهو الحيوان المفترس، والتي يضع لها الفقهاء عنوان (حكم أكل الضبع).

أكل الضبع

رغم بساطة المسألة وبديهية طرحها، من أن الضبع حيوان مفترس وأكل لحوم، إلا أنّ الفقهاء اختلفوا في حكم أكل هذا الحيوان. لماذا حدث الاختلاف على هذا الحيوان بالذات؟ من وجهة نظري أنّ الاختلاف يرجع لسببين:

السبب الأول: يعود إلى البيئة في الجزيرة العربية والتي يبدو أنها كانت تستسيغ أكل هذا الحيوان، ولم تجد نصاً صريحاً حسب فهمها يحرم هذا الحيوان تحديداً، بل حاولت استبعاده من آكلات اللحوم، والتي تسمى "السباع" بتبريرات غريبة كما سوف نرى.

السبب الثاني: هو عدم القدرة على فهم التعبيرات القرآنية بشكل سليم، مما جعل الأمر

مشوشاً لدى الكثيرين.

أختلف الفقهاء في مسألة تحريم أو حلّ أكل الضباع، فقد أفتت مجموعة من الفقهاء بجواز أكل الضباع، وهو مذهب الشافعية والحنابلة. استند الفقهاء على رواية جابر بن عبد الله عندما سأله سائل عن حكم أكل الضبع، إذ سأله السائل: هل الضبع صيد هي؟ قال جابر: نعم، قال: آكلها؟ قال: نعم، قلت: أقاله رسول الله؟ قال: نعم. ولم يقف العلماء على أثر يثبت أنّ رسول الله أكل لحم ضبع.

وورد عن عكرمة أنه رأى لحم الضبع على مائدة ابن عباس، وكذلك استدل الشافعي على جواز أكل الضبع بأن لحم الضباع كان يباع ويشتري بين الصفا والمروة في مكة المكرمة. على الجانب الأخر هناك فريق من الفقهاء يرون حرمة أكل الضباع، مستندين إلى حديث رواه مسلم أن الرسول نهى عن أكل كل ذي ناب من السبع، وكذلك حديث خزيمه عن النبي، عندما سأله عن أكل الضبع، فقال الرسول: أويأكل الضبع أحد؟ وسأله عن أكل الذئب، فقال: أويأكل الذئب أحد فيه خير؟. والقائلون بجواز أكل الضبع لم تقنعهم أدلة القائلين بعدم جواز أكل الضبع، إذ يرون أنّ الضبع ليس من السباع العادية (أي لا يعتدي على الإنسان)، لذا لا يشمل التحريم كالسباع التي تهاجم الإنسان.

لا شك أنّ الانطلاق من مسلمات غير دقيقة يقود إلى نتائج مغلوطة، وهذا ما حدث بالضبط في مسألة ما هو مباح وما هو غير مباح من الطعام.

الأصل في الأشياء الإباحة

من القواعد الشرعية الأساسية في فهم ما هو مباح وما هو غير مباح من الطعام هي القاعدة الفقهية الأصلية (الأصل في الأشياء الإباحة) والتي تؤسس لكثير من القواعد الفقهية في التشريع. يستدل القائلون بهذه القاعدة على مجموعة آيات في كتاب الله وهي كالتالي:

الآية الأولى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (سورة البقرة: آية 29).

هذه الآية لا تدل على أنّ الأصل في الأشياء الإباحة، وإنما تقرير من رب العالمين على أنّ ما في الأرض يسير في نظام متوازن لخدمتنا، وليس معنى ذلك أننا نأكله أو نسخره مثلاً

بالركوب أو حمل الأمتعة، وهو لا يؤكل ولا يسخر، وإنما يلزمنا فهم وظيفة الأشياء وعملها في هذا الكون لكي نستطيع التعامل معها بما تستحق، ويكون هذا التعامل منسجماً مع القوانين الكونية التي أرشد ربنا إليها.

الآية الثانية: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (سورة الأعراف : آية 32).

هذه الآية أيضاً تقرر أنّ الطيبات حلال لعباده، الحل هنا على شرط الطيبات، وليس حلالاً غير مشروط، ولا يمكن أن يفهم من هذه الآية أنّ الأصل في الأشياء الإباحة.

الآية الثالثة: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً) (سورة الأنعام : آية 145).

هذه الآية هي حجر الأساس في فهم القاعدة الفقهية (الأصل في الأشياء الإباحة)، حيث يرى الفقهاء من خلال هذه الآية أنّ الله لم يجعل التحريم أصلاً، بل جعل الإباحة أصلاً، ولعل الفقيه لم ينتبه لبداية الآية؛ حيث يقول الله: لا أجد فيما أوحى إلي، أي مرجع كل شيء إلى الوحي. هذه الآية بالتحديد لا يمكن فهمها بمعزل عن الآية الأولى في سورة الأنعام، التي حددت ما يجوز أكله من خلال الوحي نفسه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (سورة المائدة : الآية 1).

هذه الآية الكريمة تضع النقاط على الحروف، وتعلن أنّ الأصل في مسألة الطعام هو المنع أو عدم الإباحة؛ إذ إنّ معنى قول الله: أحلت لكم بهيمة الأنعام، أنّ باقي المخلوقات الأخرى لا يحل أكلها. مثال ذلك في كتاب الله: أحل الله ليلة الصيام الرفث إلى النساء، وعلى ذلك الأصل في الصيام المنع، والاستثناء هو الرفث ليلة الصيام.

(أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (سورة البقرة : آية 187).

ذكر التعبير القرآني العظيم جواز الاستفادة من المخلوقات الأخرى، وبالتحديد الأنعام، في موضعين: جاءت مرة بصيغة (أحلت لكم بهيمة الأنعام) في سورة المائدة، ومرة جاءت في سورة الحج بصيغة (أحلت لكم الأنعام) بدون بهيمة.

سوف نلاحظ أنّ حل بهيمة الأنعام خاص بالطعام، ويمكن استنباط ذلك من سورة الحج، حيث ذكر ربنا أنّ بهيمة الأنعام رزقٌ من لدنه، نأكل منها ونطعم الفقير.

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (سورة الحج: آية 28).

بينما الآية الكريمة التي جاءت بصيغة الأنعام دون لفظ بهيمة فتدلّ على المنافع بصفة عامة، حيث يقول ربنا أنّ لنا فيها منافعاً إلى أجل مسمى، وإن كان ذكر البيت العتيق يوحي أنّ المقصود هو منفعة الأكل:

(وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ

الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)) (سورة الحج : آيات 30-33).

من هنا نستطيع القول إنّ الأصل في مسألة الطعام هو المنع، وليس الإباحة، فليس مسموحاً للإنسان أن يتناول كلّ ما طالته يداه ويأكله، وإنما إحلال الأكل مختصّ بهيمة الأنعام فقط من بين المخلوقات والكائنات الأخرى التي تعيش معنا على الأرض.

هذه القاعدة القرآنية العظيمة تكف يد الإنسان عن تناول ما لا يجب تناوله، وتكفّه عن الاعتداء على المخلوقات الأخرى؛ بدعوى أنها مباحة له يفعل فيها ما يشاء.

هذه الأمم من المخلوقات لها وظائف عديدة في هذا الكون، منها ما نعلمه ومنها ما لم نخط به خُبراً، فلا بد من الالتزام بالتعليمات القرآنية بعدم التعدي على المخلوقات الأخرى بأبي حجة كانت.

لو فهم الفقهاء أنّ الأصل في الطعام هو المنع، بحيث لا يتم إطلاق يد الإنسان للفتك بالمخلوقات غير المخصصة للأكل؛ لما اختلفوا في جواز أكل الضبع، وهو حيوان من آكلات اللحوم، ولا ينتمي لفصيلة الأنعام آكلات العشب، فضلاً عن كونه من بهيمة الأنعام، التي جاء الخطاب للإنسان بالاستفادة من لحومها.

الإرشاد الإلهي القاضي بأنه أحلّ لنا بهيمة الأنعام يدحض أي فكرة بجواز أكل آكلات اللحوم، أو أيّاً من الأنعام بخلاف بهيمة الأنعام.

لسنا في هذا الفصل بصدد تنفيذ المباح وغير المباح من أنواع المأكولات بصفة عامة، فهناك آيات كريمة فصلت طعام البحر، وآيات أشارت إلى لحوم الطير، وآيات تحدّثت عن النبات الذي تخرجه الأرض، وتحتاج لفصل كامل للحديث عنها، أما هنا فيكفي الإشارة إلى الأنعام آكلات العشب وما يحل منها، كما ذكر كتاب الله.

بعد بيان القاعدة القرآنية في ما يحل أو ما لا يحل أكله، وبيان عدم دقة القاعدة الفقهية (الأصل في الأشياء الإباحة) الخاصة بالطعام، لا بد أن نركز الجهد في محاولة لفهم ما هي بهيمة الأنعام؟

بهيمة الأنعام

جذر كلمة [بهيمة] هو بهم، وكما جاء في قاموس اللغة: هو أن يبقى الشيء لا يعرف المأتى إليه، أو اللون الذي لا يخالطه غيره سواداً، ومن صفات كلمة [بهم] التفرد وعدم الوضوح، كما هو واضح من جذر الكلمة.

ويبدو لي أن إصبع الإبهام سمي كذلك بسبب انفراده عن بقية الأصابع، إذ يأخذ اتجاهات مختلفاً عن اتجاه الأصابع الأخرى. لسان العرب يطلق على الإبل والبقر والغنم بهيمة الأنعام، ويبدو لي أن هذا الوصف مطابق لبهيمة الأنعام، ولكن يمكننا إضافة الطيور الداجنة إلى هذا الوصف، بحيث تدخل هذه الطيور تحت مظلة بهيمة الأنعام إلى حين تحليل ألفاظ مثل الضأن والماعز، وفهم صفاتها وخصائصها.

يبدو لي أن وصف هذه المخلوقات بأنها بهيمة الأنعام إنما جاء بسبب تفردا عن بقية الأنعام من حيث مسألة التطور؛ إذ إنها تختلف عن بقية الأنعام، بل بقية المخلوقات في أنها لم تتطور من أفراد سابقة. لا يمكننا أن نغفل شيئاً هاماً بخصوص الأنعام بصفة عامة، وهو أن أجهزة الإدراك لديها بسيطة ومتواضعة نوعاً ما، في حين أن الجهاز الهضمي لديها ذو كفاءة عالية.

وصف كتاب الله الذين لا يعقلون ولا يفقهون بوصف الأنعام؛ إشارة إلى ضعف الحواس لدى هؤلاء الذين لا يعقلون. السمع والبصر والإحساس هي النقاط الرئيسة للإدراك والوعي، وعندما يصيبها عطبٌ يصبح الوعي غير كامل، ووصف هؤلاء المكذبين بالأنعام يشير إلى أن الأنعام بطبيعتها لا تملك وعياً وإدراكاً ذا كفاءة عالية؛ نتيجةً لتواضع حاسة السمع والبصر والإحساس لديها.

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (سورة الأعراف: الآية 179).

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (سورة الفرقان : الآية 44).

هذا الضعف في الحواس لدى الأنعام، وتواضع إدراكها يبدو متوافقاً تماماً مع وظيفتها، ومع عملها الأساسي على هذا الكوكب، إذ إنها حلقة وسيطة في نقل الطاقة للإنسان عندما يتغذى عليها أو على منتجاتها، وكذلك المنافع الأخرى، مثل: الركوب أو الاستفادة من منتجاتها مثل الجلود والوبر والصوف والشعر.

المشهد الرابع في خلق الأنعام

تعتبر الأنعام إحدى حلقات الهرم الغذائي، والتي من خلالها يمكن انتقال الطاقة من النباتات إلى الإنسان، وهي حلقة من حلقات توازن البيئة. يتربع على قمة الهرم الغذائي الإنسان والمفترسات، والتي بدورها تتغذى على آكلات العشب، وآكلات العشب تتغذى بدورها على النباتات.

حتى يكتسب جسم الإنسان وزناً قدره واحد كيلو جرام، يلزمه تناول عشرة كيلو جرامات من لحوم الأنعام، والتي بدورها يجب أن تكون قد أكلت ما يقارب 100 كيلو جرام من الأعشاب، وهذا يعني أن طاقة 100 كيلو جرام من الأعشاب انتقلت للإنسان في صورة 10 كيلو جرام من اللحوم، من خلال الحلقة الوسيطة وهي الأنعام.

هذا التصميم البديع جزء من التوازن البيئي، وأي عبث بهذا التوازن نذير شؤم، ويمكن أن يسبب أضراراً لا حصر لها؛ بسبب العلاقات المتشابكة التي تحكم هذه السلاسل الغذائية وتنتقل من خلالها الطاقة. في كتاب أصل الأنواع أعطى "تشارلز داروين" مثلاً لأحد السلاسل الغذائية، وكيف يمكن أن يتأثر كل كائن فيها بالآخر، واكتشف داروين أن حشرة النحل

يقول الطبري بخصوص هذه الآية الكريمة، وخصوصاً التعبير القرآني: (فَلْيَبْتِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ) وكذلك قول الله (وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) ما يلي:

(وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ) ، يقول: وَلَا مَرْنَ النَّصِيبَ الْمَفْرُوضَ لِي مِنْ عِبَادِكَ، بعبادة غيرك من الأوثان والأنداد حتى يَنْسُكُوا لَهُ، وَيَحْرِمُوا وَيَحْلُلُوا لَهُ، وَيُشْرَعُوا غَيْرَ الَّذِي شَرَعْتَهُ لَهُمْ، فَيَتَّبِعُونِي وَيَخَالِفُونَكَ. و [البتك]: القطع، وهو في هذا الموضع: قطع أذن البحيرة ليعلم أنها بحيرة. وإنما أراد بذلك الخبيث أنه يدعوهم إلى البحيرة، فيستجيبون له، ويعملون بها طاعةً له" انتهى التفسير.

نلتمس العذر للمفسر الذي اعتقد أن بتك آذان الأنعام هو بمنزلة علامة في أذن الحيوان تدل على أنها منسوبة لأحد الأصنام أو كأنها نذر لهذه الأصنام، لكن المفسر لم يأخذ بعين الاعتبار الآية كلها، وإنما حاول التفسير كلمة كلمة، أو جزءاً جزءاً بمعزل عن باقي الآية. لو حاولنا فهم المسألة التي تدور حولها الآية الكريمة، لأمكننا فهم التعبير القرآني (فليبتكن آذان الأنعام) . الآية الكريمة تتحدث عن ضلال وأمانٍ يقوم بموجبها الإنسان ببتك آذان الأنعام، وهذا البتك هو تغيير في خلق الله.

[البتك] كما جاء في اللغة: هو القطع، ولا يمكن فهم علاقة البتك بالآذان إلا من خلال فهم الآية الكريمة في سورة الكهف التي ذكرت الضرب على الآذان.

(فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) (سورة الكهف : آية 11).

الضرب على الآذان في الآية الكريمة هو قطع الصلة بين أهل الكهف وبين العالم الخارجي؛ مما أدى لتوقف المسار الطبيعي للحياة بالنسبة إليهم .

بتك آذان الأنعام لا يمكن أن يفهم إلا من خلال هذا الإطار، سيما وقد جاء بعدها تغيير خلق الله. عندما فسر المفسرون تغيير خلق الله قالوا: إنَّ معناه الإخفاء . الإخفاء حقيقة لا يمكن اعتباره تغييراً في خلق الله، وإنما هو تعطيل لوظيفة مهمة في الأنعام، والذي يمكن وصفه بالجعل، أي تحول جزئي، وليس تغييراً بالخلق. فالمسألة أبعد من ذلك لأن

الإنسان سوف يحاول تغيير مسار الحياة الطبيعي لهذه الحيوانات، والتي هي حلقة أساسية من حلقات التوازن البيئي، في شكل من أشكال تغيير خلق الله.

الآية تتحدث عن محاولات تعجيل إنتاج هذه المخلوقات، أو محاولات استنساخ هذه الحيوانات، أو التعديلات الوراثية التي تجري حالياً على أنواع عديدة من الكائنات، رغبة في تحسين الإنتاج؛ مما قد يشوّه الخريطة الجينية لهذه المخلوقات.

هناك جدل قائم بين العلماء حول هذه التعديلات الجينية، هل هي شيء ضروري ومفيد؟ أم أنها قنبلة موقوتة و كارثة بيئية، سوف تسبب خللاً في توازن النظام البيئي للكون؟. في السباق المحموم الذي تغذّيه الحاجة الاقتصادية يرغب الإنسان بالحصول على مواصفات محسنة للسلاسل التي يربها، مما دفعه انتهاج التعديل الجيني وسيلة ناجحة في تحقيق هذا الهدف.

في بعض المزارع يستخدم المزارعون طريقة فيزيائية للتخلص من قرون الحيوانات التي يربونها، مثل استخدام حديد ساخن أو مادة كاوية للتخلص من قرون الحيوانات، وبذلك يضمن المزارعون سلامة هذه الحيوانات، وأنها لن تؤذي بعضها البعض. هذه الحاجة دعت العلماء للتفكير في استخدام التعديل الجيني للتخلص من هذه القرون، وبالتالي تخفيف معاناة الحيوان نفسه.

في جامعة كاليفورنيا تم تعديل جيني على جينات ثور، بحيث ينتج ذريةً بدون قرون، وقد جاء الجيل الأول جميعه بدون قرون فعلاً.

الباب الرئيس حالياً لتقبل فكرة التعديل الجيني هو ادعاء تخفيف معاناة الحيوان ذاته، من خلال جعله أكثر ملاءمة مع بيئته، وأكثر تقبلاً، مثل ما حدث مع بعض الأبقار وتعديل جيناتها وراثياً؛ لتصبح أكثر قدرة على تحمل الأجواء الحارة.

نسبة ليست قليلة من المربين يدعمون بشدة إنتاج حيوانات معدلة وراثياً؛ للحصول على الصفات المرغوبة، والتي تُدرّ عليهم أكبر قدرٍ من الأرباح، عن طريق زيادة كمية اللبن، أو زيادة معدل الحصول على اللحم.

لا شك لدي أنّ هذه التعديلات الوراثية التي تجري على الأنعام، والادعاء بأنها لحماية الحيوان نفسه، أو لزيادة الإنتاجية، ما هي إلا تلك الأمانى التي أخبر عنها القرآن؛ التي بسببها يتعجّل الإنسان ويتدخل، ومن ثم يؤثر على مسار الحياة الطبيعي لهذه المخلوقات . بتك آذان الأنعام هو عملية عزل هذه المخلوقات عن مسارها الطبيعي؛ كالمثال الذي ضربه الله عن أهل الكهف بالضرب على آذانهم.

لعلّ اللهجة القرآنية والتحذير الإلهي من العبث الجيني بهذه المخلوقات لن يجد آذان مصغية؛ بسبب طبيعة الإنسان المحبّ للتجريب والاكتشاف. أتمنى ألا يأتي اليوم الذي يدرك فيه الإنسان خطورة هذا الأمر، ويكون قد فات الأوان، وأصبحنا نعيش مع كائنات معدلة بالكامل، قد تسبب كوارث لا نعلم مدى خطورتها، ومدى تأثيرها على باقي المنظومة الكونية. يبدو لي أنّ الكائنات التي أنزلها الله تعالى ولم تتطور من أفراد سابقة وهي الأزواج الثمانية بالتحديد، مصممة بطريقة فريدة، تجعلها وسيطاً ممتازاً ينقل الطاقة للإنسان، وأيّ عبث بجينات هذه الحيوانات نذير شؤم، وخطأ كارثي.

والآن نستطيع تلخيص هذا الفصل من خلال نقاط محددة.

تلخيص الفصل

يوجد ثمانية أزواج رئيسة من الأنعام، نزلت بطريقة ما، ولم تتطور على الأرض من أفراد سابقة.

بمجرد نزول الأنعام خضعت لآلية التطور؛ شأنها شأن جميع المخلوقات.

المسموح بأكله هو فقط بهيمة الأنعام، وهي التي حاولنا قدر استطاعتنا تحديدها في ثمانية أزواج (أربع أصناف).

الأزواج الثمانية هي أسماء مجموعات رئيسة، ومن المتوقع أن يضمّ كل مسمىّ تحته عدداً كبيراً جداً من الأنواع.

يُحذِرنا القرآن من أن يقودنا التعجل والتسرع إلى تغيير صفات هذه الأنعام، وإن كان تحت عنوان الأغراض النبيلة.

الفصل الخامس طيراً أبابيل

(الفيلُ وما أدراك ما الفيلُ، له ذنبٌ وِيبِلٌ، وخرطومٌ طَوِيلٌ) هذه بعض النصوص الذي يقول بعض المحققين إنها منسوبة لمسيلمة الكذاب؛ محاولاً تقليد القرآن الكريم.

رغم سذاجة التعبيرات المذكورة، والتي للأمانة تبدو غريبة عن لسان العرب، وما عهدناه من تعبيرات شعرية قوية، وأنّ مثل هذه التعبيرات من وجهة نظري لو قيلت على أسماع العرب آنذاك لأصبحت مجال تندر وسخرية، إلا أنّ وجود مثل هذه النصوص تعطينا لمحةً كيف ينظر البعض لكتاب الله.

مقارنة ما قال مسيلمة - إلى آيات القرآن الكريم- هي مقارنة تبدو شعريةً ساذجة لا تغوص ولا تعبر عن كتاب الله، بل هي أقرب لمقارنة نص أدبي بنص أدبي، لا يأخذ في حسابه الحقائق والمعارف التي يعبر عنها النص بشكل حقيقي.

التحدي الذي جاء في كتاب الله للناس أن يأتوا بسورة من مثله ليس تحدياً بسيطاً، ولو ظنت العقول أنّ التحدي هو بسبب البلاغة المعروفة لدى العرب فربما يأتي شخص يدعي أنه استطاع أن يأتي بآيات وسور، كما جاء في القرآن. (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (سورة البقرة: آية 23).

هناك بعض المشككين في بلاغة القرآن، بل من هؤلاء من ادعي أنّ هناك نصوصاً أكثر بلاغة من النصوص في كتاب الله. هذا التشكيك الذي يقوده بعض المحسوين على اللغة يبدو في كثير من الأحيان منطقيّاً؛ بسبب تبني النظرية الاصطلاحية في فهم ألفاظ كتاب الله، ولكن عن طريق استخدام النظرية التوقيفية، وفهم مدلول كلمة [عربي] في كتاب الله سوف يزول كل لبس.

كتاب الله ليس كتاباً للشعر أو النثر أو للنصوص الأدبية، وإنما هو كتاب نظريات علمية يعبر عن حقائق مطلقة، وهذا هو السر الذي لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله؛ لأنه - ببساطة - لا يستطيع كائن من كان وصف شيء وصفاً دقيقاً إلا العالم بصفات وخصائص وعلاقات هذا الشيء. (انظر الجزء الثاني - الفصل الأول).

قَصْرُ كتاب الله على مسألة النصوص وحبكتها، وقياس هذه النصوص على ما أنتجه الناس، لا يمكن أن يكون حكماً منصفاً؛ لأن هذا الحكم ينطلق من مسلمات بشرية في اللغة لفهم كتاب الله، بينما كتاب الله نفسه يقول: إنه يجب الانطلاق منه ذاتياً، وفهم ألفاظه العربية التي تخبر عن نفسها وحقيقتها من خلال كتاب الله ذاته.

سورة الفيل نموذج لهذه النظريات المعرفية التي يزخر بها كتاب الله، والتي تخبرنا بمعلومات غاية في الدقة. سوف نخبرنا آيات السورة وكلماتها بمعلومات ومعارف لا حدود لها، فقط إذا حاولنا فهم هذه الكلمات، واستطعنا تحليل ألفاظها بشكل منهجي وعلمي. الكلمة الواحدة تحمل من المعرفة ما يمكن أن يفتح لنا أبواباً لا حصر لها، في فهم هذا الكون وفهم قوانينه.

الفيل الذي ذكر في كتاب الله، وليس له وصف سوى حيوان الفيل المعروف، ثم نسجت قصة حول هذا الفيل ينتابها كثير من الشكوك، ثم إسقاط كل هذا على كتاب الله؛ جعل من هذه السورة القرآنية تبدو للباحثين وكأنها أسطورة. انطلق الباحثون من تكذيب رواية جيش أبرهة والتشكيك في صحة وقائعها كما وردت في كتب التفسير، إلى تكذيب كتاب الله واتهامه بأنه غير دقيق.

هل رؤية التفسير عن سورة الفيل كما وصلتنا صحيحة؟ أم أنّ هذه السورة تحمل نظرية معرفية أعمق بكثير من مجرد سرد واقعة حسب فهم الناس ومعارفهم المتواضعة.

قصة أصحاب الفيل كما يرويها أصحاب التفسير، جاء فيها اختلاف المفسرين حول عام الفيل نفسه، والذي قال عنه بعضهم: إنه كان قبل مولد الرسول بـ 25 عاماً، وقال بعضهم: بل

كان قبل مولد الرسول بـ 40 عاماً، ولكن الرواية المتفق عليها أنّ عام الفيل كان عام مولد الرسول.

كذلك هناك اختلاف على عدد الفيلة المصاحب لحملة أبرهة، هل هي واحد أم ثمانية أم اثنا عشر؟. هذا الاختلاف إنما هو دليل على محاولات المفسرين تفسير السورة رغم صعوبة الحصول على المعلومات، وفي ظل مسميات تعتمد على لسان العرب، وليس على اللسان العربي الذي جاء به القرآن. بعض المعاصرين ونتيجة لأبحاث ترفض واقعة الفيل من أصلها؛ حاول تفسير السورة الكريمة على أنها تقصد قوم لوط.

يستند هؤلاء الباحثين على أنّ لفظ [فيل] تعني ضعف الرأي وهزاله، فيقولون: إنّ أصحاب الفيل تعني أصحاب الرأي الضعيف، أو الرأي السخيف، ثم يسترشدون بالمجارة التي أهلك أصحاب الفيل ومقارنتها بالمجارة التي أهلكت قوم لوط، وعلى ذلك يقولون: إنّ سورة الفيل تقصد قوم لوط.

سورة الفيل لا تمت بصلة للقصة التي تربينا عليها، وهي قصة هدم الكعبة، ولدينا بحث تاريخي مفصل عن حادثة الفيل هذه، نُشر في مجلة الرسالة العدد 349 عام 1940م للدكتور إسماعيل أحمد أدهم يفند فيه الحادثة تاريخياً.

يقول الدكتور أدهم: إنّ الرأي كان سائداً في الدراسات التاريخية على أنّ المراجع اليونانية لم تذكر شيئاً عن علاقة أهل الحبشة بأرض الحجاز، ولا عن حادثة الفيل؛ غير أنّ المستشرق "تيودور نولدكة" أجهض هذا الادعاء، عندما نشر أبحاثاً أشارت إلى أنّ المؤرخ اليوناني "بروكوب" قد ذكر دخول الأحباش أرض الحجاز بتخريض من الروم.

غياب المصادر التاريخية المعاصرة عن المؤرخين العرب، لفترة طويلة جعل المؤرخين العرب يتناولون أحداث العصر القديم معتمدين على معارفهم الشخصية، مما جعلهم ينسجون حولها أساطير وحكايات لا أساس لها من الصحة.

على هذا الأساس تحتل المصادر التاريخية اليونانية مكانةً مرموقةً تاريخياً؛ بسبب معاصرتها للأحداث التي جرت، إذ يمكن فهم طبيعة الأحداث على ضوء من هذه الدراسات.

في السنة الخامسة من حكم الإمبراطور "جوستيان" عام 530م -حسب المؤرخ اليوناني "بروكوب"- استولى الأحباش على اليمن، وبعد استقرار الأحباش في اليمن أرسل الإمبراطور جوستيان سفيراً للنجاشي يعرض عليه عقد حلف ضد الفرس، فيكون دور الأحباش هو مواجهة الفرس من جهة بلاد العرب الموازية لحدود الجزيرة العربية. كان هذا الحلف بمنزلة متنفس للإمبراطورية الرومانية، يتم بموجبه تخفيف الضغط عن الروم، خلال صراعهم مع الفرس على تخوم الحدود الفاصلة بين الامبراطوريتين، وهذه الواقعة حسب المصادر التاريخية كانت عام 540 م.

كانت الصلات بين الإمبراطور والنجاشي تعتمد على الصلة الدينية بين الاثنيين؛ مما شجع الإمبراطور جوستيان لطلب مساعدة النجاشي في حربه ضد الفرس.

فكرة مساعدة الروم من خلال مهاجمة الفرس عن طريق الأحباش لم تكن فكرة قابلة للتطبيق؛ بسبب طبيعة التضاريس في جزيرة العرب، التي تمنع تقدم الأحباش لمهاجمة الفرس على حدود جزيرة العرب، بالإضافة إلى ذلك لم يكن للأحباش أسطول بحري قوي يمكنهم من خلاله مهاجمة الفرس عبر الخليج الفارسي وقتها.

أدرك النجاشي هذه الحقيقة فظل يُسوّف مرةً ويعتذر مرةً من الإمبراطور في تقديم العون والمشاركة في الحرب. مع اشتداد الحرب بين الروم والفرس أرسل الإمبراطور رسولاً إلى النجاشي يطلب منه المساعدة، فاضطر النجاشي أن يطلب من عامله على اليمن وهو "أبرهة" أن يرسل جزءاً من قواته شمالاً؛ على زعم التحرك للتعرض للحدود الفارسية، والطريق الطبيعي الممتد من اليمن وحتى حدود فارس يمر بمكة، وينتهي عند وادي الرمة أحد روافد الفرات قديماً.

بدأ الأحباش في التحرك شمالاً، وعند وصولهم إلى الحجاز كان التعب قد نال منهم، وفشا فيهم المرض والجدري الذي أفني معظم الرجال وفتك بالجنود، فاضطر الأحباش أن يسحبوا قواتهم، ويعتذرون بخسائهم إلى الروم، ويقفوا عند هذا الحد. هذا التحرك العسكري الذي نفذه الأحباش، بجيش ضخم بالنسبة إلى العرب وقتها؛ أربع العرب، واعتقدوا أن

الأحباش يبيتون لهم الشر، ولما أصيب الجيش بالجدري وفتك المرض بالجنود أيقن العرب أنّ ذلك من أثر التدخل الإلهي، ومن هنا نسج العرب رواياتهم حول واقعة الفيل.

من ناحية أخرى يروي الدكتور الأدهم في بحثه التاريخي، أنّ الرواية التاريخية في المصادر العربية التي تحكي تعرض أبرهة للكعبة تقول: إنّ السبب وراء ذلك هو بناء هيكل جديد في صنعاء اليمن، ورغبة أبرهة في انصراف الناس عن الكعبة. غير أنّ المؤرخ "أوزيل" في بحثه عن تاريخ الكنيسة يتناول بالذكر النصارى من العرب، وقساوستهم أصحاب المآثر، ولا يذكر أي شيء عن أبرهة أو بناء هيكل صنعاء.

من المعروف أنّ المسيحية كانت منتشرة في نجران، وفي بعض مناطق اليمن، وقد كان في اليمن قساوسة في عهد الأحباش، وربما كان لهؤلاء القساوسة كنيسة وهيكل قد اعتنوا به بما يليق بمكانتهم بوصفهم نصارى حاكمون للبلاد وقتها، مما أوهم العرب بقصة التنافس بين الهيكل والكعبة، ولو فرض أنّ أبرهة أراد الناس أن تحجّ إلى هيكله فسوف يكون الأمر مقصوراً على النصارى فقط، وهؤلاء النصارى منصرفين عن الكعبة بحكم شعائرهم، ولو أنّ هذا الحادث كان بمنزلة تبشير للعرب فكان لابد من ذكر حادثة كهذه في كتب الكنيسة الشرقية.

على ذلك يرى الدكتور الأدهم في بحثه: أنه لا محل لقبول إدعاء رواة العرب عن سبب حملة أبرهة في بلاد الحجاز.

اللافت للنظر ذلك الاتفاق بين رواة العرب على تسمية حملة أبرهة بسفر الفيل؛ وذلك بسبب الاعتقاد أنّ الحملة كانت تضم عدداً من الفيلة. كثير من المؤرخين يميل إلى إنكار وجود الفيلة في حملة أبرهة؛ بسبب طبيعة هذا الحيوان الذي يحتاج لكميات كبيرة من المياه، والتي يصعب بل استحيل معها تسيير الفيلة في صحراء نجران في ظل قلة وجود الماء.

عندما تقدم الأحباش شمالاً، وما كادوا يقتربون من مكة حتى ألمت بهم كارثة أودت بحياة كثير من الجنود، وبعض المراجع العربية ترجح أن تكون الكارثة هي مرض الجدري.

يرى الباحث أنّ قصة تعرض الأحباش لمكة وهم في طريقهم إلى فارس، وأنّ القصد منها هدم الكعبة وصرف الناس عن البيت الحرام؛ ما هي إلا أسطورة نشأت بعد ظهور الإسلام وأصبحت الكعبة قبلة المسلمين.

مما لا شك فيه أنّ ارتباط قصة الفيل بميلاد الرسول أعطى زخماً إضافياً لقصة الفيل، وجعل هلاك جيش أبرهة معجزةً تبشّر بميلاد الرسول الكريم، وتصبح دليلاً مادياً على نبوة رسول الله.

من خلال تتبع التاريخي لتوقيت حملة الأحباش التي كانت عام 540 م، وميلاد الرسول صلوات ربي عليه كان عام 570 م، تبدو الصلة بين الواقعتين مقطوعة. رأينا اختلاف المفسرين في تحديد توقيت حملة الفيل، وعلى سبيل المثال يقول البغوي: إنّ سفر الفيل حدث قبل ميلاد الرسول بنحو أربعين سنة، ومحمد بن السائب الكلبي يذكر أنّ سفر الفيل كان قبل ميلاد الرسول بثلاث وعشرين سنة.

من خلال المصادر التاريخية نجد أنّ خلفاء أبرهة حكموا اليمن حوالي 31 سنة، وكثير من المصادر العربية تقول إنّ الرسول وُلد بعد خمسين سنة من استيلاء الأحباش على اليمن، وأنّ الأحباش تمّ طردهم بعد عامين من ميلاد الرسول، وهذا يثبت أنّه لا علاقة بين مقدم حملة أبرهة وميلاد الرسول. بعد هذا التحقيق التاريخي نجد أنّ حملة الفيل وفكرة هدم الكعبة، وربط ذلك بميلاد الرسول؛ تبدو رواية ضعيفةً لا تؤيّدّها الدلائل التاريخية، فضلاً عن الدلائل المنطقية والعقلية.

بالإضافة إلى ما سبق هناك بعض النقاط لا بد أن نشير إليها:

النقطة الأولى: هي أنّ سورة الفيل تتحدث عن هلاك أصحاب الفيل، بينما حتى الروايات العربية والإسلامية تقول إنّ أبرهة نفسه عاد إلى اليمن ببقية جنوده؛ فإذا كان هذا الأمر عقاباً لأبرهة من الله كما يعتقد المفسرون، فكيف نجا أبرهة نفسه وعاد إلى اليمن، برغم أنه هو العقل المدبر وهو القائد؟ قذف الجيش بحجارة وكأنها عقاب إلهي لا تستقيم ونجاة أبرهة

نفسه وباقي جيشه، ولكن هلاك أو إبادة الجيش بسبب الجدري أو تفشي الطاعون هي الرواية الأكثر تماسكاً.

النقطة الثانية: هي أنّ الكعبة وقتها كانت تحت إمرة المشركين، وهؤلاء المشركون كانوا قد نصبوا حول الكعبة عشرات الأصنام، وأبرهة كما تروي كتب التاريخ من النصارى ومن أهل الكتاب، وأهل الكتاب لا شك هم أحقّ بالله من المشركين عبّاد الأصنام بنص كتاب الله، فكيف يتم إهلاك أهل الكتاب مقابل مشركين وكفار يعبدون الأصنام؟ وهل هدم البيت يجعل بناءه متعذراً أم ان عملية الهدم عملية ليس لها أي قيمة من الأساس وقد تم هدم البيت في تاريخ الإسلام أكثر من مرة باعتداءات وحروب والتي سوف نوضحها في النقطة التالية.

النقطة الثالثة: الكعبة دُمرت وهدّمت أكثر من مرة في التاريخ الإسلامي نفسه، ولم نرى طيراً أبابيل يرمي المجرمين الذين هدموا الكعبة وأحرقوها؛ فقد ضرب الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة بالمنجنيق خلال حربه مع عبد الله بن الزبير، وكذلك فعل الطاهر القرمطي وهدم الكعبة، وقتل ما يقرب من ثلاثين ألف حاج، وقال قولته الشهيرة: «أنا، أنا أخلق الخلق، وأفنيهم أنا»، لقد فعل القرامطة الأفاعيل بالكعبة، ورددوا بئر زمزم بجثث القتلى، واستبقوا الحجر الأسود لسنوات، ومع ذلك لم نرى طيراً أبابيل ترميهم بشيء.

عندما نضع كل هذه المعطيات جنباً إلى جنب سوف ندرك أنّ قصة هدم الكعبة من خلال جيش أبرهة هي مجرد أسطورة، وبسبب سورة الفيل واعتقاد المفسرين أنها تخص هذه الحادثة، أصبح هذا الاعتقاد راسخاً لدى المسلمين، بأنّ سورة الفيل تصف حادثة محاولة هدم الكعبة وانتقام الله من جيش أبرهة.

النقطة الرابعة والأخيرة: هي أنّ السورة لا تحوي أيّ إشارة للبيت الحرام أو للكعبة؛ حتى نستطيع الجزم أنّ أحداث السورة تدور حوله، فكيف لا يكون هناك أي ذكر للمحور الرئيس الذي دارت حوله القصة؛ وهو البيت الحرام؟

مفاتيح هذه السورة العظيمة تكمن في كلمة الفيل التي سميت السورة باسمها، وكما نحب أن نقرّر دائماً أنّ الأسماء في كتاب الله أسماء حقيقية، تصف المسمى وتعبّر عن خصائصه، وعلى ذلك فإنّ مسمى الفيل هو أحد هذه الألفاظ المليئة بالمعرفة.

مدلول كلمة الفيل

لفظ الفيل ذكر في كتاب الله مرة واحدة، وهي التي نحن بصددّها في سورة الفيل؛ مما يجعل مسألة تتبّع اللفظ غايةً في الصعوبة.

في قاموس اللغة جذر كلمة [فيل] تعني الضعف والاسترخاء، ويقال فيل رأيه؛ أي ضعف رأيه. مسألة ضعف الرأي لا بد أن نتوقف عندها، ونربطها بالجذر الثنائي للكلمة؛ لمحاولة فهم كلمة [فيل] ماذا تعني:

إنسان ضعيف الرأي: يعني رأيه غير ذي قيمة، أو رأيه متروك، أو رأيه مهمل؛ وهذه الفرضية سوف نجد صدها من خلال فهم الجذر الثنائي للكلمة.

الجذر الثنائي [فل] كما في قاموس اللغة: أصلٌ صحيح يدل على الانكسار و الانثلام. من الملاحظ أنه عند إضافة حرف ثالث للجذر الثنائي [فل] فإنّ الكلمة الثلاثية تعطي معنى الترك أو القطع أو الإبعاد أو الفصل.

مع إضافة حرف الجيم للجذر الثنائي (فل) تصبح الكلمة [فلج] هو فرجة بين شيئين متساويين، والفلج في الأسنان هو التباعد وإذا أضيف حرف الحاء أصبحت الكلمة [فلح] وهو شق الأرض، وإضافة حرف الذال تجعل الكلمة [فلذ] وهي تصف شيئاً مقطوعاً من شيء، كلمة [فلق] تعني فرجة أو تباعد، وكلمة [فلو] تعني قطع، ويقال فلوته أمه أي قطعته، وكلمة [فلت] تعني الذهاب أو الفصل أو القطع.

هكذا نجد أنّ الجذر الثنائي [فل] يحمل خصائص الذهاب أو القطع أو التباعد. في كتاب الله نجد كلمة [أفل] الواردة في سورة الأنعام، والتي تدلّ على الذهاب أو الاختفاء، قد عزّزت فرضية أنّ الجذر الثنائي يحمل خصائص الذهاب والتباعد والاختفاء.

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) (سورة الأنعام: آية 76) .

من هنا يمكننا القول إن لفظ [فيل] تعني شيئاً بعيداً أو منقطعاً أو متروكاً أو شيئاً ذهب وغير موجود. قد يكون العرب سموا هذا الحيوان ضخم الجثة بالفيل؛ لأن هذا الحيوان غير موجود بأرض العرب، فكأنهم سموه بصفة وخاصة نسبية؛ فإن كان هذا الحيوان غير موجود بالنسبة إلى العرب أو بعيداً عنهم، فإن تسميته بالفيل تسمية صحيحة، ولكن التسمية القرآنية غير ذلك.

التسمية القرآنية تسمية حقيقة، بل هي الحقيقة المطلقة، فإذا استخدم القرآن لفظ [فيل] وهو يحمل خصائص التباعد والذهاب والاختفاء، فلا بد أن يكون هذا الشيء بالفعل غير موجود أو محتفٍ أو غير متاح. تذكر الآية الكريمة تعبير أصحاب الفيل فهي تتحدث عن المصاحبين للتباعد أو الترك أو الاختفاء، وصاحب الشيء يعني الملازم لهذا الشيء، فأصحاب الفيل هم من جرى عليهم الاختفاء أو بالتعبير العصري الانقراض.

سورة الفيل تحكي قصة انقراضٍ وقع على مخلوقات غير الإنسان؛ لأن الإنسان ببساطة ما زال موجود.

الآية الأولى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

يتبين لنا من خلال الآية الأولى أن الله يخبرنا عن حادثةٍ ما في تاريخ الحياة، عن مخلوقات أصابها الاختفاء، وهي غير موجودة فعلياً الآن؛ أي أنها انقرضت.

الآية الثانية: (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[الكيد] في اللغة هو المعالجة بشدة؛ كما جاء في قاموس اللغة، أما في كتاب الله نجد أن لفظ [الكيد] جاء مع الله في أكثر من موضع، كما في سورة الأعراف (وَأْمُرِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (سورة الأعراف: آية 183) .

جاء الكيد منسوباً للناس كما في سورة الأنفال وسورة يوسف .

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) (سورة الأنفال: آية 81) .

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ

عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (سورة يوسف: آية 5) .

وجاء كذلك لفظ [الكيد] مع الشيطان كما في سورة النساء (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِ

اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ

كَانَ ضَعِيفًا) (سورة النساء: آية 76) .

من خلال الآيات الكريمة ومن خلال جذر الكلمة في قاموس اللغة يتضح لنا أنّ الكيد

هو معالجة شيء، أو ترتيب ما، يغلب عليه الشدة والانتقام .

من هنا نجد أنّ المخلوقات التي نتحدث عنها الآية الكريمة لديها درجة وعي ما، إذ كان

لها ترتيب انتقائي بدرجة ما. لا شك أنّ كثيراً من المخلوقات لديها درجات من المعرفة والوعي

متفاوتة، كما أشرنا إلى ذلك في (الجزء الثاني - فصل منطلق الطير) عن النمل والهدهد، وكيف

أنّ هناك درجة من المعرفة والوعي لا يمكن تجاوزها. نلخص إلى القول إنّ الانقراض المعني

هو انقراض أصاب مخلوقات كانت لها تصرفات عنيفة للغاية.

الآية الثالثة: (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ)

قبل الشروع في فهم هذه الآية الكريمة سوف نحاول استعراض ما قاله الطبري ونقله

حول هذه الآية: «وقوله: (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) يقول تعالى ذكره: وأرسل عليهم ربك

طيراً متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى؛ وهي جمع لا واحد لها.

عن ابن عباس، في قوله: (طَيْرًا أَبَابِيلَ) قال: يتبع بعضها بعضاً. عن إسحاق بن عبد

الله بن الحارث بن نوفل، أنه قال في: (طَيْرًا أَبَابِيلَ) قال: هي الأقطيع، كالإبل المؤبلة. عن

سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي (طييراً أبابيل) قال: متفرقة. عن الحسن (طييراً أبابيل) قال: الكثيرة. عن أبي سلمة، قال: الأبابيل: الزمّر. عن مجاهد في قول الله: (أبابيل) قال: هي شتى متتابعة مجتمعة. عن قتادة قال: الأبابيل: الكثيرة. قال ابن زيد: في قوله: (طييراً أبابيل) قال: الأبابيل: المختلفة، تأتي من ها هنا، وتأتي من ها هنا، أتتهم من كل مكان.» انتهى التفسير.

في فهم لفظ [أبابيل] وجوه عدة؛ كما بينها المفسرون، منها: التابع أو أقاطع أو كثيرة أو المختلفة. كلمة [أبابيل] من الكلمات صعبة التحليل؛ بسبب ورودها في كتاب الله مرة واحدة، وبسبب اختلاف المفسرين حولها.

من خلال فهم الكلمات المتقاربة والتي تحتوي على الجذر الثنائي [بل] يمكن لنا أن نحصل على معلومة ذات قيمة، ثم نضمّ هذه المعلومات لباقي المعطيات كي نستخرج الفائدة. في قاموس اللغة كلمة [أبل] لها ثلاث أصول، الأصل الأول: هو الإبل وهي معروفة، الأصل الثاني: الاجتزاء (الاقطاع)، الأصل الثالث: الثقل.

كذلك في كتاب الله توجد كلمات قريبة من كلمة [أبابيل] يمكن الاستعانة بها، وهي كلمة [وابل]، وكلمة [وبيلا].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَثُلَّةٌ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (سورة البقرة: الآية 264).

الوابل: هو المطر الشديد أو الثقل المتتابع.

(فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) (سورة المزمل: الآية 16).

لفظ [وبيلا] هنا أيضاً يعني الشديد الخاطف. أصل كلمة [وبل] كما في قاموس اللغة: شدة بالشيء وتجمع.

ومن خلال دمج جميع المعطيات نجد أنّ لفظ [أبابيل] تصف حالةً من التجمع والثقل والتتابع والسرعة، ولو حاولنا تقريب هذه الكلمة لكلمة متداولة فلن نجد أفضل من كلمة [وابل]، التي تصف القذائف على أنها سريعة ومتتابعة وكثيفة.

يقول المفسرون: إنّ الطير في الآية الكريمة هي الطير التي تطير بجناحها في السماء، ومنهم من وصفها وصفاً دقيقاً وكأنه ينظر إليها. من خلال الآيات الكريمة لا نرّحّ أبداً أنّ الطير المذكورة هي الطير المعروفة لدينا، بل هي أشياء طائفة تفوق سرعتها سرعة الطيور بكثير؛ وذلك لعدة أسباب:

أولاً: لفظ [أبابيل] وما يعنيه من السرعة والتتابع والثقل لا يعزز فرضية أنّ الطير هي الطير الذي نعرفه؛ لأنّ الطير من أهم صفاته وخصائصه الخفة وسرعته معقولة وليست سرعة عالية. ثانياً: هناك آية في كتاب الله ذكرت لفظ [طائر يطير بجناحيه]، وهذا يعطي الفرصة -ضمنياً- بالقول إنّ هناك طائراً لا يطير بجناحيه، وربما الطير الأبابيل هي أحد أنواع الطير هذا.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (سورة الأنعام: الآية 38).

ثالثاً: الآية التالية في سورة الفيل، و مدلول لفظ [ترميمهم]؛ يؤكد أنّ المقصود ليست الطيور التي نعرفها.

الآية الرابعة: (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ)

هذه الآية تعطينا دليلاً قوياً على أنّ الطير ليست طيورنا المعروفة، بل هي قذائف أو مذنبات طائفة في الفضاء؛ لأن لفظ [ترميمهم] في أول الآية خارج قدرة الطيور، فالطيور كما ذكر القرآن لا ترمي وإنما تلقي كما حكى القرآن عن نبي الله سليمان والمهدهد.

(اذْهَبْ بِكِنَانِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) (سورة النمل: آية 28). الإلقاء هو إسقاط شيء، أو نزول شيء، وإن شئت قلت بالدفع الذاتي، بينما الرمي

مختلف تماماً فهو إلقاء الشيء عن طريق قوة دافعة مؤثرة عليه، كما ورد في المواضع التي ورد فيها الرمي في كتاب الله:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة الأنفال: آية 17).

الرمي في هذه الآية الكريمة نتيجة لقوة بدنية من الرامي، فتكتسب الرمية قوة بقدر قوة الرامي أو قوة الآلة الرامية.

(إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ) (سورة المرسلات : آية 32).

الحديث في الآية الكريمة عن نار جهنم وهي ترمي بشر كالقصر، والشر الذي ترميه النار مندفع بقوة التفاعلات الناتجة والطاقة الكامنة، وليس بقوة دفع حرة مثل السقوط الحر. التناسق البديع بين لفظ [أبابيل] ولفظ [ترميم] يرسم صورة لقذائف متتابعة وسريعة قادمة من الفضاء، تكاد تخبر عن نفسها بأنها أجسام طائرة كثيفة، حدث لها انفجار وتطايرت أجزاؤها لتصيب أصحاب الفيل.

إن لفظ [حجارة من سجيل] يضيف بعداً آخر لهذه المقذوفات، وكما قد بينا في الجزء الأول مفهوم كلمة [الحجارة] عندما تحدثنا عن حجارة جهنم، وكيف أن الحجارة تختلف عن الصخور، إذ الحجارة هي مكونات من طبقات ترسيبية، تمت على مراحل زمنية طويلة، بينما الصخور هي تكوينات تمت بسرعة عالية، وعلى ذلك قلنا إن لفظ الحجارة ينطبق تماماً على التكوينات الرسوبية، أو ما يعرف مجازاً بالصخور الرسوبية، بينما لفظ الصخور يصف الصخور النارية حصراً.

لو حاولنا فهم كلمة [سجيل] التي وصفت الحجارة نجد أن جذر [سجيل] اللغوي هو سَجَل، وله أصل واحد: وهو انصباب الشيء بعد امتلائه، ويقال للضرع الممتلئ: لبن سَجَل. ورد جذر كلمة سجيل في كتاب الله في أربعة مواضع، منها ثلاثة مواضع بصيغة [سجيل]، وموضع واحد بصيغة [سجل]:

الموضع الأول:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلين) (سورة الأنبياء : آية 104).

السجل في هذه الآية الكريمة هو الشيء الذي يحتوي على مجموعة من الكتب، والسجل يصف حالة مكدسة أو كثيفة؛ لأنّ الآية الكريمة تصف طي السماء، وتشبه هذا الطي بأول الخلق. أول الخلق نستطيع إدراكه من خلال الآية الكريمة التي وصفت بداية خلق السموات والأرض، في سورة الأنبياء نفسها، بأنهما كانتا رتقاً، أي كتلة مكثفة أو مكدسة:

(أولم ير الذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما^ط وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ أفلا يؤمنون) (سورة الأنبياء: الآية 30) .

من هنا نستطيع القول إنّ السجل الذي شبه الله به طي السموات هو عبارة عن طبقات مكدسة. هذا الوصف الدقيق للفظ [سجل] والمشتقة [سجّل] يعطينا لمحة عن خصائص وصفات هذا السجّل، والذي من خصائصه الكثافة العالية بسبب تكديس طبقاته.

فكأن الحجارة المقدوفة هي حجارة ممتلئة، أو ذات كثافة عالية، وهو ما ينطبق على النيازك الساقطة من السماء. الآيات الباقية عن السجّل في كتاب الله تعطينا لمحة أخرى كما سوف نرى:

الموضع الثاني: (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّلٍ منضودٍ) (سورة هود: الآية 82) . نلاحظ في هذه الآية الكريمة، والخاصة بعذاب قوم لوط، أنّ كتاب الله استخدم لفظ [أمطرنا] ولم يستخدم لفظ [رمينا] وكذلك الآية التالية:

الموضع الثالث: (جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارةً من سجّلٍ) (سورة الحجر: آية 74) . الشيء نفسه هنا، يقول كتاب الله: إنّ حجارة من سجّل كانت على هيئة أمطار بينما في الآية التي نحن بصددتها يقول ربنا عن الطير: ترميمهم بحجارة من سجّل .

يبدو لي أنّ هلاك قوم لوط كان عن طريق سقوط حجارة من نيازك تساقطت عليهم أيضاً، بينما الانقراض الذي نتحدث عنه سورة الفيل كان عن طريق رمي أو قذف هذه الحجارة.

قد يقود هذا الفرق إلى فهم النشاط النيزكي؛ فإذا كان الانقراض عن طريق وابل من القذائف، فهذا يدل على نشاط عال جداً، والتي نرحب أنها كانت قبل وجود الإنسان، ثم نجد أنّ النشاط قد قل بشكل ملحوظ وأصبحت الحجارة تتساقط كهيئة الأمطار. الفرق بين (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) و(ترميمهم بحجارة من سجيل) يخبرنا بالكثير، ويؤيد فرضية أنّ الذي رمى ليس هو الطير العادي المعروف لدينا، وإنما نشاط غير عادي للنيازك، إذ عندما تقترب من الغلاف الجوي تنفجر أو تحطم، وتنطلق بفعل قوة التفجير هذه إلى الأرض، فأصابت هذه الكائنات وأدت إلى انقراضها.

الآية الخامسة: (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)

تقول التفسيرات إنّ العصف المأكول هو بقايا النباتات عندما تأكلها البهائم. ومن خلال قاموس اللغة نجد أنّ جذر كلمة [العصف] وهو العين والصاد والفاء، له أصل واحد، وهو الخفة السرعة. في كتاب الله وردت كلمة [عصف] ومشتقاتها في سبعة مواضع؛ ثلاثة منها بصيغة [عصف] وأربعة بصيغة [عاصف].

وصفت الرياح بأنها عاصفة أو ريح عاصف، ولا شك أنّ الرياح يمكن أن ينطبق عليها السرعة والخفة، ولكن من خلال الآية التالية سندرك بعداً آخر لكلمة [عاصف] وهي جاف، وعلى ذلك يكون العصف يصف شيئاً جافاً.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) (سورة الرحمن : آية 12).

ذهب المفسرون إلى أنّ العصف هو الشيء الجاف كذلك. من هنا يجب أن نتساءل: ما الذي جعل هذه المخلوقات تشبه الشيء الجاف المأكول؟ من خلال الآيات السابقة التي تقول إنّ الطير ترميهم بحجارة من سجيل يكتمل المعنى، فيبدو جلياً أنّ هذه المخلوقات تمت

إبادتها عن طريق قذائف من الفضاء، تسببت في جفاف أبدانهم وهلاكهم. من خلال تتبع الآيات نستطيع القول إنّ سورة الفيل تصف مشهداً حدث في التاريخ، عن انقراض مخلوقات على سطح الأرض، وكان هذا الانقراض نتيجة قذائف من السماء (نيازك) أحرقتهم، أو تم تسخين الجو بصورة جعلت أجسادهم تبدو جافة تماماً.

لدينا في التاريخ القصة المشهورة عن أشهر حادثة انقراض للكائنات أكثر من 60 بالمائة من الكائنات وقتها طالها الإنقراض، وأشهر هذه الكائنات هي بالطبع الديناصورات، والتي تبدو متطابقة مع أحداث سورة الفيل.

توجد نظريات عدة عن الانقراض الكبير، وخاصة انقراض الديناصورات، لا يزال العلم حائراً بكيفية انقراض هذه المخلوقات، وبهذه السرعة والفجائية. سورة الفيل أجابت على هذا السؤال كما يبدو لي، وريّخت نظرية هلاك هذه الكائنات؛ عن طريق طير أبابيل؛ وهي النيازك المتتابعة الساقطة على الأرض. سوف نلقي في السطور القادمة الضوء على بعض المعلومات الخاصة بالديناصورات، ثم نختم هذا الفصل بنظرية الانقراض القرآني كما أتصورها.

انقراض الديناصورات

الديناصورات حيوانات ضخمة، كانت تعيش على الأرض منذ عصور سحيقة، وهي لا شك كانت الحيوانات السائدة في هذه الأزمنة. قدّر العلماء فترة حياة الديناصورات على الأرض بحوالي 160 مليون سنة، ويعرف الجميع بل يعتبر من المسلمات أنّ الديناصورات قد اختفت بشكل مفاجئ ومحير قبل 65 مليون سنة، وإلى الآن يعتبر اختفاء الديناصورات لغزاً محيراً، وليس من السهل الإجابة القطعية حسب النظريات العلمية.

جانب ليس بالقليل من الباحثين والمهتمين بشأن هذه المخلوقات العجيبة، يميل إلى فرضية أنّ انقراض الديناصورات تمّ عن طريق اصطدام كويكب بالأرض. أياً كان السبب فإنّ النتيجة التي لا يستطيع إنكارها أحد هو أنّ جميع أنواع الديناصورات انقرضت بشكل مفاجئ، إضافة إلى أكثر من نصف أشكال الحياة على سطح الأرض اختفى تماماً.

تنتمي الديناصورات إلى فصيلة الزواحف، والتي يُعتقد أنها ظهرت على الأرض في بداية العصر الترياسي، أي قبل 230 مليون سنة، وتنوعت الديناصورات بشكل سريع حتى أصبحت هي الكائنات ذات السيادة، والأكثر تنوعاً، والأكبر ضخامة على سطح الأرض. إن دراسة التاريخ الطبيعي للديناصورات ليس بالأمر اليسير؛ بسبب صعوبة الحصول على الأحافير الخاصة بهذه الكائنات العملاقة، والتي اكتشف العلماء حتى يومنا الحالي أكثر من ألف نوع من هذه الكائنات.

إلى جانب الديناصورات عاشت أنواع أخرى من الكائنات، منها: التيروصورات؛ وهي زواحف مجنحة ضخمة التكوين، إذ كان يبلغ عرض أجنحة أنواع منها إلى ما يقارب 10 أمتار. بالإضافة إلى اليابسة كان هناك كائنات عملاقة أيضاً تعيش في البحار، من فصيلة الزواحف أيضاً، وتشبه إلى حد كبير الديناصورات، مثل: البيلزوصور؛ المشهور بالرقبة الطويلة، و الموزاصور يصل طوله إلى 17 متر، ويعتبر من أضخم المخلوقات اللاحمة التي عاشت على الأرض على مر التاريخ. مع اختفاء الديناصورات اختفت أنواع أخرى عديدة، مثل: الزواحف السمكية، والزواحف الميزية (الموزاصورات)، والبصورات، و الزواحف المجنحة (البتروصورات)، وكذلك معظم أنواع الطيور المعروفة وقتها، وأنواع كثيرة من الثدييات.

هذا الانقراض الكبير والمفاجئ يعرف في أوساط العلماء والباحثين باسم انقراض العصر الطباشيري الثلاثي، وقد حاول كثير من العلماء تفسير هذا الانقراض المحير من خلال مجموعة نظريات. أكثر هذه النظريات شهرة هي نظرية الاصطدام، التي تفترض أن كويكباً اصطدم بالأرض وقتل العديد من الكائنات في ذلك الوقت. سيظل العلم والبحث في حركة مستمرة ودؤوبة لفهم ما حدث وسبر الآفاق، سواء المكانية على مستوى الكون، أو الآفاق الزمنية في الماضي، أو حتى المستقبل. في السطور القليلة القادمة سوف نحاول التعرف على أهم النظريات التي حاولت تفسير الانقراض الكبير.

نظرية تغير المناخ

يعتقد العلماء أنّ المناخ في العصور القديمة كان مختلفاً تماماً عما هو عليه الآن. مستوى البحر في الماضي كان أعلى من المستوى الحالي، بما يقارب 200 متر، وكانت درجات الحرارة متقاربة لدرجة كبيرة؛ فقد كان الفرق بين أكبر درجة وأقل درجة مسجلة على سطح الأرض هو 25 درجة مئوية فقط، كذلك فإنّ معدلات درجات الحرارة في الغلاف الجوي كانت أعلى من معدلها الحالي بكثير. هذه التغيرات صاحبها زيادة كبيرة في نسبة ثاني أكسيد الكربون، وزيادة نسبة الأكسجين، إلى ما يقرب من 35 بالمائة.

في نهايات العصر الطباشيري تراجع معدل الثورات البركانية؛ مما أثر على انخفاض نسبة ثاني أكسيد الكربون، وبالتالي انخفضت درجة الحرارة، وتراجعت نسبة الأكسجين بشكل كبير. هذا التغير المناخي، وانخفاض نسبة الأكسجين؛ هو ما سبّب انقراض الديناصورات برأي العلماء. لم تستطع الديناصورات التكيف مع هذا المناخ، ولم تتحمل أجهزة التنفس لديها نقص الأكسجين فهلكت، وانقرضت تماماً.

نظرية الاصطدام

هذه النظرية هي الأكثر شهرة، والتي اقترحها الدكتور "والتر الفاريز"، وتنصّ على أنّ كويكباً ضخماً اصطدم بالأرض في أواخر العصر الطباشيري، وهو الذي تسبّب في فناء هذه المخلوقات. من الأدلة التي ساقها دكتور الفاريز، وتدعم نظرية الاصطدام؛ هو القول بأنّ طبقات الأرض في ذلك العصر كانت مملّة بنسبة عالية من فلز الإيريديوم، وهو فلز يوجد بغزارة في الأجسام الفضائية.

رغم الأدلة العملية على هذه الفرضية إلا أنّ العلماء ما زالوا محتارين، وغير واثقين تماماً من نظرية الاصطدام هذه، وغير قادرين على تحديد هل الديناصورات كانت تتناقص بشكل طبيعي؟ أم أنها كانت تحيا حياة طبيعية، وتتكاثر بانتظام، دون أيّ مؤشر على أنها في طريقها للانقراض؟.

رغم أنّ بعض العلماء يؤكّدون أنّ اصطدام الكويكب بالأرض قد سبب انخفاض درجة الحرارة؛ فإنّ هناك على الجانب الآخر علماء آخرون يتبنون وجهة نظر على النقيض، ويقولون إنّ اصطدام الكويكب قد رفع من درجة الحرارة بشكل كبير على سطح الأرض. انقرض الديناصورات السريع جعل العلماء يقولون: إنّ فناء هذه الكائنات تم عن طريق مباشر؛ وهو اصطدام الكويكب بالأرض، وعن طريق غير مباشر؛ وهو ارتفاع درجة الحرارة الناتجة عن الاصطدام، ثم انقرض الجزء الباقي نتيجة لانخفاض درجة الحرارة، والتي انخفضت بفعل حجب ضوء الشمس من قبل الغبار الناتج عن الارتطام.

في محاولة لفهم مصدر الكويكب الذي اصطدام بالأرض، ونتج عنه حفرة ضخمة، أطلق عليها العلماء "فوهة شيكسولوب"، وعن طريق استخدام برامج المحاكاة على جهاز الكمبيوتر؛ استنتج العلماء أنّ مصدر هذا الكويكب هو كويكب عملاق يسمى المعمداني (Baptistina) ونسبة هذا الاحتمال هو 90 بالمائة.

كويكب "المعمداني" يقع ضمن الكويكبات بين المريخ والمشتري، ويبلغ قطره حوالي 160 كيلو متر، ويفترض العلماء أنّ كويكباً آخر اصطدم بكويكب المعمداني؛ مما أدى إلى تحطّمه، وتحوّله إلى عنقودٍ كويكبي لا يزال موجوداً حتى اليوم. عن طريق المحاكاة ظهر أنّ بعضاً من أجزاء الحطام توجه إلى الأرض، وأحد هذه الأجزاء المحطمة كان نيزكاً ذا قطر 10 كيلو متر اخترق الغلاف الجوي، واصطدم بشبه جزيرة "يوكاتان" وتسبب في فوهة "شيكسولوب".

فرضية النجم الثنائي الافتراضي

هذه الفرضية من الفرضيات المثيرة للجدل، والتي تقول إنّ عبور النجم الثنائي الافتراضي "تيميسس" خلال سحابة "أورط" (سحابة أورط تحيط بالمجموعة الشمسية، وتعتبر مع حزام "كاير" المصدر الرئيسي للمذنبات في مجموعتنا الشمسية) هو ما سبّب خروج بعضها، واصطدام أحدها أو بعضها بالأرض؛ مما سبّب بالنهاية فناء وانقرض أغلب الكائنات الموجودة وقتئذ. المحصلة

النهائية لاصطدام المذنبات أدى إلى انخفاض درجة الحرارة بشكل سريع؛ وذلك سبب فناء الديناصورات.

نظرية مصائد دكن Traps Deccan

مصائد دكن هي عبارة عن تكوينات حمم بازلتية، ظهرت نتيجة ثورات بركانية كبيرة، مما شكل هضاباً وجبالاً مختلفة في أماكن متفرقة من سطح الكرة الأرضية. ويقول العلماء الذين يتبنون وجهة النظر هذه: إنّ هذه التكوينات ظهرت قبل 65 مليون سنة، وبالتالي تسببت في انقراض الديناصورات. بالرغم من أنّ الدلائل تقول: إنّ هذه التكوينات البركانية ظهرت على مدار مليون سنة؛ مما يعني أنّ انقراض الكائنات كان بشكل تدريجي، وليس بشكل مفاجئ كما تقول بذلك نظرية الاصطدام.

يقول العلماء في محاولة لتفسير عملية الانقراض من خلال نظرية مصائد الدكن: إنّ هذه التكوينات البركانية قد تكون سببت انقراض الكائنات من خلال عدة طرق، من أهمها: هو إطلاق كمية من الغازات في الجو؛ الذي سبب حجب ضوء الشمس؛ مما أثر على نمو النباتات، وحدثت مجاعة أفنت الديناصورات بعد فقدانها مصدر غذائها، ثم انقراض بعد ذلك أكلات اللحم.

من الاحتمالات التي يرحبها العلماء من خلال هذه النظرية هو أنّ النشاط البركاني غير العادي قد أدى إلى انبعاث ثاني أكسيد الكربون بكثافة؛ مما جعل الأرض تعاني احتباساً حرارياً، والذي أثر بدوره على الحياة والاتزان البيئي، و سبب الانقراض.

فرضية الفشل في التأقلم مع الظروف المتغيرة

كانت النباتات عارية البذور مثل الصنوبر هي النباتات السائدة حتى منتصف العصر الطباشيري، ثم حدث تحول لتصبح النباتات المزهرة مغطاة البذور هي السائدة. والدلائل المتحجرة تُظهر أنّ بعض أنواع الديناصورات تغذت على نباتات مغطاة البذور، بينما استمرت معظم الأنواع الأخرى في الاعتماد على النباتات عارية البذور بوصفها غذاء رئيساً.

بسبب هذا التغير البيئي يقول الباحثون المؤيدون لهذه النظرية: إنّ الديناصورات لم تستطع التكيف مع الظروف الجديدة؛ مما أدى إلى انقراضها. نظرية الانقراض والتي استطعت استنتاجها من خلال تحليل اللفظ القرآني في سورة الفيل هي : من خلال النبذة المختصرة عن النظريات التي تحاول تفسير كيفية انقراض الديناصورات، نجد أنه ما زالت عملية الانقراض لغزاً محيراً، ومن خلال سورة الفيل والتي قمنا بتحليل ألفاظها نستطيع أن نقف على الملخص التالي:

ملخص الفصل

عملية الانقراض حدثت، وأصحاب الفيل تعني أصحاب الانقراض. لم تعين السورة مخلوقاً بعينه، ولكن وصفت حالة عامة من الانقراض، وهو ما تحدثت عنه الدلائل الأحفورية من أنّ ما يقارب من 60 بالمائة من الكائنات الحية في العصور الغابرة قد حدث له انقراض. عملية الانقراض تمت عن طريق رمي أو قذف حجارة مذنبات، والرمي كان كثيفاً للغاية، ولم يكن مجرد اصطدام كويكب واحد بل وابل من القذائف بالأرض. عملية الانقراض حدثت بسرعة كبيرة جداً، وقد تكون هذه القذائف قد أصابت الكائنات بشكل مباشر، أو أنها تسببت في رفع درجات الحرارة، حتى إنّ هذه الكائنات أصبحت جافة تماماً كالعصف المأكول.

الفصل السادس إيلاف قريش

سورة قريش كثيراً ما أثارت تساؤلات في نفسي، وأهمها: ما وزن هذه القبيلة لكي تأتي سورة كاملة باسمها دوناً عن باقي القبائل رغم عدائها للدعوة الذي لا يقبل الشك؟ وهل بالفعل (قريش) في كتاب الله تعني تلك القبيلة التي يعرف كلنا أنّ النبي محمد صلوات ربي عليه قد انحدر منها. قريش التي نزعُ أنها المقصودة لم تؤمن، وحاربت الدعوة بكل قوة وتصدت للدين الجديد، ولم تدخل إلى مظلة الطاعة إلا بعد صعود نجم الدين الجديد، وأصبح عدم الانضواء تحت رايته مخاطرة لا تقوى هذه القبيلة "قريش" ولا غيرها من القبائل المتناثرة في الصحراء العربية على تحمل نتائجها.

قريش لم تساهم في نصره الدعوة بشيء، إلا نفر قليل ممن هاجروا مع رسولنا العظيم. والذين تحملوا تبعات الدعوة هم الأنصار، ولكن القريشيين جنوا ثمار كونهم من قريش بعد وفاة الرسول مباشرة، عندما صار الأمر بينهم، وظل هكذا إلى فترات قريبة. هل اسم (قريش) هو حقاً اسم القبيلة، أم أن السورة نزلت فلم يجدوا حولهم اسماً موافقاً لاسم قريش سوى هذه القبيلة، فقالوا أنها هي قريش؟

لو حاولنا تتبع الأمر وتفصي الاسم فسوف نجد صعوبة بالغة، خصوصاً بعد نزول القرآن وصبغ المسميات بصبغة القرآن.

لنا في سورة الفيل مثال على ذلك، وكيف أن لفظ (الفيل) في الفصل السابق يصف حالة انقراض، ولكن غيب المعرفة عن المجتمع وقتها جعل اسم الفيل يمثّل جنس الحيوان المعروف حالياً، ثم صارت القصة المنسوجة حوله من المسلمات.

تزداد الحيرة عندما تعلم أن اسم إبراهيم وإسماعيل لم يكونا من الأسماء الشائعة في هذه المجتمعات، رغم أن الكعبة يعود بناؤها لنبي الله إبراهيم ونبي الله إسماعيل، بل تزعم العرب -خصوصاً بعد الإسلام- أنهم أبناء إسماعيل.

قد تتعجب إذا عرفت أن هذه القبائل لم تكن معروفة باسم العرب قبل الإسلام بشكل غزير، وإنما كانت تعرف باسم أهل الوبر، كما جاء في كتاب جواد علي حسن (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام). انتشر اسم (العرب) بعد ظهور الدين الجديد واستقراره، وظهور مفردات (عرب وعربي)، فتمَّ استخدامها بكثافة، وقد أسس لها القرآن الكريم. بعض المصادر الرومانية أشارت لهذا الاسم على سبيل وصفه للمناطق المكشوفة، وليس اسم جنس، كما جاء في كتاب جواد علي حسن.

لقد اكتشفنا ذلك بسهولة عندما قمنا بتحليل لفظ (عربي)، وتأكدنا أنه لا يصف أهل هذه المجتمعات، وإنما يصف حالة كلمات القرآن، والتي تعني أنها تنوب وتفصح عن نفسها، أو أنها واضحة بل شديدة الوضوح بنفسها ولا تحتاج لعامل خارجي.

الحال نفسه لم يتغير كثيراً بالنسبة إلى هذه القبيلة، والتي من وجهة نظري أنها قد اقتبست الاسم من كتاب الله، والذي جاء من خلال سورة كاملة، هي سورة قريش. اسم (قريش) ذاته عليه علامات استفهام لا حصر لها، وكيف وجد هذا الاسم طريقه إلى هذه القبيلة، وكلها روايات جاءت بعد استقرار الدين ونزول السورة بالتأكيد. إنه نوع من تسكين المسمى على الاسم المتاح.

سبب تسمية قريش

دعونا نحاول فهم من أين جاء اسم (قريش) برأي الباحثين؟ ولماذا سميت (قريش)

قريشاً؟

يرى الباحثون أن هناك عدة أسباب للتسمية قريش بهذا الاسم، منها: أنها سميت بذلك لأن قصياً بن كلاب غلبَ على قريش، ولأنه جمع قريشاً على رحلتي الشتاء والصيف، فقد سُمي بالمجمّع. قصي بن كلاب هو الجد الأكبر لهذه القبيلة كما يزعم المؤرخون.

هناك رأي آخر يقول: إنهم كانوا يتقرشون البيعات ويشترونها فسموا قريشاً. أو أنهم سموا قريشاً لأنهم كانوا أهل تجارة وبيع، وليسوا أهل زرع وضرع، فكانوا يتقرشون المال؛ أي يجمعونه، وهذه صنعتهم وحرقتهم.

بعضهم يقول: إنهم سُموا بذلك نسبة إلى الدابة البحرية سمك القرش؛ لأنها برأيهم سيدة مخلوقات البحار، وكذلك كانت قريش سيدة قبائل العرب في الجزيرة. ذكر القلقشندي أن النضر سمي بقريش لأنه كان يوماً ما على ظهر سفينة في عرض البحر، فعرض للركاب كائنٌ بحريٌّ يسمى قريشاً، فخاف جميع الركاب إلا هو، إذ إنه رماها بسهم مسموم قاتل وأخذها معه إلى مكة.

أحمد والشافعي والقرطبي وابن هشام وابن كثير وابن عبد ربه الأندلسي وابن حجر العسقلاني والنووي والطبراني قالوا أن قريشاً سميت بهذا الاسم نسبة إلى النضر بن كنانة، وهو الملقب بقريش الأكبر.

ابن حزم وابن عبد البر ومصعب الزبيري وغيرهم قالوا: إن قريشاً سميت بذلك نسبة إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهو الملقب بقريش الأوسط.

هذا الاختلاف الواضح في سبب تسمية قريش إنما يشير إلى مبدأ عدم التأكد، ولو أضفنا عادة العرب وهي أنهم كانوا يتسمون بأسماء آبائهم، وكانت تسمى القبائل بنو فلان وبنو فلان، وحتى قاطنو مكة كانوا يسمون بنو النضر، ومنهم كنانة.

يقول جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام): إن قريشاً عرفت بهذا الاسم بعد فهر، أما قبل فهي لم تُعرف بقريش. الحقيقة: إن الجزم برأيي في هذا الموضوع

صعب للغاية؛ بسبب انعدام المصادر التي يمكن الاتكاء عليها، واستخراج دليل جازم. لكن لدينا بعض الأسئلة المشروعة، والتي نعتقد أن الإجابة عليها بشكل حيادي ربما يكشف بعض أسرار هذه السورة العظيمة:

السؤال الأول: هل كانت لهذه القبيلة رحلة واحدة في الشتاء كما يزعمون إلى الشام، ورحلة إلى اليمن؟ الإجابة: بالتأكيد لا؛ لأن التاريخ نفسه ينفي ذلك، من خلال تعرض المهاجرين والأنصار لقافلة ابن الحضرمي والتي كانت في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، وهذا التاريخ يوافق تقريباً شهر ديسمبر. كذلك تعرض المهاجرين والأنصار لقافلة أبي سفيان الشهيرة، والتي قامت بسببها معركة بدر كانت في شهر رمضان في ذات السنة الثانية للهجرة، والتي كانت موافقة لشهر مارس.

ها هما رحلتان في السنة نفسها لم يفصل بينهما سوى شهرين، فكيف يقول القرآن رحلة الشتاء والصيف، ثم نعتقد أنه يقصد رحلة التجارة لهذه القبيلة في الشتاء ورحلتها في الصيف. هل هذا يجعل التعبير هنا دقيقاً؟

لو أن المقصود هنا هو رحلات هذه القبيلة التجارية لكان المناسب القول رحلات الشتاء ورحلات الصيف، وليس تحديد رحلة واحدة!

السؤال الثاني: هل كان يعرف العرب فصول السنة؟ نعم كان يعرف العرب فصول السنة، بدليل تسميتهم لشهر ربيع بهذا الاسم؛ لأنه كان يوافق وقتها موسم التزهير في المناطق التي كان يوجد بها حدائق وقتما كانوا يستخدمون النسج وهو تثبيت الشهور القمرية بحيث لا تدور كما هي تدور اليوم.

السؤال الثالث: هل تجارة هذه القبيلة كانت تقتصر على الشتاء والصيف، أم أنها كانت كذلك في الربيع والخريف؟ لا شك أن الربيع والخريف هما الأنسب لتحركهم؛ بسبب اعتدال المناخ وخصوصاً في ظل مناخ حاد وقاسي للغاية في مكة؛ فلهاذا لم يذكر القرآن هذه المواسم إن كان المقصود رحلة التجارة والألفاظ هي ألفاظ العرب التي كانوا يستخدمونها؟

السؤال الرابع: كيف يدعي المؤرخون أن لهذه القبيلة باعاً كبيراً في التجارة، والقرآن يقول رحلة واحدة؟ فهل رحلة واحد كفيلة بأن تعطي القبيلة هذه المكانة؟ ولو كان التعبير مجازي هنا حيث عبر بالرحلة عن الرحلات المتعددة لوقعنا في معضلة المجاز والحقيقي، والتي لا ننتهجها في منهجنا ونشير دائماً إلى أن ألفاظ القرآن حقيقية ويجب أن نحاول فهمها من خلال هذا الإطار. ليس مستساغاً أنه كما غلبنا لفظ نحيله إلى المجاز بدلاً من البحث والتدقيق.

السؤال الخامس: أين ذهبت هذه التجارة بعد بزوغ فجر الإسلام والتي كان من المفترض أن تزدهر أكثر وأكثر برأي دكتور فاضل الربيعي في كتابه "إيلاف قريش"

السؤال السادس: لو أن مكة بالفعل كانت مركز تجاري معتبر لكان انبثق هذا النشاط عن نظام محاسبي وإداري معقول، فهل بالفعل سجل لنا التاريخ أي نشاط متقدم لنظام محاسبي أو إداري في مكة؟ الإجابة بالطبع لا بل إن المصادر التاريخية تشير إلى استخدام غير العرب من الفرس وغيرهم في أنظمة المحاسبة وإدارة الدولة في عهد الخلفاء بسبب عدم وجود هذه الكفاءات لديهم.

من الواضح أن القبيلة التي كانت تسكن مكة لم تكن تتبوأ أي مكانة مرموقة إلا بعد نزول القرآن، بل إن تاريخ العرب قبل الإسلام يشير إلى تكالات ومناطق ذات نفوذ كبير لقبائل أخرى، ولم تكن قريش بهذه المكانة والضحامة التي نعرفها اليوم.

لقد صنع نزول القرآن على رجل من هذه القبيلة مجدها، ولو أن مدعيًا قال أن القبيلة كانت ذات مكانة بسبب البيت، فإن العرب في ذلك الوقت وحسب المصادر التاريخية كان لديها أكثر من 20 كعبة منتشرة في منطقة شبه الجزيرة العربية. لم يحظ البيت الحرام بالترسيم والتعظيم من أغلب أهل شبه الجزيرة إلا مع نزول القرآن، وارتباطه بهذه البقعة.

السؤال المشروع هنا هل من السهل أن يلتصق اسم (قريش) بهذه القبيلة، ويصبح متداولاً بهذه الطريقة التي يكاد يكون عليها تأكيد مائة بالمائة؟ لفهم هذه المسألة لابد أن نفهم

حركة المجتمع، في ظل ثورة لم يسبق لها مثيل، مع نزول كتاب من السماء ورسول تغشاه الوحي من أهل هذه المنطقة.

المجتمع الذي نزل فيه القرآن كان مجتمعاً بسيطاً إلى أبعد الحدود، بل بإمكانك أن تقارن أبسط مجتمع في قرية أو في أي مكان ناءٍ بهذا المجتمع، وسوف تدرك أن المجتمع البسيط اليوم في أي قرية يفوق هذا المجتمع تقدماً ورقياً بفارق 1400 سنة، بدون أدنى مبالغة.

قد يعتقد بعضهم أن المجتمعات في الماضي كانت أكثر تقدماً من مجتمعات حالية، وهذا قد ينطبق على بعض المجتمعات ذات الثقل الحضاري. لكن مجتمعاً كهذه القبيلة لا يمكن أن تنطبق عليه هذه الفرضية؛ لأنه بالفعل كان مجتمعاً بسيطاً للغاية، لم يترك لنا أي علامة تدل على تقدمه، وكل ما يقال عنه صيغ بعد نزول القرآن واستتباب الأمر، وأصبح تحصيل حاصل لا أكثر.

إذا أردت فهم الأمر فابحث عن السياسية. بعد أن استقر الأمر بفعل الدين الجديد بدأت الدولة في التكوين؛ هذه الدولة الناشئة كلها من قريش فلا بد أن يكون لقريش تاريخ طويل وشرف ومجد تليق بهؤلاء الحكام، لكن الأمر ليس كذلك أبداً.

القرآن الذي نزل هو الذي أعطاهما المجد وأعطاهما الفخر ومنحها كل هذا العز، فحول الناس كل ذلك إلى استحقاق مبالغ فيه. القصص القرآني يؤكد لنا تعنت هؤلاء القوم، واضطهادهم للرسول؛ مما يدل على أنه مجتمع فقير معرفياً لأبعد الحدود، ولا يوجد فيه أي نوع من أنواع التعدد أو التقدم، بخلاف مجتمع المدينة، الذي كان فيه من التقدم والتنوع ما سمح للرسالة بالنمو والازدهار.

الإصرار على إقناعنا أن هذا المجتمع كان ذا شأن يسقط مع أول تتبع لتعاملهم مع الرسالة من خلال القرآن الكريم، وكيف أنه كان مجتمع قبيلة منغلقة وعقول متحجرة لا أكثر، حتى إن أكثرهم دخل تحت السلطة ولا أقول الإسلام بمفهومه القرآني مع فتح مكة؛ رضوخاً وليس قناعة كما يحكي التاريخ ذلك.

وصف ربنا لهذه المجتمع بالقرية هو دليل دامغ على أنه مجتمع بسيط أحادي الاتجاه، ولا يمكن لمجتمع كهذا أن يكون مركز تجاري كبير. المراكز التجارية في العالم قديماً وحديثاً لا بد لها من تنوع واختلاف وتقبل الآخر بدرجة ما وهذا لم يكن أبداً مع هذا المجتمع المغلق وخصوصاً مع تسميته بالقرية في كتاب الله. (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) (سورة محمد: آية 13).

ليس من المنطقي أبداً أن نلغي كل هذه الدلائل والإشارات التاريخية والقرآنية والمنطقية على بساطة هذه المجتمع وبدائيته ونعتقد أنه مجتمع كان له شأن كبير لأن مؤرخاً في عهد الملوك المتمون لهذه القبيلة كتب لنا هذا وأقسم على ذلك.

دعونا نضع تصوراً لما حدث، وكيف التصق اسم قريش بهذه القبيلة. إذا أدركنا أن هناك اختلافاً كبيراً حول المسميات في هذا العصر، حتى إن اسم الرسول نفسه، حوله بعض الهمهمات. هناك بعض المستشرقين يقول أن اسمه لم يكن محمداً، وإنما كان اسمه قثم، وقد سمي بهذا الاسم لأن له عمماً يكنى بهذا الاسم.

أبو بكر الصديق كان اسمه عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الله وكانت كنيته أبو بكر ويعرف حالياً، باسم أبو بكر الصديق مما يشير إلى سهولة تغيير الأسماء والألقاب في ظل غياب تام للتدوين والتسجيل. لو وضعنا الأسماء التي جاءت في القرآن، وتصف الرسول وهي أحمد ومحمد جنباً إلى جنب لأدركنا على الفور أن هذه الأسماء قد لا تكون أسماء بعينها كما يفهمها الناس، وإنما وصفاً لصاحب الاسم كما هي عادة كتاب الله. سوف نحاول فهم الفرق بين اسم أحمد واسم محمد من خلال فهم دلالة الاسم لنستطيع فهم اسم قريش والتغيير الذي قد يكون حدث له.

الفرق بين اسم أحمد واسم محمد

عندما يقول ربنا في كتابه على لسان نبيه عيسى .

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بِنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ

التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سورة الصف: آية 6).

بحسب ما نعرف أن اسم الرسول هو محمد، ولكن أن يأتي اسمه أحمد هنا فهذا لا يمكن

أن يكون اسماً كما نعتقد إذ لماذا ذكر ربنا في كتابه اسم نبيه مرة بلفظ أحمد ومرة بلفظ محمد؟
أليس هذا مدعاة للتشكيك في الكتاب وقد حدث بالفعل وأثار هذا الاختلاف كثير
من ردود الفعل لدى المستشرقين والباحثين.

تعالوا نطبق منهجنا على هذين الاسمين لكي نستوضح الفرق بينهم من كتاب الله. الأسماء

في كتاب الله أسماء حقيقية تصف خصائص وصفات الأشياء بكل دقة وهذا ما أثبتناه وقررناه
في كل مواضع سلسلة كتب تلك الأسباب. إذن الإسم يمثل حالة لها خصائص وصفات
فعندما يقول الله اسمه كذا فهذا يعني صفته كذا أو نعتة أو سمته كذا.

اسم محمد هو وصف لحالة هذا الشخص، بغض النظر أن هذا الإسم قد نعتة به أهله

أم لم ينعتة به أهله؛ لأن القرآن كما ذكرنا لا يعتد إلا بالأسماء الحقيقية. لماذا لم يعترض الناس
وقتها وقالوا إن هذا الشخص لم يسمى محمداً، أو أن اسمه ليس أحمد؟ أو لماذا لم يعترضوا على
إسم أحمد مثلاً والذي من المفترض أنه يخالف ما عرف الرسول به لو كان اسمه " محمد"؟
حتى ندرك ذلك لابد من الأخذ في الاعتبار بساطة المجتمعات وقتها حيث المسميات لدى
المجتمعات البسيطة ليست بهذه الأهمية التي نعتقد؛ وإنما أغلبها ألقاب، ويتغير اللقب مع مرور
الزمن، وهذا أمر ليس فيه غرابة لمن يتتبع المجتمعات البسيطة.

في بعض المجتمعات حتى يومنا هذا قد يولد شخص باسم معين ثم يتغير هذا الاسم إلى

لقب ويظل معه لا يفارقه، وقد تغيب هذه الحقيقة عن الكثيرين ممن حوله بعد ذلك . هذه

الحالات حالات معروفة ومشهورة في كثير من المجتمعات البسيطة الحالية، فإذا كان الحال هكذا في ظل التوثيق والتقدم المعلوماتي الهائل فما بالك بمجتمعات القديمة بل موعلة في القدم.

المبالغة في التوقعات والمثالية يسبب عدم فهم الأمور بحيادية، وينتج عنه غياب المعقولية. حتى نفهم العلاقة بين اسم أحمد واسم محمد دعونا نسبر أغوار الجذر الثلاثي (حمد) بشئ من التفصيل للوقوف على معناه.

دلالة لفظ حمد

دعونا نبدأ من خلال فهم الجذر الثنائي (حم) وهو كما جاء في قاموس اللغة له أصلان أولهما اسوداد والثاني من الحرارة . لو طبقنا منهجنا على هذا الجذر الثنائي حيث لا يمكن إن يكون للجذر أصلان مختلفان في اللغة الإلهية وإنما هو جذر واحد يمثل حالة لها خصائص وصفات، من هنا فيمكننا دمج الجذرين وفهم الخاصية و الصفة التي يحملها الجذر الثنائي .

ما علاقة الحرارة بالاسوداد وهما الأصل الأول والثاني للجذر الثنائي (حم) كما جاء في قاموس اللغة؟ لدينا في العلوم الطبيعية ظاهرة تسمى ظاهرة الجسم الأسود والتي يمكن أن تساعدنا في فهم صفات وخصائص الجذر الثنائي حم.

الجسم الأسود هو جسم افتراضي يمتص الإشعاعات التي تسقط عليه دون أن يعكس أيًا منها بشكل مثالي وعند الإنعكاس فهو يعكس الأشعة أيضا بشكل مثالي. علاقة السواد بالحرارة هي علاقة تصف توهج أو انبعاث طاقة بشكل يمكننا أن نسميه امتصاص أو انعكاس مثالي للحرارة بسبب طبيعة الجسم الأسود.

لذلك يمكننا القول أن صفات وخصائص الجذر الثنائي (حم) هو عملية استيعاب للطاقة أو عكسها بشكل ما، أو أنه تعبير يصف محتوى حراري معين. حتى لا نجرب كثيراً في سرد مصطلحات قد تبدو معقدة بعض الشيء دعونا نشرح خصائص الجذر الثنائي (حم) من خلال الآية التالية.

الآية القرآنية التالية سوف تزيد المعنى وضوحاً وتبيانياً من خلال فهم لفظ **يُحْمَى**. "يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ^ط هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَنْفُسُكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" (سورة التوبة : آية 35).

يحمى على الذهب والفضة هنا يعني تسخينها حتى تحتزن الطاقة الحرارية (زيادة المحتوى الحراري)؛ ثم إذا تركت جانبا بدأت في بث هذه الحرارة للبيئة التي حولها، أو أنها لامست جسم آخر فإنها تنقل الطاقة بشكل تلقائي من الجسم الساخن إلى الجسم البارد. هذه الصفة والخاصية الأساسية التي يحملها الجذر الثنائي (حم) يعني استيعاب الطاقة والقدرة على عكسها أو نقلها إلى جسم آخر. التوصل لفهم الجذر الثنائي قد يقودنا لفهم التعبير القرآني العظيم الذي حير وما زال يحير الكثيرين الذي وصف ربنا به الشمس في سورة الكهف بأنه تغرب في عين حمئة.

مدلول عين حمئة

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ^ق وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلِيلًا يُدَّ الْقُرَيْنِ ^ه إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) (سورة الكهف: 86).

بعد فهم الجذر الثنائي (حم) يمكننا الآن فهم مدلول كلمة عين والذي تناولناه في أكثر من موضع، ويدل على تدفق مستمر، يمكننا القول أن المقصود بـ "عين حمئة" هو أن غروب الشمس يتبعه تدفق طاقي او توهج مستمر أو انتقال طاقة مخزنة إلى وسط آخر.

ماذا يمكن أن نستفيد من هذا التعبير القرآني في وصف إحدى جولات ذي القرنين. من المعروف أنه عند غروب الشمس تبدأ الأرض في بث الحرارة التي امتصتها أثناء النهار ولولا هذه الحرارة لأصبحت درجات الحرارة منخفضة لدرجة يصعب معها الحياة بشكل سليم. عندما يؤكد القرآن على تعبير عين حمئة فهو يشير هنا إلى حالة خاصة تحتل العين الحمئة مرتبة متقدمة وأهمية معتبرة.

(تعبير عين حمئة) يشير إلى استمرار التدفق الطاقى بمعدل أكبر من المعدل الطبيعي وهذا يعني إما أن طبيعة الأرض مختلفة؛ أو أن فترة غروب الشمس فترة طويلة نسبياً مما يجعل تعبير "عين حمئة" تعبير لا يمكن إهماله أو تجاوزه.

لو سألتني عن ترجيح أحد الاحتمالين : هل طبيعة الأرض مختلفة أم أن فترة الغروب فترة طويلة سوف أرح أن فترة الغروب كانت فترة طويلة لأن التعبير القرآني ذكر الشمس والغروب والعين الحمئة مما يدفعنا للقول أن العملية كلها متعلقة بغروب الشمس وما يصاحبها. هنا من خلال المعطيات التي بين أيدينا يمكننا استنتاج أن ذي القرنين قد وصل لمنطقة تغرب فيها الشمس لمدة طويلة مثل منطقة أقطاب الأرض التي تعاني ظواهر مثل الليالي القطبية والتي تغيب فيها الشمس لفترات طويلة .

إن كانت الشمس قد غربت، فإنها تأثيرها لن يتلاشى كلياً بسبب تأثير العين الحمئة. قد تكون العين الحمئة هي التدفق المستمر للطاقة الحرارية المخزونة في الأرض أو حتى الطاقة المنعكسة من خلال طبقات الجو العليا فيما يعرف بالتناثر الضوئي والذي ينتج توهج خفيف للضوء.

لا شك أن الانبعاث الحراري في المناطق التي تغرب فيها الشمس ومدد طويلة هو أحد أهم أسباب بقاء صور الحياة في هذه المناطق. سوف نقوم بدراسة وتحليل قصة ذو القرنين بالتفصيل من خلال الكتاب الخامس حيث تحتوي هذه القصة على معلومات مذهلة عن ثروات الأرض وأحداث غاية في الأهمية سوف يأتي ذكرها بالتفصيل عندما يحين دورها. من الأشياء المذهلة أيضاً والتي ظهرت لنا من خلال تحليل لفظ (حم) ومشتقاته، التعبير القرآني "صلصال من حمٍ مسنون". لقد تم إضافة تحليل هذا التعبير القرآني الفصل الثالث الخاص بالإنسان في الطبعة الثانية للكتاب.

الآن دعونا نعود مرة أخرى للجذر الثنائي (حم) وماذا يعني الجذر الثلاثي حمد وعلاقته باسم أحمد ومحمد؟ قاموس اللغة لم يزد في وصف الحمد سوى أنه خلاف الذم. من خلال مدلول حرف الدال والذي يشير بحسب المراجع الصوتية للحروف على توقف خفيف، ومن

خلال دمج الجذر الثنائي (حم) يمكننا القول أن حمد تعني توهج مستمر وثابت فعندما يقول الله سبحانه وتعالى يسبح كل شيء بحمده.

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ

لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (سورة الإسراء : آية 44).

فإنها تعني أن كل شيء يتحرك من خلال الطاقة التي يمنحها سبحانه لهذه الأشياء.

لو أردنا أن نكون أكثر عمقاً فلن نستبعد كون الحمد ذاته هو حرفياً طاقة حرارية. الطاقة الحرارية هي بالفعل المحرك الأساسي والمشغل الرئيسي للخلايا والنظم الحية وحتى الجمادات فالمحتوى الحراري لها محور ارتكاز رئيسي لا يمكن تجاوزه. لفظ الحمد يدفعنا بشدة للقول بذلك والاعتقاد بذلك، حيث يبدو إن الطاقة الحرارية وتأثيرها أبعده مما نتخيل وتوقع كما سوف نرى مع اسم محمد ذاته.

إذا أردنا الآن فهم ما يعني لفظ أحمد الذي جاء في القرآن على لسان نبي الله عيسى سنجد أن صيغة أحمد هي صيغة مبالغة وكأن نبي الله عيسى يقول مبشراً أنه يأتي رسول من بعده اسمه أحمد ، أي يأتي رسول من بعد صفته أحمد .

كما قلنا أن الحمد نفسه يعني طاقة أو التوهج أو في هذا الحالة يمكننا أن نسميه الفيض الإلهي الذي يسبح به كل شيء أو حتى الوحي ذاته. فإذا كان عيسى عليه السلام كان مستقبل لهذا الفيض الإلهي ويقوم بنقله للناس لأنه نبي الله لا شك في ذلك فهو يبشر بنبي يأتي من بعده أكثر استقبالاً للفيض الإلهي وسوف ينقله للناس.

هذا معنى مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد أي رسول يأتي من بعدي، صفته أن يكون أكثر استقبالاً للفيض الإلهي (الوحي) وينقل هذا الفيض للناس. أحمد ليس اسماً كما نعتقد لشخص محدد وإنما صفة الرسول الذي سوف يأتي بعد نبي الله عيسى.

مثال ذلك أن تقول سوف يأتي لهذا المجتمع حاكم بعد مائة سنة، سمته أو صفته (أحسن) أو (أفضل)، فمعنى ذلك أن البشرى متعلقة بصفة وليس بشخص فعندما يأتي هذا الوعد؛ يصبح الشخص الذي انطبق عليه الوصف هو (محسن) أو (مفضل)، تبعاً لهذه الحقيقة التي نطق بها نبي الله عيسى وذكرها الله كحقيقة في كتابه. هذا هو السير الطبيعي لحالة الاسم فنبى الله عيسى بشر بني يأتي بعده صفته أحمد فلها انطبقت هذه الصفة على رسولنا العظيم كان محمداً.

نقولها بكل أريحية إن اسم (محمد) في وصف الرسول الكريم سواء كان اسمه قبل البعثة " قثم " أو اسمه محمد هو وصف حقيقي لهذا الرسول العظيم ويبدو جلياً من تحليل اللفظ أن يتعلق باستقبال الفيض الإلهي ونقله بشكل ما للناس.

حتى لا نقع في خانة تفضيل نبي على نبي بمقاييس البشر وهذا ليس لنا نقول بكل ثقة أن صيغة التفضيل هنا متعلقة بنقل مراد الله للبشر بعد تطور معقول للبشر من خلال كتاب سوف يظل محفوظ يستطيع الناس التعامل معه واستخلاص الهداية والمعرفة منه وليس تفضيل بصورة شخصية. فالحمد ذاته متعلق بالفيض الإلهي ودور هذا الفيض في هداية الناس.

من اللافت للنظر أن اسم محمد جاء في كتاب الله في أربع مواضع كلها متعلقة بالرسالة حصراً وهي كالآتي :

الآية الأولى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (سورة آل عمران: آية 144).

الآية الثانية : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) (سورة الأحزاب: آية 40).

الآية الثالثة: (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (سورة محمد: آية 2).

الآية الرابعة: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ترهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطه فأزهره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) (سورة الفتح : آية 29).

سياق الآيات يؤكد لنا أن اسم محمد حالة خاصة جدا متعلق بالرسالة والتنزيل بل نستطيع من خلال الاسم وعلاقته بالطاقة الحرارية كما رأينا أن نعطي احتمال أن التفاعل بين التنزيل وبين شخص الرسول كان أيضا تفاعل يمكن أن نصفه بانتقال ونقل الطاقة الحرارية. اسم محمد نفسه يمكننا من فهم صيغة الوحي الذي تفاعل معه وكيف كان يتلقاه والذي يبدو أنه كان تغيير في المحتوى الحراري وهذا التغيير تمت ترجمته تماما بشكل دقيق إلى كلمات تجري على لسان الرسول الكريم وهو القرآن الذي بين أيدينا.

لفظ الحمد ومعناه يجب أن يوجه أنظار الباحثين بغزارة لفهم الانتقال الحراري والتفاعل الحراري وقوانين الديناميكا الحرارية والتي له باع طويل وتأثير عظيم في كل مجالات الحياة. لا استبعد أن الوحي انخاص بالتنزيل على رسول الله محمد كان صورة من صور هذا التفاعل الحراري لما يشير إليه الاسم ويدل عليه.

لقد شغلني اسم محمد سنوات طويلة محاولاً فهم ماذا يعني الاسم وقد كتبت بعض الخواطر البسيطة حوله ولكن مع فهم الجذر الثنائي (حم) ومشتقاته انتظمت المعاني وبان

مفهوم الاسم وعلاقته بالقرآن تحديداً. صلوات ربي على هذا الإنسان العظيم الذي وصفه ربه بأنه محمداً.

سؤال مشروع يأخذنا لفهم لماذا تتغير الأسماء بشكل سريع، وهو إن كان اسم الرسول صلوات ربي عليه بالفعل (قثم) ولم يكن محمداً، فكيف ترك الناس هذا الاسم، وأصبح اسم محمد هو الاسم البارز والأشهر؟ الإجابة هي أن للرسول بشكل معروف وحسب الروايات نفسها أسماء عديدة، منها أحمد ومحمد ومحمود وطه والمصطفى والمزمل والمدثر، ولكن اسم محمد هو الاسم الأشهر على الإطلاق، وهذا هو تأثير القرآن، وليس تأثير الاسم الذي ولد به.

هذا الأمر ليس مصدر طعن أو تشكيك في شيء، غير أنه دليل على براعة اللفظ القرآني في وصف الأشياء الحقيقية، وليس تبعاً لما يصف الناس، كما نحب دائماً أن نشير. لقد أفردنا تفسيراً في وقته عن اسم زيد الوارد في القرآن، في الجزء الثاني من سلسلة تلك الأسباب، وكان كذلك صفة، وقد أشرنا لماذا جاء هكذا.

الشاهد في هذه الاستدلالات وما نرغب في قوله أن مسميات القرآن حقيقية مائة بالمائة ولا يجب أن يخدع الناس بالتاريخ القائم بالأساس على الآراء الشخصية والظروف السياسية فيسئوون فهم لفظ القرآن ويستخدمونه بطريقة تطمس معالمه ويخفي حقائقه فنكون من الظالمين.

بالقياس سنجد أن اسم (قريش) لا يمكن أن يكون بدعاً من هذه التسميات، فالاسم في القرآن يصف حالة حقيقية، وليس حالة سماها الناس، ولذلك نعتقد أنه عندما نزلت السورة نظر الناس حولهم فلم يجدوا ما ينطبق عليه لفظ (قريش)، وخصوصاً ورود الكلمة مع رب البيت، فقالوا: إن المقصود هو هذه القبيلة، واتخذت هذه القبيلة اسم قريش من القرآن وليس العكس.

لا يمكن أن تثير غرابة الاسم في النفوس شيئاً؛ لأنه لا يوجد تفسير معقول للاسم غير هذا التفسير في ذلك الوقت. لو أضفنا إلى ذلك كم من المسميات التي لا يعلم عنها الناس شيئاً

وقت نزول القرآن، وحاولوا بكل السبل فهمها من خلال البيئة المحيطة لن نجد غرابة في فهم لماذا التصق هذا الاسم بهذه القبيلة.

لا شك أن ورود اسم قريش في القرآن، واعتقاد الناس أن هذا الاسم هو اسم هذه القبيلة؛ لهو تشریف عظيم وفرصة ثمينة لا يمكن تفويتها، رغم عدا هذه القبيلة المحكم لرسول الله ودعوته، وعدم رضوخها للحق إلا تحت السلطة.

في المجتمعات البسيطة لا تحتاج إلا لبضع سنوات قليلة للغاية لتغير اسم شخص أو اسم عائلة حتى يتداوله الناس، ولن يدرك الجيل الذي يأتي بعد ذلك حدوث أي تغيير، وسوف يتعامل مع الأمر على أنه من المسلمات طالما لا يوجد ما يدعو لغير لذلك.

سورة قريش سورة هادئة يعتقد الناس أنها سورة واضحة لا تحتاج لمجهود كبير لفهمها لذلك لم تتغير أي من التساؤلات في ظل وجود تأويل مقبول و يمنح تشریفاً لهذه القبيلة بتخليد ذكرها في القرآن. لكن مع تحليل اللفظ القرآني، وفهم التعبيرات القرآنية، وطرح الأسئلة، وجدنا أنه ليس من المنطقي التسليم بذلك وكأنه حقيقة؛ وإنما الأفضل بحثه بشكل منهجي، وفهم مدلول الألفاظ في هذه السورة العظيمة.

سوف نترك للباحثين المخضرمين شأن بحث اسم قريش، وهل كان بالفعل اسم هذه القبيلة أم أن هناك شكوكاً حوله، وكيف يمكن التأكد من مصادر حيادية على صحة الاسم ونسبته إلى هذه القبيلة، ونعود لمنهجنا الذي نستخدمه في فهم اللفظ القرآني.

إننا نطرح أسئلة مشروعة لا سبيل لردّها بأسلوب خطابي وإنشائي، ونحن هنا لسنا بصدد مبارزة شعرية في سوق عكاظ؛ وإنما تحليل متريث للكلمات، وفهمها بعيداً عن كمّ المغالطات التي أساءت لفهم اللفظ القرآني، وحولته عن معناه.

كثيراً ما نشير إلى أن المعلومات سواء العلمية أو التاريخية الواردة في سلسلة كتب تلك الأسباب أو كتب منفردة ما هي إلا للاسترشاد وتوضيح الصورة وأن جل المنهج وثقله هو تحليل اللفظ القرآني بشكل منهجي وفهم الحالة التي يصفها والسياق الذي يحكيه بشكل سليم.

مدلول لفظ قريش

لنحاول فهم لفظ (قرش)، ومن ثم فهم لفظ (قريش) من خلال اللغة، ومن خلال بعض الدلالات: لفظ (قرش) كما في قاموس اللغة يعني الجمع والتكسب، ويقال: تقرشت الرماح إذا اجتمعت، ودابة البحر (سمك القرش) تسمى قرشاً؛ لأنّ لديها القدرة على الجمع والكسب بقوة.

نلاحظ أنّ لفظ (قرش) لا يعني الجمع والكسب في الحالة العادية، ولكنها حالة فيها عنف أو قوة. من ذلك تقرشت الرماح، وسمك القرش. ومن العجيب أن العامة تستخدم لفظ (قرشت) بمعنى حطمت شيئاً بقوة، وهو ما يتفق مع سمك القرش، ومع قوة اللفظ.

من هنا يمكننا القول: إنّ لفظ (قرش) يعني جمع الشيء واكتسابه بقوة شديدة، وليس كسب تجارة أبداً. لو أن هذا اللفظ يصف قبيلة فهو لا شك يصف قبيلة متوحشة، تجمع الأشياء بقوة وغلظة فيها عنف، وليس بطريق سليم صحيح معتدل.

لفظ (قريش) هو تصغير لفظ (قرش)، وكأنا أمام تصغير حالة الجمع بقوة وعنف، وتقليل كم العنف الموجود في هذه الحالة.

سوف نحاول تحليل آيات هذه السورة بشكل بسيط قدر استطاعتنا، وعلى الله قصد السبيل: لإيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (2) فليعبدوا ربّ هذا البيت (3) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (4) (سورة قريش).

الآية الأولى: (إيلاف قريش)

كثير من المفسرين عندما حاولوا فهم كيف بدأت السورة بحرف الجر قالوا: إن الجار والمجرور متعلقان بالسورة التي قبلها (سورة الفيل)؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وآمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

نتفق تماماً مع المفسرين بأن الجار والمجرور متعلقان بالسورة التي قبلها وهي سورة الفيل، ولكن الأمر لا يتعلق بالقبيلة التي نشأ وتربى فيها رسول الله؛ وإنما متعلق بحدثٍ حدث بالفعل بعد حادثة الفيل، أو الانقراض كما بينها وشرحنا مفرداتها بشكل مفصل في الفصل السابق. قريش هي الحالة أو المرحلة التي جاءت بعد الانقراض الكبير، وقلنا أن نسل الإنسان حدث له تغيرات كبيرة في هذه الفترة، بل حدث له بالفعل تغيرات جذرية كما ذكرنا في فصل الإنسان، واتبعنا آيات الخلق. لفظ (إيلاف) يشير إلى تأليف؛ أي تجميع وتسكين، فالشيء الذي يألف شيئاً آخر متوافق معه بدرجة كبيرة.

السورة تشير إلى حالة سائدة من الجمع والتكسب العنيف بدأت في الانخفاض وهي حالة قريش حيث لفظ قريش هو نفسه تصغير قرش؛ بسبب عوامل سوف نعرفها من الآية التالية. قريش هنا تمثل حالة نفور أو حالة توحش عند الكائنات أو حالة البرية الأولى تم تقليلها، ولكي يتم تقليل هذه الحالة وتأليفهم مع بعضهم جاءت رحلة الشتاء والصيف.

الآية الثانية: (إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)

هذا التعبير في غاية العجب؛ إذ جاء إيلافهم مجموعاً برحلة الشتاء والصيف. وكأن التعبير القرآني يشير إلى أن تأليف هذه الحالة المتوحشة كان بفعل رحلة الشتاء والصيف. كما ذكرنا أن المذكور هنا رحلة واحدة، وليس رحلات أو رحلتى الشتاء والصيف، كما يدعي مفسر هذه السورة. لقد تقدّم الشتاء على الصيف، وجاء لفظ (رحلة) لوصف الشتاء في البداية، فما هو الشتاء، وما هو الصيف كما جاء في القرآن؟

لفظ (الشتاء) جاء مرة واحدة في كتاب الله، وكذلك لفظ (الصيف)، فكيف يمكننا فهمها؟ كما عودنا اللفظ القرآني أنه يصف حالة محددة، ولا يصف جنساً معيناً؛ لذلك عندما حاولنا فهم الشتاء والصيف وجدنا أنهما يمثلان حالة عامة، وهي كالآتي:

لفظ (الشتاء)

الجذر الثنائي للكلمة هو (شت)، ويعني التشتت والتفرق، بينما الجذر الثلاثي هو الشين والتاء والحرف المعتل، لم يزد المعجم عن قوله أن (شتو) من الشتاء المعروف. وظيفتنا هنا أن نتساءل: لماذا سمي الشتاء شتاءً؟

بالنظر إلى الجذر الثنائي وهو التشتت والتفرق يتضح لنا أن الشتاء فيها تشتت وتفريق، ولو نظرنا إلى الشتاء وخصائصه لعلمنا على الفور أننا أمام حالة من الاضطراب والتشتت والتفرق، وهو ما يتميز به فصل الشتاء بشدة. لفظ الشتاء هنا هو حالة تنسم بالاضطراب وعدم الانتظام، ولذلك نرى أن الشتاء سمي بالشتاء لما فيه من اضطراب، مثل: رياح شديدة، وسقوط المطر، وتقلبات جوية معروفة. الحالة في القرآن تصف فترة اضطرابات حدثت بشكل حقيقي.

لفظ (الصيف)

الجذر الثنائي للصيف هو (صف) وهو يعني استواء في الشيء أو اعتدال وانتظام، وهو لا شك خلاف الاضطراب والتشتت. لا شك عندي أن الصيف سمي صيفاً بسبب هذه الخاصية المميزة، وهي استواء المناخ فيه، فليس فيه تقلبات شديدة كما يحدث في الشتاء. نعود مرة أخرى للسورة القرآنية، وما تمثله حالة الشتاء والصيف التي ذكرتها السورة. الشتاء هو فترة اضطرابات، لا شك في ذلك، أعقبها فترة اعتدال، وهاتان الفترتان هما ما سببته إيلاف حالة قريش أو تألفها، والتي كانت تميل إلى العنف والقوة أو انها كانت في حالة توحش أو حالة برية تحديداً التعبير القرآني (رحلة الشتاء) يشير إلى ذهاب الاضطرابات أو ذهاب الاضطرابات . الصيف يعني الاعتدال وهو الفترة التي جاءت بعد أن شهدت الأرض هذه الاضطرابات أو ما سماه القرآن الشتاء.

لو حاولنا قراءة هذه الحالة في مناخ علمي، وفي ضوء لفظ (الشتاء والصيف) والذي غالباً يشير إلى حالة مناخية، فإننا نستطيع القول بأن المقصود هنا هو فترة اضطرابات عنيفة حدثت، وتسببت هذه الاضطرابات في أن تنضم الكائنات وتتآلف بشكل كبير بعد أن كانت متفرقة منتشرة بشكل عشوائي.

دعونا نقرب الصورة ونرسم حدودها، أننا أمام سورة تصف حدثاً أشبه بالعصر الجليدي، وهذا العصر تسبب بشكل مباشر في أن تنضم الكائنات بعضها إلى بعض وتتألف، أو أنها تصبح أكثر تقارباً. هذا الحدث تحديداً يشير إلى بداية تكوين المجتمعات الإنسانية، بحيث تقترب الكائنات من بعضها وتتعايش؛ بسبب الظروف القاسية المحيطة بها.

لقد كانت هذه الفترة ضرورية لتأليف أو تصغير حالة القرش فصارت (قريش) تقليل حالة التوحش التي كانت سائدة. ثم جاء الصيف أو فترة الاعتدال، وجاء معه توفر مصادر الغذاء، مما منحهم الأمان، فهذا قول الله تعالى (أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). . يتبقى لنا فهم ما المقصود بالبيت؟

الآية الثالثة: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

ليس المقصود هنا هو البيت الحرام كما فسر المفسرون؛ وإنما البيت المتعلق بأحداث السورة، وهو حالة المأوى الذي أوى هؤلاء وجمعهم سوياً؛ لتكوين أول مجتمع متقارب. البيت هو مأوى هؤلاء، أو البقعة الجغرافية التي آوتهم وتجمعوا فيها، واحتموا فيها من الأخطار المحدقة بهم. السورة ترشدنا بشكل مباشر إلى أن هذا الفعل كان بتدخل إلهي مباشر؛ لغرض تأليفهم وتكوين المجتمعات.

لنا هنا ملاحظة، وهي أن التعبير القرآني (رب هذا البيت) هو تعبير مختلف، فدائماً ما يأتي تعبير (رب) مع الخلاق، ولكن هنا جاء مع (البيت)؛ مما يشير إلى أهمية هذه الحالة في تأليف المقصودين وتجميعهم، وتحويلهم إلى قريش، أو تصغير حالة البرية والتشتت التي كانت تعيشها هذه الكائنات.

الآية الرابعة: (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ)

كما قد أشرنا لهذه الآية الكريمة، وقلنا أن هذه الآية نتيجة مباشرة لما قبلها، إذ إن تأليفهم آمن لهم نوعاً من الأمن، وفترة الاعتدال المناخي آمنت لهم الغذاء المطلوب، وكان هذا بفضل الخالق الذي أرشدنا إلى ما حدث من خلال هذه السورة.

السورة تحكي قصة غيبية ما كنا عليها شهوداً، ولكن اللفظ القرآني بشكل من التريث والتتبع قصها في صورة من صور البلاغة الربانية، التي يعجز عن وصفها بهذه الدقة بشر. بالنهاية يمكننا تلخيص ما قصته السورة العظيمة في بضع نقاط للاستفادة منها:

ملخص الفصل السورة تحكي عن حالة عنيفة كانت سائدة في زمن ما. هذه الحالة يمكن أن نسميها حالة برية بدائية للغاية (يمكن وصفها بلفظ قرش). كان لزاماً أن يتم تقريب هذه المخلوقات المنتشرة وتأليف بعضها البعض عن طريق تدخل إلهي؛ لتقليل حالة البرية والنفور وتصبح قريش .

حدث فترة اضطرابات مناخية أدت إلى تجميع وتأليف الكائنات المقصودة في بقعة جغرافية معينة، بسبب قسوة الحياة في البقع الجغرافية الأخرى. بعد أن حدث التأليف والتجميع جاءت فترة اعتدال، وجاء معها توافر الغذاء، ونتج عن ذلك مجتمع أكثر أمناً وأقل توحشاً.

الكائنات المقصودة هنا هي الإنسان في بدايته، كما تطرقنا لهذا الأمر في الفصول السابقة. بهذا الفصل تكون العلاقة بين سورة الفيل وسورة قريش قد اكتملت، وقد رسمت صورة رائعة عن مشاهد في التاريخ الطبيعي، لا يستطيع الإخبار عنها بدقة إلا الخالق. نحن الآن في انتظار أن ينتبه الناس لما في أيديهم، وأن ينتبه الباحثون إلى ما فاتهم من معرفة؛ بسبب عدم قراءة اللفظ القرآني بشكل علمي ومنهجي، واتكأهم على مجتمعات بدائية، وكأن هذه المجتمعات لها الحظوة والعهد، مما عطل فهم كتاب الله وإعمال العقل في كلماته وتعبيراته. السؤال الأكثر خطورة: هل كان الرسول لا يعرف ذلك؟ هل كان يعلم أن اسم قريش لا ينطبق على اسم القبيلة التي ينتمي إليها؟

لا شك عندي أن الرسول لم يكن يعرف ذلك؛ لأنه ببساطة ليس حكماً على تطور البشرية، وإنما هو مبلغ ما أرسل به. مسألة أن يعرف الرسول تأويل القرآن ينهي كون القرآن قرآناً؛ إذ يصبح بعد التأويل القطعي غير قابل للقراءة مرة أخرى، وهذا ما ينفية مسمى القرآن ذاته.

الرسول تفاعل مع النص الإلهي دون تقصير ولكن تفاعله مرتبط بمعارف عصره ولكنه في نفس الوقت بلغ ما أنزل إليه من ربه دون زيادة أو نقص وهذا التبليغ جاء من خارج إطاره المعرفي.

سوف يبقى هكذا القرآن يفيض بمعلومات ويكشف لنا الكثير لأنه بالطبع يحتوي على كثير من الأمور التي جاءت من خارج إطاره المعرفي ولا تحتاج سوى جهد مخلص في سبر أغوارها . البحث الحقيقي هو ما سوف ينقل الأمور الغيبية إلى حقائق نستفيد منها في إدارة وفهم هذا الكون كما يريد خالقه.

الفصل السابع أحسن القصص

قد تستطيع نظرية التطور تفسير كيف تعامل العقل مع حاجاته الأساسية، مثل: الغذاء، والدفاع عن نفسه، ولكنها بالتأكيد لن تستطيع تفسير كيف تعامل عقلُ فيثاغورث مع قوانين الهندسة، أو عقل أينشتاين مع القوانين الفيزيائية. الوحيد القادر على تفسير الرقي العقلي الذي وصلت إليه البشرية، وما تبعه من تطور أخلاقي أو قل إذا شئت التطور المعرفي، هو فهم طبيعة المعرفة، ومن ثم كيف تطورت، وفهم مصادرها وحدودها.

سوف نتناول في الفصول القادمة نظرية المعرفة من خلال كتاب الله، مع توضيح بعض الأمثلة التي يزخر بها القرآن. كذلك سوف نتناول أهم محطات التطور المعرفي في تاريخ البشري من خلال سبر أغوار القصص القرآني وفهم التعبيرات القرآنية ومدلولاتها.

،حكي كتاب الله عن هذه القدرات و علاقتها بالمعرفة في أكثر من موضع؛ عندما أشار إلى تطور السمع والأبصار والأفئدة، وهي الحواس الرئيسة المطلوبة لتكوين معرفة سليمة. أضف إلى هذه الحواس الثلاث حواساً أخرى، مثل: الشم والتذوق والإحساس الخارجي، والتي تعتبر حواساً مساعدةً في التعرف على الأشياء.

في حياة الإنسان اليومية يسمع أصواتاً، ويرى صوراً مختلفة، ويكون شعوراً نحو أمور عديدة يمر بها، ومن خلال هذه الأنشطة يتكون لدى الإنسان ما يسمى المعرفة الذاتية. البشرية كذلك في تطورها بصفة عامة مرّت بتجارب عديدة، وانتقلت هذه التجارب، وتراكت جيلاً بعد جيل؛ لتكون المعرفة البشرية الكلية.

معرفتي أنّ النار قادرة على طهو الطعام، وأنّ السيارة وسيلة مواصلات، وأنّ حاصل ضرب 3 في 6 هو 18، وأنّ الأرض كروية الشكل، وأنّ مجموع زوايا المثلث يساوي 180 درجة؛ كلها معارف نتيجة تجارب وخبراتٍ سابقة.

كل الحقائق والمعلومات المتاحة تعتبر جزءاً مما نعرف سوياً، وهي التي تشكّل المعرفة بصفة عامة، ولكنّ السؤال هنا: ما الذي جعلني أقول إنّ السيارة وسيلة مواصلات أو إن لون اللبن أبيض؟ أو إنّ حاصل ضرب 3 في 6 هو 18، أو بمعنى أدق: ما التفاعل الذي حدث بداخلي جعلني أعرف؟ هذا التساؤل يقودنا مباشرة لنسأل سؤالاً آخر، وهو: ما هي طبيعة المعرفة؟

طبيعة المعرفة

بعض الفلاسفة يعتقدون أنّ المعرفة هي صورة للواقع، فإذا رأيتُ مثلاً تلك الأداة في يدي، والتي يستخدمها الناس في الكتابة، أقول إنّ هذا قلم، وإذا رأيتُ ذلك النبات المثمر أستطيع أن أقول إنّ هذه شجرة.

فهذه المعرفة المستمدة من الحواس تعتمد على قوة الملاحظة بالأساس، وكلها كانت الحواس قويةً كان التعرف على الأشياء دقيقاً. قوة الملاحظة هذه بدأت مع الإنسان قبل أن يستطيع التعبير عن أفكاره، مثلُ الطفل الصغير الذي يشدّ انتباهه كل ما حوله، ويحاول التعرف عليه، مرةً من خلال أصوات هذه الأشياء، ومرةً أخرى من خلال اللون، أو من خلال اللمس، أو التذوق.

إذا كانت المعرفة هي صورة للواقع، فلا بد لهذه المعرفة أن تتبلور في شكل تعبير معين، ومن هنا جاءت اللغة لكي تعبّر عن الأفكار؛ فعندما أسمع لفظ شجرة فسوف يتبادر إلى ذهني الصورة النمطية لذلك النبات الضخم، وعندما أقول شجرة مثمرة سوف تزداد تفاصيل الصورة، وعندما أقول شجرة مثمرة ضخمة فنحن أمام تفاصيل أكثر دقة.

هذا التعبير عن المسمى هو التحول شديد الأهمية، والذي ذكرناه من قبل في تطور معارف الإنسان، عندما ذكر القرآن أنّ علم الأسماء الذي حازه آدم كان يتدخل مباشر من الخالق؛ إذ عندما حمل آدم البرنامج الإلهي الذي جعله قادراً على التسمية انتقلت المعرفة من مجرد صورة للواقع إلى التعبير عن هذا الواقع.

اللغة هي الركن الأساسي الذي بفضلها تراكت المعرفة وانتقلت بين الناس. دون لغة لا وجود للتراكم المعرفي، وبالتالي لا وجود للأفكار، وعليه لا يمكن أبداً إنتاج أي حضارة. المذاهب الفلسفية حاولت تفسير المعرفة، وهل هي تصور ذهني عن الأشياء كما تقول الواقعية الساذجة. أم أنّ الواقع هو مصدر المعلومات، والمعرفة محصلة تفاعل الصورة الواقعية للأشياء مع أفكارنا نحن عن هذا الواقع. سوف نحاول عرض الفكرة بشكل بسيط دون الغوص في جدل فلسفي، و سأعرض وجهة نظري عن المعرفة من خلال دراسة اللفظ القرآني وتحليله. يمكنني تقسيم المعرفة إلى نوعين رئيسين، وهما: معرفة الأشياء المادية (معرفة المجسّدات)، ومعرفة الأشياء غير المادية (معرفة المجردات).

النوع الأول: معرفة المجسّدات

معرفة الأشياء المادية هي صورة ذهنية للواقع، بحيث إذا رأيت سيارة أستطيع أن أقول هذه سيارة، ويستطيع كل من يراها أن يقول هذه سيارة. هذا المعرفة انتقلت لنا من خلال رسم صورة ذهنية عن السيارة، ومن ثم التعبير عنها بلفظ [سيارة]؛ ومن هنا نستطيع القول إنّ طبيعة المعرفة هي صورة للواقع عندما نحاول التعبير عن الأشياء الملموسة. مثال: كروية الأرض، والتي ثبت أنها كروية الشكل سواء بالحسابات أو بالمشاهدات العلمية والأدلة المختلفة. إذا سمعت شخصاً يقول لك: إنّ الأرض مسطحة؛ فهذا دليل عجز معرفي واضح، ولا يعتبر كلامه معرفة، بل يوضع في خانة الهذيان، وإذا قال شخص: إنّ المسافة بيننا وبين الشمس هي 100 ألف كيلو متر، بينما استطاع الإنسان أن يصل إلى أبعد من ذلك بكثير، فهنا لا يُعدُّ معرفة؛ لأنه غير مطابق للواقع.

المعرفة عن الأشياء المادية هي صورة ذهنية مطابقة للواقع، وأيُّ شذوذ معرفي عن هذه الصورة لا يُعدُّ معرفة؛ بل هو عجز معرفي لدى صاحبه غير القادر على التفريق بين معرفة الأشياء المادية وغير المادية.

هذه المعرفة المادية البسيطة نرى مظاهرها في بداية حقبة البشرية؛ حين حاول الإنسان التعرف على ما حوله؛ من خلال فكرة التجسيد، وفي هذه المرحلة من مراحل البشرية كان الإنسان غير قادر تماماً على فهم المعاني المجردة، مثل: الطاعة والمعصية والعبادة، وحتى مفهوم الخالق، ناهيك عن تعبيرات حديثة، مثل: الحرية وحق التعبير والمساواة.

النوع الثاني: معرفة المجردات

في هذا النوع من المعرفة يحاول الإنسان تكوين صورته الذهنية عن الأفكار الواقعية، وهذه الصورة الذهنية قد تكون مقاربة للواقع، وقد تكون بعيدة عنه، وهذا النوع من المعرفة هو نوع راقٍ جداً؛ إذ إنه تفاعل داخلي بين علاقات عديدة داخل الإنسان.

قدرة الإنسان على تصوّر فكرة لا مادية مثل: الحرية أو الوطنية أو التدين أو المساواة، ليست بالشيء الهين أبداً؛ فحتى يستطيع الإنسان بناء معرفة عن فكرة غير ملموسة فهو يستعين بخبرات سابقة، ومعارف متعددة، وحاجات نفسية، تتداخل جميعها لكي تعطي بالنهاية معرفة هذا الشخص عن هذه الفكرة.

قدرة الإنسان على فهم الأفكار غير المادية هي ما نسميه: القدرة على فهم المعاني المجردة، وأشهر مثال هو فكرة الإله؛ فهل الناس متفقون جميعاً على فكرة الإله؟ طبعاً التصور الذهني للإله يختلف، لا أقول باختلاف الأمم، بل باختلاف فرد عن فرد.

لن أكون مبالغاً إذا قلت إنَّ تصوّر كل إنسان عن الإله يختلف عن تصور أي إنسان آخر من نفس العقيدة ونفس المذهب؛ فالمعرفة المجردة هي تفاعل داخلي، وتجربة خاصة جداً بالشخص ذاته، ولا يمكن تطابقها بنسبة مائة بالمائة مع شخص آخر، وهذا الاختلاف عبّر عنه الكتاب الكريم في سورة هود:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۗ

وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)) (سورة هود : آيات 118 - 119).

الاختلاف قادم بالأساس من معرفة الأشياء المجردة؛ إذ لا يكون خلاف في معرفة الأشياء المادية إلا بين عاقل وغير عاقل، بينما الاختلاف بين الناس على أساس المعاني المجردة هو اختلاف قائم وله ما يسوغه.

سوف نلاحظ أن كتاب الله قصّ علينا قصصاً ومشاهد قرآنية، تحكي لنا هذه الأنواع المختلفة من المعرفة؛ فقد بدأت البشرية عن طريق المعرفة المادية، ثم أخذت في التطور شيئاً فشيئاً، حتى وصلت لأول سلم المعرفة المجردة على يد نبي الله إبراهيم.

إذا كان التطور البيولوجي هو الذي أنتج هذا الإنسان الراقى بكل وظائفه الفسيولوجية، ووضعه على قمة هرم الكائنات الحية تطوراً؛ فإن وظيفة التطور المعرفي هي نقل الإنسان من مجرد كائن من ضمن الكائنات الحية إلى مسؤول ومكلف بحماية نفسه أولاً، ثم مكونات الكون المحيطة به.

التطور المعرفي هو ما سوف يتيح للإنسان الانسجام مع مكونات الكون، وتجنب الشذوذ الذي قد يؤدي إلى كوارث على كل المستويات. التطور المعرفي هو ما سوف يتيح للإنسان صيانة التطور البيولوجي وحمايته، وهو ما سوف ينتج عنه التطور الأخلاقي. كلما استطاع الإنسان فهم المعاني المجردة وبالتالي فهم حقيقة الوجود بقدر معين كلما نزع إلى التعايش والانسجام مع غيره.

قد يرى اللاديني أن مسألة التطور البيولوجي أو المعرفي دليل دامغ على أن الكون أزلي الوجود، وأن كل شيء يسير حسب التطور؛ مما ينفي وجود إله بالأساس، لكننا نرى أن التطور هو من ضمن التقديرات والقوانين التي أخبر عنها ربنا في كتابه، والتي تُخبر عن نفسها مع كل مشهد قرآني، كما نرى أن يد الله واضحة شديدة الوضوح في تحفيز هذا الكائن العجيب للتطور، وعندما تعجز حيلة هذا المخلوق نجد التدخلات الإلهية تعلن عن نفسها من خلال هذا الكتاب العظيم.

اللاذنيين يقفون حائرين أمام كثير من التحولات التي حدثت في تاريخ هذا الكون، سواء على المستوى المادي، مثل تحول المخلوق الأقل رقياً إلى إنسان، أو على المستوى غير المادي، مثل نشأة اللغة، أو نشأة الكتابة، أو الانتقال من المعرفة المادية عن طريق التجسيد إلى المعرفة غير المادية عن طريق التجريد.

هذه التحولات العظيمة لدينا أدلة عليها من خلال كتاب الله، حتى إن إرسال الأنبياء يبدو لنا أنه كان مرتبطاً بتلك التحولات العظيمة.

رغم اعتقاد الفلاسفة أنه لا دليل عقلياً على وجود إله، وأن الدين لا يمكن منطقتة، نرى كتاب الله يفيض بالنظريات والأخبار التي تخبر عن الخالق، من خلال وصف التطورات التي طرأت على البشرية بشكل مذهل ودقيق.

لا شك أن القرآن الكريم ممتلئٌ بالمعرفة، والتي مصدرها الخالق سبحانه وتعالى، ولكي تكون المعرفة ذات قيمة لا بد أن يتم التعبير عنها بشكل حقيقي يصفها بكل دقة. لذلك نقول، ولدينا يقين يصل إلى السماء: إن اللغة التي تعبر عن هذه المعرفة لا بد أن تكون لغة خاصة، وألفاظها ألفاظ تعبر عن حالات حقيقية، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة من صنع البشر؛ لأن اللغة البشرية مهما أوتيت من قوة وبيان سوف تعجز عن التعبير عن حقيقة الأشياء، وخصوصاً الأشياء التي ليست في متناول الإنسان، والتي لا يعرف عنها شيئاً.

لماذا يجب أن نولي اهتماماً زائداً بهذا الكتاب الإلهي؟ ولماذا نُصر على إيجاد منهجٍ علمي سليم لفهم كل لفظ فيه؟

الإجابة: لأن طبيعة المعرفة في هذا الكتاب الإلهي هي معرفةٌ صورةٌ طبق الأصل من الحقيقة، بخلاف طبيعة المعرفة البشرية، والتي هي في الجمل تصورٌ ذهنيٌّ عن الواقع. إننا أمام معرفة حقيقية تم التعبير عنها بشكل حقيقي، ومع ذلك لم تلق اهتماماً بحثياً يليق بها، وتم إسناد فهمها لتصورات قاصرة بشكل بائس.

مصدر المعرفة

ما هي مصادر المعرفة؟

بينما يقول التجريبيون إنَّ مصدر المعرفة هو الخبرات الحسية الناتجة من الحواس، ويقول الواقعيون إنَّ المعرفة أساسها العقل، أو بمعنى أدقَّ إدراك العقل، نجد أنَّ النقيدين يعتقدون أنَّ المعرفة مصدرها الخبرات الحسية والمبادئ العقلية.

أُتفقُ تماماً مع النقيدين في أنَّ المعرفة تُتمُّ عن طريق الحواس أولاً، ثم يقوم العقل بمعالجة المدخلات، ومن ثم تنتج المعرفة. تطور الحواس لدى الإنسان أهله لالتقاط الصورة بشكل أفضل، ومن ثم نقلها للعقل، والذي بدوره يحاول معالجتها لاستنباط شيء مفيد.

المعرفة في البداية كانت بسيطة جداً، تقتصر على الحاجات الأساسية؛ كما سوف نرى في مسألة دفن ابن آدم لأخيه عندما قتله، ثم شيئاً فشيئاً ومن خلال تراكم المعلومات ازدادت قدرات العقل على المعالجة، حتى وصل لمرحلة متطورة جداً.

لكي يستطيع العقل القيام بوظيفته في إنتاج معرفة اعتماداً على الحواس، لا بد أن يكون لديه برنامج مُعدُّ يستطيع من خلاله القياس، وهذا البرنامج يعمل بمنزلة قاعدة بيانات، والذي أميل لتسميته بالفطرة. يبدو من تتبع الفطرة لدى الإنسان منذ ولادته، وحتى بلوغه أرزل العمر؛ أنها متغيرة فهي تنمو معه، وتزداد فطرته بزيادة معرفته، فتكون في بدايتها بسيطة للغاية من حيث اقتصرها على الحاجات الأساسية للإنسان، مثل: الغذاء والحاجة للأمان، ومع تقدُّم البشرية تزداد الحاجات بزوغاً وتطوراً، وبالتالي نشوء أفكار جديدة باستمرار.

لفظ [فطرة] الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه هو في حد ذاته يصف حالة من الانشقاق، حيث جاء في مقاييس اللغة أنَّ جذر كلمة [فطر] تعني فَتَحَ الشيء وإبرازه.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة الروم: آية 30).

يبدو أن الفطرة هي الحاجات المشروعة التي تنبثق داخلياً، وهي أحد الأركان الأساسية في تكوين المعرفة، وهي على ذلك تنمو بزيادة المعرفة. سوف نعرف كيف يمكن أن تتحول الحاجات المشروعة إلى شر، من خلال نظرية الشر، التي سجلتها لنا سورة الفلق في هذا الجزء. ها نحن نضع أيدينا على المصدر الأول للمعرفة وهو الحاجة الداخلية للإنسان، أو ما أميل لتسميته بالفطرة.

المصدر الثاني من مصادر تكوين المعرفة هو الأفكار الخارجية، والتي غالباً ما تتم بالمحاكاة، إذ تنتقل هذه الأفكار عن طريق تسجيلها بالحواس إلى العقل.

عندما تنبثق حاجة داخلية لدى الإنسان، ولتكن الحاجة إلى الغذاء، مثلاً يعبر عن الحاجة البسيطة في بداية البشرية، سوف تتكون لدى هذا الإنسان رغبة في الحصول على الغذاء بطريقة ما، ومن هنا فسوف يحاول تلبية هذه الرغبة عن طريق فكرة خارجية.

لنضرب مثلاً بسيطاً على هذه الجزئية:

حاجة الإنسان الداخلية للطعام سوف تدفعه للبحث عن وسيلة للحصول عن هذا الطعام، وهكذا عندما يرى هذا الإنسان كيف للحيوان المفترس المسلح بأنياب ومخالب القبض على فريسته، سوف يدفعه عقله لمحاولة محاكاة عملية الصيد هذه، عن طريق صنع أداة تشبه مخالب وأنياب هذا الحيوان المفترس، حتى يستطيع القبض على صيده.

صنع أداة للصيد عن طريق محاكاة الطبيعة هي معرفة جاءت نتيجة لحاجة داخلية وفكرة خارجية، وعن طريق تفاعلهم في العقل أنتج الإنسان معرفة أداة الصيد في هذا المثال. مع مرور الوقت سوف تتراكم المعارف، وتضيف للعقل رصيماً جديداً من الأفكار التي سوف يستخدمها في إنتاج معرفة جديدة. تمثل المعرفة متوالية هندسية؛ فكلها زادت معارف الإنسان استطاع العقل معالجة الأمور بشكل أكثر كفاءة، واستطاع مضاعفة معارفه بشكل مستمر.

القدرة على فرز الأفكار الخارجية والاستفادة منها هي ما عبر عنها ربنا في كتابه بالتعليم بالقلم، وكما قد شرحنا في الجزء الثاني من الكتاب ما هو القلم، والذي يعني ترتيب وتهذيب الأشياء لاستخراج شيء مفيد، وطريقة القلم في التعليم تشمل القياس والمقارنة؛ إذ لا يمكن أن يستخرج الإنسان معلومة مفيدة أو نتيجة صحيحة إلا إذا امتلك قدرة ما على القياس والمقارنة، والتي تبدو أنها وظيفة رئيسة للعقل، تتطور بتراكم المعارف.

السؤال الآن: هل معرفة الإنسان معرفةً محدودة أم أنها معرفة غير محدودة؟

العقليون والتجريبيون يرون أن المعرفة ممكنة، وليس لها حدود تقف عندها، بينما يرى النقيديون أن المعرفة ممكنة بشرط أن حدودها تقف عند الخبرة الحسية للإنسان؛ فلا يستطيع الإنسان أن يعرف ما لا يستطيع إدراكه بالحواس. أما بعض الفلاسفة معتني مبدأ الشك، فيعتقدون أنه من المستحيل أن يعرف الإنسان حقيقة العالم الذي يعيش فيه معرفةً يقينيةً. لو حاولنا فهم إمكانية المعرفة من خلال كتاب الله سنجد أنها ممكنة، ومستمرة بشرط التسلسل؛ كما جاء في سورة الرحمن:

ج
(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمَ أَنْ تَتَفَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُدُوا لَا تَتَفَدُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (سورة الرحمن: آية 33).

فعل [سلط] له أصل واحد وهو القوة والقهر، وذلك يعني أن المعرفة مشروطة بالقدرة، والقدرة مرتبطة بالحواس إذ لا وجود للقدرة خارج إدراك الحواس؛ مما يجعل وجهة نظر النقيدين جديرة بالاعتبار، وتتوافق مع المفهوم القرآني عن إمكانية المعرفة وحدودها.

في الفصل الأول من الجزء الأول من كتاب تلك الأسباب حاول الإجابة على سؤال: هل يستطيع الإنسان التحكم في البراكين والزلازل؟ من خلال فهم الآية القرآنية التي تشير إلى ظن الناس القدرة على الأرض، واستطعنا تحليل كلمة القدرة، وقلنا إن التحكم ليس مستبعداً، ولكن الكارثة هي قطع الاتصال بين العبد وخالقه، وظنه أنه فعل ذلك منفرداً.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة يونس: الآية 24).

إنَّ قدرة الإنسان على شيءٍ ما تعني أنه على وعيٍ تامٍ بهذا الشيء، وأداة هذا الوعي هي الحواس. السمع والبصر والفؤاد هي الحواس الرئيسية التي أهلت الإنسان للإدراك والوعي، وسوف تمنحه معرفةً مستمرةً ولا شك.

تعطلُّ الحواس أو حاسةٍ واحدةٍ كفيفيل باضطراب المعرفة، وأعظم الحواس المؤثرة في المعرفة -من وجهة نظري- هي حاسة الفؤاد؛ فإذا تعطلَّ الفؤاد، أو بمعنى أدق؛ انقطع التواصل بشكلٍ ما بين المخلوق والمخلوق، وبينه وبين الكون، على مستوى العلاقات غير المرئية؛ فإنَّ ذلك إيذانٌ بانهيار معرفة الإنسان، أو على أقلِّ تقدير توقّفها عند ذلك الحد، ويصبح بقاء الإنسان دون فائدة ترجى.

يبدو أنَّ وجودنا في هذا الكون مرتبطٌ بالمعرفة وتطورها باستمرار، وعندما يتوقف الإنسان عن المعرفة فهو إعلان النهاية لوجوده، وأنه لم يعد صالحاً لعمارة هذا الكون.

إنه القانون والسنن الإلهية، والتي يمكن أن نلاحظها في الأمم؛ كيف تقوم وكيف تتلاشى. ليس هناك عامل فناء أشدُّ خطراً وفتكاً بالأمة من توقف المعرفة؛ فعندما تصل الأمم لمرحلة من الترف، وتهمل المعرفة؛ بسبب خلل في الإدراك والوعي، وتعطلُّ حواسها، تكون بذلك قد خطت نهايتها وهلاكها.

يستطيع الإنسان تكوين معرفة معقولة كلما كانت الأشياء قريبة منه وتحت سيطرته، ولكنَّ الأجزاء البعيدة من الكون يبدو دائماً أنَّ معرفته بها ناقصة. من خلال فهم الطريقة

التي يتكوّن منها الكون، والعلاقات بين مكوناته، وباستخدام مفهوم التكامل الرياضي، يمكننا زيادة جرعة المعرفة عن هذا الكون بشكل مميز.

كيف يمكننا فهم الأجزاء البعيدة عنا في الكون، والتي لا نستطيع الوصول إليها بسهولة، أو يصعب إدراكها بالوسائل المتاحة؟ ما نحتاجه هو فهم الطبقات أو الدورات التي يتكون منها الكون، إذ يبدو أنّ الكون مركّب تركيباً طبقيّاً، وكلُّ دورتين متقابلتين يحملان نفس الخصائص تقريباً، وعن طريق دراسة مستفيضة على الدّورة التي نستطيع حواسنا إدراكها، نستطيع الحصول على معلومات بقدرٍ ما عن الدّورة التي غابت عنّا.

قد يكون هذا التركيب وهذا التطابق بين كل حلقتين أو دورتين أحد أشكال قانون الزوجية في الكون، والذي نصّ عليه الذّكر الحكيم عندما قال:

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة الذاريات: الآية 49).

عملية التطابق والتكامل هذه اعتبرها أحد الطرق لفهم لهذا الكون المترامي الأطراف، سواء على مستوى المكان؛ حيث التمدد المستمر في أقطاره، أو على مستوى الزمان؛ حيث الماضي السحيق والمستقبل البعيد.

حتى نستطيع فهم ما تعنيه الدورات أو الطبقات التي يتكون منها الكون، ننظر إلى بنية الذرة وتركيبها، سنجد أنّها تتشابه إلى حدٍ كبير مع الحلقة أو الدورة التي تصف بنية الأفلاك والنظام الشمسي بدرجة ما.

تطور الجنين على المستوى البيولوجي منذ اللحظة الأولى وحتى خروجه طفلاً هي حلقة من حلقات هذا الكون، والتي تبدو متطابقة ومتشابهة مع حلقة التطور الكلي للبشرية منذ اللحظة الأولى للحياة على الأرض، وحتى لحظة شيخوختها.

التطور المعرفي للبشرية منذ أن تعلّم آدم التعبير عن أفكاره باللغة، وحتى مراحل نضجها المعرفي، هو أيضاً إحدى هذه الحلقات، والتي تتطابق وتتشابه بشكلٍ لا مثيل له مع التطور

المعرفي للطفل الصغير، منذ لحظة ولادته وحتى مرحلة نضجه المعرفي، وصولاً إلى مرحلة أرذل العمر.

مرحلة العناية الإلهية والتدخلات الغزيرة المباشرة في بداية التاريخ الإنساني هي حلقة تتطابق أو تتشابه مع الحلقة الصغرى، والتي يمثّلها الأبوان في رعاية طفلهما الصغير منذ لحظاته الأولى وحتى بلوغه سن الرشد، ليصبح بعدها قادراً على تحمل المسؤولية.

إنّ تحديد الحلقات التي يتكون منها الكون، ومن ثمّ فهم العلاقة بين هذه الحلقات؛ سوف يمنحنا فرصةً ثمينةً لفهم ما لا يمكن فهمه بسهولة، وبذلك تخطو البشرية خطواتٍ واسعةً في التطور المعرفي.

الرسول والأنبياء هم محطات هامة في التطور المعرفي للبشرية، ولديهم رسالة محددة يؤدونها إلى الناس في أوقات معينة من عمر هذه البشرية، وهم شهداء على المجتمعات في عصورهم، فإذا توفاهم الله لم يبق للناس إلا الرسالة التي جاءوا بها.

المقصود بالرسالة هي تلك التعليمات المحددة التي تضمّنها الكتاب السماوي الذي نزل من عند الله، ولا يمكن ضمُّ هذا الكتاب مع أقوال بشرية؛ بسبب طبيعة الكتاب الإلهي الذي يحمل الحقيقة المطلقة، والتي تختلف تمام الاختلاف عن الكتب البشرية القائمة على المعارف البشرية النسبية.

اللفظ الإلهي يحمل الحقيقة المطلقة، وعلى الناس التفاعل معه بقدر ما أتاهم الله من فضله، بينما اللفظ البشري هو لفظٌ يحمل معارف صاحبه وتصوره الذهني عن الحقيقة، لذلك فالاعتقاد بأنّ هناك أيّ نصٍ مساوٍ للنصّ الإلهي هو اعتقاد أقرب للشرك منه للإيمان، وقولٌ من لا يُقدّر الله حقَّ قدره.

لقد اختلط الأمر على الناس؛ بسبب عدم إدراكهم لمفهوم التطور البشريّ بشقيّه البيولوجي والمعرفي، وجعلوا وظيفة الأنبياء التشريع مع الله بحجة أنّ كلامهم هو كلام رب

العالمين، رغم الإشارات المتعددة في كتاب الله إلى أن كلام رب العالمين هو الذي تعهد بحفظه وبلغه رُسله وأنبيائه، وأن الأنبياء فيما دون ذلك يتفاعلون مع النصّ الإلهي ويتفاعلون مع مجتمعاتهم.

كلما تقدّم الزمن تطورت وتراكت معارف الإنسان، ولا بد أن يؤثر هذا التطور في مسيرة الإنسان وتعامله مع الكون من حوله. لذلك نجد إرسال الرُّسل تترأً، فكلُّ رسول يأتي بشريعة تنسخ الشريعة السابقة إمّا تخفيفاً أو توجيهاً، ومسألة التطور المعرفي للأمم نستطيع ملاحظتها من خلال تعامل أقوام الأنبياء مع أنبيائهم وكيف تلقوا الرسالة.

من خلال مقارنة سريعة بين عصر نبي الله نوح، ورسول الله محمد صلوات ربي عليهم جميعاً، نجد أن نبي الله نوحاً ظلّ يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً لم يتبعه إلا القليل، ولم يزد عدد الأتباع عن ثمانين شخصاً في أغلب الروايات.

بينما رسول الله تبعه في بداية الدعوة عندما كان يدعو في مكة حوالي 150 شخصاً؛ تبعاً لكثير من الروايات، ثم تزايد هذا العدد بشكلٍ مطّردٍ عند وصول رسول الله إلى المدينة. لو قارنا فقط فترة بقاء رسول الله بمكة، وهي عشر سنوات، بالفترة التي مكث فيها نبي الله نوح وهو يدعو قومه؛ سوف نجد أن نسبة الأتباع إلى عدد سنوات الدعوة في عهد نبي الله نوح كانت 08.0 بالمائة، بينما نسبة أتباع رسول الله إلى سنوات الدعوة في مكة فقط كانت 15 بالمائة. هذا الفرق الشاسع لا يمكن تفسيره إلا بناءً على التطور المعرفي للبشرية، ففي زمن نبي الله نوح لم تكن العقول قادرةً على فهم المعاني المجردة، وسوف نتعرض لهذه الفترة بالتفصيل عند الحديث عن الحضارة الإنسانية. مع تقدّم الزمن ازدادت العقول تطوراً، وأصبح إدراك المفاهيم أكثر نضجاً وأصبح الإنسان مستعداً لتقبل كثير من المفاهيم.

عدم فهم التطور المعرفي جعل الناس يظنون أن القرون الأولى أكثر معرفة ودراية؛ رغم أن التطور المعرفي الذي يشير إليه القصص القرآني يشير إلى غير ذلك، ويشير إلى أن

اللاحقين دائماً أكثر معرفة، وسيظلُّ التطور المعرفي هكذا سنةً من السنن الإلهية في هذه الحياة. مجرد فهم التطور المعرفي البشري سوف يزيل كثيراً من الغموض، وسوف يحفظ للأجيال السابقة مكانتها؛ عندما ندرك أنَّ تفاعلهم مع كتاب الله كان بقدر معارف عصرهم، وأنَّ محاكمة إنتاجهم بمعارف عصرنا أو أي عصرٍ بعد عصرهم هي محاكمة ظالمة تقوم على مقاييس مخطئة.

لا يمكن لمنصفٍ أن يتهم العصور القديمة بالجهل والتخلف، حتى لو أنَّ ما وصلنا من كتابتهم فيها من الأمور غير المعقولة والسادجة الكثير والكثير. البُعد الزمني ركن أساسي في الحكم على إنتاج الشخص، إذ الظروف المجتمعية مختلفة، والمعارف المتاحة بالطبع أقل مما هو متاح حالياً، فلو أردنا حكماً عادلاً و نقداً موضوعياً على إنتاج فكريٍّ لعصر من العصور القديمة، فلا بدَّ أن نعود إلى هذه العصور، ونقارن ما فيها بعضها ببعض، لا أن نقارن ونحاكم إنتاجها بإنتاجنا.

تكمن المشكلة في أولئك الذين لا يدركون مفهوم التطور المعرفي، ويصرون على أنَّ العصور القديمة هي أفضل من العصور المتقدمة، دون دليل واحد، سوى حالة نفسية غريبة تجعلهم يؤمنون بذلك. الحاكم الذي يحمل في يده العصا يضرب بها الشعب دون محاسبة قد يكون أمره مقبولاً في العصور القديمة، ولكن لا يمكن أن يكون أمر كهذا مقبولاً في عصرنا الحالي؛ بسبب وجود قوانين تضبط علاقة الحاكم بالشعب، والتي ليس من بينها سلطة تنفيذية تؤهله أن يصدر حكماً وينفذه في ثواني معدودة.

ما جعل الأمر مقبولاً في الماضي، وغير مقبول في العصر الحالي، هو التطور المعرفي للبشرية، وإدراك قيم وحقوق لم تكن مدركة بشكل كامل في القديم.

للأسف الشديد التشدد بنصوصٍ بشرية، واعتبارها نصوصاً أزلية مساوية لكتاب الله دون الأخذ في الاعتبار مسألة التطور المعرفي؛ سبب كثيراً من المشكلات والتجاوزات، وأساء لأصحاب هذه النصوص أكثر مما أفادهم.

حتى الرسل والأنبياء مع مكانتهم العظيمة لهم رسالة محددة؛ وهي التبليغ، وخارج حدود هذه الرسالة هم بشر عاديون، خاضعون للتطور المعرفي، فنبى الله موسى اتباع الرجل الصالح، وطلب منه أن يعلمه مما لديه علماً؛ في إشارة واضحة إلى أن التبليغ شيء والعلم شيء آخر، وأن النبي خارج حدود الرسالة يجري عليه ما يجري على البشر من تطور معارفه، ويتعلم من البشر ومن محيطه أيضاً.

رسول الله نفسه لم يفسر الآيات في كتاب الله، رغم غموض كثير من المفاهيم والتعبيرات القرآنية، والتي حيرت كثيراً من المفسرين وقتها. لم يأتنا خبر عن رسول الله أنه قال ما هي العاديات أو الصافات أو المرسلات أو الطور، ولم يسأله أحد عن هذه المسميات، والتي تبدو غير مألوفة لهم، بشهادات المفسرين ذاتهم عندما اختلفوا في فهم كثير من هذه التعبيرات.

يظن كثير من الناس أن رسول الله لم يفسر كتاب الله حتى يترك للناس حرية التفسير والاجتهاد، وهذا رأي لا يقوم عليه دليل؛ فلو أن رسول الله لديه علم بشيء معين ما كان كتبه، وإنما المسألة تدور حول وظيفة الرسول؛ وهي التبليغ وأنه ليس حاكماً على المستقبل وليس شريكاً لله في حكمه.

فهم التطور المعرفي للبشرية بطبيعته ومصادره وحدوده سوف يحل إشكاليات تعامل السلف الصالح مع الأمور الحياتية، ومع فهمهم لكتاب الله، ويفسر بقاء الرق، وعدم وضوح مفهوم الحرية بتعبيره المعاصر.

مسألة حقوق الإنسان والتعامل مع المرأة وقضايا المرأة ونظرة المجتمع للإناث بصفة عامة من المسائل الخاضعة تماماً للتطور المعرفي للبشرية والتصورات الذهنية في كل عصر ولا يجب خلط هذه التصورات مهما كانت بالحقائق المطلقة التي تضمنها كتاب الله وإلا سوف تكون النتيجة كارثية.

لا شك أن ملامح التطور المعرفي والأخلاقي في كتاب الله كثيفة وغزيرة، وكانت تفوق إدراك العصور السابقة، وخصوصاً مع غياب مفهوم التطور، ورسوخ فكرة الخلق الكامل. رغم غياب بعض المفاهيم الحديثة؛ بسبب طبيعة المجتمع العربي الذي نزل فيه القرآن، إلا أننا لا يمكن أن ننكر الانقلاب المعرفي والأخلاقي الذي أحدثه التفاعل مع كتاب الله في السنوات الأولى.

هذا الانقلاب تمثل في إبراز قيم المساواة، ودحض قيم العنصرية في مجتمع لا يجيد إلا العنصرية والقبلية، وتمثل في ترسيخ قيم العدالة، وأن يصير الضعيف قوياً ويتراجع الظالم رغم قوة مكانته، في مجتمع كان أكثر ما يميّزه التجبر على بعضه بعضاً، والإغارة على بعضه بعضاً. هذا أمر من أعجب ما يكون، ويجعلنا نقف احتراماً وإجلالاً لهذا المنهج العظيم، ولقدرة هؤلاء البشر على التفاعل مع كتاب الله بشكل رائع.

لكن اعتبار هذه الطفرة الأولى هي كل شيء، أو منتهى كل شيء، هي الكارثة المعرفية التي طالت فكر هذه الأمة، التي عطّلت حواسها عن الإدراك؛ ففاتها من خير المعرفة الكثير؛ لأنّ الظنّ بالاكْتفاء المعرفي هو أكبر عائق لسنن الله الكونية القائمة على التطور والتجدد، وفيه تعطيلٌ لمهمة الإنسان على الأرض، وهو مفهوم يناقض العبادة لله كما سوف نرى. سوف نتابع في الفصول القادمة كيفية تطور المعرفة، من خلال تتبع المشاهد القرآنية، وتحليل اللفظ القرآني؛ لنكتشف عالماً آخر يختبئ خلف القصص القرآني.

الفصل الثامن فأصبح من النادمين

سوف نتعرف من خلال هذا الفصل على مصادر المعرفة، كما أشار إليها كتاب الله، وكيف أنّ إعداد آدم عليه السلام إنما كان إعداداً بعناية إلهية تامة؛ حتى ينطلق آدم ومن بعده البشرية في تولي المسؤولية.

عندما أصبح آدم جاهزاً لمهمته، بعدما علّمه الله الأسماء أو القدرة على التسمية، وهذه القدرة جعلته جاهزاً لكي يُعبّر عن فكرته باستخدام الأصوات؛ فيما يعرف بنشأة اللغة، عندها جاءت مرحلة الاختبار النهائي أو ما يعرف حالياً بلغتنا المعاصرة: اختبار التشغيل؛ إنها اللغات الأخيرة لكي ينطلق بعدها هذا الكائن العجيب في تولي مسؤوليته ومسؤولية الكون الذي يعيش فيه.

سوف يتولّى مسؤولية الكون؛ لأنه الكائن الوحيد الذي يملك حرية الاختيار، وهذه الحرية لو لم تكن مشمولة بالمسؤولية فسوف تُلقى بهذا الكون جميعه إلى أتون الهلاك لا ريب. جاء الاختبار النهائي لآدم عليه السلام على هيئة أمرٍ إلهي بالنهي عن الأكل من الشجرة، في صورة واضحة من صور تجسيد الأمر؛ حتى يستطيع آدم استيعابه ويفهم ما يمكن أن يسببه التجاوز على الكون ومحيطه.

العقل البشري في بدايته -لا شك- كانت تعوزه بدرجة كبيرة المعاني والمفاهيم التجريدية، مثل: الطاعة والمعصية والثواب والعقاب؛ لذا كانت قصة الشجرة أول السلم في فهم المعاني التجريدية. الطريقة الوحيدة التي يستطيع العقل بها استيعاب تلك المعاني هي التجسيد، فتمّ تجسيد الأمر لآدم من خلال الشجرة، والتي لم يذكر القرآن أي إشارة لنوعها وطبيعتها؛ بسبب عدم أهمية هذه الجزئية.

المعني المهم هنا هو تجسيد الأمر لآدم، وليس نهيًا عن نوع معين من الشجر . فكرة الاختبار أن ها هي الشجرة ماثلة أمامه، ولديه الأمر ألا يأكل من الشجرة، وأن المخالفة لها عواقبها الوخيمة، فإذا حدث؟
تدخل الشيطان ووسوس لآدم وزوجه حيث حيلة : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

(فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِرِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِرُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)) (سورة الأعراف : الآيات 20-22).

استغل إبليس فضول آدم المعرفي وحاول إغواءه، وبالفعل نجح، وسقط آدم في الفخ. وبمجرد أن عصى آدم وزوجه ربهما رأيا أمامهما وبال فعلتهما مجسدة، عندما طفقا يخلصفان عليهما من ورق الجنة. إنها الإشارة البديعة في كتاب الله على ما يمكن أن يفعله التهاون والمعصية، فأنت -يا آدم- من الآن صاحب مسؤولية، ويجب أن تقوم بها على وجهها تجاه هذا الكون، وإن لم تضطلع بمسؤولياتك فالنتائج كارثية.

ما إن عصى آدم رأى أمام عينيه نتيجة أفعاله مجسدة أمامه من خلال انهيار في البيئة المحيطة حوله. جاء في التفاسير أن طفقا يخلصفان عليهما من ورق الجنة تعني أن آدم وزوجه بدت لهما سوءاتهما؛ أي الأعضاء التناسلية، وتقول بعض التفاسير إن آدم وزوجه لم يكن لديهم أجهزة للإخراج، وأنه بمجرد أن ذاقا الشجرة بدأ الطعام في التخمر، ومن ثم دعتهم الحاجة لإخراج هذا الطعام، فكانت النتيجة هي ظهور أجهزة الإخراج لمساعدة الزوجين على التخلص من هذا الأذى.

هذه الفرضية غير قابلة للتصديق؛ لما عرضناه من أدلة على عملية التطور من ناحية، وبسبب عدم وجود دليل يدعم هذا التصور من ناحية أخرى، أضف إلى ذلك أن تتبع الألفاظ القرآنية التي جاءت في الآيات الكريمة يشير إلى شيء آخر تماماً.

سوف نحاول الوقوف على ألفاظ مثل: [طفق]، و[خصف] لفهم الحالة التي تشكّلها هذه الألفاظ: جذر لفظ [خصف] كما في قاموس اللغة يعني اجتماع الشيء إلى الشيء، وبمقارنة فعل [خسف] بفعل [خصف] لتقارب الصوت، ولأنّ [خسف] كما فسّرناه في الجزء الثاني يعني: تغيّب الشيء نتيجة انهيار داخلي، لذلك يبدو فعل [خصف] يقارب بشكل كبير فعل [خسف] مع اختلاف بالحرف الأوسط، إذ السين تدل على السلاسة، بينما حرف الصاد يشير إلى الصلابة والقوة.

يبدو أنّ فعل [خصف] هو عملية تدمير لأوراق الجنة؛ ناتج عن قوة جبريّة، وليس بشكل طبيعي كما يحدث في فصل الخريف، وهذا ما ذهب إليه المفسرون إذ قالوا: إنّ آدم وزوجه قاما بقطع أوراق الجنة لتغطية أنفسهم، ونحن نتفق مع المفسرين أنّ آدم وزوجه أثرا بقوة ما على ورق الجنة، فجعل الورق يخصف عليهما، وكأنه يتقصّف ويقع عليهما، ولكننا لا نتفق معهم أنّهما كانا يأخذان الورق ويغطيان به أنفسهم، بسبب ظهور الأعضاء التناسلية أو مسألة الإخراج.

من الطبيعي أن يكون إدراكنا للقوة المادية أقوى بكثير من إدراكنا للقوة غير المادية؛ فعندما يقول المفسرون إنّ آدم وزوجه كانا يأخذان من ورق الجنة بأيديهم، فهو القول المقبول قبل فهم القوى النفسية وتأثيرها، ولكن مع ظهور دور القوى النفسية التي يشير إليها القرآن في مواضع عديدة، والتي أشرنا إليها في الجزء الأول من كتاب تلك الأسباب، فلا يمكن إغفال دور هذه القوى، وخصوصاً في ظلّ عدم ذكر أيّ إشارة لعملية قطف آدم وزوجه ورق الجنة بأيديهم.

مع استخدام لفظ [خصف] ولفظ [طفق] لا بد أن نتوقف ونفهم ما حدث ومدلوله، خصوصاً في ظل وجود أدلة قوية على اكتمال الخلق البيولوجي لآدم وزوجه، في سلسلة تطورية مفصلة.

فعل [طفق] يسميه أهل اللغة من أفعال الشروع، وقد ورد في ثلاثة مواضع في كتاب

الله:

(فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) (سورة الأعراف : الآية 22)

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) (سورة طه: الآية 121).

(رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) (سورة ص : الآية 33).

من خلال الجذر الثنائي لكلمة [طفق] وهو [طف] نجد أن أصلها الشيء الصغير في بدايته، وكلمة [طفق] نفسها تدل على الشروع في فعل شيء ما، ويبدو أن فعل طفق يصف قوة مؤثرة ضعيفة نسبياً، أو يصف قوة الإرادة التي تسبق قوة الفعل المادي.

يبدو من جمع الأدلة بعضها إلى بعض أن القوة المؤثرة على ورق الجنة هي قوة لا مادية، ناتجة من نفس آدم وزوجه، تسببت في قصف ورق الجنة، وليست قوة مادية تم استخدام الأيدي فيها بشكل مباشر. ملاحظة أخرى: وهي أنه لا يمكن أن يكون آدم وزوجه قد تعريا في الجنة؛ بسبب الوعد الإلهي في القرآن في سورة طه.

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) (سورة طه: الآية 118).

هذا وعد الله لآدم ألا يجوع في الجنة ولا يعرى، فكيف تعرى آدم، وأخذ أوراق الشجر ليغطي بها نفسه وهو ما زال في الجنة ولم يهبط بعد، فيصبح القول إن المقصود بقوله

تعالى (بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) هو ظهور أعضائهم التناسلية أكثر وجاهة في حالة القول بالخلق الكامل.

أما وأن الأمر ليس كذلك فيصبح التفسير غير مقبول، وما ذهبنا إليه من أن تأثير فعل آدم وزوجه على ورق الجنة إنما كان تأثير وقوع الانحراف على الكون، والذي تجسّد في هذه الواقعة؛ ليتعلم آدم الدرس، ويعي تأثير عدم تحمّله المسؤولية ماثلاً أمام عينيه، ومن ثم يستقرّ في وجدانه وتستيقنه نفسه.

دليل آخر يمكن أن نستعين به في فهم هذه الواقعة، وهو مدلول كلمة [سوءة] في كتاب الله، والتي سنجد أنها تعني الشيء الذي لا يُستحب الاطلاع عليه، فكلُّ مشهد يمكن أن يذكّر الإنسان بما لا يحبه هو في حقيقته سوءة.

قول بعض المفسرين بأن المقصود بالسوءة هي الأعضاء التناسلية للإنسان، ربما وجد معقوليته بسبب الآية التي تخبرنا أن الشيطان نزع عن آدم وزوجه لباسهما.

وكما قد تناولنا مسألة اللباس في الفصول السابقة، وهو ستر الله ووجب عيوب الإنسان عن الآخرين، وقولنا إن الشيطان ليس له أي سلطان ماديّ على الإنسان يستطيع من خلاله السيطرة عليه؛ ففعل الشيطان هو فعل غير ماديّ يتمثل في الوسوسة، والتي بدورها جعلت آدم وزوجه يتخيلان عن الواجب المنوط بهما، فأصبحا مكشوفان وعاريان من التقوى التي كان يجب أن يكونا مدثران بها.

سياق الآية الكريمة تذهب إلى أن الشيطان نزع عنهما لباس التقوى والطاعة، وليس لباساً مادياً أبداً كما يفهم البعض:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ

يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ((27)) (سورة الأعراف: الآيات 26-27).

بدت سوءاتهما؛ أي بدت نتيجة فعلهما في الظهور، وهو ما لم يحب آدم وزوجه الاطلاع عليه، وكل إنسان يفعل فعلاً مخالفاً يمتنى أن يمرَّ هذا الفعل دون أن يُفتضح أمره، أما وأن تظهر نتيجة هذا الفعل للعلن فهو -لا شك- سوءة من أعظم السوءات.

يبدو واضحاً أن القوة الفاعلة التي تسببت في خصف ورق الشجر عليهما ليست قوى مادية متمثلة في أيديهم، بل هي قوى نفسية متعلقة بالتجاوز الذي حدث، والمعصية التي ارتكبت، فالمعصية والانحراف عن الطريق المستقيم سبب هذا الخلل الواضح، وتساقط ورق الجنة.

ما يقوى هذا الاستدلال أن التعبير القرآني (طفقا يخرصان عليهما من ورق الجنة) يدل على الاستمرار، وليس مجرد قطع ورقة أو ورقتين لحاجة ما، وإنما صورة توحى بخلل ناتج عن فعلٍ متعمدٍ.

نظام الجنة التي سكنها آدم وزوجه هي بمنزلة نموذج مصغر من هذا الكون الأكبر، والذي يتطلب من آدم تحمل المسؤولية تجاهه، ويجب أن يعرف بشكل قاطع أن أي خلل -وإن كان بسيطاً- مرتبط بهذا النسيج الكوني، ويؤثر فيه ويتأثر به، ويمكن أن يؤدي إلى كوارث. إنها صورة عظيمة تربط بين السلوك والتصرف الإنساني وبين مكونات الكون، وكيف يمكن لسلوك الإنسان المنحرف أن يتسبب في انهيار المنظومة الكونية من حوله.

لقد كان هذا الاختبار الرباني بدايةً لظهور الضمير الإنساني، فقد عاش آدم نتائج الطاعة، والمتمثلة في عدم الجوع أو العري؛ وقاسى نتائج المعصية والانحراف عندما شاهد انهياراً كاملاً في المنظومة من حوله بسبب فعلته التي فعل، وسوف يتم ترجمة هذه التجربة

واقعا فتصبح الطاعة مدعاة للراحة النفسية والاطمئنان، بينما يصبح السلوك المنحرف مدعاة للقلق والاضطراب؛ بسبب الخبرة السيئة التي عايشها آدم، وعايش وقعها على كل ما حوله.

حتى تكتمل المنظومة، ويستطيع الإنسان أداء المهمة على أكمل وجه، كان لا بد من سبيل للعودة، ومحاولة إصلاح الأخطاء إذا نسي أو اعتر أوفعل أي تجاوز. لقد حان دور الدرس الأخير، وهو كيف يعود لسيرته الأولى ويكفر عن جانيته.

نلاحظ من خلال الآيات التي قصت علينا قصة الشجرة، أن آدم لم يندم، أو بالأحرى لم يعرف الندم؛ لأنه - ببساطة - لم يكن يدرك قبل هذه الحادثة نتيجة أفعاله ومدى تأثيرها، وبعد واقعة الشجرة، وتجسيد تأثير الانحراف أمام آدم، أصبحت بذرة الضمير الإنساني جاهزة للنمو والازدهار، وسوف نشهد بزوغ هذا الضمير وتأثيره في موقف آخر من خلال هذا الفصل.

بنص الآيات الكريمة لم يكن آدم يعرف حتى كيف يعود أو يستغفر؛ لأنه - ببساطة - لم يكن الشعور بالندم قد تشكل بعد؛ ولذلك جاء التدخل الإلهي بأن تلقى آدم من ربه كلمات، يستطيع من خلالها العودة مرة أخرى إلى وظيفته في الحياة.

(تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)، ألقى الله إلى آدم هذه الكلمات؛ لأنه لم يكن لديه القدرة على التعبير عنها بنفسه، فجاء التدخل الإلهي ليضبط آدم على الطريق المستقيم. من خلال كتاب الله تبدو هذه الحادثة كحلقة من حلقات الإعداد والتجهيز لآدم حتى يتمكن من تولى المسؤولية، وليس كما تُصوِّرها الكتب السابقة من أن هذه الخطيئة هي سبب تعاسة البشرية، وأنه لولا هذه الخطيئة لظلَّ البشر إلى يومنا هذا في الجنة ينعمون.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة: الآية

حادثة الشجرة وتلقي آدم الكلمات من ربه كان تدريباً عملياً، وتحولاً عظيماً في التطور المعرفي للبشرية، يبدو لي أنّ هذا التفاعل الأوّل، ورؤية آدم خطيئته متجسدة أمامه هو البذرة الأولى للفطرة الإنسانية، التي نتج عنها الضمير فيما بعد.

من خلال هذا المشهد العظيم نستطيع أن ندرك أنّ أحد أركان الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي عدم الاعتداء، أو المسالمة ورفض التجاوز. إنّ ظهور الندم، ومن ثم الضمير بعد هذه الحادثة، أسّس لأوّل مصدر من مصادر المعرفة.

ظهور الندم، وبزوغ الضمير الإنساني

في الوقت الذي لم يعرف آدم ماذا يفعل عندما عصى ربه، ولم يرد ذكر الندم في هذا المشهد الرباني، سنجد أنّ الأمر اختلف تماماً عندما ارتكب ابن آدم الجريمة النكراء، التي قام فيها بقتل أخيه. قصة ابني آدم مليئة بالإشارات والدلالات على التطور المعرفي، الذي لا يمكن أن تخطئه العين.

بدأت الأحداث عندما قرر ابنا آدم تقديم قربان للخالق، فلها تُقبّل القربان من أحدهم ولم يتقبل من الآخر، قرر هذا الأخير قتل أخيه على الفور. إنها سيرة أسلافه الذين سفكوا الدماء، وبغوا في الأرض؛ فاستبدلهم الله بقوم آخرين. هذا الخليفة الجديد لديه قدرات معرفية راقية، وقابل للتعلم، فهل ينتصر الماضي بسيرته المحمّلة بسفك الدماء، أم تنتصر المعرفة التي تشكلت، وتنمو بسرعة كبيرة في هذا الجيل الجديد؟

لقد تملكته طبيعة أسلافه فقتل أخاه، ولكن هناك شيءٌ قد تغير، إنها بذرة الفطرة التي أثمرت الضمير الذي نراه حضر بقوة في هذه الحادثة. شعر القاتل بالندم، لقد فعلت المعرفة والقدرات العقلية عملها. إنّ لم يكن الندم حاضراً عندما عصى آدم ربه فذلك ليس تكبراً، ولكن يبدو أنّ الضمير لم يكن قد تكون بعد.

لكن على النقيض نرى هذا الفتى نادماً يشعر بجريمته وخطأه، ويحاول بكل السبل إيجاد وسيلة لتقليل الخسائر قدر المستطاع. نشوء الضمير وظهوره هو المحرك الأساسي الذي يحرك هذا الفتى لإيجاد طريقة يُحسِنُ بها إلى جثة أخيه فيما بقي، وهذا الإحساس بالمسؤولية، أو تحقُّق مفهوم العبودية بمعناه الراقى قد حضر، حتى وإن كان المشهد حزيناً بامتياز ومعصية وذنوب كبير.

هذه الحادثة تمثّل محوراً أساسياً في فهم كيفية تطور المعرفة لدى الإنسان، ومعرفة ما هي الركائز الأساسية التي ارتكز عليها في تطوير قدراته، فإذا كان الوعي والإدراك ومن ثمّ الضمير الإنساني هي أول هذه الركائز؛ فإن القدرة على محاكاة الطبيعة هي الركيزة الثانية، والتي ظهرت جلياً عندما حاول الفتى دفن أخيه، وشاهد الغراب يبحث في الأرض.

ابن آدم يحاكي فعل الغراب

لقد صال وجال الباحثون في قصة الغراب، وكيف أنّ الغراب يدفن موتاه، والحقيقة أنّ ما جاء في القرآن لا يمتُّ بصلّة لما ذهب إليه أساطين الروايات والأساطير.

لو وقفنا على الآيات القرآنية لتغيّر الواقع تماماً، ولفهمنا دور الضمير والوعي والإدراك في تطوّر معارف الإنسان. ما حدث أنّ ابن آدم رأى غراباً يحفر في الأرض، واستنتج من هذا المشهد أنّ بإمكانه حفر الأرض ودفن أخيه؛ لقد قرأ ما يفعله الغراب، وكيف يمكن أن يستفيد من هذا المشهد في حالته.

إنها لحظة ولادة المعرفة، يالها من لحظة فارقة! والمفارقة أنّ ولادة أول معرفة حقيقية جاءت من رحم الموت.

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) (سورة المائدة: الآية 31).

بعيدا عن القصة التي تقول إنَّ الغراب دفن غراباً آخر، ويستدلُّ البعض على ذلك بأنَّ الغراب يشبه إلى حد كبير الإنسان في نمط الحياة الاجتماعية، بل ذهب بعضهم لنسج قصصٍ وأساطيرٍ متعلقة بالغراب، تحكي عن العدل الإلهي الذي يقيمه الغربان، والحكمة التي يتمتع بها الغربان، وكأننا أمام كائنات فضائية لا نملك أي معرفة بها.

القرآن الكريم متوافق مع نواميس الكون وقوانينه تماماً، ولم يتم تسجيل حالة واحدة لغراب يدفن موتاه، أو يعقد محاكمات، كما يردد محبو الأساطير والروايات، والقرآن الكريم كان شديد الوضوح في الوصف، وهو على ذلك يكمل جزءاً أساسياً من المشهد العام لتطور الإنسان، ويعطي إشارة قوية على أهم مصدر من مصادر المعرفة التي حصل عليها الإنسان.

لو أنَّ الغراب دفن ميتاً من جنسه، ثم قلده الإنسان؛ ما كان لنا أن نستخلص هذه المعلومة القيِّمة، أو نتحصَّل على المصدر الثاني للمعرفة في حياة البشر.

حسب الآية الكريمة، أرسل الله غراباً يبحث في الأرض، بمعنى ينبش الأرض أو يحاول حفر الأرض فقط، دون أيِّ ذكرٍ أنَّ هذا النبش أو البحث كان بسبب رغبة هذا الغراب في دفن أحد الموتى، ولكن ماذا كانت رد فعل ابن آدم عندما رأى هذا المشهد؟ ابن آدم لم يقلد الغراب، وإنما استنتج من فعل الغراب أنَّ بإمكانه حفر الأرض مثل هذا الغراب، ثم يوارى جثة أخيه، لقد استخدم معرفةً ثم طوَّرها في الحال اعتماداً على قدراته العقلية، وهذا هو أول الدلائل على عمل العقل بطريقة سليمة.

التقليد هو نسخ ما فعل الغراب بالضبط، أما ما فعله ابن آدم فهو محاولة عقلية راقية، حاكي فيها فعل الغراب، واستخدام هذا الفعل في دفن أخيه.

من خلال تتبع قصة الشجرة، بالإضافة إلى قصة ابني آدم، نستطيع القول: المصدر الأول للمعرفة - كما قرأناه في كتاب الله - هو الضمير الإنساني، أو الحاجة الداخلية النابعة من الفطرة لدى الإنسان، والمصدر الثاني هو المصدر الخارجي المتمثِّل في محاكاة الطبيعية، ومن خلال تفاعل هذين المصدرين داخل العقل البشري تنتج المعرفة.

شعور ابن آدم بالندم بسبب ونخزة الضمير، ولدت لديه حاجةً داخليةً للتكفير عما اقترف؛ فبحث عن مصدرٍ خارجي، والتقطت عيناه وحواسه مشهد الغراب، فهداه عقله لفكرة الدفن.

رغم بساطة القصة إلا إنها تلخص مصادر المعرفة التي اعتمد عليها الإنسان، وما زال يعتمد عليها، والتي مكنته من مراكمة المعارف بالشكل الذي نراه حالياً، وما يزال هذا الإنسان يراكم المعرفة حتى يقتنع أنه عرف بما فيه الكفاية، ولا حاجة له بالمزيد، عندها تأتي النهاية.

الفصل التاسع قربا قرباناً

عندما يتم قراءة القصص القرآني بشكل علمي سليم بعيداً عن المرويات المستقاة من كتب الأولين ومن خلال تحييد العامل البشري قدر المستطاع سوف نكتشف أسرار التاريخ الموهل في القدم ونكتشف تطور هذا الإنسان بشرط التجرد وعدم التحيز في تتبع الأحداث.

واحدة من تلك القصص التي يمر الناس عليها مرور الكرام، ولا يلغون لها بالاً، هي قصة قربان ابني آدم. عند وضع قصة القربان في خط متوازي مع حادثة الذبح في عهد نبي الله إبراهيم، ثم الأمر الإلهي في القرآن بالهدى المتعلق بالحج؛ حصلنا على دليل غاية في الأهمية عن التطور المعرفي للبشرية، وكيف سار. لذا دعونا نبدأ مع نبي الله إبراهيم، ثم نعود لمشهد القربان الذي قدمه أبناء آدم لربهما.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

كان تمرد نبي الله إبراهيم على موروث آباءه وأجداده من عبادة الحجارة الصماء، واستنتاجه المنطقي أن هذه الأشياء لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً، ولا يمكن أن تكون رباً أو إلهاً فكرةً تبدو في العصر الحالي بسيطةً وواضحةً؛ إذ لا يمكن أن يعتقد بربوبية الحجارة وقدرتها على الفعل إلا متأخراً عقلياً، أو صاحب مرضٍ نفسيّ.

إلا أن هذا الأمر كان على عهد نبي الله إبراهيم ثورةً معرفيةً وتمرداً على السائد بشكلٍ لم يسبق له مثيل؛ إنه مرحلة إنتقاليةً في عمر البشرية، وانتقال هام لأقصى درجة من حالة التجسيد إلى التجريد.

سوف نجد ملامح هذا التطور المعرفي واضحةً عند المقارنة بين حالة قوم نبي الله إبراهيم وبين قوم رسول الله؛ فبينما قوم نبي الله إبراهيم عندما واجههم بالحقيقة، وبعجز تلك الحجارة

التي يتخذونها أرباباً، نكسوا على رؤوسهم، ولكن مع ذلك حاولوا الانتصار لمورثهم، دون محاولة تبرير فعلهم الناقص من اتخاذ الحجارة آلهة.

بينما قوم رسول الله (أهل مكة) نجدهم دائماً يحاولون الالتفاف، مرّةً بإنكار أنّ محمداً رسول أو أنّ الله أرسله، وعندما ضاق الخناق عليهم مرّةً أخرى ولم يستطيعوا إنكار أنّ هذه الحجارة لا تضر ولا تنفع؛ قالوا إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (سورة الزمر: الآية 3).

نرى في الآية تطوراً معرفياً واضحاً؛ جعلهم يجدون مبرراً لاتخاذهم آلهة من دون الله، فهم لا يكذبون، ولكن يحددون ويتحايلون، بخلاف قوم نبي الله إبراهيم غير القادرين على الاستنتاج، ومسايرة العمليات المنطقية، فلبجؤوا إلى التطرّف والعنف بالدعوة إلى إحراق نبي الله إبراهيم.

أمّا قوم الرسول الكريم فظلّوا فترةً كبيرةً يجادلون بمنطقهم؛ محاولين خلخلة هذا الفكر الجديد، ولكن بعد وقت ليس بالقصير، وعندما استنفدوا محاولات الحوار والإقناع أصبحوا يلجؤون إلى العنف، ويحاولون إيقاف هذا المدّ الفكريّ الجديد، الذي سوف ينسف منظومة الأفكار لديهم، وما يترتب عليه من زعزعة في كل الأنظمة التي تقوم عليها حياتهم، كالنظام الاقتصادي والاجتماعي والعائدي.

حتى نستطيع فهم مشهد القربان والذبح والهدي كما جاء في كتاب الله، وكيف يشير إلى التطور المعرفي، لا بدّ أن نستعرض بعض المشاهد من حياة نبي الله إبراهيم، والتي تعطينا ملاحظاً عن هذه الشخصية العظيمة، وكيف كانت مفصلاً أساسياً في انتقال البشرية من مرحلة بدائية إلى مرحلة متقدمة ومتطورة بشكل كبير.

لقد كانت حياة نبي الله إبراهيم مثلاً يُحتذى، وإشارة لأولى الأبواب نحو مسار التطور المعرفي والتغير في حياة البشرية؛ لذا استحق لقب أمة من حيث التفرد والاستقلال. الحادثة الشهيرة التي قصها القرآن عن ذبح نبي الله إبراهيم ابنه، هي حلقة من حلقات حياة هذا النبي الكريم، ولها علاقة وثيقة بشخصيته الفريدة كانت مشهداً غاية في التعقيد. لكي نحاول الوقوف بشكل سليم على هذا المشهد لا بد لنا من أن نستعرض بعض المواقف والمشاهد القرآنية، التي سوف تساعدنا في فهم هذه الشخصية العظيمة، شخصية نبي الله إبراهيم ومن ثم ندرك ما خفي في مشهد ذبح الأبن .

المشهد الأول: الباحث عن الحقيقة

محاولة نبي الله إبراهيم الوصول إلى الحقيقة يلخصها المشهد القرآني، الذي يحكي محاولاته الدؤوبة، من خلال البحث والتقصي والقياس والمقارنة لترتيب أفكاره.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ط قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ط قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ط قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ط قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ط قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ ط قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)) (سورة الأنعام: الآيات 74-79).

هذه الرحلة الفكرية كانت محطاتها الأولى التوصل لعدم معقولية أن تكون الأصنام التي لا تملك حولاً ولا قوة هي الخالق المدبر. في الوقت الذي يعج المجتمع الذي يعيش فيه نبي الله

إبراهيم بفكرة عبادة الأصنام، ومستقرُّ عليها تماماً؛ نجد أن نبي الله إبراهيم رفض هذه الفكرة السائدة، وانقلب عليها بكل قوَّةٍ وسفّه هذا الرأى، وسفّه إجماع القوم على فكرة كهذه، لا تقوم على دليل أو برهان.

الإفلات من السائد لا يمكن أن يقوم به إلا عقول وصلت لمرحلة متقدمة جداً من التطور المعرفي، مكنتها من القياس والمقارنة، ثم استنتاج نتيجة معقولة. هذا الرفض العقلي هو ما أسس للقادم، فدون معرفة المشكلة وتشخيصها تشخيصاً صحيحاً لا يمكن الوصول إلى العلاج أبداً.

بعد خطوة الشك التي خطاها نبي الله إبراهيم جاءت الخطوة الثانية، متمثلة في رغبة حقيقية بمعرفة الحق:

(وَكَذَلِكَ نُزِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (سورة الأنعام: الآية 75).

إنها مرحلة التدبر، أو قل إن شئت مرحلة قراءة الكون من حوله، وغالباً عندما يرفض الإنسان فكرة ما، تحدث له مراجعة ذاتية: هل ما فعلته صواب؟ أم أن ما فعلته كان تسرعاً وتهوراً غير محسوب؟

هذا المعتكف النفسي يحتاج من الإنسان التوقف، وإعادة النظر في المعطيات حوله، وهذا ما فعله نبي الله إبراهيم حريفاً. أخذ يجول بعقله ويلقي نظره إلى هذا الكون الفسيح، متأملاً هذا التدبير الحكيم، حتى أدركه اليقين.

لا يمكن أن تكون تلك الحجارة هي الخالق الذي صنع كل هذا. التيقن هنا ليس تيقناً من الخالق؛ لأن هذه المرحلة لم تأت بعد، وإنما التيقن كان بخصوص ما فعله وقاله عن تلك الأصنام، من أنها لا تضر ولا تنفع، وأن القوم لا يسلكون مسلكاً صحيحاً. لقد تيقن تماماً أنه

على الحق المبين، وأن فرضيته واعتقاده في تلك الحجارة لا تملك من امر نفسها شيئاً كان في محله، ومن ثم بدأ مرحلة جديدة، مرحلة البحث عن الخالق المدبر لهذا الكون:

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) (سورة الأنعام: الآية 76).

ها هو يحاول الوصول إلى الخالق عن طريق المعارف المتاحة لديه، وعن طريق الضمير الذي يدفعه دفعاً لفهم سر وجوده، ومن أوجده.

لما رأى الكوكب توجه نحوه ودار بعقله حوله، ثم ما لبث أن غير وجهة نظره؛ فالكوكب تغيرت حالته، ومن المفترض أن الخالق لا يجرى عليه التغيير، ثم حول سفينة منطقته نحو القمر، ثم نحو الشمس، من خلال مقارنات وقياسات في عقله، يدل عليها الحوار الذي قصه القرآن، عندما قارن نبي الله إبراهيم بين القمر والشمس من حيث الحجم:

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)) (سورة الأنعام: الآيات 77-78).

في هذه الآيات الكريمة ملهح هام من ملامح شخصية نبي الله إبراهيم، وهي محاولة الوصول للحقيقة عن طريق المعارف المتاحة لديه، وعن طريق استخدام قدراته العقلية في الوصول إلى هذه الحقيقة. هذا الملهح سوف نراه يتكرر في مشاهد عديدة، وهذا ما يمكن أن يُعرف على أنه الإحسان؛ فقد بذل قصارى جهده في الوصول للحقيقة، ومع كل هذا الجهد نجد أن نبي الله إبراهيم وقف عاجزاً وأعيته الحيل في الوصول إلى الخالق. مع إصراره الشديد على الوصول للحقيقة اكتملت الحلقة، حيث أتم نبي الله إبراهيم ما عليه، وهو ينتظر نتيجة هذا الجهد وهذا الاجتهاد الآن.

لقد تخلص من مظاهر الشرك كلها بجملة واحدة، وهي التوجه للذي خلق السموات والأرض، ولم يكن يعرف نبي الله إبراهيم اسم الخالق، ولكنه يعرف جيداً أن هذا الكون لا بد له من خالق، فتوجه إليه يطلب المساعدة والعون.

هذا المشهد استحق به نبي الله إبراهيم باقتدار أن يكون أمة؛ بسبب تفردّه في هذا العصر، من خلال اعتماده على العقل في الوصول إلى الحقيقة، واستنتاج وجود خالق ليس كمثل شيء، فقط من خلال التدبر وقراءة الكون من حوله:

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة الأنعام: الآيات 79).

هذا التوجه الذي توجهه نبي الله إبراهيم هو أسمى وأنقى صور الإسلام والحنفية، إنه خليط من المعرفة والضمير والفطرة، أنتج تعرفاً على الخالق، والخروج من كل مظاهر الشرك. نلاحظ في هذه الآيات استخدام لفظ الشرك وليس الكفر. الشرك -غالباً- ناتج عن جهل أو خلل معرفي، وارتباك في ترتيب الأولويات، على خلاف الكفر؛ وهو بجد الحقيقة ونكرانها، وعدم الرغبة في الوصول للحقيقة أو اعتناقها.

المشهد الثاني: بلى ليطمئن قلبي

إنه ملهح آخر من ملامح الشخصية العظيمة لهذا النبي الكريم، وكيف أنه في حالة تسبيح مستمر للوصول إلى أعلى درجات اليقين، تسبيح بالمعنى القرآني للتسبيح وهو الحركة المستمرة سواء حركة فكرية دؤوبة من التدبر والتعقل، أو حتى حركة مادية من خلال استكشاف كل ما حوله وبذل الجهد في مقاومة الضلال.

وصل إلى مرحلة علم اليقين والإيمان بالله الخالق، وهو الآن لديه الرغبة في الوصول إلى مرحلة عين اليقين، يريد أن يرى، يريد أن يدرك عقله الحقائق، ومن ثم يطمئن قلبه؛ لذلك طلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى؟:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ خُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 260).

الطبيعة البشرية في حالة حركة مستمرة، وتحاول زيادة الإيمان العقلي، واكتشاف الإيمان الغيبي وتقليل مساحته قدر الإمكان؛ في محاولة منها للوصول إلى حالة الاستقرار. هذه الحقيقة وصفها المشهد القرآني عن نبي الله إبراهيم، وكيف أنه يسعى لليقين الأعلى والدرجة الأعلى من الإيمان؛ وهي درجة عين اليقين. هذا التسبيح، وهذه الحركة الدائمة لا تعني الشك أبداً بمفهومه السلبي، وإنما تعني البحث المستمر لزيادة الجرعة الإيمانية، واستقرارها في النفوس، فالشك سفينة اليقين.

المشهد الثالث: كذلك نجزي المحسنين

لنأتي الآن على مشهد الذبح وتصديق الرؤيا التي رآها نبي الله إبراهيم، فهل أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بذب ابنه؟

الإجابة على سؤال كهذا ليست بالبساطة التي يعتقدونها الكثيرون، فلكي نفهم ما دار لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار حالة المجتمع وقتها ومشاهد حياة نبي الله إبراهيم، وتفرد هذه الشخصية وطبيعتها، التي تحاول دائماً الوصول للحقيقة والوصول إلى الخالق، ومن ثم التقرب إليه بشتى الطرق.

المشاهد التي سقناها تؤكد أن نبي الله إبراهيم جعل من عقله مرجعاً للوصول للحقيقة، وهو دائم البحث عنها، حتى وجد ضالته، وما إن علم نبي الله إبراهيم علم اليقين بوجود الخالق إلا وانتقل لمرحلة أخرى، وهي طلب عين اليقين، وهو ما نلخصه طلبه من ربه؛ أن يريه كيف يحي الموتى.

المشهد الثالث الخاص بالذبح لا يمكن أن يكون خارج هذا السياق؛ إنها محاولة نبي الله إبراهيم التقرب لله عن طريق تقديم قربان له. فكيف اجتهد؟ وكيف حاول التقرب إلى الله؟ وكيف تأثر بعبادات مجتمعه؟ وكيف هداه الله؟ هذه قضيتنا في السطور القادمة.

تلك طبيعة المعرفة التي كلما تكشف منها جزء انتقل الباحث لجزء آخر يريد أن يكتشفه ويفهم أبعاده. في محاولات نبي الله إبراهيم الأولى للتعرف على الخالق نجده قد استخدم عقله، وظل يبحث في المجسمات، مثل الكواكب والقمر والشمس، حتى وصل إلى أن الله لا يمكن تجسيده، وهذا التجسيد كان سائداً في عصره؛ لذا ظل يبحث عن الخالق في دائرة التجسيد كما يفعل مجتمعه، حتى هداه الله وخرج منها برجاحة عقل وسلامة قلب.

في المرحلة الثانية يبدو أن مسألة إحياء الموتى كان يدور حولها جدل كبير في ذلك الوقت في مجتمعه أيضاً، بدليل ما دار بينه وبين من آتاه الله الملك، والذي ادعى قدرته على إحياء الموتى، ثم انصراف نبي الله إبراهيم عن هذه الجدلية في ذلك الوقت إلى الاحتجاج بأن الله يأتي بالشمس من المشرق، فهل يستطيع المدعي أن يأتي بالشمس من المغرب؟

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة البقرة: الآية 258).

هذا المشهد القرآني مفعم بالطاقة المعرفية، وقد يرى بعضهم أن هذه الحاجة ليس فيها ما يدعو الرجل الذي آتاه الله الملك أن يصيبه البهت. كل ما هنالك أن إبراهيم ادعى أن الله يأتي بالشمس من المشرق وطلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب، فإذا لو قال له الرجل أنه هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، أو أن الشمس تأتي من المشرق ليست بسبب الإله.

إبراهيم هنا يحتاج بشكل سليم تماماً فهو لديه فكرة مجردة عن الخالق وهي أن الخالق لا بد له أن يحكم كل شيء ويحيط بكل شيء فعندما قال إن الله يأتي بالشمس من المشرق أي أن الذي صمم هذا الكون صممه بأن جعل الشمس تأتي من المشرق فلو كنت أنت حقاً من فعل ذلك فغير اتجاهها . لذلك بهت الرجل لأنه ادعى قدرته ثم تبين عجزه . إبراهيم عليه السلام لم يطلب من الله أن يأتي بالشمس من المغرب لأنه يؤمن بالإله الذي صمم هذا الكون بهذه الطريقة بصورة مجردة ولو ادعى أحد في صورة مجسدة أنه هو الإله فعليه الإثبات بتغيير نواميس الكون الثابتة .

هذه الحاجة لم تكن إثبات وجود الله بمفهومنا المعاصر بل كانت نقض فكرة ادعاء الإلهية من قبل هذا الشخص المغرور .

لقد كانت فكرة الإله لدى نبي الله إبراهيم مجردة بشكل لم يسبق له مثيل بل لن أكون مبالغ إذا قلت أن هذه الفكرة لم نصل إليها بعد .

فكرة الذي يؤول إليه كل شيء دون تجسيد ، فكرة الكيان الذي يملك كل شيء ويسير كل شيء وفق نظام محكم وقوانين صارمة . فكرة بعيدة تماماً عن فكرة الجدال العقيم وتصور فكرة العرش وتجسيم الإله وعلم الكلام البدائي غير القادر على التحليق بعيداً للوصول لفكرة نبي الله إبراهيم كما حكاه القرآن .

فكرة الله وإسم الله هو معنى مجرد تماماً يصف من تؤول إليه كل الأشياء وهو مصدر كل الأشياء والقرآن هو أحد العلامتين الدال على هذه الفكرة . الذين يؤمنون بوجود سبب للخلق أو نظام دقيق للكون هم في الحقيقة أقرب لفهم وجود الله الخالق ولكن فقط يحتاجون إلى تهذيب الفكرة .

تصورات رجال الدين في كل الأديان بدون استثناء هي فكرة أقرب إلى التجسيد منها لفكرة نبي الله إبراهيم عن الإله . باختصار شديد هو البديع الذي نظم الأشياء بهذه الدقة وأنا أو من بوجوده وأؤمن أنه يطلب منا استخدام العقل بكل قوة لفهم سر وجودنا ومغزاه ومآلنا

ونحاول الوصول إليه. كل الذين رفضوا العقل ورفضوا المحاولة هم أبعد ما يكون عن ملة إبراهيم التي ارتضاها الخالق البديع كطريقة سليمة للوصول إليه.

هذا المشهد يعطينا لمحة عن شخصية نبي الله إبراهيم فهو الباحث عن الحقيقة وقد كان هنا في مشهد المحاجة باحثاً عن الحقيقة ولا شئ سوى الحقيقة. ها هو يطلب من الرجل أن يأتي بدليل على صدق ادعائه ولم يعرض عنه أو يقول له اتق الله على سبيل المثال، أو خوفه بالله بأي شكل من الأشكال. إنها شخصيته الفريدة الباحثة عن الحقيقة المتطلعة للمعرفة بكل قوة.

مشاهد نبي الله إبراهيم مثال واضح على تفاعلٍ محتدم في نفس نبي الله إبراهيم، طرفاه عقله ويقينه من ناحية، والسائد في مجتمعه، وأفكار بيئته من ناحية أخرى. مشهد ذبح الابن لم يمكن فهمه بمعزل عن هذه الشخصية وتلك المشاهد العظيمة، وخصوصاً أن الله سبحانه وتعالى لم يقل صراحةً في كتاب الله إنه أمر إبراهيم بالذبح، وكل ما جاء في هذا المشهد هو قول نبي الله إبراهيم إنه رأى في المنام أن يذبح ابنه. إلى جانب المشاهد القرآنية العظيمة التي ألفت الضوء على شخصية نبي الله إبراهيم، يلزمنا إلقاء الضوء على تاريخ القرابين وتطورها، وكذلك لمحة عن علم النفس، وماذا يقول عن الرؤى والمنام؛ حتى نتكّن من فهم كيف رأى نبي الله إبراهيم مشهد الذبح؟ ولماذا وصفه الله أنه من المحسنين؟

القرابين وتطورها

لا شك أن مسألة تقديم القرابين اليوم بصفة عامة لم تعد فكرة مقبولةً، فما ظنك بفكرة تقديم قرابين بشرية، والتي تعتبر جريمة شنعاء في حق الإنسانية. لكن لو قدر لك العيش في زمن الماضي البعيد ربما كانت فكرة تقديم قرابين بشرية مستساغة، ولم تكن منفرة بالشكل الذي نراه نحن اليوم، وهذا النفور من تلك العادة -والتي لا شك أنها من صنع الإنسان- لم يكن ليوجد لولا التطور المعرفي والتطور الأخلاقي الذي يغلف حياة الإنسان ويشملها، ويلقي بظلاله على كل جوانبها.

هناك ثلاث محطات رئيسة لفهم هذا التطور الأخلاقي والمعرفي على مدار الإنسانية، وكيف رعى الله سبحانه وتعالى البشرية في طورها البدائي، وكيف وجهها حتى وصلت لمرحلة النضج، التي تُمكِّنها من تويي المسؤولية بالكامل، وأول هذه المحطات هي قربان ابني آدم، وثانيها محاولة ذبح نبي الله إبراهيم ابنه، وثالثها التشريع القرآني الخاتم.

بدأت فكرة تقديم القرابين بصفة عامة مع تولى الإنسان المسؤولية بشكل جزئي على الأرض، ولما لم يكن التطور المعرفي على درجة كبيرة من الوعي، كان لزاماً لكي يستطيع الإنسان فهم المعاني التجريدية أن يتم تجسيد هذه المعاني؛ حتى تكون سهلة الفهم والإدراك.

ظهر هذا التجسيد في قصة آدم وقصة الأكل من الشجرة، وما تبعه من تصوير المعصية في شكل مادي. استمر تجسيد المعاني المجردة مع ابني آدم عندما قربا قرباناً، فتقبل من أحدهما علامة الطاعة، ولم يتقبل من الآخر علامة على معصيته؛ إنه تجسيد أمر مجرد وهو القبول والرفض في صورة حسية.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ^ط قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (سورة المائدة: الآية 27).

لم يكن بالطبع القربان في حالة ابني آدم قرباناً بشرياً بل كان شيئاً مادياً، سواء أكان نوعاً من الزروع أم حيواناً استطاع كل منهما تقديمه لربه لنيل رضاه، وكان علامة قبول أو رفض هذه الطاعة هو نزول نار من السماء تأكل هذا القربان؛ كما نص على ذلك القرآن:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُوْمِنَ لِرِسُوْلٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قَلْقُدُۗهٗ جَاءَ كُرْسُۖلٌ مِّنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (سورة آل عمران: الآية 183).

يبدو من الآية الكريمة أنَّ مسألة تقديم قربان ونزول نار تأكل هذا القربان كانت من الطقوس المعتمدة في بداية البشرية، وقول الناس فيما بعد إنَّ الله عهد إليهم عهداً، ألا يؤمنوا لنبي حتى يأتهم بقربان تأكله النار؛ يشرح ويفصل لماذا كان طقس القربان من الطقوس المعتمدة والمتعارف عليه في بداية البشرية.

في الوقت نفسه نستطيع الإدراك من الآية نفسها أنَّ طقس القربان قد انتهى في ذلك الوقت بنصّ الآية، فقد استغرب الناس أنَّ الرسول المرسل لم يأتِ بالطقس المعتاد. لا يمكن فهم لماذا انتهى طقس القربان إلا من خلال التطور المعرفي لدى البشر، فأصبحت القدرات العقلية لديهم متقدمة نوعاً ما ولا حاجة ماسّة إلى تجسيد هذه المعاني في صورة مادية بهذا الشكل الغزير. لقد أصبح لدى الناس في ذلك الزمان قدرة عقلية على التمييز يستطيعون من خلالها تحديد هل هذا الشخص أهلٌ للرسالة أم أنه أفاق وكاذب.

ليس لدينا الكثير عن الحقبة التي تلت انتهاء طقوس القربان، والنار التي تنزل من السماء لتأكل القربان، سوى ظهور حادثة ذبح إبراهيم عليه السلام لابنه. بالرغم من أنَّ الأمور تبدو واضحة، لكن لا ضيرَ لو استعنا بالأدلة العلمية من الحفريات والنقوش لفهم ماذا حدث بعد ذلك.

من الأدلة المعتبرة على مسألة تقديم القربان البشرية موقع أثري يُسمى (توفة) في تونس في مدينة قرطاج، حيث تم اكتشاف عام 1921م أثناء عمليات تنقيب وحفر مجموعة من الأواني الفخارية، التي تحتوي على رماد و عظام أطفال صغار، وكذلك بقايا حيوانات؛ مما يدلُّ على أنَّ أهل هذه المدينة مارسوا عادة تقديم القربان البشرية، من خلال تقديم القربان إلى النار.

يبدو أنَّ انتهاء طقس القربان لم يرقِّ للإنسان القديم، أو أنه ظنَّ أنَّ الإله غاضب، فحاول الإنسان تقليد هذا الطقس وصنع طقس مماثل يرضيه ويشعره أنه مازال في معية الله،

بالطبع لم يدرك الإنسان أنّ انتهاء طقس القرابين هو من حتميات التطور المعرفي، وأنّ الإنسان قد ترقّى درجة، وأصبح مطلوباً منه الاعتماد بشكل أكبر على عقله وعلى المنطق.

لقد تطور الأمر إلى الأسوأ بسبب تطرف الإنسان؛ فقد كان الأمر مجرد تقديم قرابين غير بشرية مع نزول نار من السماء تأكل القربان، ثم تحول الأمر إلى تقديم قرابين بشرية وصناعة نار بشرية لتأكل هذا القربان، في شكل يحاكي الطقس الأساسي.

إنها محاولة لإرضاء الإله، بسبب الظن أنّ الله غضب عليهم عندما انقطع نزول النار، وانتهت طقوس القرابين. هذه الحاجة جعلتهم يخترعون معابد، وينشئون ناراً، ويقدمون لها قرابينهم، ويبدو أنها كانت قرابين غير بشرية في البداية، ولكن وكعادة البشر عندما تملكهم العاطفة دون العقل، بدأت أشكال أخرى من القرابين في الظهور؛ إمعاناً في التقرب إلى الله، وإعلان الطاعة والخضوع، فظهرت تبعاً لذلك القرابين البشرية كنتيجة طبيعية لتطرف هذا الإنسان.

أثناء عمليات التنقيب والحفر في موقع توفة التونسي عثر الباحثون على شواهد قبور، كُتبت على أحدها المبالغ المالية التي دفعها أحدهم لشراء أطفال؛ لتقديمها قرابين للآلهة، وكذلك يظهر على شواهد أحد القبور كيف أنّ أحد الآباء يفتخر بتقديم ابنه قرباناً للإله.

قصة تقديم القرابين، وخصوصاً القرابين البشرية حاضرة في كثير من الحضارات والحضارة الفرعونية دليل شاهد على ذلك، من خلال ما يسمّى عروس النيل، فقد كان يتم إلقاء فتاة في النيل؛ إرضاءً للآلهة حتى يفيض النيل بالعطاء، وإن كان الباحثون في مختلف العالم متحيرين كيف بدأت قصة القرابين البشرية، وكيف نشأت؟ وما هي دوافعها وأسبابها؟ إلا أنّ القرآن الكريم يقصّ علينا بالحق بدايتها، ثم كيف حرّف الناس هذا المعنى، ووضعوا بصماتهم عليها؛ فصار بهذا العنف والقسوة.

لنعود إلى زمن نبي الله إبراهيم والذي يبدو أنه كان مجتمع يقدم قرابين بشرية. في مثل هذا الجو المفعم بالموروث البشري، لم يكن نبي الله إبراهيم منفصلاً عن واقعه، بل كان دائماً متطلعاً لتقديم أفضل ما لديه للوصول إلى الحقيقة وبذل الجهد في التحري والدقة لعمل المزيد. كما ذكرنا، إنَّ نبي الله إبراهيم يمثل المعرفة المستقلة، والقدرة البشرية الفريدة على الوصول إلى الخالق، من خلال عمليات عقلية غاية في الرقي، وهذا الإصرار على الوصول إلى الخالق ثم الوصول لمرحلة عين اليقين، ومن ثم محاولة إرضاء الخالق، لا يمكن أن يقوم بها إلا من يوصف بالإحسان، وهو بذل قصارى الجهد في الوصول إلى الحقيقة والعمل بها، فبذل الجهد واستمرار السعي بإخلاص بغض النظر عن النتائج هو الإحسان بكل ما تحمل الكلمة من معاني نبيلة. يذكر القرآن قصة الذبح هذه، من خلال الآية الكريمة في سورة الصافات:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (سورة الصافات: الآية 102).

لم يقل نبي الله إبراهيم إنَّ الله أمره بذلك، كل ما في الأمر هو أنه رأى في المنام أنه يذبح ابنه. الرؤى في كتاب الله جاءت في موضعين:

الموضع الأول: مشهد خاص بنبي الله يوسف، وهو عبارة عن استجلاء للمستقبل عن طريق رموز معينة، وفهم هذا النوع من الرؤى الدال على المستقبل، وعلاقته بقوى النفس، يحتاج لجهد كبير، ولا أعتقد أن هذا الجزء يتسع له.

الموضع الثاني: هو المتعلق بحاجات الفرد وانعكاس لتفاعل نفسي مع الحاضر، وهو ما عبر عنه القرآن عندما قص علينا قصة نبي الله إبراهيم.

- النوع الثاني عبر عنه عالم النفس النمساوي الشهير سيجموند فرويد وكذلك كارل يونج إذ اعتقد فرويد أنَّ الناس غالباً ما يجهلون بالأشياء التي يريدونها، ويقول فرويد: إنَّ الرؤيا أو المنام مليء بالمعاني الخفية، ويعتقد أنَّ كلَّ فكرة وفعل ينشآن في البداية في أعماق عقولنا.

هذا التفسير مقبول إلى حد كبير؛ فبالنظر إلى نبي الله إبراهيم وشخصيته الفريدة، وحالة المجتمع الذي يعيش فيه، والتي تعتبر القرايين حالةً من حالات التقرب إلى الله، وكذلك نص الآيات القرآنية التي لم تقطع بأن الله أمر نبي الله إبراهيم بالذبح، سوف نفهم لماذا رأى نبي الله إبراهيم هذا الأمر.

إنه حالة من الطاعة والتقرب إلى الله، ولكنها بنكهة بشرية خالصة والدليل القاطع على أن مسألة الذبح ليست أمراً من الله، وإنما تفاعل نفسي لدى نبي الله إبراهيم، هو عرضه الأمر على ابنه؛ إذ قال له يا بني انظر ماذا ترى، (فَانظُرْ مَاذَا تَرَى) ج. هل تعتقد أن الله أمر نبيه بأمرٍ واضح وجلي، ثم يذهب نبي الله ليعرض الأمر على ابنه ويسأله رأيه؟ فلو كان أمراً لقال له: إن الله أمرني أن أذبحك، وتوقف، ولما قال له: انظر ماذا ترى، فهو يطلب مشورته وردة فعله.

رد الابن يكرس حالة المجتمع وقتها، ونظرة المجتمع لمسألة القربان بشكل عام، فكما ذكرنا أن تقديم القربان ما هو إلا نوع من الطاعة يقدمه البشر بحس معارفهم إرضاءً للإله، فعندما أجاب الابن: افعل ما تؤمر، فهو يعلم أن أبيه لن يقدم على ذبحه هكذا ولكن لأمر ما. لم يقل الأبني افعل ما أمرك الله ولكن أفعل ما تؤمر أي هناك أمر ما، يعلم الابن أن أبيه يريد أن يئمه، وليس معناه أن هناك أمر من الله مباشر بالذبح. الآيات التالية هي تكملة للقصة العظيمة:

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا

ج (105) إِنَّكَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ

(107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

((110)) (سورة الصافات: الآيات 103-110).

فلما أسلما؛ أي: خضع كلُّ منهما لما يعتقد، فني الله إبراهيم يعتقد أن هذا تقربٌ لله وطاعة له، نخضع تماماً وعزم على الفعل، وكذلك ابنه اعتقد أن هذا الامتثال إنما هو لأمر ما لأن ابنيه لن يقدم على أمر عظيم هكذا إلا لحاجة عظيمة.

عندما أصبح كل شيء مهياً للذبح تدخلت العناية الإلهية، بالنداء: قد صدقت الرؤيا، ولم يقل قد استجبت للأمر؛ أي: صدقت رغبتك الداخلية للتقرب إلى الله، مع تصرفك الظاهري، وهذا هو عين الصدق. لقد كان هذا الأمر أسمى درجات الصدق، حيث مطابقة الباطن للظاهر؛ عندما رغب في التضحية بابنه تقرباً لله وهو أمر من أصعب ما يكون على النفس؛ فهو الابن وما أدراك ما الابن.

لقد كانت هذه الحادثة بلاءً مبيناً بحق، ولكن يجب أن نقف دائماً أمام الألفاظ القرآنية، فربنا لم يذكر أنه سبحانه وتعالى ابتلاه أو اختبره، وإنما تعبير (إن هذا هو البلاء المبين) يخص قرار نبي الله إبراهيم بذبح ابنه طاعة لربه، كما هو سائد ومعمول به في ذلك العصر، لقد فرض على نفسه التقرب لله بتقديم ابنه لله، وهنا نرى التدخل الإلهي العظيم؛ لتقويم البشرية، وتصحيح مسارها.

هذا المشهد العظيم هو إعلان من الخالق، ورحمة إلى البشر الذين انحرفوا في مسألة تقديم القرابين، وإعلان نهائي برفض هذا النوع من القرбан، بل إعلان تحول مسمى القرбан إلى مسمى ذبح، وإذا كان القرбан يتم تقديمه لله فالآن قدّموا ذبْحاً من غير الآدميين، ودعكم من مسألة القرابين.

يبدو أن هذا النوع من الذبائح لم يكن يستفيد منه البشر، بأن يأكلوا منها ويستفيدوا بلحومها وجلودها، وظل هذا التقليد بتقديم الذبائح، وكعادة البشرية تم الانحراف مرة أخرى، ثم صار تقديم الذبائح على مجسمات تمثل الإله من وجهة نظرهم، حيث كانت الذبائح تذبح وتوضع هكذا على الأجار دون أي استفادة حقيقية منها.

جاء الأمر الإلهي مرة أخرى في كتاب الله يختم هذه الحقبة، ويضع القول الفصل في القرابين والذبائح، بأن أمر الناس أن يجعلوها بينهم فلا حاجة لله بدمائها ولا للحومها، وتحول الذبح أو الذبائح التي لا يستفيد منها أحد إلى ما يسمى الهدى، لكي يستفيد منها الناس، ويتهادوا منها، ويصير نوعاً من أنواع التكافل والرحمة:

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يُنَالَ اللَّهُ لَحْمَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)) (سورة الحج: الآيات 36-37).

هكذا أسدل الستار نهائياً على مسألة القرابين، ورأينا كيف صار التحول العجيب من القرابين إلى الذبائح، ثم انتهى بالهدى، والذي لا يمكن تفسيره إلا في إطار التطور المعرفي والأخلاقي للإنسان.

إذا كانت المهمة الرئيسة للتطور البيولوجي هي إعداد هذا الإنسان بدنياً؛ ليصبح جاهزاً لتولي المسؤولية الملقاة على عاتقه، فكذلك التطور المعرفي، والذي ختم بالقرآن الكريم، الذي أوحى إلى رسول الله محمد صلوات ربي عليه، تجهيزاً لهذا الإنسان ليصبح ناخباً معرفياً بما فيه الكفاية ليتولى المسؤولية، ويتحقق مفهوم العبودية القرآني الناخب، والذي سوف نتناوله من خلال الفصول القادمة.

الفصل العاشر أمدكم بما تعلمون

بعد بيان مصادر المعرفة؛ من خلال المقارنة بين موقف آدم عليه السلام وموقف ابنه من المعصية، وبعد تحليل مظهر من مظاهر التطور المعرفي؛ من خلال المقارنة بين القربان والذبح والهدي، وبعد تحليل بعض المواقف من حياة نبي الله إبراهيم، سوف نحاول في هذا الفصل تتبع القصص القرآني؛ لفهم مراحل الحضارة الإنسانية.

سوف نحاول رصد ظهور مظاهر الحضارة الإنسانية وبزوغها؛ من خلال تتبع الحوار الذي دار بين الأنبياء وبين أقوامهم. إنها مشاهد بديعة من مشاهد القرآن الكريم، تمنحنا تذكرة دخول مجانية لفهم التطور المعرفي للبشرية، وهو الركن الأساسي للحضارة البشرية.

المرحلة الأولى: آدم عليه السلام

لم يسجل لنا القرآن الكريم أي حوار دار بين آدم ومعاصريه، أو حتى زوجه أو أبنائه، ولم يصلنا إلا حوار بين ابني آدم عندما قدما القربان. كما قد استنتجنا في الفصول السابقة كيف كانت الحياة بدائية؛ فلم يكن هناك أي معرفة قبل ظهور اللغة، وبمجرد قدرة آدم على التعبير عن المسميات، ومع بزوغ فجر الضمير الإنساني رأينا كيف تكونت أول معرفة، وهي معرفة دفن الموتى، على يد أحد أبنائه.

ليس لدينا في كتاب الله أي إشارة إلى معالم هذه المرحلة، والتي تبدو أنها بدائية بشكل كبير؛ لا عمران أو أبنية أو أي مظهر من مظاهر الحضارة وال عمران. مع تقدم الزمن سوف نلاحظ من خلال القصص القرآني وتراكم المعرفة، كيف بدأت معالم الحضارة الإنسانية في البزوغ والتطور. حيث جاء مع كل نبي من الأنبياء مجموعة من التوصيفات نستطيع من خلال تتبعها فهم حالة المجتمع البشري وقتها.

المرحلة الثانية: نبي الله نوح

يبدو من السياق القرآني أنّ مرحلة نبي الله نوح هي المرحلة الأقرب لآدم عليه السلام، ونستطيع رصد أبرز مظاهر هذه المرحلة من خلال المشاهد القرآنية، التي قصّت علينا بعضاً من حياة نبي الله نوح. الحوار الذي دار بينه وبين قومه، والمشاهد والمتعددة في كتاب الله والتي نستطيع تلّسها من خلال سورة الأعراف، وسورة الشعراء، وسورة نوح، حيث أخبرتنا تلك السور عن بعض تفاصيل هذه الحقبة.

نبي الله نوح لم يكلف قومه طقوساً شعائرية، أو معاملات، أو أيّ التزامات أخلاقية محددة، وكل ما طلبه نبي الله نوح من قومه هو توحيد الله والاعتراف بوجود الله وطاعته، من خلال طاعة نبي الله نوح بوصفه نبياً؛ فلا تكليفات ولا مسؤوليات مركبة، بل هو أمرٌ بسيط ومطلب غاية في الوضوح والسهولة.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (سورة الأعراف : آية 59).

الآيات الكريمة في سورة الشعراء تؤكد على فكرة التعرف على الله، وتكرّر الفكرة عن طريق تكرار قول الله (فاتقوا الله وأطيعون) في شكل بسيط من أشكال التعبير المباشر، دون الدخول في تفاصيل، يحاول نبي الله نوح نقل الرسالة الإلهية إلى قومه بشكل بسيط، وتكرار مستمر لعلهم يتذكرون.

(إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (110)) (سورة الشعراء: الآيات 106-110).

فَهُمْ بِسَاطَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ نُوحٌ لَا يُمْكِنُ اسْتِيعَابُهُ بِشَكْلِ كَامِلٍ، إِلَّا عِنْدَ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الرِّسَالِاتِ الْمُتتَالِيَةِ؛ لِذَلِكَ سَوْفَ نَلَاظِظُ تَطَوُّرَ الْخَطَابِ وَالْعِبَارَاتِ، كَمَا تَطَوَّرَتْ وَتَقَدَّمَتِ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ خِلَالِ الرِّسَالِاتِ الَّتِي حَمَلَهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرِّسَالِاتِ فِي الْعَصُورِ الْمُتتَالِيَةِ.

استكمالاً للآيات في سورة الشعراء، سنجد أن قوم نبي الله نوح رغم بساطة الرسالة إلا أنهم لم يتقبلوها، ورفضوا الرسالة دون أدنى نقاش منطقي، في صورة واضحة من صور الانغلاق الفكري. كل ما حدث هو تهديد ووعد من هؤلاء القوم لنبي الله نوح، وطلبوا منه التوقف عن دعوته، وساقوا حجةً في منتهى السذاجة والسطحية، وهي كيف لهم أن يؤمنوا به وقد آمن بنوح الطبقة الدنيا من الناس أو الضعفاء (الأردلون). ليس هناك أي حوار حول الرسالة ومضمونها، وإنما بداية التفكير واضحة في مبرراتهم وفي تكذيبهم:

(قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنَّ

حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (115) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117)) (سورة الشعراء: الآيات 111-117).

وفي سورة نوح كذلك نجد تأكيداً على بساطة وسهولة الرسالة التي بعث الله بها نبيه نوح:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3)) (سورة نوح: الآيات 1-3).

هذه الرسالة البسيطة في مضمونها، العظيمة في محتواها، كانت هي الهدف المباشر من رسالة نبي الله نوح، لقوم يبدو أنهم في مراحل بدائية جداً من التطور البشري. هذه البداية توضحها الآيات التي تشرح كيف كان ردُّ القوم على نبي الله نوح، وكيف كان تعاملهم مع مضمون الرسالة.

لم يطلب القوم بينةً أو دليلاً أو برهاناً على ما يدعوهم إليه أخوهم نوح، ولم يتطرقوا لهذا الأمر؛ فطلب الدليل والبرهان على أمر ما دليلٌ على ارتقاء العقول، على عكس العقول التي ترفض أي فكرة، حتى دون أن يخطر على بالها طلب دليل أو برهان.

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64)) (سورة الأعراف: الآيات 60-64).

استمرار محاولات نبي الله نوح في إيصال الرسالة البسيطة إلى قومه، القائمة فقط على توحيد الله والاعتراف بوجوده، تحطمت على وقع تلك العقول البدائية التي ترفض النظر في الفكرة، ولا يخطر على بالها طلب دليل أو برهان، لقد رفضت هذه العقول الفكرة دون أي إحساس بالمسؤولية، متهمّةً حاملها بالضلال والكذب.

أمثال هذه العقول ما زلنا نعاني منها، وما زال وقع كل تلك السنين لم يغير من تركيبها الفكري شيئاً، فتراها ترفض الفكرة، وتكذب صاحبها، وتتهمه بالضلال، دون أن يخطر على بالها بحث الأمر، أو طلب التوضيح، أو الفهم.

سوف نرى تغيير الخطاب مع الأقسام المتتابعة، وكيف ارتقت العقول شيئاً فشيئاً مع كل حوار دار بين نبي من الأنبياء وقومه. عصرنا الحديث يحمل كل هذه الأنماط الفكرية التي تمثل تلك الحقب التاريخية التي قصّها القرآن من خلال أحسن القصص، وأكثر تلك الأنماط انحطاطاً وبدائيةً على الإطلاق هو نمط ونموذج قوم نوح، الذي يرفض الفكرة مباشرة متهمّاً حاملها بالكذب والضلال.

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7)) (سورة نوح: الآيات 6-7).

هذه الآية الكريمة تُثبت كيف تعاملت هذه العقول البدائية مع الدعوة البسيطة، فهم لم يمنحوا أنفسهم الفرصة لفهم ما يقول النبي، بل كان ردُّ فعلهم مبالغة في العناد والجهل، عندما جعلوا أصابعهم في آذانهم، ولم يرغبوا حتى بسماع فكر مختلف. هذا النمط غير قابل للتعلم؛ بسبب قدراته العقلية المتواضعة، وهو في الحقيقة خطر على البشرية؛ لما يحمله من قناعة زائفة بالمعرفة، وغرور بامتلاك الحقيقة.

لقد كان الرد الإلهي مزلزلاً على هذه النماذج، إذ إنَّ أكبر عملية انتقام وتصفية وصلتنا عبر التاريخ كانت لمثل هذه النماذج، من خلال طوفان لا يرحم، يقتلعهم ويلقيهم في مزابل التاريخ.

إنَّ الاستسلام للهورث السائد دون أي محاولة حقيقية للمعرفة، والثقة الزائدة فيما قاله السابقون دون سند حقيقي، ورفض أيِّ محاولة نقدية قائمة على الدليل والبرهان، هي في الحقيقة انتحار فكري، وموت دماغي، مصيره الاجتثاث والغرق في طوفان الجهل.

إذا كانت مرحلة آدم ومعاصريه تشبه بشكل كبير مرحلة الطفل الصغير في بداية تعلم النطق، ونظم جمل قصيرة، فإنَّ مرحلة نبي الله نوح وقومه تشبه بشكل كبير المرحلة التالية في الطفولة، من سن ثلاث سنوات، والتي تتميز بالعناد والتمرد وفعل أشياء دون هدف، ورفض مستمر دون مبرر حقيقي.

يبدو أن اقتلاع هؤلاء القوم كان بسبب تحجر أدمغتهم، ورفضهم للمعرفة، وإصرارهم على ما يعتقدون؛ وإذا توقفت المعرفة وظن أهلها أنهم مكتفون، يصبح بقاؤهم من غير فائدة، ويصبح أمر فناءهم مسألة وقت لا أكثر.

إذا كان النمط الفكري للبشرية في حقبة نبي الله نوح كما رأينا، فما هو نمط الحياة في ذلك الوقت؟ يمكن تصور شكل الحياة من خلال حوار نبي الله نوح مع قومه، وطريقة ترغيه لهم، فهو يضرب الأمثال من البيئة التي يعيش فيها هو وقومه.

يدلل نبي الله نوح على وجود ربه من خلال مثال خلق السموات والقمر الشمس، ومن خلال مثال خلق الأرض وانبساطها أمامهم، فهذه صورة بسيطة للحياة، ليس فيها أي ذكر للعمران أو الزراعة، أو أي مظهر من مظاهر الحضارة التي نعرفها. من خلال تتبع قصة نبي الله نوح في كتاب الله، لا نجد هناك أي ذكر لأي نشاط حضاري، بخلاف ما كان في العصور اللاحقة على يد الأنبياء الذين جاؤوا بعد ذلك:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا خِجَابًا (20)) (سورة نوح: الآيات 13-20).

المرحلة الثالثة: نبي الله هود

سوف نحاول رصد التطور الاجتماعي، والبنية المعرفية للبشرية في مرحلة نبي الله هود، من خلال ثلاثة مواضع في كتاب الله، والتي تعطينا معلومات غزيرة عن تطور العقل البشري عن المرحلة السابقة، مرحلة نبي الله نوح:

الموضع الأول الذي وردت فيه قصة قوم هود هي سورة الأعراف:

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ

أَمِينٌ (68) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ^ج وَادُّرُكُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً^ط فَادُّرُكُوا الْآءَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ^ط أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (71)) (سورة الأعراف: الآيات 65-71).

في هذه الآيات الكريمة نرى تطور خطاب نبي الله هود، وكذلك تطور خطاب قومه، فبينما كان رفض قوم نوح الرسالة بإصرار وثبات، دون أيِّ فرصة للاستماع، نجد هنا أن قوم هود استخدموا لفظ [لنظنك من الكاذبين].

الرقبي الذي أصاب العقول عمل على خلخلة التحجر، وبدلاً من اليقين النهائي بكذب الرسالة من الأساس، تحوّل الأمر إلى الظنّ بتكذيب المرسل نفسه، ورغم قولهم (اعتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) دليلاً على تعنتهم، فهو أيضاً دليلٌ على تطور إدراكهم، فقد أدركوا أنّ تكذيب الرسالة الصادقة قد يصيبهم بالعذاب، وكانت مشكلتهم الأساسية هي تكذيب النبي نفسه، وعدم ثقتهم فيما يقوله.

هذا النمط الفكري لم يقبل الحق، معتمداً موقفاً شخصياً من النبي المرسل، فهم لم يطلبوا آية أو دليلاً على صدقه مثل أسلافهم، بل استعجلوا العذاب ثقة في أنه من الكاذبين.

نمط الحياة في عهد نبي الله هود تخبرنا به الآيات في سورة الشعراء، فقد أصبح المجتمع أكثر تطوراً، ومظاهر الحضارة بدأت في الظهور، وأول مظاهر هذه الحضارة البشرية جاءت كما أخبر القرآن، متمثلة في بناء البيوت، وصناعة أدوات تساعدهم في حياتهم.

(كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)) (سورة الشعراء: الآيات 123-129).

لم يرد ذكر البنيان أو العمران خلال قصة نوح عليه السلام كما ذكرنا؛ مما يدل على بدائية المجتمعات، على خلاف الفترة الزمنية التي عاش فيها قوم هود، والتي ظهر فيها البنيان، وظهرت المصانع، وليس هناك خلاف في أن المقصود بقوله تعالى (تبنون بكل ريع آية): تعني البنيان. أما بخصوص اتخاذ المصانع فالأمر مختلف، فقد جاء في التفاسير القديمة أن المقصود بالمصانع بناء أيضاً، أو قصور مشيدة. لو حاولنا فهم كلمة [مصانع] فلا بد أن نعود لجذر الكلمة، وهو [صنع]، ولها أصل واحد، هو عمل الشيء صنعاً، كما جاء في قاموس اللغة لابن فارس. أما كلمة [صنع] فقد وردت في كتاب الله سبع عشرة مرة، وسوف نعرض ثلاث آيات؛ لبيان مدلول كلمة [صنع] ومن ثم [مصانع]:

(وَأَلَّتِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) (سورة طه: الآية 69).

كلمة [صنع] هنا تدل على عمل شيء بشكل احترافي.

(وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) (سورة الأنبياء: آية 80).

صنعة لبوس؛ أي: عمل لبوس، وكلمة [علمناه] - كما ذكرنا من قبل - خاصة بكيفية عمل الأشياء؛ مما يدل هنا على تعلم وإتقان حرفة صناعة اللبوس (الأدرع).

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (سورة النمل: الآية 88).

هذه الآية لم تدع مجالاً للتخمين، وأظهرت مدلول كلمة [صنع]، وهي عمل شيء مع الإتيان، أو كما ذكرنا عمل الشيء بشكل احترافي. على ذلك تكون المصانع هي الأماكن التي يتم عمل الأشياء فيها بشكل احترافي، ولو حاولنا تقريب المعنى فهي الورش، أو المصانع بالتعبير العصري.

من خلال الآيات الكريمة والتي تلقي الضوء على فترة من فترات البشرية سنجد أن ظهور البنیان وظهور الصناعة بمفهومه البسيط قد ظهر في هذه الفترة والتي كانت معاصرة لنبي الله هود. ليس هناك أي إشارة للزراعة أو التجارة، ولكن سوف نلاحظ ظهورهما في مراحل متقدمة من تطور البشرية.

ليس معنى لفظ [مصانع] هو ظهور الصناعة بمفهومه المتقدم، ولكن المقصود هو قدرة الإنسان على صناعة أدوات تساعده في حياته، والتي كانت متمحورة حول البنیان والصيد غالباً، وقد تكون هذه الورش التي استحدثها قوم هود هي أماكن لصناعة بعض الأدوات البسيطة، سواء خشبية أو حجرية؛ وذلك لمساعدتهم في البناء، أو في طلب الغذاء.

الآيات الكريمة التالية في سورة هود تعرض مشهداً آخر من مشاهد التطور العقلي للبشرية وقتئذ:

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ^ط قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا ^ط

مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَمَلَأَ جَاءَ أَمْرُنَا نَجِينًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِينَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ آيَاتُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)) (سورة هود: الآيات 50-60).

لقد تطورَّ العقل قليلاً كما ذكرنا، وها هم قوم هود يقولون لنبيهم ما جئتنا ببينة، ورغم عدم طلبهم البينة على ما يقول إلا أنهم قالوا له ما جئتنا ببينة؛ فإن كان حدث رقي في التفكير قليلاً إلا أنه الجحود الفكري، المتمثل في إنكار وجود دليل أو برهان على صدق الرسالة. من الواضح أن هناك آياتٍ وعلامات أرسلها الله لهؤلاء القوم، وهذه سنة الله في خلقه أن يرسل رسائل وآيات؛ حتى يستبين الناس الحق، ولكن قوم هود جحدوا تلك الآيات ولم يعترفوا بها. لقد ظل قوم هود متمسكين بتكذيب الرسالة؛ بحجة عدم كفاية البينات والأدلة على صدق الرسالة، وهذا الجحود هو في حد ذاته دليلٌ تطور، إذ إنهم عرفوا البينات، ولكنهم جحدوها وكذبوها، على خلاف الأقسام الذين لا يدركون معنى الدليل والبرهان، ولا يقيمون له وزناً من الأساس.

(وَتِلْكَ آيَاتُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (سورة هود: الآية 59).

المرحلة الرابعة: نبي الله صالح

من خلال تتبُّع حقبة نبي الله صالح، والحديث عن دليل واضح، وهو الناقة التي حذّر نبي الله صالح قومه من المساس بها؛ يتضح لنا أنّ عهداً جديداً قد بدأ. يبدو أنّ التدخل الإلهي المباشر في إرسال الدلائل والبراهين إلى البشرية قد انتهى، وتحوّل إرسال الدلائل من خلال الرسول نفسه، والمثال الأبرز على التدخل المباشر، هو قصة القوم الذين قالوا: إن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار.

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمْ تَكْفُرُوا بِهِ لَقَدْ قَاتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (سورة آل عمران : آية 183).

حقبة نبي الله صالح تؤرِّخ لعهد الأدلة المادية عن طريق الرسول نفسه، بحيث يخبر الرسول عن ربه دون الحاجة لتدخل مباشر، ولم يتقبل قوم نبي الله صالح ذلك الأمر بسهولة، ولكنهم كذبوا واستهزؤوا بما جاءهم به صالح، واعتقدوا أنّ صالحاً ليس مرسلًا من ربه.

(وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِهِ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ) (سورة الأعراف : آية 73).

مع أنّ صالحاً حذّرهم من المساس بالناقة إلا أنّهم استخفُّوا بتحذيره، وأجمعوا على نبد هذه الآية ورفضها، فجاء العقاب حاضراً وسريعاً ليكونوا عبرة لمن يأتي خلفهم.

(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (77) فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ

لَقَدْ أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (79)) (سورة الأعراف: الآيات 77-79).

من ناحية أخرى، الحوار الذي دار بين القوم بعضهم بعضاً يدل على هذا التطور العقلي، حين يسأل المستكبرون من قومه المؤمنين من قومه: هل تعلمون أن صالحاً مرسل من الله؟ فيرد المؤمنون بكل بساطة: إنا مؤمنون بما يقوله، إنها المراحل الأولى للإيمان بالفكرة بغض النظر عن جذورها. صالح بالنسبة لهم جاء بأشياء معقولة ومقبولة، ليس فيها أذى أو ضرر لأحد، ويدعوهم لأشياء صالحة؛ لذلك آمن به فئة من قومه، وإن كان المؤمنون لم يصرحوا بشكل واضح أنهم يعلمون أن صالحاً مرسل من ربه، فهذه العملية غيبية، وتحتاج لقدرات عقلية راقية، تمكنهم من ربط الأشياء بعضها ببعض، واستنتاج نتيجة، إلا أن الإيمان بالفكرة والمبادئ التي جاء بها صالح هو أمر منطقي لديهم؛ لأنها - ببساطة - مبادئ سليمة ومنطقية. لقد وافقت المفاهيم التي جاء بها صالح المفاهيم العقلية لديهم فآمنوا بها أما الذين استكبروا فكان لديهم حساباتهم الخاصة.

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75)) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنَّا بِهِ كَافِرُونَ (76)) (سورة الأعراف: آيات 75-76).

هذان النموذجان؛ وأقصد النموذج المؤمن والنموذج الكافر من قوم نبي الله صالح، يمثّلان نمطين فكريين متقابلين؛ فبينما يؤمن المؤمنون بالفكرة بغض النظر عن مصدرها، في حالة سامية تحاول الانفكاك من التشخيص، نجد أن النمط الكافر يشخص الأمور، ويحصر الفكرة في قائلها، ويرفضها بناءً على تصوره الشخصي عن مصدر الفكرة.

لا يمكن أن يفوتنا هنا التنوع والتطور الذي حدث من خلال وجود نمطين فكريين مختلفين، يحمل كل منهما رؤية وقدرة على التعبير عن أفكاره.

في حالة نبي الله نوح وهود لم نر حواراً بين مجموعات منفصلة، كل منها يحمل تصوراً معيناً، بل كان الحديث منصباً بين الرسول وبين قومه، وفي الفترة الزمنية التي سجلها لنا القرآن الكريم خلال حقبة نبي الله صالح ظهر جلياً تنوع الأنماط الفكرية، وتمّ بالفعل خلخلة النمط الواحد ليعطي نمطين مختلفين، فهذا التنوع في الأنماط الفكرية في المجتمعات هو دليل قوي على التطور الفكري لهذه المجتمعات، حتى وإن كانت لا تزال في بدايتها.

الآيات الكريمة في سورة الأعراف أيضاً تعطينا لمحة عن شكل المجتمع وتطور بنائه، فمجتمع نوح عليه السلام كان مجتمعاً بدائياً، لم يظهر فيه شيء من العمران أو أي شكل من أشكال التطور الاجتماعي.

إلا أنّ الحقبة الزمنية التي عاش فيها قوم هود ظهر فيها نوع من أنواع البنيان، وكذلك شكل من أشكال الصناعة، وعلى الصعيد نفسه نجد أنّ حقبة قوم صالح حدث فيها تطور واضح في عملية البناء، وأصبحت المنازل أكثر رقياً وتقدماً، وهذا الذي أشار إليه القرآن بالقول: (تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً).

(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (سورة الأعراف : الآية 74).

أيضاً من خلال سورة هود سنجد أنّ القوم يقولون لصالح: إنهم في شك مما يدعوهم إليه، والشك في حد ذاته هو مرحلة أرقى في التفكير من مرحلة الرفض القاطع، الذي واجهه نبي الله نوح، على سبيل المثال؛ لأنّ الشك يفتح باب الاحتمال، ويصدر من عقول متقدمة، بينما القطع والجزم لا يصدر إلا من عقول متحجرة، يصعب مناقشتها ومحاورتها.

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (سورة هود : آية 62).

من خلال سورة الشعراء أيضاً، يعطينا كتاب الله صورة وملاح عن الحياة في هذا العصر، والتي كما قلنا تميّزت بتطور عملية البناء والمساكن، ولكن الآيات لا تشير إلى أن الزراعة بدأت بعد، بل تشير إلى جنات وزروع ليس هناك دخل للإنسان فيها.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُركُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنخِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)) (سورة الشعراء : الآيات 145-149).

أغلب الظن أن كثافة الزروع ونموها بدون تدخل الإنسان قد أجلت حاجة الإنسان للزراعة، فلم تكن هناك حاجة ملحة للزراعة في ظل وفرة كثيفة من الزروع والثمار والنخيل حولهم.

المرحلة الخامسة: نبي الله إبراهيم

مرحلة نبي الله إبراهيم من المحطات الرئيسة في تاريخ البشرية، وقد تحدثنا في الفصل السابق عن مشاهد عظيمة في حياة نبي الله إبراهيم.

إن أهم ملح من ملاح هذه الفترة هو قدرة العقل البشري على الخروج من مرحلة التجسيد إلى مرحلة التجريد، والتي تمثلت في قدرة نبي الله إبراهيم على الوصول لوجود الخالق، اعتماداً على القدرات العقلية والمنطقية، لذلك استحق نبي الله لقب أمة عن جدارة؛ فلقد كان متفرداً في تصرفاته، وفي بحثه عن الحقيقة، وفي هذه الحقبة نلاحظ ظهور لوط عليه السلام، بالتزامن مع نبي الله إبراهيم، كما جاء في سورة العنكبوت:

(وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ^ط ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (16) إنما
تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون ^ج إفاً إن الذين تعبّدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ^ط إليه ترجعون (17) وإن تكذبوا فقد كذب
أمر من قبلكم ^ط وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين (18) أولم يروا كيف بيّدئ الله الخلق
ثم يعيده إن ^ج ذلك على الله يسير (19) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ^ج ثم
الله ينشئ النشأة الآخرة إن ^ج الله على كل شيء قدير (20) يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ^ط
وإليه تqlبون (21) وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي
ولا نصير (22) والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب
أليم (23) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقه فأنجاه الله من النار إن ^ج في ذلك
لآيات لقوم يؤمنون (24) وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم
القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وما أولئك النار وما لكم من ناصرين (25) فآمن
له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم (26) ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا
في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (27)) (سورة
العنكبوت: الآيات 16-27).

هذا التزام الواضح بين زمن نبي الله إبراهيم و زمن لوط، يبدو أنه إشارة إلى تنوع
المجتمعات وانتشارها، أو ما يمكن أن نسميه البذرة الأولى لنشوء الحضارات المختلفة؛ فهذا نحن

نرى نبي الله إبراهيم يقوم داعياً في قومه، وفي الوقت نفسه يوجد مجتمع آخر مختلف تماماً، يقوم فيه لوط داعياً ومنذراً .

سوف نلاحظ أنّ لوطاً عليه السلام كان من أتباع نبي الله إبراهيم، وليس هناك آية صريحة في كتاب الله تقول: إنا أرسلنا لوطاً، كما جاء هذا التعبير القرآني مع نوح وموسى، أو أيّ إشارات بالرسالة كما باقي الأنبياء.

آية وحيدة تقول: إنّ لوطاً من المرسلين، في سورة الصافات:
(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) (سورة الصافات : الآية 133).

فهل تعبير (من المرسلين) تعني أنه يحمل رسالة من الله، أم يحمل رسالة من إبراهيم، وخصوصاً أنّ الله يقول عن إبراهيم: (فأمن له لوط)؟

(فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قد يكون لوط رسولاً من الله، ولكن يجب أن نتساءل: لماذا عندما صدر الأمر الإلهي بهلاك قوم لوط لم يتم إخبار لوط بذلك بطريقة مباشرة؟ وما حدث أنّ الله أخبر إبراهيم بهلاك هؤلاء القوم، حتى إنّ نبي الله إبراهيم جادل عن القوم، كما حكى القرآن، وقال إنّ فيها لوطاً وأهله:

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

لَحَلِيمٌ أُوَّاهٌ مِّنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)) (سورة هود: الآيات 74-76).

حتى إنّ رسل الله الذين أرسلوا لهلاك قوم لوط ليسوا رسل رسالة، ولوط نفسه لم يعرفهم، وكانوا فقط رسل هلاك، فقد جاء في القرآن أنّ الرسل كانوا مرسلين لقوم لوط، وليس للوط نفسه، وكانت لهم وظيفة محددة، وهي تدمير قوم لوط:

(فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ) (سورة هود : الآية 70).

نحن هنا لا نجزم بكون لوط رسول من رب العالمين أو أنه كان يحمل رسالة إبراهيم التي آمن بها، وحاول حملها إلى قومه، ولو سلّمنا بفكرة إيمان لوط لإبراهيم، وحمله رسالة إلى قومه، فهذا دليل قوي على تطور العقل، وظهور فكرة الأستاذية أو المعلم، فقد صار إبراهيم أستاذاً للوط، وقدرة لوط على فهم الرسالة وحملها إلى قوم آخرين هو نقلة نوعية في تطور البشرية.

المرحلة السادسة: نبي الله شعيب

ننتقل الآن إلى حقبة صارت فيها المصالح تحكم التفكير، فعندما مس الإصلاح مصالحتهم وقفوا له بالمرصاد، وقالوها بكل صراحة: (لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۗ وَادْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ ۗ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يُحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أُولَٰئِكَ كَارِهِينَ (88) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۗ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

(89) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعُمُ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (93) (سورة الأعراف : الآيات 85-93).

سوف نلاحظ من خلال الآيات الكريمة بزوغ نجم النشاط التجاري، والذي تمثل في الكيل والميزان الذي أشار إليه القرآن.. يبدو أن التجارة تبلورت في هذا العصر، وبدأت تأخذ شكلاً متطوراً حتى إن عملية الكيل والميزان -وهي نوع من القياس المتطور- أصبحت سمة هذا العصر، ولقد اقترنت قصة شعيب دائماً بالكيل والميزان؛ دلالة على النشاط التجاري الواضح في هذا العصر.

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183)) (سورة الشعراء: الآيات 176-182).

في سورة هود سنجد أن رفض أهل مدين الصلاح كان رفضاً مرئياً؛ فقد كان رفض الانصياع لشعيب قائماً على عدم معقولية أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وكذلك الإضرار بمصالحهم من وجهة نظرهم.

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (سورة هود: الآية 87).

لقد ظهر للمرة الأولى رفض الطاعة بسبب المصالح، وهذا إن دلّ فإنه يدلُّ على تطور فكري، بغضِّ النظر عن النتيجة وهي كفرهم، ولكنه كفر مبرر من وجهة نظرهم. حديث شعيب عليه السلام إلى مدين كان معقولاً بعض الشيء بالنسبة إليهم، ودليل ذلك أنهم قالوا له: إنهم لا يفقهون كثيراً مما يقول، مما يعني أنهم يفقهون بعض ما يقول، ولكنه الكبر الذي أفسد طاعتهم.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۚ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ (سورة هود: الآية 91).

هذا النمط الفكري منتشر في المجتمعات ذات المصالح المتشابكة، فمعرفة الحق ليست عصية، ولكن بسبب المصالح يتم إنكار الحق؛ خوفاً من كساد مصالحهم. لقد نضجت البشرية درجة، ولكن ما زال أمامها الكثير والكثير.

المرحلة السابعة: نبي الله يوسف

لقد حدثت تحولات عظيمة بعد فترة نبي الله إبراهيم، وتتابع الأنبياء، وحدث تطور مشهود ومتسارع، ويظهر ذلك جلياً من كثرة عدد الأنبياء بعد نبي الله إبراهيم، وأغلبهم من نسله.

لقد تبلورت فكرة العبادة، وفكرة الخالق في العقول، وها هو نبي الله يعقوب يوصي أولاده بالإيمان بالله، وقد أجابوه على ذلك عندما قال لهم: ماذا تعبدون من بعدي؟ فكان ردهم: إلهك وإله آبائك.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة: الآية 133).

يبدو أنها كانت فترة استقرار نوعاً ما، وانتشار لفكرة الإله، وهذا ما نلاحظه من تتبع قصة نبي الله يوسف، وكيف كان داعياً لله في السجن، ولم ينكر أحد عليه ذلك، بل يبدو أن الأمر كان متقبلاً نوعاً ما، ولم يحدث جحود أو إنكار أو اتهام، كما حدث من قبل:

(يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)) (سورة يوسف: الآيات 39-40).

يبدو أن هذا الاستقرار جاء بسبب تطور العقول نوعاً ما، وقدرتها على تقبل الأفكار التجريدية بسهولة عن السابق. هذه الحقبة تميزت ببعض التحولات وبعض الأنشطة، التي أدت إلى استقرار المجتمعات، فالنشاط الذي أدى إلى استقرار المجتمعات، وبالتالي تكوين حضارات ونظام حكم، هو بالتأكيد النشاط الزراعي، الذي وردت الإشارة إليه في قصة نبي الله يوسف، والظهور الأول للزراعة جاء من خلال لفظ [تزرعون] الذي ذكره نبي الله يوسف عندما أول رؤيا الملك:

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) (سورة يوسف: آية 47).

قد يساور البعض الشك حول قيام الزراعة في عهد نبي الله يوسف، ولكن ما يمكن قوله إن بدايات الأشياء تختلف عن جدول الضرب، وتطور الحضارة ليست معادلة من الدرجة الثانية، وإنما هي مصفوفة متكاملة من التفاعلات المتراكمة، تؤدي بالنهاية إلى بزوغ فجر أحد أركان هذه الحضارة.

قد تكون الزراعة سبقت قليلاً، ولكن استقرارها كان لا يتعدى حقبة نبي الله يوسف بقليل، وأيضاً لا شك أن الزراعة جاءت بعد مرحلة البنيان، وبعد مرحلة الصناعة (الأدوات البسيطة المساعدة في عمليات البناء والصيد)، وكذلك بعد بزوغ فجر التجارة.

لقد جاءت الزراعة متأخرة قليلاً، وربما ذلك بسبب عدم حاجة الناس لمجهود الزراعة الشاق؛ في ظل وفرة من الفواكه والمزروعات التي تنمو بدون تدخل بشري. لكن على ما يبدو أن زيادة عدد البشرية وتمركزهم في تجمعات ضخمة دفعهم لاستحداث طريقة لتوفير الغذاء، فجاءت الزراعة لترجم هذا الاحتياج.

يبدو أيضاً أن المجتمعات قد تكاثرت بالشكل الذي لا يمكن معه الاكتفاء الغذائي بدون زراعة، وهذا ما ترجمه رؤيا الملك، وانزعاجه من هذه الرؤيا، وما تبع هذه الرؤيا من تفسير نبي الله يوسف لها:

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) (سورة يوسف: آية 43).

هذه الرؤيا كانت سبباً مباشراً في تنصيب يوسف عليه السلام عزيزاً على مصر، وتحكي سورة يوسف من ضمن فصولها دورة فيضان النيل، وكيف يمكن أن تتسبب هذه الدورة في هلاك أمم، إن حدث فيها خلل.

يبدو جلياً أن فهم دورة الفيضان هذه من أهم أسباب تطور الحضارة فيما بعد، فمن خلال فهم هذه الدورة استطاع يوسف عليه السلام تخزين الحبوب، وتلافي موسم الجفاف والقحط، وانتقل هذا الإجراء الوقائي إلى الأجيال المتعاقبة كما سوف نرى.

إننا هنا نتحدث عن فترات عجاف، فترات قاتلة ومهلكة حقاً، ونادرة الحدوث، ولكنها إذا حدثت أهلكت الحرث والنسل. نحن لا نتحدث عن فترات جفاف عادية، ولكن الحديث عن فترات لا تبقي ولا تذر، ولدينا شاهد على مثل هذه الفترات من خلال قصة الرؤيا التي

رآها الملك، واحتاط لها نبي الله يوسف ، وكذلك من خلال التاريخ فيما يعرف: بالشدة المستنصرية.

الشدة المستنصرية

يقول المؤرخون عن الشدة المستنصرية إنها كانت أقرب للخيال حتى إنَّ الناس ظنوا أنَّ القيامة قد حانت؛ فقد أكل الناس القطط والكلاب والميتة. وأكل بعضهم بعضاً وكان يتم اصطياد الناس من الطرقات لغرض أكلها.

يقول المقرئ عن هذه الشدة: لقد تصحَّرت الأرض، وهلك الحرث والنسل، وخطف الخبز من على رؤوس الخبازين، حتى إنَّ وزير الدولة ذهب للتحقيق في أمر ما على بغلة له، فخطف الناس البغلة وأكلوها، ولما علم الوزير بذلك قبض على المتهمين، وكانوا ثلاثة، ثم صلبهم ليكونوا عبرة للناس، ولما أصبح وجد أنَّ الناس قد أكلوا المصلوبين، ولم يتبق منهم إلا الهياكل العظمية، وتبعاً للمؤرخين فقد أبادت هذه الشدة ثلثي الشعب المصري، واستمرت هذه الشدة ما يقرب من سبع سنوات.

سوف نجد أنَّ رقم سبعة قد تكرر في رؤيا الملك، والتي فسَّرها نبي الله يوسف على أنها سبع سنوات غزيرة المطر، ثم سبع عجاف ليس فيها مطر، أو سنوات جفاف:

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48)) (سورة يوسف: الآيات 47-48).

كلمة [دأب] كما في قاموس اللغة تعني المداومة، ويقال دأب الرجل، أي: جدَّ في عمله، وكلمة [شداد] أصلها: شدَّ، وتعني: القوة في الشيء، ويبدو أنَّ هذه السنين شداد على غير العادة، إذاً كلمة [دأب] توحى بغزارة الأمطار التي تنج عنها الزراعة في السنين السبع الأولى، بينما السبع التالية كانت قاحلة بشكل مبالغ فيه.

بالرجوع إلى الجغرافيا المائية سنجد أنّ دورة الفيضان الطبيعية الخاصة بنهر النيل هي 20 عام: سبع سنوات غزيرة المطر، ست سنوات متوسطة المطر، ثم سبع سنوات شحيحة المطر، أو ما يسمى بالجفاف، فهذه الدورة الطبيعية للفيضان، والتي كان يحترز منها سكان وادي النيل بتخزين الحبوب لفترات طويلة، حتى إذا حضرت سنوات شحّ المطر استفادوا من مخزونهم هذه الغلال.

يبدو أنّ تقليد تخزين الحبوب مصدره يوسف عليه السلام، عندما أشار على الملك بتخزين الحبوب؛ بسبب السنوات العجاف المنتظرة، فهو إجراء احترازي من السنوات العجاف، وهذا التقليد سوف نلاحظ صداه من خلال المؤرخين الذين كتبوا عن الشدة المستنصرية وأسبابها. يحكي المؤرخون أنه في زمن المستنصر، والذي حدث في عهده الشدة المستنصرية، كان هناك تقليد تخزين الغلال وكان معمولاً به في البلاد، فقد كان الخليفة يشتري بما يقارب مائة ألف دينار حبوباً وغللاً ويخزنها.

يقول المؤرخون: إنّ هذا التقليد كان معمولاً به لمنع التجار من الاحتكار، حتى إذا ندرت السلع أخرج الخليفة الحبوب والغلل للناس. أعتقد أنّ تخزين السلع كان طقساً وتقليداً من زمن يوسف عليه السلام في هذه البلاد ولكن لما طال الأمد نسي الناس، واعتقد المؤرخون أنّ تخزين الحبوب كان بسبب منع الاحتكار، ولكنّ الواقع أنّ تخزين الحبوب كان أحد الإجراءات الاحتياطية لمواجهة الجفاف، وجذوره تعود لتصرف يوسف عليه السلام.

اللافت للنظر أنّ قبيل الشدة المستنصرية أشار أحد وزراء المستنصر بالله الخليفة الفاطمي إلى أنه لا داعي لشراء الحبوب والغلل وتخزينها، وبالفعل توقف هذا التقليد، ولما ضرب الجفاف الشديد البلاد تفاقمت الأزمة؛ بسبب عدم وجود مخزون كافٍ من الحبوب والغلل.

هذه الأزمة ليس لها مثيل في التاريخ، وربما تكررت ولم ندرِ عنها شيئاً، أو أنها تكررت، ولكن بفضل التقليد المتبع منذ زمن نبي الله يوسف لم تكن بالسوء الذي حدث في وقت المستنصر بالله.

الرؤيا التي رآها الملك وكانت مزججة بالنسبة إليه، تدلُّ على أن الأمر كان غير معتاد، ولذلك طلب تأويلها بشكل سريع، وعندما قام نبي الله يوسف بالمهمة وفسرها على أنها سبع سنوات غزيرة المطر ثم سبع سنوات جفاف انزعج الملك، وطلب من يوسف أن يتولى المسؤولية، أو على الأصح وافق على عرض يوسف أن يتولى المسؤولية، وجعله عزيز مصر.

بديهاً، لو أن الجفاف كان شيئاً طبيعياً وخاصاً بدورة الفيضان لما انزعج الملك كل هذا الانزعاج، إذ إنَّ الدورة تتكرر كل عشرين عاماً، ولا بد أنَّ الناس لديهم معرفة بتلك الدورة أو مرت عليهم وتعاملوا بشكل ما معها، ولكنَّ هذا الانزعاج، وتولي يوسف المسؤولية، وذكر كتاب الله لهذه الواقعة؛ لحي دلالة قوية على أنَّ الحدث غير اعتيادي، ويحمل إشارات جدية بالتدبر والقراءة، ويبدو أنَّ الشدة المستنصرية هي النسخة الطبيعية لما كان سوف يحدث، لولا اتخاذ نبي الله يوسف الاحتياطات اللازمة.

من خلال القصص القرآني، ومن خلال تتبع المعلومات العلمية، والاسترشاد بالمعلومات التاريخية، سنجد أنَّ دورة فيضان النيل هي دورة منتظمة بشكل ما، كما يقول العلم، وهي: 7 سنوات غزيرة المطر، و6 سنوات متوسطة المطر، و7 سنوات شحيحة المطر، وهذه هي الدورة الطبيعية والمعتادة، وما حدث في عهد نبي الله يوسف، وما حدث في عهد الشدة المستنصرية، يبدو أنه خلل في هذه الدورة، بحيث تحوَّلت الدورة إلى سبع سنوات غزيرة المطر، يعقبها سبع سنوات جفاف شديد مباشرة، دون المرور بالسنوات الست متوسطة المطر.

هذا الخلل في دورة الفيضان قد يكون مرتبطاً بحركة الكواكب، أو بالدورة الشمسية بشكل ما؛ لأنه حدث على فترات طويلة نسبياً، وحدث هذا الجفاف الشديد، وارتباطه

بدورة الفيضان على فترات طويلة، جعل من المستحيل تتبعه علمياً، ووضعه في معادلة رياضية تستطيع التنبؤ به، حتى يمكن تجنبه في المستقبل.

لقد أصابت فترات جفاف عديدة وادي النيل، وكان أقربها فترة الجفاف في الثمانينات، التي حدثت في السودان، ولكن مصر نجت منها؛ بسبب اختزان الماء خلف السد العالي، ولكن تبقى هذه الفترات من ضمن الفترات الطبيعية لدورة الفيضان.

الخطير في الأمر أن القرآن يشير إلى فترة استثنائية من الجفاف الشديد على غير المعتاد، والتي يلزمها احتياطات عظيمة. أعتقد أن إشارات كهذه وفي عصر العلم الذي نعيشه، لا بد أن تقود لبحوث جدية؛ تحاول فهم دورة الفيضان والعلاقات التي تحكمها، سواء حركة الشمس أو حركة الكواكب، لمحاولة فهم لماذا يحدث خلل في دورة الفيضان، الذي يسبب جفافاً شديداً، لدرجة أن يهدد وجود الناس من الأساس.

مثل هذه الأبحاث هي أبحاث جدية لأقصى درجة، ولا يمكن تجاهل مثل هذه الإشارات والدلالات؛ بسبب ندرة حدوثها؛ لأنه في حالة حدوث خلل في دورة الفيضان كما بينا، وكما حدث في عهد نبي الله يوسف وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر، سوف تكون القاضية لملايين يعيشون على ضفاف نهر النيل، في ظل زيادة سكانية غير طبيعية، تعاني بالأساس من ندرة مائية.

أقرب سنوات عجاف سجلها التاريخ هي فترات الشدة المستنصرية عام 1065 م، وذلك في حد ذاته إنذار شديد اللهجة، بأن احتمالية حدوث هذا الخلل قد تكون أكبر بكثير من أي وقت مضى، وكلها مر الوقت كانت احتمالية الدخول في فترات السنوات العجاف ممكنة بشكل كبير.

لقد أرشد القرآن الكريم إلى كيفية التعامل مع مثل هذه الأزمات، عندما حكي على لسان نبي الله يوسف، وكيف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ليتدبر الأمر ويضع الحلول المناسبة.

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54))

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)) (سورة يوسف: الآيات 54-55).

سورة يوسف استحثت بجدارة أن تكون أحسن القصص، من ناحية الإشارات التي تحملها، وشكل الحضارة الإنسانية المنتظمة التي سجلتها، والتي ظهرت لأول مرة من خلال نظام سياسي محكم، ودولة حقيقية من خلال دستور ينظم أعمالها.

ربما يتبادر إلى ذهن البعض أن الحضارة الفرعونية كانت تعرف كل ذلك؛ بسبب التأثير الكبير لهذه الحضارة، دون النظر إلى البعد الزمني المقصود، فيبدو أن فترة نبي الله يوسف كانت في بدايات هذه الحضارة، ولم تكن بعد قد ثبتت أركانها كما في عهد موسى عليه السلام.

حاول كثير من الباحثين فهم لماذا في حالة نبي الله يوسف ذكر حاكم مصر بالملك، بينما في كل المواضع التي جاءت بعد ذلك على مصر تم وصفه بالفرعون، هناك تأويلات كثيرة حاولت فك هذا اللغز، فمنها ما ذكر أن حقة يوسف عليه السلام وافقت مرحلة الهكسوس؛ استناداً إلى ما قيل إنه نتيجة لفك شامبيلون حجر رشيد، ومنهم من قال إن لفظ الملك جاء بسبب عدل هذا الرجل.

كل هذه التفسيرات والاجتهادات تسقط تماماً حال حاولنا تتبع قصة الحضارة الإنسانية، ولاحظنا أن مرحلة يوسف عليه السلام كانت على ما يبدو في بدايات تكوين النظام السياسي للبشرية. أضف إلى ذلك أن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك الوقت كما سوف نرى، وأنها ظهرت بعد ذلك بآلاف السنين؛ لذلك لا نجد أي تدوين عن هذه الحقبة.

قد يثور علماء الأنثروبولوجي والمؤرخون إذ كيف تضرب عرض الحائط بآلاف المجلدات التي تحكي قصة الزراعة والحضارة وليس فيها أي إشارة لنبي الله يوسف؟ يجب أن يدرك القارئ أن التاريخ الذي بين يديه تم تدوينه في فترة حديثة للغاية وأن أغلب القصص

والمرويات التي يستند عليها المؤرخون إنما أقرب للأساطير منها للحقائق وروايات رجال الدين في العصور القديمة وروايتهم لهذه الأحداث.

إننا نوجه نظر الباحثين و النابهين إلى كيفية وصف اللفظ القرآني للأحداث ونطلب منهم إعادة النظر في التاريخ المغاير لهذه التعبيرات والألفاظ القرآنية. قد يسأل أحدهم ما الذي يدفع باحث أن يترك كل هذا الكم من المجلدات ويسير خلف تفسير جديد يدعي صاحبه أنه يفسر ويوضح ما خفي من التاريخ والعلم؟

الحقيقة ليس لدي أي ضمانة سوى البحث وطلب البحث بإنصاف وتجرد وربما عند إثبات فكرة علمية واردة في هذه الكتب لم تكن قد اكتشفت وقت كتابة هذه الصفحات قد يعطي دليل ودفعة للباحثين لمراجعة كل الأفكار الواردة في هذه الكتب إن انتبه لها الباحثون ولم تضيع وسط الزحام المعلوماتي الحالي. إلى أن يأتي هذا الوقت ليس لدينا إلا أن نكتب ونحاول فهم الكون والتاريخ من خلال تحليل اللفظ القرآني.

النظام السياسي في حقبة نبي الله يوسف

المفردات التي استخدمت لأول مرة في عهد نبي الله يوسف، مثل: دين الملك، والملك نفسه، والعزيز، وخزائن الأرض، والسجن، تُرشد إلى تكون نظام سياسي واضح، وتطور لشكل الدولة بصورة لا يمكن تجاوزها.

هذه هي المرة الأولى التي يتم استخدام مفردات الدولة بهذا الشكل، وبهذه الكثافة، ما يدعم قولنا أن حقبة نبي الله إبراهيم شهدت ذكر رجل آتاه الله الملك، ولكن لم تكن هناك سلطة ودولة ونظام، وإنما ملك بدون سلطة، وهو شكل بدائي جداً ومرحلة أولى تسبق تكوين الدولة ذات السلطة.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ^ط قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة البقرة: الآية 258).

هذا الرجل الذي حاجَّ إبراهيم في ربه ليس ملكاً بالمعنى السياسي، ولكنه مثال لمن يملك ولا يحكم، فربنا يقول إنه آتاه الملك، ولم يقل إنه ملك كما تحكي كتب التفسير، والفرق بينهم كبير بشكل واضح؛ فمن آتاه الله الملك هو في الحقيقة يملك ملكاً عظيماً ولكن لا يشترط أن يكون له سلطة سياسية، ولديه شكل من أشكال الحكم، بينما الملك نفسه هو شكل متطور من أشكال التحكم، فهو يملك من جهة، ولديه نظام حكم معين من جهة أخرى.

هذا الذي آتاه الله الملك لا يمكن أن يكون ملكاً بالمعنى المعروف والمتطور، لأن إبراهيم حاجه وغلبه ومع ذلك لم يتوعد إبراهيم بشيء ولم يسبب له أي أذى، فلو كان هذا ملكاً بالمعنى المعروف لما تردد بتهديد إبراهيم أو عقابه، ولكن القرآن لا يشير إلى أي من ذلك، لقد كانت محاجة غلب فيها إبراهيم من آتاه الله الملك، وانتهى كل شيء، بينما نجد في عهد نبي الله يوسف أن الملك قد أخذ شكلاً متطوراً وأصبحت سطوته أكثر حضوراً، وأصبح لديه نظام محدد.

يجدر بنا الإشارة إلى إن القصة المنتشرة عن زوجة نبي الله إبراهيم سارة، ومحاولة إخفاء نبي الله علاقته بها؛ خوفاً من فرعون مصر، لا وجود لها في كتاب الله، وليس لها أدنى أثر، ونحن هنا بناء على ما تحت أيدينا من دلائل على نظام الملك والدولة نستطيع القول إنه في عهد نبي الله إبراهيم لم يكن هناك دولة بالمعنى الحقيقي، وإنما أصحاب ملك . قد بدأ النظام السياسي يستقر مع عهد نبي الله يوسف، وظهر الاستقرار لهذا النظام من خلال التدرج في المناصب، فنجد منصب الملك، ومنصب العزيز الذي يقابل منصب الوزير.

إنَّ ذكر مفردات مثل السجن يدل على شكل متطور جداً من أشكال العقاب لمن يخرج عن الدستور العام للدولة، كذلك أشار القرآن أن لهذه الدولة قانوناً ودستوراً تسيّر به أمور الحياة؛ ولذلك عندما عرض إخوة يوسف على يوسف أن يأخذ أحدهم بدلاً من الأخ الأصغر، تحجج نبي الله يوسف بأن هذا الفعل غير جائز، ولا يمكنه فعله في دستور الملك (دين الملك):

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۚ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (سورة يوسف : الآية 76) .

الشكل المتطور للدولة ظهر جلياً عندما طلب يوسف عليه السلام بأن يكون على خزائن الأرض، أو ما نسميه نحن وزارة المالية، أو وزارة التموين والإمداد. بانتهاء حقبة نبي الله يوسف دخلت المجتمعات مرحلة مستقرة نسبياً، وبدأ شكل الدولة في الظهور بقوة، من خلال حقبة نبي الله موسى، ومواقفه المتعددة مع الحاكم .

الفصل الحادي عشر كلم موسى تكليماً

تبدو مرحلة نبي الله موسى من المراحل الفارقة في تاريخ البشرية، والتي تؤسس لظهور مرحلة لا تقل أهمية عن مرحلة اللغة، وهي مرحلة الكتابة. قبل أن نشرع في فهم هذه المرحلة، وكيف أنها أسست لنقل البشرية نقلة عظيمة من خلال ظهور الكتابة، كان لابد من فهم مدلول كلمة الأُمِّيِّ والأُمِّيِّين التي فُهِمَت على غير معناها، بل على الضد منه.

الأُمِّيُّون

كلمة [أُمِّيِّ] وجمعها [أُمِّيُّون] من الكلمات صعبة الفهم، والتي حيرت وما تزال تحير علماء اللغة؛ فهي كلمة كلما حاولت فهم مدلولها تجد أن الآيات والواقع لا يؤيد ما ذهبت إليه، ولعل الفهم التقليدي لكلمة أُمِّيِّ؛ وهو الشخص الذي لا يجيد القراءة والكتابة لم يعد مقبولاً، خصوصاً أن آيات الكتاب الكريم تدحضه ولا تثبته؛ فلو أن العرب هم الأُمِّيُّون كما في كثير من التفاسير فإن العرب كان منهم من يقرأ ويكتب، ولو كان الأُمِّيُّون نسبة إلى أُمَّة بالمعنى البشري؛ فكل تجمع من البشر هو في الحقيقة أُمَّة، فلماذا التخصيص هنا ووصف بعضهم بالأُمِّيِّين.

كثير من الباحثين المعاصرين حاولوا فهم مدلول كلمة [الأُمِّيِّ]، ولكن كلما بدا لهم أنهم أمسكوا بالمدلول من ناحية، تفلَّت من ناحية أخرى، لذا سوف نحاول من خلال منهجنا فهم لفظ [الأُمِّيِّ]، وشرح جميع الآيات التي ورد فيها لفظ [أُمِّيِّ] أو [أُمِّيُّون]، وما هي الحالة التي تصفها الكلمة، وكما نقرر دائماً أن الكلمات في كتاب الله تصف حالة معينة، وليست وصفاً لجنس معين، ولا بد من فهم هذه الحالة، ومن ثم تطبيقها على جميع المواضع التي ذكر فيها اللفظ؛ لفهم مدلول هذا اللفظ.

ورد لفظ [أمي وجمعه الأميون] في كتاب الله في ستة مواضع كما سوف يأتي، وأصل كلمة [أمي] هو الألف والميم، ومنها الأم والأمة، وتعني المرجع والأصل. وصف ربنا سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم بكونه أمة، ما يعني الشخص الذي تفرد بنسق وأسلوب جديد تماماً، كان فيه هو الأصل والمرجع.

لفظ [الأمي] لا يخرج عن هذا الوصف الدقيق، وهو الشخص صاحب السبق، ولو تتبعنا لفظ [الأمي] في كتاب الله سنجد أن المقصود هو الشخص الذي جاء بفكرة جديدة أصيلة، لم يسبقه إليها أحد من قبل. الباحث الذي يأتي ببحث أصيل هو في الحقيقة أمي، أي أنه جاء بشيء هو المرجع والأصل فيه، وكل من استنتج فكرة أصيلة هو في الحقيقة أمي.

لا بد أن نلاحظ أن لفظ [أمي] يصف فقط من جاء بفكرة أصيلة، ولكن ليس بالضرورة أن تكون هذه الفكرة فكرة جيدة أو فكرة صائبة؛ فسلامة الفكرة وصوابها يعتمد بالأساس على المنهج المستخدم في الوصول لهذه الفكرة، فقد تكون الفكرة صائبة، وقد تكون فكرة غير موقفة، أو قائمة على دلائل واهية. مفهوم كلمة [الأمي] سوف يصبح أكثر وضوحاً مع تتبع الآيات الكريمة التي ذكر فيها اللفظ، وتفنيدها بشكل علمي.

الآية الأولى

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (سورة البقرة : 87).

قالت التفاسير في معنى [أميون] هم من لا يحسنون القراءة والكتابة، وقد جاء فيها كلام مطول لا داعي لسرده هنا. من خلال فهمنا لمدلول كلمة [أمي] وهو الذي يأتي بفكرة جديدة أصيلة؛ سنجد أن الآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية والتي تلت هذه الآية تؤيد ما ذهبنا إليه تماماً.

الأميون في هذه الآية تعني الأشخاص الذين جاؤوا بأفكار أصيلة وجديدة تماماً، ولكنها غير قائمة على منهج علمي أو دلائل قوية. نستطيع إدراك هذا الفرض بسهولة من خلال سياق

الآية الكريمة حيث التعبير القرآني (يعلمون الكتاب إلا أماني). لم يستخدم الكتاب لفظ [يعرفون الكتاب]، وإنما جاء لفظ [يعلمون] أي القدرة على التحليل والاستنباط والاستنتاج، وهؤلاء الأميون جاؤوا بالفعل بأشياء أصيلة لم يتطرق إليها أحد، ولكنها تفتقد للمنهج السليم وتعتمد على الأماني، أي ما تهوى الأنفس، أو ما يتمنى أن يكون، وليس حقيقة ما كان.

في المجتمعات الفقيرة علمياً يظهر هذا النوع من الأميين بكثافة، إذا افنقروا للمنهج العلمي الصحيح، فقد يكون الشخص على قدر من الذكاء والفطنة بالفعل؛ ولكن افتقاره للعلم الصحيح والمنهج المحدد يوقعه في إشكالية الأماني بدلاً من الحقائق.

سنجد بعض الأشخاص قد جاؤوا بأفكار جديدة، ولكن عند تطبيقها يظهر عوارها وعدم تناسقها، فيحاول هؤلاء الأشخاص تلبس الأمر أكثر وأكثر ليطاوع ما تمنوه.

الطريق الصحيح لإثبات فكرة أو نفيها هو استخدام منهج علمي محدد لدراستها، ومن ثم عرض النتائج بأمانة دون أي تحيز معرفي أو تدخل شخصي يؤثر على النتائج، حتى إن كانت النتائج التي حصلت عليها على عكس ما كنت تتوقعه. للأسف ما يحدث في كثير من المجتمعات وما يقوم به كثير من الأفراد هو تحديد فكرة معينة، ثم محاولة إثباتها، وتطوير كل شيء لأجلها، من خلال خلط العلم بالأماني. لقد حذر القرآن وأرشد إلى تجنب هذا التحيز المعرفي، والإنصاف في تتبع أي فكرة وفي دراسة أي أمر. هناك من يفكر دون دراسة حقيقة وقاعدة معرفية كبيرة وقد يأتي بأفكار شاذة، وعلى الجانب الآخر هناك من يدرس ولكن لا يفكر، وكل مهمته تقليد ونسخ ما قاله الآخرون في صورة بأسة من صور التكرار الممل. نمطان من البشر شديدي الخطورة على التكوين المعرفي للمجتمعات إذ يساهمان في بث وشرعنة الجهل. لقد رأينا باعيننا كيف أن رجال لا يملكون سوى الحديث البلاغي وبارعين في علامات الإعراب وعلى ذلك لا يملكون معدل ذكاء طفل صغير قد ضللو الناس بحسن الحديث الخالي من المنطق والعقل.

كذلك هناك الكثير من الناس الذين يقذفون أفكاراً لا جذور لها، فيتابعهم عليها جوقة من الحمقى لا يسألون أنفسهم من أين جاءت هذه الفكرة أو كيف نبتت. عدم دمج الدراسة العميقة بمناهج التفكير الحديث لن ينتج إلا جهل ومعرفة مزيفة لا أصل لها. الآية الكريمة التي سبقت الآية التي نحن بصددتها تؤكد هذا المعنى وتقويه.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)) (سورة البقرة : آيات 76-77).

من الواضح أن لدى هؤلاء القوم شيء ما، عبر الله عنه بقوله: (بما فتح الله عليكم)، أي لديهم أفكار ومعرفة معينة يعتبرونها فتحاً من الله، ويطلبون منهم عدم التصريح بها، وهذه الحالة حالة بشرية بامتياز عند متوهم المعرفة، فهو لا يريد أن يخبر الناس بكل ما يعرف، ويظن أنه يعرف الكثير والكثير. لا يريد لأحد مشاركته في هذه المعرفة التي يظن أنها فتح من الله، بغض النظر عن صواب أو خطأ ما يعتقد، إلا أنها حالة معروفة لدى الناس وهي الضنّ بالمعرفة، والاعتقاد بالمعرفة أكثر من الآخرين.

لقد أوضح كتاب الله أنّ هذا الأمي وإن كان لديه بعض المفاهيم والأفكار الجديدة، إلا أنها تفتقر إلى العلم الكامل، و ينتابها التمني والهوى الشخصي، وهو بالطبع ما يفسدها. الآية التالية للآية محل دراستنا تزيد الأمر وضوحاً:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا^ط فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (سورة البقرة : آية 79).

هذه الآية تنفي الزعم بأن الأمي هو من لا يقرأ ولا يكتب بدليل قول الله تعالى يكتبون الكتاب، والمقصود هنا لا شك الأميون.

للأسف، هؤلاء الأميين بسبب افتقارهم لمنهج محدد وعلم حقيقي سوف يقولون على الله ما لا يعلمون، ويزداد الأمر سوءاً عندما يجعل أحدهم من نفسه وكيلاً عن رب العالمين، ويخبر الناس أن هذا هو كلام رب العالمين ومراده بغير علم. لا يختلف هؤلاء الذين كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هذا من عند الله، عن أولئك الذين قالوا إنّ الله حرم وحلل ولعن، دون نص صريح من رب العالمين.

لو استمعت اليوم إلى لجان الفتوى في شتى بقاع الدول التي تقول إنها إسلامية، لرأيت العجب من تحريم بالقياس، ولعن بالجملة، وتعميم أحكام، وتخصيص أخرى، في ثقة لا مثل لها وتقول على الله ما لم يقله. كذلك نرى إصراراً عجيباً من كثيرين على إصدار أحكام باسم الله، في ثقة لا نهائية بأن هذا هو مراد الله وغاية كلامه. ولا يوجد وصف يمكن أن يصف حال هؤلاء أصدق من كونهم أميون، لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً، ولو أنهم صدقوا الله وتعلموا، واتبعوا المنهج القرآني لكان خيراً لهم ولأتباعهم.

الآية الثانية

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلْتُكُمْ فَإِنْ أَسَلُّوْا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران: الآية 20).

يتضح من الآية الكريمة أن هناك حاجة، وهذه الحاجة قائمة على معرفة وعلم ما، ولذلك يصبح الإقناع فيها ليس بالشيء السهل، وخصوصاً إذا كان كلا الطرفين يظن أنه يمتلك الحقيقة. تبدو الحاجة هنا مع الذين أوتوا الكتاب -وهم بالطبع لديهم معرفة معينة- والأميين، وهم أصحاب فكر وقدرات عقلية جيدة؛ لذلك النقاش مع هذه الأنماط ليس رفاهية، بل يحتاج لجهد ومثابرة ودراية.

لفظ [الأميين] في هذه الآية الكريمة يتوافق تماماً مع ما ذهبنا إليه، من أن الأمي هو صاحب فكر أصيل، ولكن يبدو هنا أن فكره الأصيل غير قائم على حجج قوية ودلائل واضحة. طرفي الآية الكريمة هم الذين أوتوا الكتاب والأميين؛ فبينما الذين أوتوا الكتاب يعظم لديهم الجانب الإيماني، فإن الأميين يعظم لديهم الجانب العقلي، والآية التالية سوف تلقي الضوء أكثر على هذين الطرفين.

الآية الثالثة

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (سورة آل عمران : الآية 75).

بيان من هم أهل الكتاب يحتاج لفصل كامل، ولكن دعونا نوجّل الحديث عن أهل الكتاب لجزء قادم، ونشير فقط إلى أن الكتاب جاء في أغلب المواضع مقروناً بالإيمان؛ مما يدل على أن من أهم صفات أهل الكتاب هو الإيمان القلبي بالكتاب، بينما الأمي- كما ذكرنا- هو صاحب فكر ومنهج عقلي، بغض النظر عن صحته، أو خطأه.

فهذه الآية الكريمة تلقي الضوء على الصراع القائم بين أهل الإيمان وأهل العقل، وكيف يتعامل أهل الإيمان مع المختلفين عنهم، وكيف يمكن لهم أن يخسوا الناس المختلفين عنهم أشياءهم، وخاصة الذين يظنون أنهم غير مؤمنين مثل إيمانهم.

الأميون هنا: هم من جاؤوا بفكر جديد، ولكن يبدو أن هذا الفكر تعارض مع إيمان أهل الكتاب، لذلك يستحلّ أهل الكتاب أو بعض أهل الكتاب حقوق الأميين؛ نظراً لأنهم مُجدِفون في نظرهم أو زنادقة. هذه الآية الكريمة من الآيات التي فسرها المفسرون على أن اليهود يستحلون أموال العرب على أساس أن العرب هم المعنيون بالأميين، وقلنا إن تسمية العرب بصفة عامة بتسمية الأميين، هي تسمية غير صحيحة. لو أن المفسر اعتقد أن العرب

أميون بسبب جهلهم بالقراءة والكتابة، فقد سقطت هذه الحجة؛ لأن التاريخ أثبت أن العرب كان فيهم من يقرأ ويكتب، أضف إلى ذلك أنه لم يصلنا أيُّ حالةٍ تقول إن اليهود كانوا يأكلون أموال العرب، بل على العكس من ذلك؛ كان بين اليهود والعرب تجارة طبيعية، ليس فيها هذا النوع من البخس.

الآية الرابعة

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (سورة الأعراف : آية 157).

سورة الأعراف تتحدث عن حال الأنبياء مع أقوامهم بشكل مرتب، وجاءت قصة نبي

الله موسى مع قومه، وحال بني إسرائيل من خلال الآية 103 وحتى الآية 171 .

النبي الأمي في الآية 157 هو نبي الله موسى، وليس نبي الله محمد كما ذكرت التفاسير،

إذ تحدثت الآية السابقة لها مباشرة عن الذين قالوا: إنا هدنا، وهم أتباع نبي الله موسى:

(وَاصْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ

مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاءَ كِتَابًا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا

يُؤْمِنُونَ) (سورة الأعراف : آية 156).

فإذا كان سياق الآيات جميعها يتحدث عن بني إسرائيل وعن نبي الله موسى، فما الذي

دعا المفسر للاعتقاد أن المقصود بالنبي الأمي هو رسول الله صلوات ربي عليه؟

الآية الخامسة

الآية التالية أمرُ لرسول الله بالقول إنه رسول الله إليهم جميعاً، ثم يذكّرهم بالإيمان بالله ورسوله النبي الأمي، وهو أيضاً موسى عليه السلام إذ الإيمان الصحيح به يقود للإيمان بهذا الرسول الكريم محمد صلوات ربي عليهم جميعاً.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (سورة الأعراف: آية 158).

التعبير القرآني (النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته) يدل على أن المقصود هو نبي الله موسى، الذي آمن بكلمات الله، وكلمه الله تكليماً.

الآية السادسة

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (سورة الجمعة: آية 2).

كما ذكرنا أن مرحلة نبي الله إبراهيم كانت مرحلة انقلاب في تاريخ البشرية، من ناحية استخدام العقل والاستدلال المنطقي، ولذلك وصفه ربه بأنه أمة، ويبدو جلياً أن البشرية بعد نبي الله إبراهيم أوبشكل دقيق نسل نبي الله إبراهيم، ساروا على نهجه العقلي والمنطقي، وحاولوا محاولات متنوعة للاستدلال والاستنتاج، ومن الطبيعي أن يضل الناس في حالة عدم وجود منهج محدد وصارم يعملون في إطاره.

ما نستطيع استخلاصه بكل سهولة من هذه الصورة أننا عندما نتبع التاريخ، ونحاول قراءة الفترات التاريخية التي ظهر فيها مجددون بأفكار ثورية غيرت حياة الكثيرين، سوف نجد

أنه يأتي بعد هؤلاء المجددين أتباعٌ يحاولون إنتاج فكرٍ شبيه، ومثيل لما أنتجه المفكر الأب، ولكن بسبب تفاوت القدرات تجدهم في كثير من الأحيان يضلُّون الطريق.

هذا ما حدث مع موسى عليه السلام، فهو نبي أمي، جاء بشيء جديد وأصيل هدى به الأميين الذي لديهم أفكار وإنتاج بشري جديد، ولكنه غير قائم على أصول قوية ومنهج سليم. (أقصد ما لدى الأميين)

هؤلاء الأميون إذا كانت أفكارهم قائمة على مجرد الأمان، وتفتقر إلى منهج سليم، لا شك في وقوعهم في الضلال، ولن يكونوا قادرين على الخروج من هذا الضلال والظلمات؛ لذلك كان إرسال هذا الرسول بالكتاب والبيانات والفرقان أدلة واضحة وبراهين ساطعة؛ ليخرجهم من ضلالاتهم إلى نور العلم والحق.

بعد توضيح وبيان أن المقصود بالنبي الأمي هو موسى عليه السلام، السؤال هنا ما الشيء الذي جاء به موسى، وكان شيئاً جديداً وأصيلاً لم تعرف البشرية مثله من قبل؟

ظهور الكتابة

عدم تسجيل قصة خروج بني إسرائيل من مصر على جدران المعابد المصرية، والتي ذكرت في كتاب الله ظلت عصية على الفهم؛ إذ لا يوجد لهذا الحادث أي أثر يذكر في النقوش والكتابات "الفرعونية". من الأحداث العظيمة التي حدثت لبني إسرائيل والتي لا أثر لها تاريخياً كذلك، قصة يوسف في مصر وتخزين الغلال للنجاة من الجفاف المهلك، كل هذه الأحداث ليس لها أي أثر في أي نقوش أو كتابات قديمة، أتدري لماذا؟

لأنه ببساطة لم تكن الكتابة موجودة بعد. إننا نتحدث عن تاريخ موغل في القدم ولكن بسبب النصوص الدينية تم تقريب التاريخ بدون أي أدلة حقيقة. الفترة الوحيدة التي يمكن الوثوق النسبي بها هي فترة نبي الله عيسى وأنها كانت قريبة بسبب ظهور التدوين.

لا يوجد سبب وجيه لعدم ذكر فترة نبي الله موسى وتفاصيل كثيرة بالغة الخطورة إلا أن التاريخ قديم للغاية وتناقلته الأجيال شفاهة أو من خلال النصوص الدينية فقط ولكن لا أحد يعلم على وجه الدقة كم من الوقت مر منذ أن جاء نبي الله موسى.

مرة أخرى الرجاء عدم التعجل والاستشهاد بنصوص تاريخية وروايات جميعها رؤى شخصية باعتبارها الحقيقة المطلقة. إننا نتحدث عن تحليل لفظي لكلمات القرآن والتي تشير إلى ظهور الكتابة مع نبي الله موسى.

قد تكون هناك كتابات سبقت نبي الله موسى ولكن قد تكون كتابات بدائية ليس لها مدلول. ما أقصده هنا أن الكتابة التي ظهرت مع نبي الله موسى كانت كتابة دلالية أي أن الحرف يشير إلى معناه. هذا أمر خطير للغاية وسوف نؤجل تتبع الكتابة ونؤجل السؤال الطبيعي أين ذهبت هذه الكتابة إلى حين استكمال موضوع البحث فيه. لا شك أننا أمام فتح عظيم لا يقل أهمية عن فهم اللغة وكيف أن منطوق الكلمة يصف حالتها والذي يعتبر أحد أهم أركان المنهج المستخدم في فهم اللفظ القرآني في سلسلة كتبنا.

نعم، الكتابة (المنهجية) ظهرت لأول مرة مع ظهور نبي الله موسى، وهي عبارة عن تدخل إلهي تام، جرى على يد نبي الله موسى (معنى المنهجية مرتبط ارتباط وثيق بالمدلول الصوتي للحرف وعلاقته الفيزيائية حتى لا يتسرع أرباب الانثروبولوجيا وأصحاب التاريخ القديم لرفض الفكرة بناء على معطيات لديهم مثل الكتابة المسمارية أو غيرها).

إننا نتحدث عن علاقات متكاملة بين اللغة منطوقة وبين اللغة مكتوبة وبين الحالة الفيزيائية التي يمثلها الحرف والتي سوف تتكشف بالكامل بعون الله مع الأجزاء القادمة والتي سوف تتناول شيء من الحروف المقطعة).

الموضوع طويل ويحتاج لتفصيل أكثر بكثير مما هو عليه الآن ولكن دعونا في هذا الفصل تحديداً نتحدث عن ظهور الكتابة من خلال الإشارة القرآنية في كتاب الله (كلم الله

موسى تكليماً) سوف نحاول -بفضل الله- في السطور القادمة تفصيل كيفية ظهور الكتابة، من خلال القصص القرآني الخاص بنبي الله موسى.

مفاتيح ظهور الكتابة تتمحور حول ثلاث عبارات قرآنية، وهي: التوراة- كَلَّمَ اللهُ مُوسَى

تكليماً- الألواح.

كَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً

الاعتقاد السائد أن الله سبحانه وتعالى كَلَّمَ موسى بشكل مباشر، أي: مشافهة، وجاء

ذلك في أغلب التفاسير، وقد نلخص لنا أبو جرير الطبري بعضاً منها كما يلي:

(وكلم الله موسى تكليماً، فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: وخاطب الله بكلامه موسى

خطاباً، حدثنا نوح بن أبي مریم، وسئل: كيف كلم الله موسى تكليماً؟ فقال: مشافهة. جابر

الخشعمي قال: سمعت كعباً يقول: إن الله جل ثناؤه لما كلم موسى، كلمه بالألسنة كلها قبل

كلامه - يعني: كلام موسى - فجعل يقول: يا رب، لا أفهم، حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة،

فقال: يا رب هكذا كلامك؟ قال: لا ولو سمعت كلامي -أي: على وجهه- لم تك شيئاً.

عن جزء بن جابر: أنه سمع كعباً يقول: لما كلم الله موسى بالألسنة قبل لسانه، طفق

موسى يقول: أي رب، إني لا أفقه هذا!! حتى كلمه الله آخر الألسنة بمثل لسانه، فقال موسى:

أي رب، هذا كلامك؟ قال الله: لو كلمتك بكلامي لم تكن شيئاً! قال، يا رب، فهل من

خلقك شيء يشبه كلامك؟ قال: لا وأقرب خلقي شياً بكلامي، أشد ما يسمع من الصواعق)

انتهى الاقتباس من التفسير.

الغريب أننا عندما نبث ونحاول فهم لفظ قرآني من خلال منهج علمي محدد، يبرز

أحدهم بكل ثقة يسأل عن دليلك، برغم ما تسوقه من أدلة وبراهين قائمة على مدلول اللفظ

القرآني، وتستمد قوتها من جذر الكلمة وسياق الآيات، بينما لم يكلف نفسه أن يتوقف للحظة

ويسأل من خط هذا الكلام بهذه الطريقة؟ وما الدليل والبرهان على ما تقول وتسجل؟

الأجدر طرح سؤال: ما دليلك؟ على من كتب حواراً بين موسى وربّه بهذه الطريقة التي لم يذكرها القرآن، ومن أين جاء بهذه التفاصيل؟ ما الذي يدفع إنساناً أن يقول إن الله كلم موسى بالألسنة أو كلمه مشافهة بأكثر من لسان؟

لماذا لم يتوقف هؤلاء -إن كانوا لا يعلمون- عند اللفظ، وقالوا مثلاً: نؤمن أنّ الله كلم موسى، ولكن لا نعرف الكيفية، بدلاً من هذه القصص والخيالات التي تسببت في تشتيت المعلومات وصنعت تحيز لدى البسطاء الذين صدقوا كل ما قيل في هذا الشأن. لقد جاء التعبير القرآني عن كلام الله لموسى من خلال مشهدين من المشاهد القرآنية:

المشهد الأول: في سورة الأعراف

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ
 انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ
 فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى
 النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي نَخَذُ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ
 كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ نَخَذُهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ
 الْفَاسِقِينَ (145)) (الأعراف: الآية 143-145).

المشهد الثاني: في سورة النساء

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالتَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرَسُولًا
 قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرَسُولًا لَّمْ نَقْصِصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164)) (سورة
 النساء: 163-164).

السؤال هنا: هل يمكن أن يكلم الله بشراً بطريقة مباشرة؟

الإجابة من خلال كتاب الله، لا، لم يكلم الله بشراً بطريقة مباشرة، وقد فصل كتاب الله ذلك عندما حدد لنا كيف يكلم الله عباده .

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (سورة الشورى: آية 51).

تقول التفاسير: إن في حالة موسى عليه السلام، قد كلمه الله مشافهة من وراء حجاب! للأسف، هذا خلط واضح، ولا أدري كيف عبر هذا الخلط كل هذه العصور، دون أن يلتفت إليه أحد.

حاشا لله أن يكون وراء حجاب؛ فهو لا يحتاج لذلك، وإنما المقصود هو الكلام، فالكلام إما أن يكون وحياً، أو من وراء حجاب، أو عن طريق رسول، فالمحجّب واقع على الكلام، وليس واقعاً على الله سبحانه وتعالى، وسوف نتعرف بعد قليل ما هو المحجّب الذي حجب الكلام وقد ذكره الله في كتابه. بمجرد فهم أن المقصود بما وراء المحجّب هو الكلام وليس الله، حلت المعضلة ولم يتبقى إلا أن نفهم ما المقصود بالمحجّب هنا.

قصة نبي الله موسى قصة متشابكة، ومتنوعة المشاهد، ومن أهم المشاهد التي أيدت أن الله كلم موسى بطريقة مباشرة هو الحوار الذي دار بين موسى وربّه في الواد المقدس طوى، والذي سجلته لنا سورة طه.

لنقرأ سوياً الآيات بتآن :

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِثْلِ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ (23) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَاسْرُرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (36) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (37)) (سورة طه : آيات 9-37).

كل هذا الحديث الذي دار بين موسى وبين ربه كان وحيًا، ولم يكن بطريقة مباشرة بنص القرآن، ومن خلال الآية رقم (13) التي يقول فيها ربنا لنبيه: استمع لما يوحى، أي أن ما يقوله ربنا هنا هو عن طريق الوحي، وليس كلاماً مباشراً كما يتوهم البعض.

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ) (سورة طه : آية 13).

ربما يختلط على الناس ما جرى بين موسى وره، فشكل الأمر تبادل للحوار، فربنا يقول ويرد موسى، وموسى يطلب وربنا يجيب وهكذا.

لكن هذا لا يتنافى مع الوحي إطلاقاً، ولقد سجل لنا القرآن الكريم حوارات عديدة كهذه، مثل حوار النبي إبراهيم مع ربه، وقد كان حواراً مرناً، فيه تبادل للحديث، ولا يمكن لعقل أن يقول إن هذا الحوار تم بطريقة مباشرة، ولكن كما يخبر القرآن أنه كان وحيًا.

قول الله لبي إسرائيل إني معكم دليل آخر على أن الحوار كان وحيًا، رغم التعبير القرآني، (قال الله):

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (سورة المائدة : آية 12).

آيات أخرى تتحدث عن قول الله لعيسى، وهي أيضاً وحي، وليست بطريقة مباشرة:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سورة المائدة : آية 110).

آيات أخرى في سورة المائدة تصور حواراً بين عيسى عليه السلام وربه، عندما يطلب من الله مائدة من السماء، ويجب ربنا أنه منزلها عليهم:

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَأَخْرَجْنَا وَيَوْمَئِذٍ هُمْ كَاذِبُونَ) (سورة المائدة : آيات 114-115)

من خلال الحوار الذي دار بين نبي الله موسى وبين ربه، والذي قال فيه ربنا لنبيه استمع لما يوحى، ومن خلال الأمثلة السابقة، نستطيع أن نقول: إن الحوار الذي دار بين نبي الله موسى وربه إنما كان وحيًا، ولم يكن هو الخطاب المقصود بالكلام، مشهد الكلام هو مشهد

آخر قصه علينا ربنا وفصله تفصيلاً. يقول ربنا إن موسى جاء لميقات، وهذا الميقات هو الذي حدث فيه الكلام المقصود:

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ
 أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا
 فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأعراف : آية 143).

الكلام هنا يحتمل ثلاثة احتمالات لا رابع لهم بنص كتاب الله:

إما إن يكون وحيًا؛ أو من وراء حجاب؛ أو من خلال رسول (وحي من خلال رسول). لم يكن الكلام في هذا الموقف وحيًا كما أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى، فقد فصل هذا الموقف عن المواقف الأخرى التي أوحى فيها للأنبياء، وأكد على أنه كلم موسى تكليماً:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا
 (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
 تَكْلِيمًا) (سورة النساء : الآيات 163-164).

لاحظ أننا نتحدث عن موقف الكلام الذي جاء فيه نبي الله موسى للميقات وكلمه ربه، وليس موقف الوادي الذي قال ربنا عنه: استمع لما يوحى.

إذا كان الوحي مستبعداً في موقف الكلام هذا فلا يبقى لدينا إلا الكلام من وراء حجاب، وكما ذكرنا أن الحجاب واقع على الكلام وليس واقع على ربنا، تنزه ربنا عن ذلك.

أصل كلمة [حجاب] هو حجب، ومعناها كما في قاموس اللغة هو: المنع، فكيف يتساهل الناس في الاعتقاد أن الله خلف حجاب، فالله سبحانه وتعالى قال عن نفسه: لا تدركه الأبصار، ولم يقل إنه خلف حجاب.

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (سورة الأنعام: آية 103).

القول أن الله كان خلف حجاب عندما كلم موسى قول عظيم لا يقدر الله حق قدره وقول ما لا يعي ما يقول فما حاجة الله تنزهه عن ذلك إلى حجاب وهو لا يمكن أن تدركه الأبصار.

فعل [كلم] كما في قاموس اللغة له أصلان، أولهما: نطق مفهموم، والثاني: جراح. لو حاولنا تتبع لفظ [الكلام] في كتاب الله سنجد أنه: شيء مقصود متعمد، له تأثير ووقع ما. تنبيه: كلام الله يختلف عن كلام البشر؛ فكلام الله هو الحقيقة المطلقة والمجردة لا شك في ذلك، فعندما قال ربنا عن عيسى عليه السلام: كلمة الله ألقاها إلى مريم، هو قول حقيقي، مجرد قول الله عيسى كان عيسى، فكلام الله حقيقة واقعة ليس ككلام البشر، ولذلك نشير دائماً إلى أن كتاب الله الذي يحوي كلامه لا بد أن نتعامل معه على أنه كلمات حقيقة ليس فيها مجاز، وإن أعجزنا فهم شيء يجب أن نقول إننا لا نفهم، ولا نحيله إلى المجاز و نتعصب له.

هذا الكلام مع موسى عليه السلام قال عنه ربنا إنه من وراء حجاب، فما هو الحجاب؟ هل الحجاب هو التوراة؟

حتى يمكننا فهم معنى التوراة يجب أن نحلل الكلمات الشببية، والتي وردت في كتاب الله، لتدلنا على الكلمة مدلول كلمة التوراة. للأسف الشديد، أصل كلمة [التوراة] وهي تور أو تار، ليس فيها شيء يقال، وبعض المعاجم قالت: إن أصل كلمة تور هو إناء، وهذا الأصل لن يفيدنا في شيء، ولكن بتبع الكلمات الشببية في كتاب الله سنجد أن التوراة تعني الشيء الذي يخفي شيئاً أو يحجب شيئاً.

(يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (سورة النحل: الآية 59). يتوارى من القوم، أي: اختفى عن أنظارهم.

(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) (سورة ص: الآية

32).

[توارت] هي تقريباً نفس حروف وصوت التوراة، والاختلاف فقط هو التاء المبسوطة، وتعني الاختفاء. التوراة من خلال اسمها ومن خلال منهجنا في كتب تلك الأسباب يبدو أنها ذاتها الحجاب الذي تحدث ربنا عنها، ويبدو أيضاً أن التوراة كانت أول مخطوط يحمل كلمات رب العالمين، حيث اختفى منطوق الكلمات خلف رسمها.

هذا معناه أن الكتابة كانت هبة خالصة من الله، وهي التي قال عنها ربنا: إنه كلم موسى تكليماً، وهذا الكلام كان من وراء حجاب، فتم رسم هذه الكلمات ككتابة؛ فأصبح رسم الكلمة أو الخط يخفي خلفه المدلول الصوتي للكلمة، في التوراة التي أنزلها ربنا على نبيه موسى عليه السلام.

التوراة كانت رسم النص ذاته الذي يحمل المدلول الصوتي. رسم الآيات وكلمات الله بشكل حروف معينة هو التوراة بعينها. مضمون هذه الكلمات هو الكتاب وسوف تأتي على الإنجيل في كتاب آخر قادم عندما يحين دوره. ما يعزز هذه الفرضية باقي الآيات في سورة الأعراف، التي تحدثت عن ميقات موسى وكلام رب العالمين، حيث يقول ربنا: إنه اصطفى موسى برسالاته وبكلامه فخذ ما آتيتك بقوة. التعبير القرآني (خذ ما آتيتك بقوة) يمكن أن يحمل معنى مادياً؛ بحيث يأخذ شيئاً مادياً، ومن الممكن أن تصف حالة لا مادية؛ كأن يأخذ الإنسان نصيحة أو فكرة مثلاً.

في حالة موسى عليه السلام حملت المعنيين، فالآية التالية تشير إلى أن المأخوذ هو الألواح، وفي نسختها هدى ورحمة، وهذه الألواح هي أول ما تم الكتابة عليه، وكانت بتدخل إلهي خالص، فظهور الكتابة في عهد نبي الله موسى، مثلها مثل اللغة والاسماء التي تعلمها آدم، ففي حين أن آدم حمل القدرة على التسمية ونشأة اللغة، كذلك حمل موسى رسم كلمات رب العالمين بتوجيه مباشر من رب العالمين.

(وَمَا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي نَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ نَخُذُهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)) (سورة الأعراف: الآيات 143-145).

لقد كان تكليم الله لموسى عن طريق رسم الكلمات، والتي وردت بشكل صريح عندما قال ربنا: وكتبنا له في الألواح، والكتابة على الألواح أو رسم الكلمات على الألواح هي بداية ظهور الكتابة، والتي جاءت على يد نبي الله موسى، والتي نقلت البشرية نقلة حضارية لا مثيل لها. ظهور الكتابة كان تحولاً معرفياً فارقاً في تاريخ البشرية، وإيداناً بعصر التدوين وتراكم المعرفة، والذي سيظهر أثره في العصور اللاحقة.

إنَّ قراءة القرآن هي بمثابة تكليم الله للبشرية، فرسم الكلمات كتابة يدل على منطوقها الحقيقي، فعندما نقرأ الكلمات في كتاب الله فهذا يعني حرفياً أن الله يكلمنا، ولكن كلماته سبحانه ليست مشافهة، وإنما من خلال طريقة رسم الكلمات وهي الكتابة.

لقد جاء تأكيد رب العالمين على أنه كلم موسى تكليماً؛ بسبب أن نبي الله موسى كان الرائد الأول الذي كلمه الله من خلال عملية كتابة الكلمات؛ ولذلك هو أشهر وأحق من سمي بالنبى الأمي.

يتبقى لنا لكي تكتمل الصورة فهم أين هذه الكلمات ولو استطعنا الوصول إلى نسخة أي نسخة أصلية من الكلمات المرسومة على الألواح واستطعنا فك رموز العالم بدون أدنى مبالغة. نعلم جيداً أن فرضية الحصول على الألواح تكاد تكون معدومة فهل هناك من طريقة

لاسترجاع على الأقل أشكال الحروف التي رسمت على الألواح وكانت هبة من رب العالمين؟
هذا السؤال سوف نجيب عليه في المستقبل بإذن الله عندما تكتمل الصورة ويتضح ما غاب
عنا بالبحث والتحليل.

الفصل الثاني عشر فصل الخطاب

لا شك أن حركة التطور حركة مستمرة، جعلت البشرية تنتقل من حالة أقل تطوراً إلى حالة أرقى، معتمدة على ما حققته في السابق، فتراكم المعرفة يدفع إلى إنتاج العلم، والعلم يؤدي لتراكم المعرفة، وقد كانت الكتابة حجر الزاوية في هذا التطور. إذا استطاع الإنسان تدوين المعرفة؛ فهذا ما يسبب تراكمها بشكل متزايد، والنتيجة الطبيعية لظهور الكتابة والتدوين لا يقل أهمية عن ظهور اللغة؛ فمن خلال الكتابة استطاع الإنسان حفظ المعرفة؛ مما أدى إلى قفزات تنموية في كافة المجالات.

بعد ظهور الكتابة اتخذت العلاقات بين البشر منحى جديداً، واتسعت المعاملات؛ مما استدعى وجود نظام للفصل بين المنازعات، على أساس سليم دون تدخل للهوى الشخصي. من هنا كان لابد من ظهور نظام قضائي، يقوم على أساس الأدلة، ويعتمد القانون بشكل صارم، دون تدخل للعواطف، ولم يكن لمثل هذا النظام المتطور من الظهور لولا وجود الكتابة، من أجل تدوين الاتفاقات، وتدوين القوانين أيضاً التي تفصل بين الناس.

لدينا إشارة قرآنية في مشهد من أروع المشاهد على هذا النظام والتوجيه الإلهي السليم للفصل بين المنازعات، من خلال قصة نبي الله داوود والمتخاصمين الذين دخلوا عليه المحراب. للأسف، معظم التفاسير التي تناولت قصة الخصمين الذين دخلوا على نبي الله داوود المحراب لا تقوم على أي دليل، ولا تمت لكلمات الله بصله، وكل ما جاء حول هذا المشهد العظيم هو من نسج الأساطير القديمة، التي تسيء إلى أنبياء الله وأصفيائه، والآيات الكريمة التي نخصت هذا المشهد القرآني العظيم جاءت في سورة ص:

(اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ^ط إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ

يُسَبِّحُنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ

الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ (20) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُنِيهَا وَعَرَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24)) (سورة ص: الآيات 17-24).

حتى نستطيع فهم الآيات الكريمة لا بد لنا أن نقف على الكلمات التي جاءت في الآيات الكريمة، وهي: لفظ الحكمة، ولفظ الخطاب. في البداية سوف نحاول فهم هذا الدخول لإلام يرم؟، وما معنى تسوروا المحراب؟ (وهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

مع أن الحديث كان عن خصمين إلا أننا نجد التعبير القرآني يتحدث عن جماعة تسوروا المحراب ودخلوا عليه؛ التعبيرات بصيغة الجمع مع أن الواقعة بين اثنين. من الواضح أن هناك جماعة دخلت على نبي الله داوود تسوروا المحراب، أي: عملوا شكل سور حول المحراب، وليس كما يقول المفسرون: إنهم تسلقوا المحراب على داوود.

يبدو أن الأمر كان نزاعاً بين خصمين وأن مجموعة من الناس كانت حاضرة هذا النزاع، ودخلوا جميعاً على نبي الله داوود؛ مما تسبب في فزعه من هذا الجمع. بعد هذه المقدمة البسيطة دعونا نحاول فهم مدلول بعض الكلمات؛ حتى نستوضح الصورة كاملة في هذا المشهد القرآني.

مدلول كلمة [الحكمة]

أصل كلمة الحكمة هو حكم، وكما في قاموس اللغة لها أصل واحد، وهو المنع، وحكم الشيء تعني منعه وتفصيله بشكل ما. الشيء المحكم هو الشيء صعب الدخول إليه ومن هنا نجد أن الحكمة هي فهم عميق للأشياء لا يمكن الوصول إليه بسهولة.

كلمات الله هي الحكمة المطلقة لأنها تحمل عمق معرفي لا مثيل له. الفيلسوف الحكيم هو من يصف الأشياء بطريقة ليست سهلة على كل إنسان ولكنها بليغ . القرار الحكيم هو القرار القائم على دراسة وفهم عميق ولذلك سنجد تعبير الحكم في كتاب الله يشير إلى هذا المعنى حيث الفهم العميق للأشياء الذي يؤهل صاحبه لاتخاذ قرار صائب أو التعبير عن شيء ما بشكل بليغ . عندما يخاطب ربنا عبده بأن أحكم بين الناس فهذا يعني قف بينهم افصل بين منازعاتهم بفهم عميق للأمر وليس فهماً سطحياً حتى يكون الحكم اسم له دلالة؛ والدلالة لو جاز لنا التعبير الإتيان والاحترافية.

ومن خلال تتبع لفظ [الحكم والحكمة] في كتاب سنجد أن مدلولها يعني: الفصل بين الأشياء القائم على الفهم العميق. بدون الفهم العميق يفقد الحكم مدلوله وتفقد الحكمة أهم خصائصها.

سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (سورة المائدة : آية 42).

الحكم بين شخصين هو الفصل بينهما، وتحديد ما لكل طرف وما عليه من خلال فهم الملابس ودراستها بشكل عميق .

(وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (سورة المائدة : آية 43).

حكم الله: هو التعليمات التي تُفَصِّلُ وتفصل بين الأشياء عن طريق الإمام بكل جوانبها وعلاقتها. حكم الله هو لاشك الأفضل والأحكم بسبب احاطته بكل أسباب ونتائج الموضوع محل الحكمة أو الحكم.

(فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (سورة البقرة: آية 251). الحكمة هنا: القدرة على فهم الأمور بشكل شامل وعميق. الفصل بين الأشياء.

مدلول كلمة [خطاب]

أصل كلمة خطاب هو خطب، وكما جاء في قاموس اللغة لها أصلان: الأصل الأول هو الحديث بين اثنين، والأصل الثاني هو الأمر يقع. بالنظر في كتاب الله لفهم مدلول الكلمة، سنجد أنها تعني: الأمر، أو الشأن الذي يدفع إنساناً لفعل شيء ما، أو المحفز، وورد جذر الكلمة في كتاب الله في ثمانية مواضع، منها موضعان بلفظ [خطاب]، منها الآيات السابقة.

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَدْرُؤُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (سورة البقرة: آية 235).

خطبة النساء هنا تعني: شأن النساء أو أمر النساء، أي أن هذا الإنسان يهتم بأمر النساء، وغالباً ما يكون هذا الأمر خاصاً بالنكاح؛ خطبة النساء: هي الدوافع المؤهلة لكي يرتبط أحدهم بالنساء.

(قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (سورة يوسف: الآية 51).

خطبكن تعني: ما الشأن أو الأمر الذي كان بينكم بخصوص يوسف، أو ما الدافع الذي دفعكم لفعل ما فعلتم مع يوسف.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (سورة طه : آية 95) .

خطبك يا سامري تعني: شأنك، أو ما قصتك، أو ما الذي دفعك لفعل ما فعلت .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (سورة الحجر : الآية 57) .

خطبكم تعني: ما الأمر الذي دفعهم لذلك، أو الدوافع .

(وَمَا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ

قَالَ مَا خَطْبُكُمْ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (سورة القصص : الآية 23) .

أيضا هنا خطبكم تعني: ما الأمر الذي دفعكم إلى فعل ما فعلتم .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (سورة الذاريات: الآية 31) . ، تم بيان لفظ خطبكم

في الآيات السابقة. من هنا نستطيع أن نقول إنَّ لفظ [خطب] تعني وقوع أمر أو شأن يؤدي إلى أمر آخر، وهذا المعنى واضح تماماً من خلال كتاب الله .

بتطبيق النتيجة التي وصلنا إليها على الآيات التي بين أيدينا عن الخطاب، نجد الآتي:

الخطاب تعني الأمور التي دفعت الأطراف لفعل ما فعلوا، أي الدوافع (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ)

إضافة لفظ الحكمة إلى التعبير القرآني (فصل الخطاب) تصب كلها في خانة القدرة على الفصل والحكم بين الناس بشكل مثالي، أو قل بكثير من العدالة القائمة على فهم الأمور وفهم الدوافع بل فهم بواطن الأمور كما يشير إلى ذلك مدلول لفظ الحكمة .

أما لفظ [عزني في الخطاب] التي وردت في نفس المشهد القرآني، تعني: غلبني بدوافعه،

(أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)، فهذا المشهد ظاهره ليس فيه ظلم، إنما هو اتفاق بين اثنين،

كل طرف فيه ألقى دوافعه ومبرراته وعلى نبي الله داود الفصل في هذه الدوافع التي ساقها كل طرف.

بعد فهم مدلول كلمة [الحكمة وكلمة الخطاب] يتبقى لنا فهم كلمة [نعجة] حتى نتمكن من فهم المشهد القرآني بشكل كامل.

مدلول كلمة [نعجة]

أصل كلمة نعجة هو نعج، وهو لون من الألوان، كما جاء في قاموس اللغة. وعندما فسر المفسرون كلمة نعجة قالوا: إن معناها زوجة، وذلك يعني أن أحد الرجلين كان لديه 99 زوجة، وطلب من الشخص الآخر الذي يملك زوجة واحدة أن يتنازل له عنها، وهكذا جاء التفسير حول الآية الكريمة .

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَّلي نَعْجَةً وَّاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّرْنِي فِي الْخُطَابِ).

يقول المفسرون إن هذه الحادثة هي تورية لنيي الله داوود، لأنه كانت له 99 زوجة، وطلب من أحد جنوده وكان له زوجة واحدة التنازل عنها لكي يتزوجها داوود عليه السلام، ويستكمل المفسرون حديثهم عن هذه الحادثة بالقول: إن الشخصين اللذين جاءا إلى نبي الله داوود كانا ملكين.

هذه القصة لا يمكن قبولها على نبي من أنبياء الله، الذين كانت مهامهم ورسالتهم أعظم بكثير من هذا الهزل البشري، وهذه الصغائر التي لا تليق بصاحب خلق رفيع، فكيف تجوز في حق رجال اصطفاهم ربهم لحمل الرسالة والتبليغ.

حتى تكتمل الصورة دعونا نحاول فهم كلمة [خلطاء] التي جاءت في الآية التالية.
(وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) خلط تعني مداخله شيء في شيء، ونجد أن الخلطاء تعني بمفهومنا المعاصر شركاء العمل؛ إذ تتداخل أعمالهم معاً.

بوضع جميع هذه المعطيات جنباً إلى جنب، ومن خلال تحليل الألفاظ؛ نجد أن لفظ [نعجة] يعني لوناً من الألوان، و مدلول الأرقام وهو 99 يكتمل بالمائة، فيكون المقصود هو نسبة مشاركة الخلطاء أو المشاركين في العمل.

الآيات الكريمة تتحدث عن خلاف دبّ بين شريكين، أحدهما يملك 99 جزء من الشركة التي بينهم، والآخر يملك جزء واحد أي نسبة 99 بالمائة إلى 1 بالمائة، وكان بينهم اتفاق على ذلك، ويبدو أنّ الاتفاق كان في صالح صاحب 99 بالمائة، فلما وصل الأمر لداوود عليه السلام لم ينظر للاتفاق، وإنما حكم بظاهر الأمر؛ إذ يبدو الأمر ظاهراً لصاحب الواحد بالمائة التوجيه الرباني ووضَع القواعد القانونية في المجتمعات، وهي الحكم بالبينة وليس بالرأي الشخصي، والقرآن يقرر أنّ فصل الأحكام، أو ما نسميه نحن القضاء، يجب أن يتبع قواعد الاتفاقيات، ويسير خلف القوانين، لا أن يتم الحكم بالرأي الشخصي، مهما بدت الأمور في غير صالح الضعيف فالحكم بالبينة وحسب الاتفاقيات المتفق عليها أفضل، وأنسب للبشرية من ترك الأمر للهوى والرأي الشخصي.

هذه القاعدة القانونية هي القاعدة الأسلم التي تعمل بها جميع المؤسسات القانونية حول العالم، إذ الحكم والفصل يتم على أساس الاتفاقيات حتى لو أنّ ظاهر الأمر عدم عدالة لأحد الأطراف، فالحكم والفصل على أساس البينة، والدليل مقدّم على الحكم تبعاً للرأي الشخصي، بل إنّ الحكم تبعاً للرأي الشخصي وإن كان يبدو في ظاهره رحمة إلا أنه مخالف للمنهج القرآني؛ لما يمكن أن يترتب عليه من تضييع للحقوق في حالات أخرى.

كان هذا المشهد القرآني العظيم إيذاناً بنشوء نظام قضائي سليم؛ ولذلك جاء التعبير القرآني الكريم واصفاً نبي الله داوود بأنه خليفة، نخليفة تعني أنه يخلف في أمر ما، ومن خلال الآيات يتضح لنا أن داوود حكم بين الناس بما علّمه الله وآتاه من حكمة، إذ جعل الله الحكم بين الناس من خلال بعضهم بعضاً بما أراهم وأرشدهم ربهم.

إنّ فضل الحكم بين الناس بالعدل لا يضاهيه فضل؛ فالذي يحكم بين الناس هو في الحقيقة خليفة الله في هذه الأحكام ويجب أن نكون محددين في تحديد لفظ خليفة لأنه لا يجوز أبداً لإنسان أن يكون خليفة بالمطلق لله كما بينا عند الحديث عن آدم.

نبي الله داود كان خليفة في الحكم بين الناس أو بمعنى أكثر وضوحاً، هو إعلان إلهي بأن يستلم المجتمع البشري سن القوانين لأنفسهم في الإطارات العامة التي بينها ربنا. هذه الآية تحديداً وتحليل ألفاظها لن تدع الفرصة للمتشددين الذين لا يرون إلا أن الحكم لله في صورة من صور التنطع والتطرف وهم على لك لا يدركون سنة الله في الخلق ومراده في أن يتحمل الإنسان مسؤوليته درجة درجة.

لا بد أن يضع نبي الله داود نصب عينيه حقيقة أن الحكم بالبينه وهو من ضمن ما علمه الله، ويحكم بما بذلك، وبما أرشد إليه ربه، وأهم هذه الإرشادات البينة والدليل وعدم اتباع الهوى، ومن لم يفعل ذلك فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

يبدو جلياً ترتيب الفترات، فظهور الكتابة مع نبي الله موسى، والتي أهلت البشرية للتدوين وحفظ تعهداتها وأفكارها واتفاقياتها، ومن ثم كان ظهور القضاء مع حقبة نبي الله داود؛ نتيجة مباشرة لظهور الكتابة. حتى نضيف دليل آخر لهذه الحقبة المجيدة سوف نحاول فهم كلمة الزبور التي جاءت مع نبي الله داود.

الزبور

يقول ربنا في كتابه أنه أتى داود زبوراً، كما جاء في سورة النساء، وسورة الإسراء:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (سورة النساء: آية 163)

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (سورة الإسراء: آية 55)

بالعودة لجذر كلمة [زبور] وهو زبر، ولها أصلان، أحدهما: قراءة وكتابة، والثاني: إحكام الشيء وتوثيقه، ونجد أنهما أصلان متقاربان جداً. من خلال الآية التي نتحدث عن أن الله أتى

داود الحكمة وفصل الخطاب، وجمع جذر الكلمة مع سياق الآية جنباً إلى جنب نستنتج أن الزبور أحكام ونصوص متعلقة بعملية العدالة والفصل بين الناس، ونتأج هذه العدالة وآثارها. الآية التالية والتي ذكر فيها الزبور تكمل الصورة، إذ يقول فيها ربنا: إنه كتب في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (سورة الأنبياء: الآية 105).

هذه الآية الكريمة هي النص المؤسس الحقيقي للنص المتداول: العدل أساس الملك، فيبدو جلياً أن الزبور كان كتاباً يتعلق بالعدالة، والنتائج المباشرة لهذه العدالة هي ميراث الأرض، كما حدث مع نبي الله سليمان ابن نبي الله داود .

حقبة نبي الله داود وكذلك حقبة نبي الله سليمان مليئة بالملاحظات الجديرة بالتوقف؛ كتسخير الكثير من الأشياء وتطويعها في ذلك الوقت، والتي كانت نتيجة مباشرة لاستقرار المجتمعات، بواسطة نظام قضائي عادل.

آيتان يمكن أن نقف أمامهما طويلاً، ويُعتبر مؤشراً على نظريتين من النظريات الهامة في تاريخ البشرية: النظرية الأولى: هي نظرية تسخير الجبال، والنظرية الثانية: تسخير الطير أو استئناس الطيور، وهاتان الآيتان كانتا منحة لنبي الله داود .

(إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ (19)) (سورة ص: الآيات 18-19).

لا شك أن العدالة وما تسببه من اطمئنان نفسي، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعملية الرخاء والبركات التي وعد الله عباده الطيبين. مرة أخرى يظهر لنا تأثير السلوك النفسي وارتباطه بمكونات الكون المختلفة حيث إقامة العدل مرتبط بالرغد والطيبات.

لنعود مرة أخرى للمحات القرآنية الفريدة عن تسخير الجبال وتسخير الطير. عملية استئناس الطيور أو تسخيرها تبدو عملية مفهومة، ولكنَّ عملية تسخير الجبال تبدو غامضة بعض الشيء. ربما نحتاج لمزيد من الجهد والتدقيق لفهم مدلول التعبير القرآني سخرنَا الجبال، ولكن قبل ذلك سوف نلقي نظرة على عملية استئناس الطيور، والتي نعتقد أنها حدثت على عهد نبي الله داوود، ثم تتبعها بالحديث عن تسخير الجبال وما تعنيه.

استئناس الطيور طائر الحمام

تشير الدراسات إلى أن طائر الحمام هو أقدم الطيور المستأنسة على الإطلاق، إذ تم استئناس هذا الطائر على ما يبدو في الألف الخامسة أو السادسة قبل الميلاد. الحضارات القديمة مثل الحضارات في بلاد الشام اعتنت بهذا الطائر بشكل خاص، وانتقل هذا الاهتمام إلى الحضارات الأخرى المجاورة، مثل: الحضارة المصرية، والحضارة الهندية. تشير النقوش إلى أنَّ الحمام تم استخدامه في عملية المراسلات في عهد رمسيس الثالث سنة 1150 قبل الميلاد، أما استخدام الحمام في المسابقات فقد جاء متأخراً بزمان طويل حسب الدراسات، إذ تشير الدراسات إلى أنَّ المماليك أول من استخدم الحمام في المسابقات الرياضية.

الدجاج

من ناحية الترتيب الزمني يمكن اعتبار الدجاج حلاً ثانياً بعد عملية استئناس الحمام، إذ يُعتقد أنَّ استئناس الدجاج قد تم في منطقة الهند، وفي الفترة ما بين الألف الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد. إن كان تاريخ الألف الرابعة أو الخامسة غير مؤكد ولا يمكن الجزم به بنسبة مائة بالمائة، إلا أنَّ هناك أدلة دامغة على أنَّ استئناس الدجاج قد بدأ مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد. النقوش الأثرية والهياكل العظيمة التي وجدها الباحثون تدلُّ على ذلك بشكل قاطع. هناك أدلة تاريخية عديدة تشير إلى أهمية الدجاج في الحضارات القديمة، فعلى سبيل المثال: هناك أدلة تشير إلى استخدام الدجاج في إنتاج اللحم، في حضارة بلاد الرافدين، في الألف الثانية قبل الميلاد.

كذلك الآشوريون لديهم تاريخ مع تربية الدجاج، وخبرة لا بأس بها، دلت عليها آثارهم. عُرف الدجاج لدى الحضارة الفارسية باسم طائر الضياء؛ بسبب صفة الصباح التي تُميز الديكة عند بزوغ الفجر. اهتمت الحضارات القديمة بعملية التفريخ الصناعي، ويُعتقد أنَّ الصينيين هم أول من استطاع إنتاج أفراخ الدجاج بشكل صناعي، إذ كان يتم وضع البيض في سلال مملوءة بقش الأرز في غرف مخصصة، وعند درجات حرارة مرتفعة ومناسبة لعملية التفريخ.

محاولات استئناس الطيور أخذت في التقدم والاستمرار بخطى ثابتة، حتى إن الرسوم والآثار تخبرنا أنَّ عمليات متابعة لاستئناس الإوز والبط والطاووس قد حدثت في التاريخ القديم، وأن الحضارات القديمة أولت أهمية كبرى لعملية استئناس الطيور؛ للاستفادة منها سواء في إنتاج اللحم، أو المراسلات، أو حتى المسابقات.

ماذا قال كتاب الله، وكيف أشار لعملية استئناس هذه؟

مفتاح فهم عملية الاستئناس التي حدثت للطير يكمن في فهم لفظ [سخر] الذي جاء

في سورة الأنبياء:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا

فَلْعَلِينَ) (سورة الأنبياء: آية 79).

مدلول كلمة [سخر]

جذر كلمة سخر في قاموس اللغة لها أصل واحد: وهو تذليل وخضوع، وهذا الأصل ينطبق تماماً في حالة الطير، فكيف يمكن أن نصف انتقال كائن ما من حياة البرية إلى حياة المدنية إلا إذا مر بحالة من التذلل والخضوع؛ لكي يتقبل الحياة الجديدة ويألفها. لا يجب أن يذهب تعبير التذلل والخضوع إلى المفهوم السلبي للذل وما يشمله من ظلم وقهر وعدم عدالة؛ وإنما التذليل والخضوع كان لغرض الاستفادة بشكل محايد.

يمكننا القول إن تسخير الشيء يعني جعله قابلاً للاستعمال أو في المتناول، ومتاحاً من ناحية القدرة على طلب مميزاته والاستفادة منها. سوف نحاول المرور على بعض الآيات التي ذكر فيها لفظ سخر؛ لبيان الحالة التي يصفها اللفظ:

الآية الأولى

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة البقرة: الآية 164).

تسخير السحاب في الآية الكريمة يعني كونه ملائماً تماماً لوظيفته، ويمكن الاستفادة منه بشكل كامل، فلا هو يضيع في السماء، ولا هو يسير على غير هدى، بل بنظام محكم من خلال قوانين كونية صارمة، جعلت السحاب يتراكم بعضه فوق بعض، في تطور محسوب ومقدر بشكل منضبط، على نحو يصبح بالنهاية جزءاً من دورة المياه على سطح الأرض.

الآية الثانية

(زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة البقرة: الآية 212)

لفظ [سخر] في هذه الآية بمعنى الاستهزاء، والسخرية هنا فعل خبيث؛ لأن لها غرضاً معيناً، وليست كلمة عابرة أو جملة فكاهية على سبيل المثال، والسخرية ترمي إلى تقليل شأن الشخص المستهدف، بحيث يصبح منتكاً الخصوصية ومباح العرض وفي متناول الجميع، وخصوصاً السفهاء منهم، وهي نفس الحالة التي تصف التسخير، ولكن السخرية هنا هي تناول واستغلال بالمعنى السلبي وهذا الفرق نتيجة لحركة الإعراب على الحرف الأول وهو السين.

الآية الثالثة

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (سورة النحل: آية 79).

(مسخرات في جو السماء) أي: نطاق عملها جو السماء، ولديها كل الإمكانيات التي تؤهلها لذلك؛ مثل: خفة الوزن، والجناحين، وتصميم الجسم. (مسخرات في جو السماء) أي: مهياة لأداء وظيفة الطيران بشكل يناسب مهامها. تجري جميع الكلمات التي ورد فيها جذر [سخر] على هذا النسق، فالأصل هو جعل الشيء في المتناول، وملائماً لأداء وظيفة معينة عن طريق قوى معينة تؤثر عليه.

من هنا يمكننا القول: إن تسخير ربنا الطير لنبيه داود هو بداية عهد استئناس الطيور، بحيث تمكن الإنسان من الاستفادة منها واستغلالها الاستغلال الجيد، فكما تشير الدراسات التاريخية أن الطيور استخدمت لإنتاج اللحوم والبيض وحمل الرسائل، في مدى زمني مقارب لما يُعتقد أنه عهد نبي الله سليمان أو حتى بعد حقبة نبي الله داود ولكن اللفظ القرآني يخبرنا أن عملية التسخير هذه بدأت مع نبيه داود. الآية التالية تضيف بعداً آخر لفهم استئناس الطيور.

(لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ) (سورة سبأ: الآية 10).

ما معنى أُوتِي معه؟ يقول المفسرون: إن أُوتِي هنا تعني سبَّحي، رغم أن لفظ [سبح] نفسه يحتاج إلى بيان وفهم، إلا أنه لا يمكن - كما ذكرنا - اختصار حالة اللفظ، ووصفه بكلمة هكذا. هذا الترادف مريح؛ إذ لا يتطلب البحث ومقارنة اللفظ بمثيله في كتاب الله، ومقارنة

المعلومات العلمية، ومحاولة فهم اللفظ كما تشير الآيات، ولكن يبقى هذا الترادف حجاباً تتوارى خلفه النظريات المعرفية التي جاء بها كتاب الله.

مدلول لفظ [التأويب] يعني الرجوع، كما جاء في التفسيرات، ولو حاولنا فهم التأويب من خلال جذر الكلمة فسوف نجد أن جذر [أوبي أو التأويب] هو أوب، وله أصل واحد وهو: الرجوع، لكن رجوع ماذا؟ ولماذا؟

إن فهم [أواب وأوبي] يمكننا الوصول إليه من خلال فهم الجذر الثنائي [أب]، ومقارنة النتائج بمدلول الكلمة في كتاب الله، والجذر الثنائي [أب] له أصلان كما جاء في قاموس اللغة، أحدهما: المرعى، والآخر: القصد والتهيؤ.

القصد والتهيؤ هو الأصل الذي نبث عنه، ولكن يحتاج لمزيد من التدقيق من خلال مقارنة الجذر الثلاثي والذي يعني الرجوع، مع مدلول الآيات في كتاب الله. ذكر جذر كلمة [أواب] في كتاب الله خلال سبعة مواضع، منها ست مواضع جاء اللفظ فيها بصيغة [أواب]، والآية التي نحن بصدددها والتي جاء اللفظ فيها بصيغة [أوبي]:

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (سورة الإسراء: آية 25).

أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (سورة ص: آية 17).

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (سورة ص: آية 19).

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (سورة ص: آية 30).

وَخُذْ بِيدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (سورة ص: آية 44).

هَذَا مَا توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (سورة ق: آية 32).

قد يصح أن يكون لفظ التأويب هو الرجوع إذا كان اللفظ يصف إنساناً، فعنى الرجوع هو العودة والإقلاع عن شيء ما، لكن إضافة هذا اللفظ للطير والجمال أعطى للفظ [أواب] بعداً آخر مرتبطاً بالجذر الثنائي وهو: التهيؤ.

من المعلوم أن الطير كما وضعنا كانت مسخرة في عهد نبي الله داوود، ومن بعد نبي الله سليمان أيضاً، فهل الطير رجعت أو أقلعت عن شيء؟ وما هو هذا الشيء؟ (الطير محشورة كل له أواب) فسرّها المفسرون بأنها تسبح مع نبي الله، ولو سلمنا أن الطير تسبح بغرض الرجوع عن شيء، فهل الطير أذنب لكي يقلع عن شيء ما؟

عن طريق تطبيق اللفظ على الآيات سنجد أن المعنى يكاد يخبر عن نفسه، فقد وصف ربنا نبيه داوود وسليمان وكذلك أيوب في الآيات الكريمة بالأواب، وهو كثير التهيؤ، وهنا يعني التخلص من كل الشركاء والتجاوزات الخارجية، ومحاولة الوصول للحالة التي يريد الله عليها عباده.

[أواب]: تعني أن يكون الإنسان مهيباً لمراد الله، وهو دائماً في هذا الوضع، يحاول بكل الطرق أن يكون في حالة عبادة كاملة وحقيقية لله. فلو تتبعنا حالة نبي الله داوود وما قدمه للبشرية، من خلال إدراكه للنظام القضائي السليم ومنظومة العدالة التي أسس لها بفضل الله، وكذلك تطوير كثير من المسائل الحياتية، كما سوف نرى من خلال مفهوم تأويب الجبال معه والطير، وكذلك حياة نبي الله سليمان المليئة بمظاهر الخير والتطور للبشرية، مثل: إسالة عين القطر، والتي سوف تأتي عليها من خلال حياة نبي الله سليمان، وسوف ندرك كم كان هؤلاء الأنبياء في حالة تهيؤ تام لتقديم كل ما يمكنهم تقديمه للبشرية؛ عبادة لله، ورجاء رحمته.

لفظ [أواب] الذي وصف به الطير هو دليل على استئناس الطير في هذا العصر، وهو عصر نبي الله داوود، إذ أصبح الطير في هذا العصر أواباً، أي: مهيباً لأداء مهمته الموكلة إليه من قبل الإنسان. عن طريق ضم [لفظ سخر ولفظ أواب] الذي وصف حالة الطير في هذا

العصر، وغزارة ذكر الطير مع نبي الله داوود، وابنه سليمان من بعده، نستطيع أن نقول إنَّ لدينا دليلاً دامغاً على تحوُّل غير عادي حدث وطراً على الطيور وقتها، وهو الاستئناس.

يا جبال أوبي معه

عظيم أمر الجبال هذا، والذي ذكر أيضاً مع نبي الله داوود، ولا بد أن نقف أمام تسبيح الجبال وأمام تأويبها، ونقارن مشاهد حياة نبي الله داوود؛ لنفهم ما المقصود بتلك التعبيرات القرآنية البديعة. ذكر لفظ [الجبال] مع نبي الله داوود في ثلاثة مواضع في كتاب الله.

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُلًّا فَالْعَلِينَ) (سورة الأنبياء : آية 79).

في هذه الآية الكريمة يبدو جلياً أن نبي الله داوود قد استخدم الجبال في عمل شيء ما، كأمر استئناس الطيور، فما فائدة الجبال؟ وكيف استخدمها نبي الله داوود؟

إننا أمام معرفة قيِّمة تقودنا مباشرة إلى اكتشاف بداية عصر التعدين الحقيقي، أو عصر استخراج الحديد واستخدامه. الجبال بتكوينها العجيب هي بالطبع مصدر للمعادن والخامات المختلفة، ومعنى أن نبي الله داوود استطاع الاستفادة من هذه الجبال، والانتفاع من مخزونها، فذلك توجيه رباني يرشدنا لبداية حقبة جديدة في حياة الإنسان، وهي دخول المعادن والأدوات المعدنية المصنوعة من الحديد، وذلك على خط تطور البشرية، والتي أثرت -لا شك- في كل مجالات الحياة بعد ذلك .

تاريخياً تقول المصادر إنَّ النحاس يعتبر أول معدن تم استخدامه، وذلك بين عام 6000 و 7000 قبل الميلاد، إذ كان من السهل إيجاد خامته والتعامل معه من حيث الاستخراج، والذي لا يحتاج إلى حرارة عالية في عملية إذابته.

من المعلومات المعتبرة في مجال التعدين ما يعرف بالعصر البرونزي، والذي كان يعتقد الدارسون إلى وقت قريب أنه بدأ في بلاد الرافدين قبل عام 3000 قبل الميلاد. هناك معلومات جديدة غيرت نظرة الباحثين إلى نشأة وبداية العصر البرونزي، إذ تشير الدراسات

إلى اكتشاف أدوات مصنوعة من البرونز، تعود إلى عام 3600 قبل الميلاد (البرونز سبيكة من النحاس والقصدير).

بالنسبة إلى الحديد يعتقد العلماء أن أول ظهور لهذا المعدن كان في آسيا الصغرى، وهذا التأكيد يعود إلى دلائل توافر خامات الحديد في هذه الأماكن؛ مما ساعد الإنسان على التعامل معها وإنتاج الحديد. معدن الحديد على عكس معدن النحاس والقصدير، يحتاج لحرارة عالية لإسالته واستخلاصه؛ مما جعل عملية الاستفادة منه ليست سهلة. صعوبة التعامل مع الحديد هو ما جعل الحديد يأتي متأخراً بعد النحاس من حيث عملية الاستخلاص، وذلك برأي الباحثين.

يعتقد الباحثون أن العمليات التي كانت تجري على الحديد هي عمليات طرق في البداية، تحتاج لقوى ميكانيكية ومطارق، وليست عمليات سبك، تحتاج لحرارة عالية وأفران، وتقول الأبحاث إن أول شعب استخدم الحديد بشكل كبير هو شعب الأناضول سنة 1500 قبل الميلاد.

من خلال النظرة السريعة على بداية عصر التعدين نجد أن تحديد وقت ظهور التعدين بشكل قاطع ليس من السهولة بمكان، ولا شك أن عملية تعدين الحديد هي التحول الكبير الذي غير مفهوم الزراعة والصناعة، وأدوات الحرب في تاريخ البشرية.

نعتقد أن هذه الحقبة بدأت تحديداً في عصر نبي الله داوود، ومن خلال الإشارة القرآنية التي تقول أن الله سبحانه وتعالى سخر لنبيه داوود الجبال.

تسخير الجبال هذا وإن كان عن طريق التحليل يخبرنا أنه مصدر المعادن، ومخزون هام للخامات، إلا أن هناك آية كريمة تضيف لنا معلومات عن المعدن الذي تعامل معه نبي الله داوود، وهي الآية التي نتحدث عن الحديد وعلاقة نبي الله داوود بهذا الحديد.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالَ أُوبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّاسَ لَهَا لِحْدِيدٍ﴾ (سورة سبأ:

آية 10).

ما معنى (أنا له الحديد)؟

جذر كلمة [أنا] هو لين، وأصل الكلمة كما جاء في قاموس اللغة: عكس الخشونة، ولكن ماذا قال المفسرون عن التعبير القرآني (أنا له الحديد)؟.

يحتجُّ بعض الباحثين بأن مسألة أنا له الحديد ليست علماً تعلمه نبي الله داوود، إذ لو كان علماً لكان الله قال فيه: وعلَّناه إلائة الحديد مثلاً، لكنَّ لفظ [أنا له الحديد] يوحي أن العملية كانت شيئاً خارقاً للعادة حقاً، وأنَّ الحديد كان ليِّناً في يد نبي الله داوود على غير العادة.

من خلال تتبع التاريخ البشري سنجد أن هناك أشياء استطاع الإنسان الوصول إليها بالعلم، فهو يبدأ بجمع المعطيات اللازمة ودراسة الحالة، ومن ثم استنتاج نتيجة معينة، وغالباً هذه النتيجة على سبيل المثال اختراع ما.

بينما هناك أشياء ظهرت في طريق البشرية بدون معطيات، ولو جاز لنا التعبير لقلنا بدون حول ولا قوة أو أي ترتيب، أو كما يقول أهل العلم ظهرت هذه الأشياء صدفة أو ضربة حظ. من الأمثلة على ضربة الحظ هذه اكتشاف البنسلين، واكتشاف اشعة إكس، واكتشافات عديدة أخرى، مثل: البلاستيك، واعواد الثقاب، والمطاط المفلكن، والتفلون.

بالنسبة للبنسلين فهو أول مضاد حيوي عرفته البشرية، وقد جاء اكتشافه ليس عن طريق ضربة حظ فقط، بل كان نتيجة خطأ ما، فبعد أن ترك العالم الاسكتلندي ألكسندر فيلنج طبقاتاً مختبرياً به بكتريا عنقودية في معمله في مستشفى سانت ماري في إنجلترا، وبعد عودته من إجازته والتي استغرقت أسبوعين وجد أن البكتريا قد تلوثت بعض فيروزي اللون، وأنَّ البكتريا لم تكن قادرة على النمو حول هذه العفن.

بعد ذلك تم التعرف على هذا الفطر، واستخراج مادة البنسلين القادرة على قتل أنواع عديدة من البكتيريا؛ ليصبح البنسلين أول مضاد حيوي، تم بفضل إنقاذ البشرية من أمراض فتاكة.

من الأشياء المثيرة للاهتمام أيضاً اكتشاف أشعة اكس، أو ما يسمّى: باشعة الكاثود، والتي اكتشفها الطبيب الألماني فيلهلم رونتجن، عندما كان يقوم ببعض الاختبارات ولاحظ إضاءة غريبة في غرفته المظلمة، وأيقن وقتها أنه بصدد اكتشاف نوع جديد من الأشعة، ولأنه لم يعرف كنهها فقد أطلق عليها أشعة اكس.

هذه الاكتشافات لا يمكن القول عنها إنها جاءت نتيجة علم ما أو بحث مقصود في اتجاه كشفها، بل جاءت مصادفة . هذا لا يعني أن الشخص جالس ينتظر أن تمطر السماء عليه اكتشاف بل هو في سيره وعمله مستمر ومتربح، فيفتح الله على يديه كشفاً آخر بدون ترتيب مسبق.

يبدو كذلك أن مسألة إلهة الحديد قد وهبها الله لنبيه داوود عن طريق الاكتشاف وليس العلم. ملاحظ شخصية نبي الله داوود التي وصلتنا من خلال آيات الكتاب، والتي تقول إنه دائم العمل، تعزز هذه الفرضية فيبدو أنه خلال إحدى ممارساته اكتشف تحول خام الحديد (حجارة الحديد) إلى حديد أكثر نقاء، مما أكسبه ليونة وقدرة على التشكل.

الآية التالية تعطي ملحاً هاماً من ملاحظ هذه العملية، والتي قال عنها ربنا: (أنا له الحديد)

(أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة سبأ: آية 11).

فما هي السابغات وما معنى قدر في السرد؟

يقول المفسرون عن السابغات: إنها الدروع، وقدر في السرد: تعني ثقب الدروع أو مسامير الدروع.

(اعمل سابغات وقدر في السرد) تدولي أنها عمليات متعلقة بليونة الحديد، وليست صناعة دروع، فعندما تحدّث ربنا عن الصناعة التي كانت تطبيقاً مباشراً لليونة الحديد قال: (وعلمناه صنعة لبوس لكم).

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) (سورة الأنبياء: آية 80).

يمكننا القول إن اللبوس هنا قد يعني الدروع، ولكنّ السابغات لا تعني الدروع، بل هي طريقة من طرق تعدين الحديد. جذر كلمة [سابغات] في اللغة هو: سبغ، وتعني: الإتمام والكمال، كما جاء في قاموس اللغة، وجذر كلمة [سبغ] ورد في كتاب الله في موضعين فقط من كتاب الله، أولهما الموضع الذي نحن بصددده، والموضع الآخر في سورة لقمان. وهما كالتالي:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) (سورة لقمان: آية 20).

أسبغ نعمه، أي: غمر الناس بها بشكل تام وكامل، ويبدو أنّ المعنى بالقول (اعمل سابغات) هي طريقة تقوم بغمر الحديد في شيء ما، وهذه الطريقة من طرق التعدين قد تكون هي الغمر في النار مثلاً. لا يمكننا الجزم بحقيقة هذه العملية، غير أننا نؤكد أنها عملية من عمليات التعدين؛ بسبب التعبير القرآني التالي وهو (قدر في السرد).

قدر في السرد

جذر كلمة السرد - كما في قاموس اللغة - لها أصل واحد، وهو توالي أشياء كثيرة يتصل بعضها ببعض، والسرد هو ما نسميه نحن بعملية الطّرق، فعملية الطرق هي عملية ميكانيكية، نقوم من خلالها بالطرق على المعدن؛ بغرض سحقه وجعله يتمدد. بشكل بسيط عملية الطرق هي عملية مطّ المعدن عن طريق طرقه بالمطارق.

يبدو لي أن لفظ السرد هو الذي نستخدمه في التعبير عن سرد القصص والحكايات، في صورة من صور مطِّ وإطناب حدث معين، عن طريق قصِّ جميع التفاصيل، والسرد في حد ذاته عملية تطويل أو مدِّ للشيء، وهو ما يعرف في حالة المعادن بعملية الطرق والسحب. من هنا يمكننا القول إنَّ قول الله سبحانه وتعالى عن نبيه داوود (أنا له الحديد) تعني أنَّ الحديد لم يكن قابلاً للتشكُّل قبل هذا اليوم أو لم يكن الإنسان قادراً على تشكيل الحديد أو معروفاً قبل هذا اليوم، ولكن مع حقبة نبي الله داوود أصبح الحديد قابلاً للتشكيل، ومن ثم الاستخدام والاستفادة منه.

حقبة نبي الله سليمان

حقبة نبي الله سليمان كانت نتيجة وتطبيقاً مباشراً لما تمَّ تأسيسه في عهد نبي الله داوود، حيث العدالة، وتأسيس نظام للقضاء قويٍّ قائم على أساس متين، وكذلك القدرة على استخدام معدن الحديد؛ والذي لا شكَّ غير تاريخ البشرية، وقفز بها قفزة نوعية في جميع المجالات، سواء الزراعة أو المجالات العسكرية؛ مما يهيئ ملكاً عظيماً لنبي الله سليمان، والذي قصَّ القرآن خبره وأشار إليه:

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)
(سورة ص: الآية 35).

في حياة نبي الله سليمان مشاهد عديدة، نستطيع من خلالها إلقاء الضوء على الحضارة الإنسانية وفهم تطورها. من هذه المشاهد التعبير القرآني وأسلنا له عين القطر، والتي يبدو أنها كانت مرتبطة بمسألة التعدين، واكتشاف الحديد في زمن نبي الله داوود.

فما هو القطر؟

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (سورة سبأ: آية 12).

ذكر لفظ [قطر] في كتاب الله في ثلاثة مواضع، الآية التي نحن بصدددها، وآيتان، كالتالي

:
(سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغَشَّىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ) (سورة إبراهيم: آية 50). (أَتُونِي زُبَرَ
الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا)
(سورة الكهف: آية 96).

فسر المفسرون كلمة [قطر] على أنها معدن النحاس المعروف. في سورة إبراهيم أيضا
قال المفسرون عن [القطران] هو النحاس المذاب

من خلال التفاسير نجد إصراراً على أن القطر هو النحاس، رغم ذكر النحاس صراحة
في كتاب الله، وقال عنه المفسرون أيضاً أنه الصفر المذاب، والصفر المذاب هو معدن النحاس،
وكان العرب يسمونه الصفر:

عندما فسر المفسرون هذه الآية الكريمة (يُرْسَلُ عَلَيْكَ شَوَاطِئٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا
تَنْتَصِرَانِ) (سورة الرحمن: آية 35). ذكر بعضهم أن المقصود بالنحاس هو: الدخان، رغم ذكر
الدخان صراحة في كتاب الله. هناك ارتباك واضح في دلالة المسميات يجب أن يثير انتباه كل
باحث حقيقي، ولا يجب التسليم ابداً بمسلمات قد تطمس كلمات الله. إننا نود معايرة كل
الاسماء على الأسماء الواردة في كتاب الله بشيء من التدبر والترث والتداعي للعجلة.

في قاموس اللغة كلمة قطر تعني التابع، ومن خلال كتاب الله، وخصوصاً الآية الكريمة
التي نتحدث عن محاولة ذي القرنين بناء ردم، والذي استخدم فيه حديداً مصهوراً مع القطر؛
لزيادة الصلابة؛ سنجد أن المقصود بالقطر هو: الفحم أو الكربون بالمفهوم العلمي، وخاصية
التتابع هذه تنطبق تماماً مع خصائص وصفات الفحم أو الكربون.

لن أقوم بسرده مراحل تكوين الفحم وهي تتمثل في عدة مراحل مما يعطي انطباعاً بالتتابع
والذي هو من صفة وخصائص هذا العنصر ولكن سوف أشير إشارة خفيفة إلى عملية تتابع
أخرى مرتبطة باستخراج بعض المواد من هذا العنصر وهي التقطير.

. عملية التقطير هذه هي المقصودة في قول الله تعالى (وأسلنا له عين القطر)، فعين القطر بناء على مفهوم ومدلول كلمة [عين] -من خلال الجزء الثاني- تصف حالةً من الفيض والتدفق، وتعني هنا منجماً طبيعياً للفحم، والقطر بالقطع هو الفحم، وعملية الإسالة هي عملية التقطير التي تجري على الفحم. هناك احتمال آخر لمسمى القطر وصفة الفحم سوف نتناوله في ملحق خاص وسوف نضيف إليه معدن الذهب والفضة والحديد في نهاية الفصل.

التعبير القرآني (أسلنا له عين القطر) يشبه تماماً التعبير القرآني الذي استخدمه كتاب الله عندما عبر عن اكتشاف تعدين الحديد، بقوله: (ألنا له الحديد)، فيبدو تماماً أن عملية الإسالة التي توصل له نبي الله سليمان كانت بدون حول ولا قوة منه، أي: ليست عن طريق علم معين، كما حدث معه في فهم منطق الطير.

عندما أخبرنا كتاب الله عن قدرات نبي الله سليمان، والأشياء المسخرة له، جاء لفظ [علم] مع منطق الطير، بينما عند الحديث عن [القطر] جاء التعبير القرآني بلفظ [أسلنا] وليس علمنا؛ إذاً عملية الإسالة تمت دون مقدمات علمية، وكأن نبي الله سليمان كان يجري أمراً ما، ثم اكتشف عملية الإسالة هذه.

مرحلة نبي الله داود، ومن بعده نبي الله سليمان، تبدو أنها شهدت قفزات تطويرية عظيمة في مجال التعدين والمعادن. إذا كان ظهور تعدين الحديد على يد نبي الله داود، فقد ظهر التقطير أو إسالة الفحم الحجري على يد نبي الله سليمان.

التقطير الإتلافي للفحم

عملية التقطير الإتلافي للفحم تتم عن طريق تسخين الفحم بمعزل عن الهواء، إذ يتحول الفحم إلى مجموعة من المركبات الصلبة والسائلة والغازية، والمواد الناتجة من عملية التقطير تعتمد بشكل أساسي على درجة الحرارة المستخدمة، وطبيعة الفحم المستخدم كذلك؛ فعند درجات الحرارة المنخفضة تكون النواتج السائلة كبيرة مقارنة بالنواتج الغازية، إذ تحتوي السوائل الناتجة على مجموعة من الأحماض وأسس قطرانية.

إن كان تقطير الفحم الإتلافي بشكله الحديث لم يُعرف إلا حديثاً، إلا أن المصادر التاريخية تشير إلى أن القطران -وهو ناتج من نواتج التقطير الإتلافي للفحم- كان معروفاً لدى القدماء المصريين قبل 1000 ق م.

يبدو لنا أن عملية التقطير الإتلافي للفحم أو إسالة الفحم كما ذكرها القرآن قد تمت في عهد نبي الله سليمان، ولكن بسبب معارف العرب المحدودة في هذا الجانب؛ لم ينتهوا إلى لفظ [القطر] وعملية الإسالة هذه التي ذكرت في كتاب الله، حتى إنهم فسروا القطر على أنه النحاس.

لا شك أن حقبة نبي الله سليمان كانت مليئة بمظاهر التطور والمعارف، وقد أفردنا فصلين في الجزء الثاني عن مشاهد فريدة من هذه الحقبة.

حقبة نبي الله زكريا

بعد حقبة نبي الله سليمان تأتي حقبة نبي الله زكريا، والتي كانت مقدمة لظهور نبي الله عيسى، وسوف نفرّد لنبي الله عيسى ومعجزاته، وعلامات يوم القيامة جزءاً كاملاً؛ بسبب غزارة النظريات المعرفية المرتبطة بظهور نبي الله عيسى.

حقبة نبي الله زكريا تؤثر ربما لظهور مرحلة الفلسفة، فظهر لفظ [يتكلم] بكثافة لا مثيل لها في هذه الحقبة، وكما أشرنا فإن الكلام يختلف تماماً عن مجرد القول أو الحديث، وقد أفردنا في الجزء الأول فصلين كاملين عن معجزة نبي الله عيسى، وكيف تكلم صبياً وليس رضيعاً، وكذلك استطعنا تتبع لفظ [الكلام] منذ آدم عليه السلام، وحتى ظهوره بكثافة في عهد نبي الله زكريا. في حين كان ظهور لفظ الكلام غائبا طوال التاريخ الإنساني، إلا أنه ظهر مع حقبة نبي الله زكريا، كما سوف نرى.

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (سورة آل عمران: آية 41).

نبي الله زكريا كانت له آية من الله ألا يكلم الناس؛ فمن الواضح أنه كانت له قدرة كبيرة على الكلام، الذي يعني التعبير البليغ والقول الحكيم، وتتبع لفظ الكلام في كتاب الله دفعنا للقول إنَّ المقصود بالكلام هو مرحلة متقدمة جداً، إذ يستطيع كل الناس النطق والقول، ولكنَّ القدرة على الكلام بمعناه القرآني لا يستطيعها إلا الشخص الحكيم، وفي مرحلة نبي الله زكريا نجد كذلك السيدة مريم، فكما ورد في سورة آل عمران كانت لديها هذه القدرة وهذه الميزة.

(فُكِّلِي وَأَشْرِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا

فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنِسِيًّا) (سورة مريم: آية 26).

وحتى القوم المعاصرون للسيدة مريم بدت لديهم قدرة متطورة على الكلام:

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) (سورة مريم: آية 29).

من خلال غزارة ذكر لفظ الكلام في هذه الحقة نستطيع أن ندرك أن العقول تطورت بشكل كبير جداً، حتى أصبح التعبير عن الأفكار متطوراً بشكل كبير وبليغ، ومقصود هذا التطور في التعبير عن الأفكار هو البذرة الحقيقية لظهور الفلسفة. دون هذه القدرة العقلية في التعبير عن الفكرة بشكل بليغ فلا وجود لما يسمى الفلسفة، ويبدو لنا أن المجتمع وقت نبي الله زكريا كان مجتمعاً يموج بالفلاسفة، أو أن بذرة الفلسفة بدأت من هنا.

العناصر المذكورة في القرآن القطر، الفضة، الذهب والحديد

القطر (الكربون)

عندما تتبعنا لفظ القطر كما بينا في القرآن وجدنا أنه يعني الكربون، حيث أن صفات لفظ القطر هي التابع أو التقاطر وهذا ما دل عليه اللفظ نفسه. خاصية التابع أو التقاطر هذه سنجدها خاصية مميزة لعنصر الكربون على المستوى الذري، حيث قدرة ذرات الكربون على تكوين روابط عديدة مع نفسه ومع غيره من العناصر مما يجعله يبدو وكأنه سلسلة متقاطرة من الذرات.

خاصية التقاطر هذه خاصية فريدة لعنصر الكربون مميزة له بشكل شديد الوضوح. أجدني مدفوعاً للقول أن لفظ القطر يصف هذه الخاصية الدقيقة وهي قدرة الكربون على تكوين روابط بشكل مميز. ذرة عنصر الكربون تحتل أهمية قصوى بين جميع العناصر، تحديداً بسبب هذه الخاصية المميزة للكربون. قدرته على تكوين روابط وسلاسل عديدة أهله بكل قوة أن يصبح العنصر الأساسي في النظام الحيوي. جميع المركبات العضوية تتكون بالأساس من الكربون لأن الكربون يستطيع تكوين سلسلة كبيرة جداً من المركبات بسبب هذه الخاصية الفريدة.

كل ذرة منفردة من ذرات عنصر الكربون تنطبق عليها هذه الخاصية وهي خاصية التابع أو التقاطر حيث كل ذرة يمكنها تكوين الروابط بالشكل الذي تحدثنا عنه. لو لم يكن لنا إلا أن نطابق خصائص وصفات هذا العنصر مع المسمى لكفانا، ونتنظر حتى تثير مثل هذه القراءات شبيهة باحثين حقيقيين يرغبون بصدق في اكتشاف أسرار الكلمة في القرآن والتي عليها مئات الأدلة والإشارات التي تكاد تنطق وتقول ها أنا هنا فهل من متدبر.

عنصر الفضة

ماذا يمكن أن يفيدنا فهم لفظ الفضة وإلى أي شيء يشير هذا اللفظ من خلال اللغة ومدلوله في القرآن؟ ما الذي يقابل هذا المدلول من خصائص دقيقة على المستوى الذري لهذا العنصر؟ أصل كلمة فضة هو فض وفي قاموس اللغة تعني تَفْرِيقٍ وَتَجَزُّؤَةٍ. مِنْ ذَلِكَ: فَضُضْتُ

الشيء، إذا فرقه؛ وأنفص القوم: تفرقوا. هل مفهوم الفص هو مفهوم التفرقة والتجزئة أم أن كتاب الله له رأي آخر؟ يمكننا فهم مدلول الفص من خلال ثلاث آيات ذكرت الانفصاض وهي كالتالي:

الآية الأولى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ

حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (سورة آل عمران: آية 159).

الآية الثانية: (وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

مِنَ اللَّهِ وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (سورة الجمعة: آية 11).

الآية الثالثة: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ

خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) (سورة المنافقون: آية 7).

من خلال تتبع اللفظ في الآيات السابقة نجد أن مدلول الفص هو ترك المكان كلياً.

عندما نقول انفص الشيء فإنه يعني ذهب ولم يبقى له أثر. لزيادة فهم مدلول لفظ فص يلزمنا إلقاء نظرة على الآية التالية:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا) (سورة

النساء: آية 21).

أفضى هنا تعني نقل كلا منهما ما بداخله إلى الآخر. فص الشيء أي أنهى وجوده

ويقال باللهجة العامية (فص كأس الماء أي أفرغه من محتواه). سواء كان مفهوم الفص

هو نقل الشيء من مكانه أو تفريره من محتواه، أو إنهاء وجوده فهذه الصفات والخصائص

خصائص مميزة لعنصر الفضة على المستوى الدقيق أو المستوى الذري.

بالنظر إلى عنصر الفضة سنجد أن هناك خاصية مميزة لهذا العنصر، وهي أنه أكثر العناصر قدرة على نقل الحرارة والكهرباء بكفاءة منقطعة النظير؛ أو نقلها دون تبديد. أو فقد. ماذا يعني هذا؟

عنصر الفضة يستطيع توصيل الحرارة والكهرباء بقدرة فائقة عن باقي العناصر؛ بمعنى يُفضي كل ما حصل عليه من جانب إلى الجانب الآخر بشكل فائق. إن عنصر الفضة إذا حصل على محتوى من الحرارة أو الكهرباء فإنه قادر على إفراغ هذا المحتوى بشكل يقارب المثالية.

كل ذرة من ذرات عنصر الفضة تنطبق عليها هذه الخاصية وهي القدرة على نقل الحرارة والكهرباء بشكل فائق.

عنصر الذهب

جذر كلمة ذهب (ذَهَبَ) الذَّالُّ وَالْهَاءُ وَالْبَاءُ أُصِيلٌ يَدُلُّ عَلَى حُسْنٍ وَنَضَارَةٍ. مِنْ ذَلِكَ الذَّهَبُ مَعْرُوفٌ. لم يعطينا المعجم خصائص وصفات الجذر والتي جاءت بل نسب الإسم إلى عنصر الذهب المعروف فقط دون أي زيادة. نحن نحاول هنا فهم لماذا سمي القرآن الذهب ذهب وما هي الخصائص التي يحملها هذا اللفظ.

فعل ذهب جاء في كتاب الله في أكثر من موضع بمعنى المغادرة ، والمغادرة تعني ذهاب بلا عودة > لفظ ذهب سواء المعدن المعروف أو فعل ذهب لهما نفس المنطوق والحروف لذا هما يتطابقان في المعنى ويشتركان في الصفات والخصائص.

ماذا يمكن أن تفيدنا حالة المغادرة التي وصفها لفظ ذهب هنا على المستوى الذري؟ بالقياس ومن خلال الأمثلة السابقة نستطيع القول أن كل ذرة من ذرات عنصر الذهب تنطبق عليها هذه الخاصية وهي خاصية المغادرة أو الذهاب.

اللفظ يدفعني للقول أن ذرات الذهب تتميز بخاصية فريدة وهي التحرك المستمر وعدم العودة لمكانها السابق بشكل مميز أو بشكل أكثر من مثيلاتها. من المعروف في المواد الصلبة أو الفلزات تحديداً أن الذرات فيها تأخذ مواقع ثابتة حيث لا تغادر هذه المواقع. بمعنى أن

التركيب البلوري لهذه العناصر يشير إلى ثبات مواضع الذرات، وهذا أمر عليه تأييدات علمية بل وهناك وصف دقيق يصف الأشكال البلورية المختلفة لهذه العناصر من أنها ثابتة وحركة هذه الذرات هي حركة اهتزازية حول مواضعها وليست حركة انتقالية من موضع إلى موضع آخر.

هل ما نقوله في هذه الجزئية يتفق مع العلم الحديث؟

هذا الفرض لا يتفق مع العلم الحالي، ولكن نتائج تحليل اللفظ تعطينا لمحة على احتمالية خطأ هذا التصور وأن ذرات المواد الصلبة تتحرك حركة انتقالية، من موضع إلى موضع آخر. أعتقد أن الذرات في المواد الصلبة تتحرك في صورة نمط محدد كما تتحرك تكوينات النجوم في الفضاء مما يجعل رصد حركتها صعب للغاية. الجدير بالذكر أن لفترة قريبة كان يُعتقد أن مواضع النجوم ثابتة وأنها لا تتحرك ولكن حديثاً ثبت علمياً خطأ هذا التصور.

اليوم نعلم جيداً أن النجوم تتحرك سابحة في الفضاء. هذه الحركة عندي تشبه تماماً الحركة التي استنتجتها من خلال تحليل لفظ الذهب ولكن بسبب صغر حجم الذرات وبطء الحركة المتناهي في الصغر وترتيبها في أنماط محددة ربما جعل رصد هذه الحركة بالغ الصعوبة. أعتقد إن حركة ذرات الذهب بسبب دلالة اللفظ هي حركة مميزة مما يجعل رصدها أسهل بكثير من غيرها من المعادن، لو استطعنا إيجاد طريقة لقياس ورصد هذه الحركة.

هل يمكن اكتشاف هذه الحركة وهل لهذه الحركة مردود علمي ذو قيمة؟ لا شك أن الوسائل العلمية المستخدمة في اكتشاف العالم من حولنا سواء على المستوى الذري أو مستوى الاجرام الفضائية في تقدم مستمر، ولدي يقين كبير أن لحظة اكتشاف حركة الذرات في المواد الصلبة آتية بقوة وفي وقت قريب.

دعني اسجل هنا تجربة بسيطة يمكن من خلالها التأكد من فرضية حركة الذرات داخل المواد الصلبة. في بدايات القرن العشرين وتحديدًا عام 1908 م صمم العالم الإنجليزي رذرفورد تجربة فريدة لفهم التركيب الذري لذرات العناصر.

كانت تجربة رذرفورد عبارة عن وضع ورقة رقيقة من الذهب أمام مصدر للأشعة . مصدر الأشعة هذا كان قادراً على إنتاج جسيمات ألفا ومن ثم توجيهها ناحية صحيفة الذهب الرقيقة . قام رذرفورد بوضع حساسات خلف صحيفة الذهب وكذلك على جانبي الصحيفة وحولها، لتسجيل جسيمات ألفا المارة خلال رقيقة الذهب والمرتدة.

وجد رذرفورد أن جزء كبيراً من جسيمات ألفا قد مر دون أي حيود أو انحراف، وأن جزء من هذه الجسيمات قد عانى انحراف بدرجة ما وأن جزء صغير قد ارتد مرة أخرى. فسر رذرفورد هذه النتائج على أن معظم حجم الذرة يتكون من فراغ حيث أن معظم أشعة ألفا مرت خلال صحيفة الذهب دون أن تعاني أي انحراف. استنتج رذرفورد أن الذرة تحتوي على حيز صغير جداً في المنتصف يتركز فيه معظم كتلة الذرة وهي النواة ذات الشحنة الموجبة.

عندما كانت جسيمات ألفا وهي جسيمات ذات شحنة موجبة تمر بعيداً عن النواة ذات الشحنة الموجبة أيضاً كانت تمر دون أي حيود أو انحراف. بينما عندما كانت هذه الجسيمات تقترب من النواة بقدر ما كانت تعاني انحراف بقدر قربها من النواة بسبب التنافر بينها وبين النواة ذات الشحنة الموجبة. أيضاً كان هناك عدد صغير من جسيمات ألفا ارتدت للخلف مرة أخرى وتم تسجيلها، مما دل على أن هذه الجسيمات قد اصطدمت بالنواة مما جعلها ترتد للخلف مرة أخرى.

لو استطعنا تعديل هذه التجربة بحيث يمكننا تسليط شعاع من جسيمات ألفا في شكل خط مستقيم مستمر على صحيفة من الذهب الرقيق جداً ثم استطعنا تسجيل مرور هذه الجسيمات وانحرافها أو ارتدادها لاستطعنا إن ندرك هل هذه الذرات في المواد الصلبة تتحرك أم لا. العامل الرئيسي هنا هو التأكد من استقامة شعاع ألفا بحيث لا توجد أي فرصة تسمح بخروج جسيم ألفا عن هذا الخط المستقيم.

في حالة مرور شعاع جسيمات ألفا في خط مستقيم تماماً مع التأكيد على ذلك فمن المفترض أن تمر الجسيمات جميعها دون أي انحراف أو ارتداد طالما أن الذرات ثابتة في

مواضعها. أما إذا عانى جزء من جسيمات ألفا انحراف بدرجة ما أو ارتداد ومر جزء بشكل مستقيم فهذا يعني إن الذرات في المادة الصلبة تتحرك باستمرار.

مع ثبات شعاع ألفا وملاحظة انحراف جزء من هذه الجسيمات وارتداد جزء فإنه لن يكون هناك أي احتمال آخر سوى أن الذرات داخل المادة الصلبة هي من تتحرك؛ فتارة تقترب من مسار الشعاع فتسبب انحراف بعض الجسيمات، وتارة تمر خلال المسار فتسبب ارتداد بعضاً من هذه الجسيمات. من هنا يمكننا الانطلاق لحساب هذه الحركة وفهم تأثيرها على خواص المواد.

الحقيقة هناك الكثير من الأدوات التي يمكن الانطلاق منها لدراسة مثل هذه الفرضية مثل أجهزة الميكروسكوب الإلكتروني والذي يمكن عن طريقه دراسة سطح المواد الصلبة. يطلق الميكروسكوب الإلكتروني حزمة من الإلكترونات نحو العينة المراد فحصها، ثم يتم تسجيل الإلكترونات المرتدة والمنحرفة بعد ارتطامها بالسطح ومن ثم نستطيع دراسة وفهم سطح هذه المواد. العقبة تكمن في أن الميكروسكوب الإلكتروني يطلق حزمة من الإلكترونات ونحن نريد شعاع رقيق جداً سعته إلكترون واحد حتى يمكننا إثبات فرضية تحريك الذرات داخل المواد الصلبة. هذا الأمر حالياً بالغ الصعوبة ولكن مع الوقت اعتقد يمكن التغلب على هذه المعضلة.

أعتقد بشدة أن حركة هذه الذرات في المواد الصلبة لها علاقة وثيقة بالخواص الكهربائية للمواد الصلبة بل إن خواص مثل التآكل (الصدأ) هو أحد أهم نتائج هذه الحركة. بالنظر إلى الذهب والذي أعتقد أنه صاحب الذرات الأسرع في المواد الصلبة سنجد أنه من أكثر المواد مقاومة للصدأ.

هذه المقاومة من وجهة نظري تعود بالأساس إلى الحركة السريعة للذرات في حالتها الصلبة مما لا تدع فرصة للذرات على السطح للتفاعل مع الأكسجين وحدوث الصدأ. (النشاط الكهربائي مرتبط في اعتقادي بحركة الذرات أو أن هذه الحركة له وزن ثقيل في هذه الخاصية) على الجانب الآخر نجد الحديد من العناصر سريعة الصدأ ويرجع ذلك بحسب تحليل اللفظ إلى الثبات الشديد لهذا العصر.

عنصر الحديد

لفظ الحديد استطعنا فهمه من خلال الآية في سورة ق. . (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (سورة ق:آية 22).

حديد هنا شديد التركيز وهذا التركيز يأتي من الثبات الشديد أيضا ويمكن فهم الحديد بشكل أكثر عمقاً عند مقابلة هذه الآية مع الآية التي وصف ربنا فيها البصر بالزيع في سورة النجم.

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) (سورة النجم: آية 17). الزيع هو الحركة السريعة للبصر في اتجاهات مختلفة بينما لفظ حديد في الآية السابقة هو خلاف ذلك.

من خلال مقابلة الآيتين نستطيع القول أن لفظ حديد يصف خاصية الثبات الشديد. لو قمنا بمد الخط على استقامته، يمكننا إدراك أن كل ذرة من ذرات عنصر الحديد تتميز بهذه الخاصية. على ذلك يمكن عقد مقارنة بين عنصر الذهب وعنصر الحديد من حيث التآكل والصدأ وربط هذه الخاصية بحركة الذرات داخل المواد الصلبة والتي استنتجتها من خلال تحليل اللفظ القرآني.

الذهب هو أكثر عنصر تتحرك ذراته داخل بلورته مما يجعل فرصة تفاعل الذرات على سطحه فرصة صغير للغاية فيصبح الذهب أكثر العناصر مقاومة للتآكل. على الجانب الأخر ذرات الحديد أكثر الذرات ثباتاً؛ لذلك ذرات السطح لديها فرصة كبيرة للتفاعل مع الاكسجين وتكوين الصدأ. ما أود قوله هنا إن حركة الذرات داخل المواد الصلبة لها علاقة وثيقة بالخواص الكهربائية لهذه العناصر.

يمكن تقريب فكرة التآكل والصدأ من خلال مثال الماء. لو اعتبرنا أن جزيئات الماء داخل بحر من الماء تشبه ذرات المواد الصلبة داخل بحر من الذرات في المادة الصلبة. سنجد أن الماء يفسد إذا انخفضت سرعة جريانه حتى أن مياه البرك والمستنقعات أكثر المناطق فساداً بسبب ركود الماء.

هذه السكون النسبي يعطي الفرصة لنمو الطحالب والفطريات بشكل كبير. هذه الحالة تشبه إلى حد كبير تأثير الحركة في الذرات داخل المواد الصلبة من وجهة نظري. كلما كانت الذرات ساكنة وثابتة، مثل ذرات الحديد كلما كان المعدن معرض للفساد والصدأ. بينما كلما كانت الذرات في حالة حركة سريعة نسبياً كما في حالة الذهب قلت فرص الفساد والتلف أو التآكل.

الفصل الثالث عشر إلا ليعبدون

السؤال الأبرز: لماذا نحن هنا؟ لماذا خلقنا الله؟ هذه الأسئلة أجاب عنها كتاب الله بشكل بسيط وموجز. عندما قال ربنا في كتابه (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (سورة الذاريات: الآية 56) كان هذا هو الإعلان الذي بموجبه تقرر مهمة الإنسان المطور على الأرض، بأن يتحمل مسؤولية هذا الكون، ويحاول الانسجام مع مكوناته، وأن يتحاشي الخلل أو الشذوذ، فهل ينجح الإنسان في تحمل مسؤولياته، أم أنه سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

لقد كان هذا هو سؤال الملائكة عندما أخبرهم ربنا أنه سوف يجعل في الأرض خليفة، وكان رد ربنا سبحانه وتعالى: إني أعلم ما لا تعلمون.

ما هي العبادة؟ وما مفهوم كلمة عبد؟

استقر في وجدان كثير من المفسرين أن معنى العبادة هو الذل والخضوع أو الطاعة، وهذا ما ينفيه مدلول الكلمة في كتاب الله، وما ينفيه أيضاً هو الحرية التي أرادها الله لعباده، من حيث قبولهم أو رفضهم الطاعة، وذلك عندما قال في سورة الكهف.

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ^ط فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ^ج إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ^ج بِهِمْ سُرَادِقُهَا^ج وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي^ج الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^ج) (سورة الكهف: الآية 29).

كثافة الآيات التي تشير إلى حرية الاختيار تتنافى تماماً مع مدلول الكلمة لدى أهل الجزيرة؛ من أنها تعني الاستعباد؛ أي: أن الإنسان مملوك لا يملك من أمره شيئاً، فكيف يستقيم مفهوم الآية - كما فسرها المفسرون؛ وهو أن مفهوم يعبدون أي يخضعون ويطيعون - ونحن نرى حال الناس؛ منهم الطائع ومنهم العاصي ومنهم من لا يعترف بوجود إله من الأساس؟

لا شك أن جمعاً من المفسرين حاول الخروج من هذا المأزق؛ عبر القول إنَّ تأويل الآية مخصص للطائعين، ومنهم من قال إنَّ الآية تعني: (وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بالعبادة).

الآية واضحة، ليس فيها تخصيص، بل هي خبر عام، وليس في الآية ما يدل على مسألة الأمر تلك. لو حاولنا فهم مدلول كلمة [عبد] لانتهد المشكلة، ولحلت إشكالية وجود الإنسان، ومهمته على هذه الأرض. لو لم نفهم نظرية التطور ما كان لنا أبداً فهم مدلول كلمة عبد، والتي تُفهم على غير معناها، بل أساءت كثيراً لمفهوم الحرية في كتاب الله.

مدلول كلمة عبد

بدايةً دعونا نسرده ما قاله ابن فارس عن أصل كلمة [عبد]: تبعاً لقاموس اللغة فإنَّ جذر كلمة [عبد] له أصلان، أحدهما الطاعة والخضوع، والآخر الشدة والعصيان، وهذا يعني أنَّ الكلمة تحمل معنيين متضادين.

كما وضحنا في الجزء الثاني أنَّ الكلمات القرآنية هي كلمات حقيقية، مصدرها إلهي، تصف حالة معينة، لا تحمل أيَّ تضاد، وقتها لم نقدم أدلة كافية على هذا الطرح، ولعلَّ الوقت حضر لكي نقدم مثلاً من أوضح الأمثلة على عدم وجود التضاد في اللغة الإلهية التي نزل بها القرآن.

خلق الله الإنسان والجنَّ للعبادة، ومن خلال تتبع لفظ [العبادة] في كتاب الله، حيث أرشد ربنا الخلق إلى الطريق المستقيم وعدم الإفساد، وكذلك اجتناب اتباع الطاغوت، فنجد من ذلك أن لفظ [عبد] يعني مسؤول أو مكلف. مفهوم كلمة عبد من خلال تتبعها في كتاب الله نجد أنها تصف من يملك الطاعة ويملك المعصية في نفس الوقت. إذا كان ذلك هو الحال فلا يمكن استقامة المعنى مع ما تتداوله الناس من مفهوم الذل والخضوع والجبرية.

طالما أن لفظ عبد يحمل الطاعة ويحمل مفهوم المعصية فهو مفهوم متعادل يملك بداخله الاختيارية. مفهوم الشخص الذي يملك الطاعة ويملك المعصية لا يستقيم ابداً مع مفهوم العبد المتداول ولكن يتطابق تماماً مع مفهوم الموظف أو المسئول بلغتنا المعاصرة.

الموظف أو المسئول في المجتمع السوي يملك حرية الاختيار ولكنه يتحرك بناء على مسؤولية محددة ولا شك أنه سوف يتحمل النتائج المترتبة على أفعاله. فهو مخير تماماً في ما يفعل ولكنه مسير في تحمل نتائج ما سوف يفعل.

لا طاعة ولا معصية بدون تكليفات محددة، فالأصل في الإنسان أنه مكلف ومسئول، فإذا قام بمسؤولياته حقق الهدف الأسمى من وجوده، وإذا تخلى أو أساء استخدام هذه المسؤولية وهذا التكليف فقد غوى؛ كما حدث مع آدم عندما أكل من الشجرة برغم وجود تكليف صريح بعدم الأكل.

لقد كان من تكليفات آدم عدم الاقتراب من الشجرة، كاختبار حقيقي رأى من خلاله ما يمكن أن يحدث إذا تخلى عن هذه التكليفات ولم يعرها اهتمام وسار تبعاً لهواه أو خلف وساوس الشيطان.

آدم لم يكن مجبراً على الاقتراب من الشجرة بل كان له مطلق الحرية في فعل ذلك فهو ليس عبداً بالمعنى المتداول بل هو مسئول حقيقي عن تليف معين ويجب أن يدرك إن عدم قيامه بالتكليف سوف يضر بحيطه أولاً وبنفسه قبل أي شيء آخر.

الشعرة الرقيقة بين مفهوم العبد في كلام البشر وبين مفهوم العبد في كتاب الله حادة كالسيف وسميكة الجدار الذي يفصل بين مفهوم الإجبار القائم على الذل والخضوع ومفهوم الإجبار النابع من إحساس الإنسان بالمسؤولية.

أستيقظ كل صباح كي أقود السيارة بأولاد صاحب العمل الذي أعمل لديه نظير مبلغ معين هو المفهوم الأقرب لمفهوم العبد المملوك. بينما أستيقظ كل صباح كي أقود السيارة

لأولادي أو أولاد جيراني إلى المدرسة هو الالتزام النابع من الإحساس بالمسؤولية وهو الأقرب لمفهوم العبد القرآني.

الآن ما هي المسؤولية أو التكليف الملقى على عاتق هذا المخلوق؟

الكون بجميع مكوناته يسير في نظام محكم بداية من نظام الذرات والخلايا إلى أكبر وحدة في هذا الكون، وكلُّ يجري في فلك محدد ووظيفة محددة دون اختيار، إلا الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك حق الاعتراض والرفض والاختيار.

حق الاختيار هذا من الممكن أن يسبب خللاً في النظام الكوني برمته إذا أسيء استخدامه. لذا كان التكليف من الله للمخلوق صاحب الإرادة الحرة هو الانسجام مع الكون، وإدارته بكفاءة، فهل ينجح الإنسان في هذا الاختبار؟

خصوصاً أنّ لدى الإنسان معطيات وقدرات عقلية متطورة وتتطور باستمرار. أضف إلى ذلك عناية الله للإنسان، وتقرب الملائكة له ودعمهم له، كما بيّنا في مفهوم سجود الملائكة لآدم.

إذاً المسؤولية الرئيسة للإنسان هي ضبط بوصلة الكون وعدم الإفساد، من خلال منظومة معرفية وأخلاقية متميزة، ومن خلال توجيه ذاتي بديع، وهذا التوجيه تمثّل في فطرة متجددة باستمرار تقبل الخير وتنفر من الشر، وكذلك توجيهات إلهية انتقلت عبر الرسل وعبر الكتب السماوية؛ لتصحيح مسار البشرية، وإعادة توجيه الإنسان إذا ضل وانحرف عن المسار الصحيح.

العبد هو المسؤول أو المكلف، وعلى ذلك نجد أن العبودية تعني المسؤولية أو التكليف بالمفهوم المعاصر. عندما استخدم العرب لفظ [العبد] أطلقوه على من يقوم بالأعمال، أو المكلف من قبل سيده بأداء أعمال معينة، وبسبب ثقافة المجتمعات العربية القديمة اتخذ مفهوم العبودية ومفهوم العبد سمعة سيئة، لأن من ضمن صفاته الخضوع والذل، حتى إنّ العبد والجارية في التاريخ يعد من المتاع، وليس له أدنى اعتبار أو أي إرادة.

انسحب هذا المعنى على كتاب الله، وأصبح مفهوم العبد في كتاب الله تابعا لما فهمه العرب. بالرغم من أن كتاب الله نفسه يقوم ويصحح هذا المفهوم؛ من خلال الإشارة المستمرة لحرية الإرادة وحرية الفعل لدى هذا العبد، والقائمة على ركن أساسي وهو إحساسه بالمسؤولية، وتلقية التكليف وفهمه إياه إلا أن المفسر لم يقوم بالربط بين الآيات واستنتاج مفهوم العبد والعبودية كما دل على القرآن واستسلم تماما لتصورات العرب عن الكلمة.

تبعا لذلك هناك نوعان رئيسان للعبودية

أولهما: عبد بالمفهوم الإيجابي (الموظف المجتهد، أو مسئول منضبط)؛ وهو الذي يسير تبعا للتوجيهات والتعليمات السليمة، والتي يحصل عليها من طرق عدة، منها ما هو ذاتي (الضمير)، ومنها ما هو موحى (الرسالة)، ومنها ما هو معرفي، من تراكم المعرفة بالخبرة الحياتية. ثانيهما: عبد بالمفهوم السلبي (موظف مهمل أو مسئول منحرف)، وهذا المنحرف لا يلقي بالا للمسئولية ولا يريد حتى معرفة أبعادها ويحاول دائما إيجاد المبررات للهروب من مسؤولياته وغالبا ما يشغل نفسه بمسؤوليات أخرى. عندما يرفض الإنسان المسئولية أو لا يريد معرفة أبعادها هو يفعل ذلك وفقا لوجهة نظرة الأنانية في الغالب، أو قلة معارفه التي لا تتيح له النظرة الشمولية، فغالبا المسكين يعيش حياته عبدا لما تصور مستغرقا في عبادته.

من هنا نجد أن معنى عبد ليس فيه أي تضاد؛ إذ إن [عبد] تعني مسئول أو يحمل مسئولية، وهو مفهوم قرآني واضح بعيدا عن المفهوم البشري المغرق في الجبرية والمسيء لكتاب الله. أتمنى من مترجمي معان القرآن الكريم إن يلتفتوا إلى هذه المعاني الدقيقة لأنه ترجمة عبد بلفظ (Servant) ترجمة كارثية وتسئ كثيرا لكتاب وكلمات الله. بينما نجد أن الترجمة الصحيحة يجب أن تكون (Responsible) أو (Employee) .

لفظ [يعبدون] كذلك يعني تحمل المسئولية، وهذا ما يقربه الواقع؛ إذ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يتحرك وفق تكاليف ومسؤوليات متعددة، منها ما هو أخلاقي، ومنها ما هو

اجتماعي، ومنها ما هو وراثي، ومنها ما هو وطني وقومي، وهكذا. وضع كل هذه المسؤوليات والتكاليف في شكلها الصحيح دون تجاوز أو انحراف، وبشكل يتوافق مع البرنامج الإلهي؛ هو تمام العبودية لله؛ أي: يعمل وفق توجيهات الخالق ومراده.

مفهوم عبد يشبه إلى حد كبير مفهوم موظف، حيث قيمة هذا الموظف وقدره ومهامه سوف تختلف باختلاف الجهة التي يعمل لها، ومن خلال مقارنة مفهوم موظف في فترة الستينات مثلاً في الإقطاعات أو حتى في المجتمعات الملكية أو الدكتاتورية، نجد هذا الموظف أقرب للذل والخضوع وتنفيذ الأمر دون مناقشة.

بالمقابل الموظف في الشركات العملاقة -مثل: شركة جوجل- له مساحة كبيرة جداً من الإبداع والنقاش والحركة، بل ويملك أسهماً في بعض الشركات، إذ تعتمد هذه الشركات على مفهوم الموظف المسؤول؛ الذي يفهم مسؤوليته تماماً، ويعمل من خلالها.

للأسف؛ حالة العبد الذليل المقهور هي الحالة التي سادت في وصف العبد، فأصبحت كلمة [عبد] مرادفة لشخص لا يملك من أمره شيئاً؛ مما انعكس سلبياً على فهم الغرض من الحياة، ومن خلق الإنسان.

رغبة في زيادة تأكيد مفهوم كلمة عبد ومدلولها من خلال كتاب الله؛ سوف نحاول تحليل الكلمة وتتبعها في الآيات القرآنية قدر استطاعتنا.

ذُكرت كلمة [عبد] ومشتقاتها في كتاب الله أكثر من 150 مرة، ولن نستطيع المرور على كل الآيات لتوضيح معنى [العبد والعبودية]، ولكن سوف نتوقف أمام مجموعة من الآيات حتى نستوضح مفهوم [العبد] وبالتالي مفهوم العبودية:

(إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (سورة آل عمران: الآية 51).

لفظ [فاعبدوه] في الآية الكريمة يعني هنا: تلقوا التكاليف التي تستقيم بها معيشتكم، وهذه التكاليف تم توضيحها وتفصيلها في سورة الأنعام، الآيات 151، 152، حيث جاءت

هذه التكاليف أنها تعريف للصرات المستقيم الذي أمر الله باتباعه والمذكور في الآية محلّ دراستنا.

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا
 أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا
 النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ
 إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
 وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ (152)
 وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)) (سورة الأنعام: الآيات 151-153).

هذه التكاليف والأوامر ليست جبرية؛ بمعنى أن الإنسان يستطيع بكامل إرادته أن يفعلها أو ألا يفعلها، وطالما أن الإنسان مخير وليس مجبراً في اتباع الصراط المستقيم، أو عدم اتباعه، فلا يمكن أن يكون مفهوم [عبد] هو الذل والخضوع، أو الذي لا يملك من شأنه شيئاً، ولكن مفهوم أنه مسؤول ومحملٌ بهذه التكاليف حتى تستقيم الحياة هو الأنسب، والموافق للآية الكريمة.

الصرات المستقيم هنا بمثابة اللوائح والقوانين التي يعمل من خلالها العبد، فله أن يتبعها فيحقق الهدف المرجو، وإن خالفها فقد أخلّ بالميثاق والعقد الذي يحكم علاقته بالكون وخالقه. مفهوم العبادة لله يتقاطع تماماً مع مفهوم العبادة لغير الله، وكل من يتلقى تكاليف تخالف التكاليف الرئيسة ويعمل بها، هو في الحقيقة واقع في الشرك :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: الآية 64).

من خلال الآية الكريمة، نجد أن مفهوم العبودية لله هي كل فعل يرضاه الله سواء أنزله في كتابه، أو وافق الفطرة السليمة، وكل محاولات الإفساد الناتجة من عدم اتباع البرنامج الإلهي هي في الحقيقة محاولات شركية، فهي تستبدل التكليف الإلهي بتكليف آخر فاسد.

مثال ذلك: الأمر الإلهي المتمثل في (إذا قلمت فاعدلوا ولو كان ذا قربي)، ما الذي يدفع الإنسان لعدم العدل في القول؟ الأمر الإلهي في غاية الوضوح، إذا قلمت فاعدلوا، ولكن الإنسان تحت وطأة مسؤوليات أخرى، مثل: القرابة، أو الطمع في منصب ما، أو التقرب إلى سلطة ما، أو الخوف من سلطة ما؛ يجور هذا الإنسان ولا يقوم بالقسط، والآية الكريمة تتحدث عن الحد الأدنى من القسط والعدل، وهو العدل في القول.

كثير من رجال الدين يعتقدون أن الشرك الذي تحدث عنه ربنا في كتابه متعلق بالأصنام، وبتلك التصرفات التي كان يفعلها العرب في حياتهم البدائية، حيث لا مؤسسات ولا علاقات متشابكة بالقدر الذي نراه، لكن المتدبر للآية الكريمة يعلم جيداً أن مظاهر الشرك عديدة، أذناها عدم العدل في القول، وتشمل كل انحراف عن التعليمات السليمة.

مفهوم الشرك هو أن يستقي الإنسان التعليمات التي تستقيم بها الحياة من مصدرين مختلفين، والشرك بالله يعني أن الإنسان يخلط التكليف الإلهي بتكليف آخر غير إلهي، أو يجعل التكليف الإلهي في مرتبة أقل.

الأمر يشبه إلى حد كبير التزام الإنسان بالقانون في الدولة؛ ولنفترض أن رجل الشرطة لديه تكليفات ومسؤوليات محددة يحددها القانون، فهنا اتباع القانون هو ما يجعل رجل الشرطة هذا مسؤولاً حقيقياً يؤدي دوره باقتدار، ولا يمكن في تلك اللحظة القول إن رجل الشرطة عبد

القانون أو عبد رئيسه المباشر، ولكنَّ الأصح أن نقول: أنه مكلف بتنفيذ القانون، فإذا خالف رجل الشرطة القانون لمصلحة رئيسه مثلاً، أو تحت أيِّ ضغط؛ يكون في هذه اللحظة خلط تكليفات القانون بتكليفات أخرى، في هذه الحالة يصبح مشركاً، وهنا تكمن الكارثة ويحدث الاضطراب.

(لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (سورة النساء : الآية 172).

قد يستشكل على البعض لفظ [يستنكف]، والذي فسره المفسرون على أنه يعني الاستكبار، بمعنى أن المسيح لا يستكبر أن يكون عبداً لله.

تأويل لفظ [يستنكف] على أنه يستكبر موافق لمفهوم العبادة بأنها الذل والخضوع بمفهومها البشري، ولكن إذا دققنا النظر في جذر كلمة [يستنكف] وأصلها [نكف] وتعني قطع الشيء وتخيته؛ يظهر جلياً أن العبادة بمفهومها القرآني وهي المسؤولية هي المقصودة؛ فالمسيح لا يمكن أن يتخلى أو يطلب التنحي عن التكليفات والمسؤوليات التي أوكله الله بها، وكذلك الملائكة المقربون هم مكلفون بتكليفات محددة، وهذا المعنى تؤكد الآيات الكريمة في سورة المائدة، عندما أجاب ربه أنه ما قال إلا ما أمره الله به، ونفذ التعليمات بشكل كامل، وأدى المسؤوليات المنوط به تأديتها:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ جِئَ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (سورة المائدة: الآية 116).

الاستنكاف أقرب إلى الإهمال والتفريط، وليس للاستكبار، فبينما يؤدي الإهمال إلى التقصير وعدم إتمام المهمة، يؤدي الاستكبار مباشرة إلى الكفر؛ بسبب جحود الحقيقة، والفرق بينهما جد كبير.

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (سورة النحل: الآية 35)

هذه الآية تنفي العبودية بمفهومها البشري بشكل تام، حيث تشير الآية الكريمة إلى أولئك الذين يتحججون بالجبرية، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه آلهة، ويخبرنا كتاب الله أن فرضية هؤلاء ساقطة، وأن لهم مطلق الحرية في اختيار ما يعبدون، فلا يجب التحجج بحجة ساقطة كهذه؛ بأن لو شاء الله ما عبدوا من دونه.

للأسف الشديد مفهوم العبد الذي لا يملك من أمره شيئاً تجده حاضراً في تصرفات كثير من أمة محمد صلوات ربي عليه، فكم من الأمور التي يستسلم لها المرء بحجة هذه مشيئة الله، لو شاء ما حدث هذا، وهذا المفهوم السليبي عن المشيئة وعن العبودية سبب كوارث لا حصر لها، ولنعطِ مثلاً حتى يستقيم المعنى ويتضح، نفترض بعضاً من الحالات كالاتي:

شخص توجه إلى المستشفى في حالة حرجة، وبسبب تأخر الإجراءات، أو عدم وجود إمكانيات؛ توفي هذا الشخص. شخص يسير في الطريق، وجاءت سيارة مسرعة وقتلته. شخص لم يحصل على تعليم جيد، وبالتالي لم يحصل على وظيفة، وحياته مليئة بالاضطرابات.

كل هذه الحالات ومثلها الكثير والكثير، يمكن تبريرها من خلال مفهوم العبودية السليبي؛ بأن كل شيء بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما حدث كل ذلك، وهذا الاعتقاد هو اعتقاد شركي بامتياز، والذي -للأسف الشديد- يسوق له الذين لا يكادون يفقهون قولاً.

مفهوم العبودية القرآني يدفعك دفعاً لبحث أسباب كل ما حدث، والتساؤل لماذا حدث؟ وما هي التكاليف والمسؤوليات التي أدت إلى ذلك؟، هذا المفهوم الإيجابي هو الكفيل بتبع الفساد وكشفه، وتقويم الانحراف وتعديل مسار الحياة، وهو عين العبودية التي طلب الله من عباده الالتزام بها.

بقدرٍ بسيطٍ من المنطق، نجد أن مفهوم البشري للعبد يعني الجبرية، بحيث إذا قضي السيد أمراً لا يمكن للعبد أن يعصيه، ولكنَّ المعنى القرآني ينفي ذلك تماماً، من ناحية حق اختيار القرار، فهل من يقرر ويختار ينطبق عليه مسمى العبد بالمفهوم البشري؟ أم أنه في وضع المسؤولية؟.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ) (سورة النحل: الآية 36).

قد يتبادر إلى الذهن أن المقصود بالطاغوت هو الأصنام أو المجسمات؛ كما ورد في كثير من التفاسير، ولكنَّ المتابع والمدقق لجذر كلمة [الطاغوت] -إذ جذر كلمة طاغوت هو [طغى]- يفهم أنها تعني تجاوز الحد أو المقدار.

من خلال تتبع الكلمة في كتاب الله، نجد أن لفظ [طغى] يعني تجاوز الحد والمقدار أيضاً؛ وبالتالي فإن وصف الطاغوت هو وصف من له القدرة على الفعل وله سلطة، ثم يتجاوز بهذه القدرة وهذه السلطة حدوده؛ فلا يصح وصف جماد بالطاغوت؛ إذ إنَّ الجماد ليس له قدرة حقيقية أو اختيار لتجاوز مهمته ووظيفته، والشيء الوحيد الذي يمكن وصفه بالطاغوت هو الإنسان صاحب الإرادة الحرة، وصاحب القدرة على الفعل وعدم الفعل.

المواضع التي ذكر فيها لفظ [طغى] في القرآن الكريم، تسعة مواضع أغلبها جاء مقترن بفرعون، وهي أربعة مواضع: (أذهباً إلى فرعون إنه طغى) (سورة طه: الآية 43).

(أذهب إلى فرعون إنه طغى) (سورة طه: الآية 24).

(قالا ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (سورة طه الآية 45).

(أذهب إلى فرعون إنه طغى) (سورة النازعات: الآية 17).

فرعون هو المثال الأوضح على الطغيان والتجاوز، وإساءة استخدام السلطة، سواء بالترغيب أو التخويف أو التدليس.

لقد تمثّل تدليس فرعون المختلط بالترغيب في عقد مقارنات فاسدة، تلقاها قومه وأتباعه بالتسليم دون محاولة تفنيدها؛ عن طريق احتكار المعرفة والهداية، ومن ثم الادعاء أن طريقه هو سبيل الرشاد، والآخرون ضالون ومخربون، إنها قصة الطغيان منذ فجر الحياة، الذي لا يرى إلا نفسه ولا يسمع إلا صوته.

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي
 أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ
 أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
 فَاسِقِينَ (54)) (سورة الزخرف : الآيات 51-54).

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ
 فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (سورة القصص :
 الآية 38).

(يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ
 فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (سورة غافر: الآية 29).

كل الآيات السابقة تخبرنا كيف دلس هذا الطاغوت وكذب وتلاعب بالقوم، عن طريق الترغيب الذي يغري النفوس الضعيفة التي تستطلع للاستفادة بشكل أناني، حتى على حساب الآخرين. لم يجد فرعون مقاومة من قومه؛ لأنهم ببساطة استبدلوا التكاليف والتعليمات السليمة بتعليمات فرعون، وسلّموا له أمرهم، فقادهم إلى حتفهم.

من لم يقده الترغيب بجله الرعب والتخويف، وهذا المثل كان حاضراً في موقف السحرة الذين آمنوا بموسى وبما جاء به، حين أثنى فرعون في عذابهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

لقد استعان فرعون بالسحرة و أغراهم بالعطايا، إن هم استطاعوا التغلب على موسى الساحر من وجهة نظره. لو أن فرعون أو حتى قومه فيهم منصف أو لديهم منطق سليم لآمنوا فور إعلان السحرة أن فعل موسى ليس بسحر، فهم في الحقيقة أكثر الناس علماً ومعرفةً بكون هذا الفعل سحرٌ ساحرٌ أم أنه خارج نطاق السحر؛ بسبب خبراتهم السابقة في هذا المجال. لكنه الكبر والغرور والتجاوز والطغيان في أبهى صوره، الذي لا يعترف إلا بمعتقداته وأفكاره:

(قَالَ آمَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَرُمٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّا آيَاتُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَبَقِيًّا) (سورة طه : الآية 71).

هذه الأوصاف التي اتصف بها هذا الطاغية استحق بها بجدارة أن يكون مثلاً للطاغوت، وكل من يعمل في فلكه هم عباد الطاغوت.

لا تثريب على بني إسرائيل؛ فلا شك أنهم كانوا يعملون لهذا الطاغية، ولكنهم مجبرون، فأنجاهم الله من هذا الطاغية، ولم يصفهم في هذه الحالة بأنهم عباد الطاغوت؛ بسبب عدم قدرتهم على الاختيار، بينما تم وصفهم بعباد الطاغوت في آيات أخرى؛ وذلك عقاب من الله عندما عصوا وكانوا يملكون حق الاختيار، فأبوا إلا المعصية والانحراف عن الصراط المستقيم:

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (سورة المائدة : الآية 60).

لا شك أن عبادة الطاغوت والسير في ركبه هو أشد عقاب وتكيل؛ فهذا الطاغوت متقلب المزاج، لا يرضيه إلا الطاعة العمياء، والانبطاح المستمر، والمبالغة في الذل والتبعية.

توعد الله عباد الطاغوت بالذل والهوان في الدنيا قبل الآخرة، وهو أمر يمكن إدراكه بسهولة ولا يحتاج إلى معادلات رياضية لكي نتحقق منه. عباد الطاغوت في حالة استنفار دائم، يقدمون فروض الطاعة والولاء لشخص غير مأمون الجانب، يتنازلون كل يوم عن قطعة من إنسانيتهم، ويبالغون في الترخص، حتى إذا استنفذوا كل وسائل الطاعة والخضوع، وأصبح عملهم روتينياً؛ أدرك الطاغوت عند هذه اللحظة منهم الملل، وصاروا عبثاً عليه؛ إذ إنهم لا يقدمون جديداً، فيطردهم ويبعدهم ويقرب غيرهم.

سنة الله فيمن يستبدل الحق بالباطل ويستبدل الثابت بالمتغير؛ فتتحول الطمأنينة إلى قلق والثقة إلى ارتياب، فيضرب الله بينهم وبين الناس جداراً ظاهره النعيم والسعادة، وباطنه النكد والقلق.

مهما بدا ظاهر هؤلاء نعيماً مقيماً؛ إلا أن شعورهم المستمر بأن وجودهم مهدد ويد هذا الطاغوت كافٍ أن يقلب حياتهم بحيماء، ويجعلهم في تربُّص مستمر، حتى ينقضي أجلهم وهم لا يشعرون.

وصف عباد الطاغوت ينطبق تماماً على قوم فرعون وجنوده الذين ينفذون أوامره، رغم تجاوزها وتعدّيها الحدود، وهم يعلمون ذلك. هناك صنف من البشر أدنى من عباد الطاغوت هؤلاء، وأشرُّ مكاناً، إنهم قوم تطوَّعوا لخدمة الطاغوت دون أن يطلب منهم ذلك، وينفذون رغباته حتى دون أيِّ استفادة حقيقية، وهؤلاء لا وصف لهم سوى كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

كما هو واضح من مدلول كلمة [الطاغوت] أن إجبار الطاغوت للناس على تنفيذ أوامره لا يعد عبادة بالمفهوم القرآني. الذي يُعد كفرةً بيناً وصريحاً هو العمل من أجل هذا الطاغوت واتباع أوامره بشكل اختياري؛ رغبة في مكسب ما أو مكانة معينة، وقبول تكاليفات الطاغوت وتنفيذها هو نوع من أنواع العبادة التي لا يرتضيها الله لعباده، وخصوصاً إذا كان لدى صاحبها فرصة لتجنبها وعدم الخضوع لها.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة النحل: الآية 75).

إن كان المقصود بلفظ العبد في هذه الآية الكريمة المفهوم البشري الذي تتداوله؛ وهو الإنسان الذي يُشترى ويبيع كما كان يحدث في الماضي، فما فائدة إضافة المملوك لهذا العبد في هذه الآية؟ إن كان لفظ العبد بذاته العبد الذي يباع ويشترى فهو مملوك بالفعل ولا حاجة لتعريفه بأنه مملوك.

الحقيقة مختلفة تماماً، وعن طريق فهم مدلول كلمة [ملك] يمكننا فهم ما هي حقيقة هذا العبد المملوك:

جذر كلمة ملك تعني القوة في الشيء، ومُلك الشيء أي تَمَكَّنُ منه بقوة؛ فالعبد المملوك هو الممسوك بقوة ما، وينطبق هذا المفهوم على من استغرق كلياً في مسؤوليات وتكليفات لا تدع له مجالاً كي يتحرك بحرية. الآية الكريمة تقارن عبداً مملوكاً بآخر غير مملوك في مسألة الإنفاق؛ فالعبد المملوك هذا هو الذي لا يجد ما ينفق بسبب المسؤوليات والتكليفات التي تقع على عاتقه؛ أما الآخر فله سعة ويستطيع الإنفاق. من الأمثلة البسيطة لتوضيح المعنى المراد بالعبد المملوك، قول العامة أن (فلان يدور في ساقية)، أو أن فلان ملكته ظروفه (أي احتياجات الحياة اليومية).

في هذه الآية الكريمة رفض مبدأ قوانين العمل المجحفة، والتي لا توفر سوى الاحتياجات الأساسية للإنسان. لكي يتحرر الإنسان من السيطرة لا بد أن يكون قادراً على الإنفاق ولديه فائض ما. الاحتياج المالي هو أكثر ما يكبل الإنسان ويجعله غير حر؛ والوصف الوحيد في كتاب الله الذي يصف الإنسان غير الحر هو وصف العبد بالمملوك.

هذا الوصف ينطبق على كل ما يجعل الإنسان مكبلاً وغير قادر على التصرف، وأهم مثال على ذلك في حياتنا المعاصرة هو الأعمال والوظائف التي تتم بأجور زهيدة.

بالرغم من أنّ الرِّقَ بمفهومه البشري ليس الوضع الطبيعي للإنسان؛ إلا أنّ هذا التعبير وهو إضافة العبد للمملوك- قد تجلّ هذا المعنى، ومع ذلك هذا الوصف ليس قاصراً على مسألة الرق بمعناه التقليدي؛ فكل تكليفات ومسؤوليات لا يقابلها أجر عادل ومنصف يمكن وضعها تحت هذا التصنيف، أو ما يسمى حالياً: الاتجار بالبشر.

جميع الآيات الكريمة التي تتحدث عن العبد والعباد تسير وفق المفهوم القرآني للكلمة، وهو المسؤول أو المكلف الذي يحمل على عاتقه المسؤولية.

مفهوم الحرية الناضج من خلال كتاب الله

من خلال إدراك مدلول كلمة [عبد] في كتاب الله، والمقرونة دائماً بجزية الاختيار مع المسؤولية، نستطيع أن نجد مفهوم الحرية بمعناه الناضج؛ وهو أنه لا يوجد قوة على وجه الأرض مسموح لها إجبارك على شيء لا تريد فعله، وهذا المفهوم يعالج المفهوم المتسرع والسادج للحرية، والذي ينصُّ على حق الإنسان في فعل ما يريد بالمطلق. هذا المفهوم المتسرع أقرب إلى الفوضى والمراهقة منه إلى العقل والرشد.

جاء لفظ [العبد] مذكوراً في القرآن مع غزارة آيات كريمة تتحدث عن حرية الاعتقاد وحرية الطاعة؛ لتضع منهجاً للحرية غفل عنه الكثيرون وهو المعنى العاقل والراشد للحرية.

رغم أن لفظ الحرية لم يذكر في كتاب الله صراحة؛ إلا أن كتاب الله زاخر بهذا المفهوم. سوف نأتي على لفظ [حر] والذي لا يمت بصلة لمفهوم الحرية المعاصرة؛ وإنما يعني شيئاً آخر، ولذلك لم يأت ذكر هذا اللفظ في كتاب الله؛ لأن كتاب الله ينطق بالحق، وألفاظه تصف المسمى وصفاً حقيقياً.

بعض رجال الدين عند تناول مفهوم الحرية في القرآن الكريم تجد أن أول عبارة ينطلقون منها هي أن الحرية في الإسلام مقيدة، وهذا التعبير في حد ذاته ضد مفهوم الحرية، وكل كلام يُقال بعد ذلك لا يمكن وضعه إلا في خانة التبرير، ومحاولة تبييض الوجه.

لفظ [التقييد] لفظ سيئ السمعة، استخدامه مع الحرية استخدام غير موفق، يحولها إلى حرية داخل حدود بشرية رسمها الإنسان أو المجتمع. أبشع مفهوم لتلك الحرية المقيدة هي حرية الفكر، إذ يعتقد الكثيرون أن الإنسان حرُّ تماماً في التفكير، ولكن داخل حدود معينة، هذه الحدود رسموها وأطلقوا عليها مسميات عديدة.

حرية الفكر لديهم مشروطة بالتعلم على أيدي أحد الشيوخ الذين يدرون في نفس الفلك، أو عدم الخروج عن الإجماع، وهذا النوع من الحرية في مسألة الفكر لا يمت بصلة لمفهوم الحرية الحقيقي؛ إذ حوّلت الإنسان من كونه عبداً، أي: مسؤول مسؤولية ذاتية إلى عبد مملوك، عن طريق تلك القوى المتعددة التي لا يستطيع فكاً من كُلابها.

حرية الفكر لا تقوم إلا على أساس واحد، وهو هاتوا برهانكم. البرهان والدليل هو الوحيد الضابط لحرية الفكر، أما الحدود المصنوعة داخل عقول البشر فهي حدود واهية، تدعم القهر والطغيان، وغير قادرة على فهم كلمة الله العليا؛ وهي حرية الاختيار مع تحمل المسؤولية كاملة.

الإنباه للتعبيرات وسلامة الكلمات هو كل شيء وكَم من كلمات لا تؤدي المعنى جلبة كوارث وسببت ضلال لا حصر له. الحرية في القرآن ليست مقيدة؛ وإنما مسؤولة، فمن يحاول الفكك من هذه المسؤولية فسوف تصير تصرفاته فوضى، وسوف يلفظه المجتمع، دون الحاجة لوصاية جبرية على حريته الفكرية.

أما حرية التصرفات والتي يكون له أثر على المجتمع، فله المجتمع ان يقيدها بما يتناسب مع حاجته مسترشداً بالأطر العامة التي جاءت في القرآن، من خلال نصوص وآيات رحبة، قادرة على استيعاب التطورات الاجتماعية، كما سوف نرى في مسألة القصاص.

لا يمكن أن تخطئ العين مفهوم الحرية في القرآن، والذي ينقسم إلى قسمين:

القسم الاول: حرية داخلية تقوم على الحرية الكاملة في الاختيار، والتي لا يقيدها شيء على الإطلاق، وهي خاضعة لمسؤولية الإنسان وضميره فقط لا غير.

القسم الثاني: الحرية الخارجية وهذا النوع من الحرية يخضع إلى نوعين من المسؤولية: مسؤولية ذاتية وهي الضمير والمنظومة الأخلاقية لدى الإنسان نفسه، وقوانين المجتمع التي تضبط المعاملات بين أفراد المجتمع بعضه بعضاً.

من هنا نجد أن مفهوم الحرية في القرآن يقوم بشكل أساسي على المسؤولية الذاتية، أو الضمير، من خلال منظومة اخلاقية متكاملة، ومسؤولية المجتمع في ضبط تصرفات أفرادها من خلال القوانين والقواعد.

لكن ماذا لو أني أو من بالحرية بالمفهوم القرآني، ولكني أعيش في مجتمع غالبيته مقهورة بالمفاهيم المغلوطة، و تصادر حريتي؟

وضع القرآن الكريم الحل للإنسان من خلال حرية التنقل التي كفلها كتاب الله؛ ليتيح للإنسان حرية كاملة في اختيار ما يريد، ورفض أي قوة يمكن أن تجبره على فعل ما لا يريد. الآية الكريمة في سورة النساء تحرض كل مقهور على الانتقال إلى مكان آخر يجد فيه حريته، ولا يخضع فيه للقهر، والحل القرآني تعدى مجرد الترغيب أو إباحة التنقل؛ بل وصل الأمر إلى أن من يرفض الانتقال إلى مكان آخر يملك فيه حريته مع الاستطاعة سوف يضع نفسه تحت طائلة القانون الإلهي، الذي صنّف هؤلاء بكونهم من الظالمين أنفسهم:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ج قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (سورة النساء: الآية 97).

الآية (100) في سورة النساء لم تترك عذراً لمقهور يستطيع الخروج، بل ضمن الله من خلالها الجزاء الحسن، لكل من يريد أن يتحرر من القيود، ويحصل على حرية الاختيار:

(وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً^ج وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ^ق وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (سورة النساء : الآية 100).

قد يعتقد البعض أنّ الهجرة والتنقل حتى يتمكن الإنسان من عبادة الله بمفهومها التقليدي، ولكنّ كتاب الله يقرر دائماً أن كلمة الله وسبيل الله هو أن يملك الإنسان حرية الاختيار، وأن يتعرّف على ربه بكامل إرادته، مع ضمان عدم وجود أيّ قوة تجبره على فعل ما لا يريد.

بعض المجتمعات البدائية تعتقد أن من مهامها إجبار الناس على طاعة الله، وأن أفعالاً كهذه هي نوع من التقرب لله، وللأسف الشديد إن ما يفعله المجتمع أو أي إنسان مهما كان من إجبار الآخرين على شيء معين، لا يقع من عدم فعله ضرر مباشر على المجتمع، هو تعدٍ وظلم للآخرين.

إنّ هذه الجزئية شديدة التعقيد، وكثير من الناس لا يحسن فهمها، فعندما نتحدث عن حرية الطاعة يخلط الناس بين قواعد المجتمع، والتي تسبب ضرراً واعتداءً على الآخرين، وبين التصرفات الشخصية، والتي لا تضرُّ إلا صاحبها، أو بين الاعتقاد الشخصي والالتزام المجتمعي. على سبيل المثال مسألة الصلاة أو الصيام هي مسائل شخصية بحتة؛ فكل إجبار على هذه الأفعال هو مناقض لمنهج الله، بعكس فعل كشهادة الزور، فلا يمكن لعاقل أن يعتقد أن مسألة الشهادة الزور هي حرية شخصية؛ فالفهم الصحيح للحرية يبدأ من فهم حدود المساحة الشخصية، وفهم حدود المجتمع بشكل سليم، ومن ثم التعامل مع مسألة الحريات من هذا المنطلق.

المجتمعات التي تجبر أهلها على أفعال تنتقص من مساحة حريتهم الشخصية، وتفتش في اعتقادهم الذاتي، هي مجتمعات لا تمت لمنهج الله بصلة، والانتقال منها إلى غيرها واجب

قرآني بامتياز ، فإذا كانت الآيات السابقة تحرّض الإنسان على التنقل ؛ إذا شعر بالقهر والجبر أو التسلط ، أو أن هناك قوةً ما ترغمه على فعل ما لا يريد ؛ ففي الآية التالية قاعدة عامة ترسي مبدأ حرية التنقل بشكل عام :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ^ط وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (سورة الملك: الآية 15)

أعلم جيداً أن كل هذه الآيات تم تقييدها من خلال الفهم البشري، ومن خلال تعريفات فقهية عديدة، وأبرز مثال على ذلك حرية الاعتقاد التي يرفضها كثير من الفقهاء، رغم وضوح هذا الحق في كتاب الله كالشمس، وهو أعلى حق وأسمى مكتسب في كتاب الله، ولكن -للأسف- هذا الحق جعله الكثيرون مرادفاً للفوضى والكفر، وهم معذورون بحكم العصور التي عاشوا فيها، والتي لم يكن مفهوم الحرية الناضج قد رسخ في العقول. أما الآن فلا يمكن بحال من الأحوال تخطي آيات الله في كتابه التي تتحدث عن حرية الاعتقاد بسهولة هكذا: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليم) (سورة البقرة: الآية 256).

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (سورة يونس : الآية 99).

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) (سورة هود : الآية 28).

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ) (سورة الكافرون: الآيات 1-6).

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (14) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (15) ((سورة الزمر: الآيات 14-15)).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (سورة الكهف: الآية 29).

الآيات السابقة تدل بما لا يدع مجالاً للشك أن حرية الاعتقاد مكفولة للإنسان، ولا شيء يضبطها إلا المسؤولية الذاتية داخل كل إنسان، بالإضافة لذلك هناك آيات كثيرة في كتاب الله تتحدث عن حرية الاختيار، وتحمل عقبات هذا الاختيار تبعاً للمسؤولية الذاتية، دون أي إجبار من قبل المجتمع أو البشر:

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء: الآية 15).

﴿وَأَنْ أَلْتُوا الْقُرْآنَ فَقَدْ اهْتَدَىٰ إِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (سورة النمل: الآية 92).

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سورة سبأ: الآية 50).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَنَ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ (سورة الأنعام: الآية 104).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: الآية 105).

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) (سورة يونس: الآية 108).

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (سورة البقرة: الآية 137).

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (سورة آل عمران: الآية 20).

(قُلْ أَنحَاجُونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) (سورة البقرة: الآية 139).

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) (سورة المدثر: الآية 38).

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمْتُمْ بِتُبَيِّرَاتٍ) (سورة الإسراء: الآية 7).

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (سورة النور: الآية 54).

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22)) (سورة الغاشية: الآيات 21، 22).

بعدما استعرضنا آيات الذكر الحكيم وتشديدها على ضمان حرية التنقل، وحرية الاعتقاد، وحرية الاختيار؛ نلاحظ أن كتاب الله فيه إرشاد إلى اختلاف الناس، ووجوب تقبل هذا الاختلاف، بل إن الآيات تقرر أن هذا الاختلاف طبيعة بشرية، وعلامة على صحة المجتمع، ولا يجب ابداً إجبار الناس على أن يكونوا نمطاً واحداً.

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (سورة هود: الآية 118).
 (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
 لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (سورة هود: الآية 110).

ونفس المعنى نجده في سورة فصلت:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
 لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (سورة فصلت: الآية 45).

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا
 عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ
 اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (سورة البقرة: الآية 253).

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (سورة البقرة: الآية 213).

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ) (سورة النحل: الآية 64).

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
 بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
 جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (سورة المائدة: الآية 48).

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (سورة النحل: الآية 93).

بعد هذا الذكر المفصل، والتفصيل المبين في كتاب الله عن الحرية والاختلاف؛ هل يبقى شك في أن مفهوم العبد لا يمت بصلة للمفهوم البشري، وهو الشخص مسلوب الإرادة، وأن سياق الآيات ومدلولها يشير إلى أن العبد في المفهوم القرآني هو المسؤول أو المكلف؟ لا يزال لدينا الكثير حول مفهوم العبد والعبودية التي حرفها البشر عن مفهومها الأصلي كما جاء في كتاب الله، وسوف نُفرد لها فصلاً آخر. سوف يكون حديثنا في هذا الفصل منصباً حول مفهوم القصاص، ومفهوم الأمة (الجارية كما فسرها المفسرون)، ومعنى حر كما جاء في آية القصاص، وآية نكاح المشركات، في سورة البقرة.

الفصل الرابع عشر لكم في القصاص

مناقشة موضوع الحرية وتقرير كتاب الله لها ليس بالموضوع السهل أبداً؛ بسبب التراث "الإسلامي" المختلط بالمنهج الرباني، والعادات الاجتماعية، وتداخلها مع الشرع الإلهي. ألفاظ مثل: العبد، والأمة (الجارية بالمفهوم البشري)، وفك رقبة، وملك اليمين، سوف تواجهك عندما تحاول تُتبع المفهوم الناضج للحرية في كتاب الله.

عندما نعتبر لسان العرب هو المرجع في فهم هذه المسميات؛ فعليك أن تنسى تماماً مفهوم الحرية وقيمتها العليا في كتاب الله؛ فكما حاولت الوصول لمفهوم الحرية من خلال كتاب الله هاجمتك تلك الألفاظ بكل شراسة، لتجد نفسك أمام تعريفات متناقضة، ومدلول كلمات تخالف مفهوم الحرية تماماً.

مفهوم العبد والعبودية -الذي أفردنا له الفصل السابق- هو أحد هذه المفاهيم التي أزكت الاتجاه القائل بأن التشريع الإسلامي غير معني بالحرية ومفهومها.

مفهوم الحرية في كتاب الله يمرُّ من خلال فهم آية القصاص، والتي بدورها تشير إلى لحظة تطويرية غاية في الأهمية في حياة البشرية، ولكن بسبب تأثير الكتب السابقة والموروث القبلي وخصوصاً في مجال الثأر؛ اختفى هذا الملح المهم، وصار القصاص يعني القتل ولا شيء آخر، وأصبحت كل الأحكام الخاصة بالقتل العمد إن لم تنتهي بقتل الفاعل كأنها تخالف الشرع، وليست حكماً مما أنزل الله.

بعد إلقاء الضوء على مفهوم العبد في القرآن؛ وهو المسؤول أو الذي يتلقى تكاليفات، سنحاول في الأسطر القليلة القادمة فهم مدلول كلمة [القصاص] وكذلك مفهوم كلمة [أمة] (التي يفهمها المفسرون على أنها جارية مملوكة).

مدلول كلمة القصص

جذر كلمة [القصص] هي قص، وقد ورد هذا اللفظ أو أحد مشتقاته نحساً وعشرين مرة في كتاب الله، كالتالي:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ) (سورة آل عمران : الآية 62).
 (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الأعراف: الآية 176).

(لَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) (سورة يوسف: الآية 3).
 (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ) (سورة القصص: الآية 25).
 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) (سورة البقرة: الآية 178).
 (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ) (سورة البقرة: الآية 179).
 (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) (سورة البقرة: الآية 194).
 (وَرَسُولًا قَدْ قِصَصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقِصْهُمْ عَلَيْكَ) (سورة النساء: الآية 164).

(وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) (سورة المائدة: الآية 45).

(إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) (سورة الأنعام: الآية 57).
 (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) (سورة الأنعام: الآية 130).
 (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) (سورة الأعراف: الآية 7).

- (إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) (سورة الأعراف: الآية 35).
- (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا) (سورة الأعراف: الآية 101).
- (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) (سورة هود: الآية 100).
- (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (سورة هود: 120).
- (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) (سورة يوسف: الآية 5).
- (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (سورة يوسف: الآية 111).
- (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ) (سورة النحل: الآية 118).
- (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) (سورة الكهف: الآية 13).
- (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) (سورة الكهف: الآية 64).

جذر كلمة [قص] في اللغة تعني تتبع الشيء، ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله نجد أن مدلول الكلمة متوافق تماماً مع جذر الكلمة.

قصُّ القصص هو تتبع أحداثها، وقصُّ الأثر هو تتبعه؛ كما جاء في قصة فتى نبي الله موسى، الذي فقد الحوت وارتد على آثارهما قصصاً أي: متبعباً الأثر، حتى يستدل على مكان فقد الحوت. من هنا نجد أن القصص يعني تتبع الجريمة النكراء، جريمة القتل، ولا ندعها تفلت دون معرفة تفاصيلها، وأي عقاب تستحق. في لفظة سريعة، سوف نحاول فهم الفرق بين الفعل [قص]، والفعل [يقصص] الذي تم فك تضعيفه، ونفهم المدلول الصوتي لهذا الفعل، إذ إن التعبير القرآني له دلالة ولا يمكن فهم لفظ في كتاب الله بشكل منفرد؛ ولكن يتم فهمه من خلال التعبير بشكل كامل، ودلالة هذا التعبير.

جاء فعل **قَصَّ** يعني تتبع الأحداث والأخبار بشكل عام، دون تفاصيل كثيرة، مثل أنباء القرى: (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا) (سورة الأعراف: الآية 101). حرف الصاد مشدد ولم يتم فك تضعيفه، بالرغم من أن تعبير **نقصص** صحيح أيضاً.

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) (سورة هود: الآية 100).

هنا جاء أيضاً فعل [قَصَّ] عندما أخبر ربنا نبيه أنه يقص من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده، وذلك يعني اختيار بعض الأخبار والتي تثبت الفؤاد، وليس كل شيء أو الأخبار بالتفصيل.

(وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (سورة هود: 120).

مدلول كلمة **قص** واضح لا لبس فيه، عندما أخبر ربنا قصة الفتية أصحاب الكهف.

(لَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) (سورة الكهف: الآية 13).

فكما هو معلوم أن قصة أصحاب الكهف لم يقصها ربنا بالتفصيل، بدليل إخفاء عددهم، وأمره سبحانه تعالى ألا يستفتي فيهم أحد:

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ^ط وَيَقُولُونَ

سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ^ق فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (سورة الكهف: الآية 22).

على الجانب الآخر نجد أن الفعل [يقصص أو نقصص] بفك التضعيف يدل على تتبع الأخبار والأحداث بشيء من التفصيل، ومثال ذلك الرؤيا التي رآها نبي الله يوسف، وكيف أن أباه نهاه أن يقصص الرؤيا على إخوته، والمعروف أن الرؤيا كانت مفصلة، فجاء النهي بصيغة **يقصص**؛ أي: لا يفصل لهم، ولا يخبرهم بتفاصيل هذه الرؤيا:

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) (سورة يوسف: الآية 5).

بالرغم من صحة الفعل [تقص] ولكن ورد الفعل هنا بفك التضعيف، وجاء في صورة تقصص. كذلك الفعل [قصص] في سورة النحل، عندما أشار ربنا إلى المحرمات التي حرّمها على بني إسرائيل، فاستخدم فعل قصص؛ ليشير إلى تفصيل تلك المحرمات، وهو ما جاء بالفعل مفصلاً في القرآن الكريم.

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ) (سورة النحل: الآية 118).

يبدو أن زيادة صوت حرف الصاد قد أعطى دلالة وبعداً آخر، بحيث أصبح معناها أكثر عمقاً، وأصبحت الكلمة تحمل تفاصيل أكثر.

بالقياس نجد أن مفهوم القصاص يعني تتبع الجريمة بكل تفاصيلها ومن كل جوانبها، وليس مجرد تتبع الخطوط العامة للجريمة؛ فهذا التفصيل يستلزم -لا شك- اختلاف العقاب، وهذا ما بينه ربنا في بقية الآية الكريمة التي تتحدث عن القصاص، والتي ذكر فيها العبد والحر والأثني، ولكن قبل هذا التفصيل دعونا نتبع لفظ [القصاص] نفسه في كتاب الله، والذي جاء في أربعة مواضع:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ) (سورة البقرة: الآية 179).

إذا كان القصاص معناه القتل، فكيف يكون في القصاص حياة؟ يقول المفسرون في هذا المعنى إنَّ القصاص بمعنى القتل يحمل في طياته الحياة؛ إذ عندما يرى الظالم القصاص أمامه يرتدع ولا يفكر في القتل، وبذلك يصون الحياة ولا ينتهكها.

لو كان التعبير القرآني ذكر على سبيل المثال: لكم في قتل المعتدي، أو لكم في قتل من قتل النفس بغير الحق حياة، ربما كان التفسير مقبولاً ولا شيء عليه، ولو أن التعبير القرآني استخدم لفظ [عظة أو موعظة أو عبرة] بديلاً عن لفظ الحياة لكان دليلاً آخر على قبول التفسير، وخصوصاً أن كلمات مثل عظة وعبرة كلمات قرآنية.

أما وأنه جُمع القصاص بالحياة، فإن التفسير الذي أرَّجحه بشدة هو أن تتبّع الجريمة وتفصيلها قد يهب الحياة للقاتل، إذا عرفت الدوافع والملابسات التي تحيط بالجريمة، وليس

مجرد حكمٍ صلبٍ لا مرونة فيه، كما فسره المفسر، وهو من قتل يُقتل، دون أيِّ حساب للتفاصيل و الدوافع والملابسات. إذا أخذنا بالمعنى الذي ذكرته قبلاً وأُرجِّحه يكون القصاص هو ما أسس للحياة، ويحمل في طياته الحياة حرفياً، سواء للقاتل نفسه أو للمجتمع بصفة عامة. القصاص بمعنى تتبع الجريمة ومعرفة أسبابها ودوافعها متوافق تماماً مع التطور المعرفي والأخلاقي للبشرية، ولا يمكن النظر لجريمة عظيمة كالقتل دون فهم الحالة العامة التي أدت لهذه الجريمة. المثال الأشهر والذي يمكننا من خلاله فهم كيف يحمل القصاص الحياة داخله هو مثال قتل الزوجة زوجها وهو متلبس في حالة الزنا.

إذ يُفتى الفقهاء في ذلك أن المرأة تُقتل قصاصاً إذا قتلت زوجها وهو في هذه الحالة، بينما الحالة نفسها لا تنطبق على الزوج إذا قتل زوجته إذا رآها تزني، وهذا -لا شك- لا يمت لدلول القصاص بشيء، لذا جاء لفظ [القصاص] لمثل هذه الحالات، إذ أرشد الله سبحانه وتعالى إلى تتبع الجريمة ومعرفة كل دوافعها، ومن ثم تحديد العقاب الأمثل.

قتل النفس بالنفس دون الأخذ في الاعتبار الدوافع والملابسات يبدو أنه كان في الشرائع السابقة، وهذا الفعل هو ما نسخه الله في الشريعة الحالية من خلال تخفيف الحكم، وجعله مرتبطاً بالقصاص كما في الآية التالية:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (سورة المائدة: الآية 45)

من أغرب ما قرأت في تفسير هذه الآية الكريمة هو أن هذه الآية نسخت آية كتب عليكم القصاص في القتلى، وعلى هذا الأساس جعل القصاص مرادفاً للقتل.

ولكن القارئ لكتاب الله يعرف أن الآية التي نحن بصددتها تتحدث عن حكم التوراة السابق للقرآن، كما هو واضح من الآية السابقة لهذه الآية الكريمة:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (سورة المائدة: الآية 44).

وقفة مع مسألة النسخ

لم يتأثر تفسير كتاب الله بشكل سلبي أكثر مما تأثر بمسألة النسخ، التي يدعيها كثير من رجال الدين، لقد أخذ النسخ مكانة مرموقة في التراث الإسلامي؛ مما عطّل فهم آيات كتاب الله بشكل لا مثيل له، بل إن بعض رجال الدين لديهم إصرار عجيب على أن من لا يحمل علم النسخ والمنسوخ لا يجوز له تفسير كتاب الله.

ذهب بعضهم إلى أن قول الرسول يمكن أن ينسخ آيات في كتاب الله، ولعمري إن هذا هو الشرك العظيم؛ إذ جعلوا من رسول الله شريكاً لله، بل في درجة أعلى؛ بحيث تنسخ أقواله أقوال الله، وبالطبع سوف تجد تبريرات لا تنتهي في مسألة النسخ هذه، ولا نملك لمن يُصرُّ على ذلك شيئاً، والله يحكم بين العباد.

لدينا يقين أن النسخ بمعنى أن آية قرآنية تبطل عمل آية أخرى لا يجوز في كتاب الله، وإنما النسخ يعني أن أحكاماً وآيات كريمة في هذه الشريعة تبطل أو تُخفف أو تُفصل أحكاماً وآيات في شرائع سابقة. الآيات التي يُستدل بها على النسخ في كتاب الله لا تتحدث مطلقاً عن آيات القرآن الكريم؛ وإنما تتحدث عن أن القرآن هو من ينسخ الشرائع السابقة، ولكن -للأسف- كلما استعصت آية على الفهم تعجّل المفسر وقال بنسخها، ولو تریث قليلاً لربما وجد تأويلها دون القول على كتاب الله ما لا يليق.

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

سورة البقرة: الآية 106.

هذه الآية الكريمة جاءت رداً على المشركين وأهل الكتاب الذي يشككون في الآيات القرآنية؛ بأنها مختلفة عما كانت عليه التشريعات السابقة في كتبهم، وليست وصفاً لآيات القرآن نفسه من قريب أو من بعيد؛ كما هو واضح من الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104))
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)) (سورة البقرة: الآيات 104، 105).

كذلك الآية الكريمة الثانية التي يستدل بها أصحاب النسخ، تتحدث عن المشركين بالقرآن؛ أي: من يجعلون مع القرآن مصادر أخرى. المشرك هنا لديه مرجع آخر، وليكن كتباً سابقة، فمن الطبيعي أن يتساءل لماذا الآيات مختلفة عن بعضها البعض إذا كانت من نفس المصدر؟. مثال ذلك: آية النفس بالنفس التي قال عنها ربنا إنه أنزلها في التوراة، جاء بدلاً منها آية القصاص في القرآن الكريم، وفي هذه الحالة حدث نسخ آية النفس بالنفس الموجودة في التوراة بآية القصاص في كتاب الله، وهذا الأمر طبيعي جداً في ظل التطور المعرفي للبشرية. الشرائع السابقة كانت تراعي حاجة البشرية في وقت معين، فإذا جاءت شريعة خاتمة فعني ذلك توقف عملية النسخ بين الشرائع، وأن الشريعة الحالية تحمل حلولاً ومعارف لكل ما هو قادم. المشرك الذي يستخدم مصدرين وليس مصدراً واحداً لن يقتنع بذلك، وسوف يتساءل: لماذا بدل الله هذه الآية؟ ولماذا نسخ هذه الآية؟ إذ إنها ليست الآية نفسها في المصدرين.

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (سورة النحل: الآية 101)).

هذه الآية الكريمة تبينها وتوضحها الآيات السابقة لها:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) (سورة النحل: الآيات 98-100).

أرشد ربنا عباده أن عملية النسخ التي يتحدث عنها القرآن إنما تحدث عن نسخ القرآن لما سواه، وهذا النسخ إنما يدور في فلك التطور المعرفي والأخلاقي للبشرية، والتي أصبحت ناضجة بقدر كافٍ مع نزول القرآن.

فأي عقل يقبل أن تبطل آية في كتاب الله عمل آية أخرى في الكتاب نفسه؟ وكيف يستقيم هذا المفهوم مع كتاب الله الموصوف بالتبيان والإحكام؟ وكيف ينزل ربنا كتاباً محكماً وتفصيلاً لكل شيء ثم يجعل فيه آيات لا تعمل، ولا يذكرها صراحة، ويتركها هكذا يتأرجح بينها الناس؟

هذا لا يجوز على الكتب البشرية فكيف -بالله- قبلته العقول على كتاب الله؟ هل يُعقل أن طالباً يدرس الدستور على سبيل المثال، ثم يقول له الأستاذ إن في هذا الدستور قوانين تبطل عمل قوانين أخرى، ولكن لن اخبرك بها، وسأدعها هكذا لكل مفسر حسب معارفه.

الجدير بالذكر أنه لا توجد آية أجمع عليها العلماء أنها منسوخة بمفهومهم التقليدي، وما ذكره بعضهم أنه منسوخ، قال آخرون عنه إنه غير منسوخ. يبدو أن الأمر لا يتعدى كونه محاولة للتغلب على عدم فهم آية، أو عدم القدرة على التوفيق بين آية وأخرى، فالقول بالنسخ أسهل من أن يتركها هكذا دون تأويل.

- يصل عدد الآيات المنسوخة لدى بعضهم إلى بضع مئات، بينما عند آخر لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، ويكفي أن أفرد لك ما قاله الدكتور عبد الله الشنقيطي عن عدد الآيات المنسوخة عند الباحثين، لتعلم أن مسألة النسخ مسألة غير مجمع عليها، وأنها تعتمد بشكل أساسي على قدرة الباحث أو رجل الدين على فهم آيات الله :

- الدكتور مصطفى زيد ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (293) آية.
 ابن الجوزي رحمه الله ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (247) آية.
 السكري ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (218) آية.
 ابن حزم ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (214) آية.
 ابن سلامة ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (213) آية.
 الأجهوري ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (213) آية.
 ابن بركات ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (210) آية.
 مكّي بن أبي طالب ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (200) آية.
 النحاس ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (134) آية.
 عبدالقاهر ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (66) آية.
 محمد عبدالعظيم الزرقاني، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (22) آية.
 السيوطي ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (20) آية.
 الدهلوي ، عدد الآيات المدعى عليها النسخ (5) آية.

بحث مسألة النسخ والمنسوخ يطول جداً، ويلزمه التعرّيج على كل الآيات المدعى عليها بالنسخ، وبيان أقوال العلماء حولها، وكذلك وجهات النظر المغيرة، ولا يتسع المجال هنا لعمل بحث متكامل عن مسألة النسخ، وربما في قادم الأيام نُفسح لهذا البحث كتاباً كاملاً.
 ما يمكننا قوله إنّ صعوبة فهم آية معينة في كتاب الله، أو عدم توافقها مع آية أخرى ليس معناه أن أحد الآيتين أبطلت حكم الأخرى، ولكن يعني أننا غير قادرين على استيعاب وفهم الآيات في سياقها، وربما يأتي من يستطيع تأويل الآية بدون القول بالنسخ على كتاب الله نفسه.

قول المفسرين إن آية القصص منسوخة بآية النفس بالنفس هو قول مقلوب وغير موقّف على الإطلاق.

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (سورة المائدة: الآية 45).

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حكم نزل في التوراة بدلالة الآية التي تسبقها:

(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (سورة المائدة: الآية 44).

الحكم كان في التوراة النفس بالنفس، ولم يكن القصاص إلا في الجروح؛ فتحول الحكم
في القرآن إلى القصاص في القتل، كما وضحت آية القصاص، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه أن
القرآن نسخ الشرائع السابقة.

أما القول إن آية التوراة نسخت الآية في القرآن فهو قول غريب، يخالف كلام رب
العالمين. إنه الإعلان الإلهي بأن يتولى الإنسان مسؤولية هذا الحكم، والله سبحانه وتعالى يعلم
أن لدى الإنسان من المقومات ما يؤهله لذلك، وعندما نُقرُّ بما قال الله سبحانه وتعالى؛ وهو
القصاص بمفهومه ومدلوله القرآني، وليس القتل كما جاء في التوراة، فليس معنى ذلك أن
نقول إن من قتل لا يُقتل، أو لا يتعرض للمساءلة، كما يحلو للمتعجلين فهم الأمر.

القول بالقصاص يعني أن حكم الله في جرائم القتل يتراوح ما بين القتل بوصفه العقوبة
القصوى، والعفو فلا عقوبة، وبينهما مدى متسع من العقوبات؛ حسب الدوافع والملازمات
لكل جريمة. لا يمكن أن يكون تعريف القصاص هو القتل؛ وإنما تتبَّع الحالة، والقياس
الصحيح، وتقدير العقوبة حسب كل حالة كما الآية التالية:

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (سورة البقرة: الآية 194).

(الحرمات قصاص) أي: إعطاء الإنسان مسؤولية التقييم والتقدير والعقاب، وليس معناه القتل أو حتى إنزال العقوبة نفسها بالمتسبب، فكيف يمكن أن نعاقب كل من أخطأ بالعقوبة نفسها؟ على سبيل المثال قتل طير في الحرم، أو أي فعل محرم آخر، الأمر ببساطة أن الحرمات تخضع لعملية الفحص والتقييم، ثم العقوبة، وكذلك القتل الذي قال عنه ربنا كتب عليكم القصاص في القتلى.

محاولة فهم ألفاظ [العبد والحر والأنثى] في آية القصاص سوف يزيل كثيراً من الالتباس ويكشف حالات القتل، وكيف يمكن أن يكون العقاب من اختصاص المجتمعات التي تقوم على القسط، مع الاسترشاد بالأمر الإلهي في حدوده القصوى وهو القتل بالمثل، وحدوده الدنيا وهو العفو، كما سوف نرى.

قبل التطرق لموضوع [الحر والعبد والأنثى] يجب أن نشير إلى أن ربنا يذكر في آية القصاص أنها تخفيف من ربكم، فكيف يكون القصاص تخفيفاً إلا إذا كان هناك حكمٌ ثقیلاً، وهو ما أشرنا إليه في التوراة لقد كانت النفس بالنفس، فجاءت آية القصاص تخفيفاً، وأعطى الإنسان مسؤولية في الفحص والتقدير والتقييم.

ربما مع تطور البشرية تصبح الحاجة لإلغاء عقوبة الإعدام مطلباً، أو الإبقاء عليها في أضيق الحدود، فلا يكون لدينا حرج من ذلك في ظل فهم آية القصاص، وفهم مدلول الحالات الثلاث التي وردت في هذه الآية وهي [الحر والعبد والأنثى]:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 178)

من هو الحر؟ ومن هو العبد؟ وما المقصود بالأنثى؟

لو أنّ المقصود - كما قال المفسرون - بالعبد هو العبد المملوك، وأن الحر هو الإنسان الحر، وأن الأنثى هو مقابل الذكر؛ إذن أين عقوبة الجارية في هذه الآية الكريمة؟

إن كان يجري على الجارية ما يجري على الأنثى فلماذا التفصيل في الذكر بين العبد والحر، ولا يوجد تفصيل بين الأنثى الحرة والأنثى غير الحرة؟ في الآية الكريمة التي بين أيدينا لفظ صريح [للعبد] ولفظ صريح [لحر]، مما يدعم فرضية التقليدين؛ بأن القرآن أشار للرق دون اتخاذ قرار حاسم بشأنه، وأنّ الرق من تشريعات الإسلام، وفي الفصل السابق كما قد أسهبنا في تحليل لفظ [العبد والعبودية] وقلنا إن مفهوم العبد يعني المسؤول أو المكلف، وليس الشخص الذي يشتري ويُباع.

العبد

لفظ [العبد] هنا في الآية الكريمة لا يخرج عن تعريف العبد الذي توصلنا إليه في الفصل السابق، فهو يصف حالة شخص لديه مسؤوليات وتكليفات. هذه المسؤوليات والتكليفات مرتبطة بشكل ما بالموضوع الذي تدور حوله الآية، وهو فعل القتل.

لفظ [حر] ولفظ [أنثى] أيضاً يصف حالات معينة مرتبطة بجريمة القتل وظروفها، وليست وصفاً لجنس معين، كما هو الحال في الكلمات القرآنية.

كيف يكون المقصود بالعبد هو الشخص المسؤول، والذي لديه تكليفات معينة خاصة بالقتل؟ حتى نفهم هذه الجزئية يلزمنا ضرب مثال من الحياة، ولن نجد مثلاً أكثر وضوحاً من مثال رجل الشرطة:

القتل هو أحد الخيارات التي يمكن أن يلجأ إليها رجل الشرطة عند ممارسة عمله، وحسب التكليفات الملقاة على عاتقه؛ فإن رجل الشرطة مخول بالتعامل مع الموقف بما يراه مناسباً، ومن ضمن حدود التعامل القتل إن لزم الأمر، في حالة تصديده للجريمة، أو في حالة اعتداء معين.

الآية الكريمة تشير إلى أن موضوع القتل حتى وإن تم عن طريق المسؤول الذي من ضمن واجباته القتل في حالات معينة؛ فلا بد أن يخضع للقصاص بمعنى التقصّي والتتبع للوقوف على أسباب ودوافع القتل، وكل ما يتعلق بهذا الفعل، حتى لا يستغل أحد كائناً من كان سلطاته، ويتخذ التكاليفات الملقاة على عاتقه ذريعة في قتل من لا يجب قتله، أو في ظلم بريء. القصاص في هذه الحالة إما أن يبرئ المسؤول ويؤكد حقه في استخدام القوة، أو يثبت أنه أساء استخدام القوة، وعندها لا بد من أن ينال عقوبة يتم تحديدها عن طريق السلطة (الإنسان) حدّها الأقصى القتل بالمثل. بعد بيان المقصود بلفظ [العبد] والحالة التي يصفها لا بد أن نفهم الحالة التي يصفها لفظ [الحر]، ولماذا لم يذكر لفظ الحرية في القرآن الكريم تعبيراً عن حرية الإنسان؟

الحر

مدلول كلمة [حر] فيه التباس شديد، وفي قاموس اللغة عند ابن فارس عُرف جذر الكلمة على أن له أصلاً؛ الأول: خالٍ من النقص والعيوب، وهو ما خالف العبودية، والثاني: نقيض البرد، وفي هذه الحالة من الأفضل الاسترشاد بالمعنى الفيزيائي للكلمة، ومن ثم محاولة فهم مدلول الكلمة في القرآن.

كلمة [حر] الحاء والراء بفتح الراء تصف المعنى المعاصر للحرارة، ومن خلال كتاب الله نجد مدلول الحر هو المشتق من الحرارة، أو هو انبعاث الطاقة، كما وصف ربنا نار جهنم:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) (سورة التوبة: آية 81).

الحر الذي ذكر في الآية الكريمة هو نفسه الحرارة بالمفهوم الفيزيائي، ومن خلال فهم خصائص الحالة الفيزيائية للحرارة سوف نستطيع فهم خصائص وصفات اللفظ القرآني. الحرارة أو الحرّ هي نوع من أنواع الطاقة، وشعورنا بهذه الطاقة يعتمد بالأساس على عملية انتقال للطاقة

من نظام إلى نظام آخر، وحرارة النار هي انتقال الطاقة من المواد المشتعلة إلى الوسط المحيط، وكلما اكتسب الجزيء طاقة حرارية زادت حركته، إلى أن يستطيع التغلب على الروابط التي تُقيد حركته، فيتحرر تماماً ويتحرك بعشوائية.

مفهوم كلمة حر يحمل الخصائص نفسها؛ من ناحية الانفكاك من القيود، والحركة بعشوائية. من خلال مقابلة كلمة [العبد] وكلمة [الحر]، ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله، والمدلول الفيزيائي؛ نجد أن المقصود بالحر هو خلاف العبد، فإذا كان العبد يتحرك تبعاً للمسؤوليات والتكليفات المختلفة التي يتلقاها؛ فإن الحري يتحرك بحرية دون مسؤوليات أو تكليفات.

كيف نفهم مدلول الحر في آية القصاص؟

في الآية الكريمة المقصود بالحر هو الشخص الذي ارتكب الجريمة بكامل إرادته، دون أي مسؤولية أو تكليف معين، وهذا النوع من الجرائم هو أغلب الجرائم التي نقرأ ونشاهد أخبارها، مثال: شخص قتل شخصاً آخر بسبب خلافات الجيرة، أو بسبب أولويات المرور، أو شجار لأي سبب كان. نظرة سريعة على لفظ [حر] ومشتقاته في كتاب الله، حيث ورد لفظ الحر بمعاني عديدة في كتاب الله، منها حر، وتحرير، وحرور، ومحراً:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ ^ط فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ^ط فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ^ج وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ^ج كَذَلِكَ يبين الله لكم آياته لعلكم تَشْكُرُونَ) (سورة المائدة : الآية 89). تحرير رقبة أي إطلاقها من القيود والأغلال، ولكي نفهم ما المقصود بتحرير لا بد أن نقوم بتحليل لفظ [رقبة] وماذا يعني.

مدلول فك رقبة

التعبير القرآني [فك رقبة] تعبير هام، وسوف نحاول إزالة الالتباس حول هذا التعبير، والذي يعتقد كثير من رجال الدين أنه قاصر على مسألة تحرير الرق والعبودية. لفظ رقبة

أصلها رقب، وتعني انتصاباً أو انتباهاً لمراعاة شيء ما؛ كما في قاموس اللغة. مفهوم الرقبة يشير إلى حالة الانتصاب والانتباه لما يحيط بها، وهي حالة الإنسان الطبيعي. إذا جدَّ أمر ما، مثل: دين أو قهر أو سجن أو أي شيء من هذا القبيل الذي يشتت الانتباه، تحول هذا الانتباه من الوضع الطبيعي إلى الحالة الجديدة، والتركيز على المصيبة التي حلت به؛ مما ينعكس على باقي حياة هذا الشخص.

تحرير الرقبة في هذه الحالة هو محاولة تخليص هذا الشخص من تلك المصيبة أو ذلك الهم الذي أثقله وشتت انتباهه؛ ليعود لحالته الطبيعية. فك رقبة ليست قاصرة على مفهوم الرق الذي هو حالة اجتماعية مؤقتة، ولا شك أنه كان يعتبر وقتها نوعاً من أنواع فك الرقاب، لكن ليس الأمر قاصر على العتق فقط. كل ما يعيق الإنسان عن ممارسة حياته الطبيعية هو تقييد لحرية، وصرف انتباهه عن حياته، ومحاولة إزالة كل ما يمنع انتباهه ويصرف تركيزه هو نوع من فك الرقاب.

مساعدة الإنسان السجين بسبب يمكن التفاهم حوله، أو فك الأسير، أو حتى إنقاذ شخص من عمل لا يوفر له سوى الكفاف، أو مساعدة عاطل عن العمل أو تأمين خائف، أو إعانة طالب حتى ينتبه لدروسه، كل ذلك نوع من فك الرقاب؛ إذاً فك الرقاب هو مساعدة الإنسان حتى يستطيع التركيز على مهمته الأساسية، عن طريق تخليصه قدر الإمكان من العوائق والمصاعب الأخرى التي تعيقه واستغرقت انتباهه عن أداء مهامه الرئيسة.

من خلال هذا المفهوم الجديد للتعبير القرآني فك رقبة سنجد أن مصارف الصدقات التي ذكرها القرآن في سورة التوبة ليست معطلة، كما يقول الفقهاء بذلك:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (سورة التوبة: الآية 60).

يقول المفسرون في هذه الآية: إنَّ مصرف (في الرقاب) انتهى؛ بسبب انتهاء الرق، إذ جعل المفسرون تعبير وفي الرقاب مقتصرًا فقط على تجارة البشر بشكلها القديم.

لكن عن طريق الفهم الجديد للتعبير القرآني نجد أن مفهوم تحرير الرقاب ما زال موجوداً، وسوف يظل هكذا إلى يوم الدين، فطالما توجد حياة فهناك أنواع من البشر مثقلون بالهموم، تتجاذبهم مسؤوليات جانبية، تصرف انتباههم عن مهمتهم الأساسية، فهؤلاء حقاً على المجتمع أن يعينهم، ويخلصهم من هذا التثنت؛ حتى يكونوا أكثر تركيزاً وانتباهاً في حياتهم، وأكثر فائدة لمجتمعهم. لفظ [تحرير] يعني إطلاق هذه الرقاب من كل القيود التي تكبلها بشكل تام، بحيث تكون منتبهة لمهمتها التي ترغب في إنجازها.

لا يصح -إطلاقاً- الادعاء بأن كتاب الله فيه آية معطلة، أو انتهى العمل، ولكن الأفضل أن نتواضع ونقول إننا لا ندرك مفهوم الآية أو المقصود منها؛ لأن ادعاء معرفة كل شيء أغلق الباب أمام الاجتهاد، بينما القول بعد فهم ما هو غامض سوف يحفز ويثير شهية الباحثين للبحث والتقصي واستجلاء الحقيقة قدر المستطاع.

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (سورة آل عمران: الآية 35).

(نذرت لك ما في بطني محرراً) أي خالصاً لله، وكأنها السباحة الدائمة في معية الله، محرراً من كل المسؤوليات البشرية، مقبلاً على الله فقط، فلفظ [محرر] هنا لفظ يصف نقاء ما نذرت -مريم- من جميع الشركاء، وأن ليس لأحد عليه قيد، وليس لأحد فيه شيء إطلاقاً.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (سورة النساء: الآية 92).

معنى تحرير رقبة هنا هو نفسه في الآية التي أشرنا إليها في سورة المائدة، ولا معنى لإعادة ما توصلنا إليه من قبل.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) (سورة التوبة: الآية 81).

الحر هو ما حاولنا فهمه من خلال المعنى الفيزيائي للحرارة، وتأثير هذا الحر الذي أشرنا إليه بالانفكاك من القيود.

باقي الآيات التي ذكرت فيها مشتقات [الحر] على هذا المنوال، وليس فيها جديد يمكن أن نضيفه في تأويل معنى الحر.

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) (سورة النحل: الآية 81).

(وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ) (سورة فاطر: الآية 21).

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (سورة المجادلة: الآية 3).

من خلال الآيات يتضح لنا أن مفهوم الحرية وإن كان يحمل سمعة طيبة في حياتنا المعاصرة؛ إلا أن مدلول الكلمة يوحي بالتححرر من المسؤوليات والتكليفات، وهذا التححرر عكس مهمة الإنسان على الأرض.

العبودية بمفهومها القرآني وهو حمل المسؤولية، سواء مسؤولية ذاتية (الضمير)، أو مسؤولية خارجية (قوانين المجتمع) هو المفهوم الأنسب والأقرب لمفهوم الحرية الناضج.

مفهوم العبودية القرآنية والذي يعني تحمل المسؤولية متحقق في كل الناس، حتى من لا يؤمن بالله؛ فكل شخص على هذه الأرض يحمل مسؤولية وتكاليف يسير بموجبها ويسير حياته.

الملحد الذي لا يعترف بوجود الله يحمل نوعاً من المسؤولية الأخلاقية تجاه نفسه ومجتمعه والبيئة، وحتى الإنسان المتحرر من كل القيود لا بد له من مسؤولية ما يحملها، أو تكليف يعمل من خلاله، وعلى سبيل المثال: المجرم المنفلت من كل القيود؛ إلا أنه يفعل ما يفعل بسبب مسؤولية معينة، قد تكون هذه المسؤولية جمع المال، أو حتى مجرد الانتقام أو فرض السلطة؛ فكل إنسان يعبد ما يحلوه، ويكلف نفسه ويجعلها مسؤولة عن الأفعال، بقدر هذا المعبود.

تجلى دقة التعبير القرآني في عدم استخدام لفظ [حرية] للتعبير عن إرادة الإنسان في فعل ما يريد؛ بسبب مدلولها الأقرب إلى الفوضى، في حين أن أفعال الإنسان بصفة عامة بمسؤولية هي الأنسب لأن كل إنسان كلف نفسه بمسؤوليات معينة يعمل من خلالها.

بعد شرح مفهوم العبد والحر، نأتي في السطور القادمة على مفهوم الأنثى .

الأنثى

تبعاً للمنهج الذي نستخدمه فإن وصف الأنثى لا بد أنه يصف حالة معينة، وهذه الحالة منطبقة تماماً على الأنثى المعروفة والأكثر شهرة (مقابل الذكر)؛ لذلك سميت أنثى، فما هي الحالة التي تصفها كلمة أنثى؟ صعوبة تتبع اللفظ في كتاب الله جعلتنا نحاول فهم حالة هذا اللفظ، من خلال تقارب صوت [فعل أنس بالفعل أنث]، ولم يزد قاموس اللغة على وصف الفعل [أنث] على أنه نقيض الذكر.

فهم كلمة [ذكر]، والاسترشاد بفعل [أنس]؛ لتقارب الصوت، ومحاولة التعرف على الجذر الثنائي للكلمات، وكذلك فهم مدلول الكلمة في كتاب الله، هو مهمتنا في السطور القادمة؛ لفهم الحالة التي تصفها كلمة أنثى .

جذر فعل [أنث] الثنائي هو [أن]، وله أصل واحد وهو صوت التوجع، ومنه الأنين، وصوت حرف الثاء يدل على البث والانتشار. حالة الاسم تتضمن التوجع أو ظهور التوجع، وهذا التوجع دليل على حالة ضعف معينة.

فعل [أنس] له أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء يخالف التوحش، وفي الفصل الرابع من هذا الكتاب كما قد عرجنا على فعل أنس ومفهومه، وقلنا إنه يوحى بضم الشيء إلى الشيء للمؤانسة، وسمى الإنسان إنساناً بسبب مرحلة تكوين المجتمعات، التي أصبح لكل واحد فيها دور محدد، حين بدأ التكافل والتعاون في الظهور؛ أي: إنَّ لفظ [أنس] يصف حالة من الاجتماع والتقارب والظهور؛ مما يدفعنا للقول إنَّ لفظ [أنث] يقارب إلى حد كبير لفظ [أنس].

لفظ [ذكر] وأصلها الذال والكاف والراء، بالرغم من أن ابن فارس في قاموس اللغة لم يزد عن قوله: إنَّ أصل الكلمة هو المولود الذكر؛ إلا أن الجذر الثنائي للكلمة وهو [ذك] يعني شدة وذكاء، ويعني شدة ونفاذ؛ مما يدل على أن الحالة التي تصفها كلمة [ذكر] تشمل الحدة والشدة.

من هنا نجد وصف الذكر يحمل الشدة والقوة والحدة؛ مما يجعله غير محتاجٍ لدعم ما، بل يقوم بذاته، وعلى العكس من ذلك وصف الأنثى، وهي مقابل الذكر، فهي حالة ضعف ووهن، تحتاج للدعم والمساندة والكفالة، والذكر والأنثى هو أحد أشكال الزوجية التي أشار إليها القرآن، والتي تشمل كل شيء في الكون.

مبدأ الزوجية في الكون هو مفتاح الاستقرار الكوني، والتوافق بين مكونات الكون بعضها مع بعض، والزوجية تعني أن كل فرد من الزوجين متوافق تماماً مع الفرد الآخر و يكمل كلُّ منهما الآخر. الأنثى الضعيفة والتي تحتاج إلى دعم تتوافق تماماً مع الذكر القادر على تقديم الدعم بذاته؛ بسبب القوة والشدة التي تميزه، وبهذا الشكل سوف نجد توافقاً تاماً بين أيِّ زوجين من مكونات الكون؛ إذ لا بدَّ أن يكمل كل زوج الزوج الآخر.

قد لا تروق مسألة الضعف هذه لأنصار المرأة، ويعتبرونها تقيلاً من شأن المرأة، لذلك علينا أن نفهم أن القرآن ليس كتاب وجهات نظر، أو كتاباً يتبنى وجهة نظر عنصرية؛ وإنما كتاب يعرض حقائق، ويصف حالات معينة.

الحالة العامة للفظ الأنثى يعني الضعف الذي يحتاج لدعم أو كفالة أو رعاية من نوع خاص، وليست مجرد ارتباط بالحالة الجنسية، فإذا تقرر أن فتاة أو أوسيدة تقوم بشئون نفسها، ولا تحتاج لدعم ومعاونة في أمر من أمور حياتها؛ سوف ينتفي عنها فوراً وصف الأنثى، وتتحول إلى أوصاف أخرى، مثل: امرأة أو فتاة أو غير ذلك.

على هذا الأساس نجد كتاب الله يفصل لفظ [أنثى] تفصيلاً مذهلاً، ليس له علاقة بالحالة الجنسية في حد ذاتها، ولكن له علاقة مباشرة بحالة الضعف العام، والاحتياج للدعم والمساندة.

ورد لفظ [الأنثى] في كتاب الله في ثلاثين موضعاً، منها ما جاء بلفظ [أنثى أو أنثيين أو إناث]، وسوف نمر مروراً سريعاً على هذه الآيات؛ لفهم مدلول كلمة الأنثى.

لفظ [الأنثى] في كتاب الله أكثر ما ورد خاصاً بالمرأة، فقد جاء مع حالة الحمل؛ وهي حالة الضعف الأكثر وضوحاً، والتي غالباً ما تحتاج فيها المرأة إلى الدعم والمساندة:

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (سورة الرعد: الآية 8).

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يَمُوتُ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (سورة فاطر: الآية 11).

(إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ) (سورة فصلت: الآية 47).

كذلك لفظ الأنثى جاء مرافقاً لحالة عدم الرضا عند الميلاد، وهذا السخط بسبب مخالفة التوقعات، ففي حالة المجتمعات البدائية غالباً ما ينتظر رب الأسرة المولود الذكر؛ بسبب الاحتياج للقوة والدعم من وجهة نظره، وعندما يبشّر بالأنثى يستحضر الضعف والاحتياج للدعم فيحزن، وهذا الذي عبّر عنه ربنا في سورة النحل، وفي سورة آل عمران عندما وضعت امرأة عمران مريم:

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (سورة آل عمران: الآية 36).
جاء كذلك لفظ الأنثى في سورة النحل، وقد سبقها لفظ البنات الذي نسبه المشركون إلى الله سبحانه وتعالى:

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ أَظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِمِثْلِهِ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)) (سورة النحل: الآيات 57-60).

لفظ [بنت] الوارد في الآية الأولى يعني اللزوم والإقامة أو الالتصاق، مثل القول (بنات الأرض)؛ أي: الملتصقات بالأرض التي تخفى على الراعي، و(بنات الصدر) تطلق على الهموم التي تلازم الصدر، وتجثم عليه.

هذا اللزوم والالتصاق إنما هو ناتج عن ضعف؛ لذلك يطلق دائماً لفظ بنات مضافاً لشيء آخر، مثل: بنات الأخ وبنات الأخت.

وصف ربنا سبحانه وتعالى بأنَّ له ولداً، وأياً كان نوع هذا الولد هو وصف لا يجوز؛ فالله سبحانه وتعالى واحد أحد، فكيف بمن يصف الله بأن له بنات ضعاف، هذا الوصف لا

يقبله المخلوق نفسه، وقد عبر عنه ربنا في الآية التالية بالقول: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ). لماذا يظلل وجهه مسود وهو كظيم؟ لأنه يستحضر ضعف هذا المخلوق واحتياجه، حيث استحضار حالة الضعف هو السبب الرئيس للحزن.

لقد كان رد ربنا سبحانه وتعالى على هذا الفعل من خلال (أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)؛ أي: هذا الحكم الذي أصدره هذا الإنسان حكم خاطئ بالمرّة؛ لأن هذا الضعف ليس عيباً، وإنما من تقدير العزيز الحكيم، ويتبع القوانين الكونية القائمة على الزوجية.

ختمت الآيات بقول الله تعالى (أَنْ هُوَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) أي لا يدركون العواقب، ولا يستوعبون القادم، بل ينظرون تحت أقدامهم، والله سبحانه هو العزيز الحكيم في كل تقديراته. الآية التالية والتي جاءت في سورة آل عمران هي أيضاً آية متعلقة بحالة الضعف كما سوف نرى:

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ^ط وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)) (آل عمران: الآيات 35-37).

القصة من بدايتها أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله، ومعنى أن تنذر ما في بطنها لله؛ أي يقوم على خدمة أهداف ومراد الله، على سبيل المثال القيام بأمور من شأنها التقرب لله، وهذه الأمور في الأغلب تحتاج إلى قوة وصبر وتحمل، وكل هذه الصفات تحتاج للقوة

والشدة المتمثلة في الذكر، فلما وضعتها أنثى ، وأدركت ضعفها في القيام بما نذرته قالت ما قالت: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الذَّكَرَ كَأَلْأُنْثَىٰ) ليس في الآية الكريمة أي نوع من تقليل الشأن؛ إنما هو تقرير لحقيقة أدركتها امرأة عمران، ومع ذلك يقول الله: إنه تقبلها بقبول حسن، وهذا هو الفرق بين حكم البشر وحكم الله؛ فامرأة عمران أدركت بالمقاييس البشرية أن الأنثى لا تصلح لما نذرته من أجلها، فكان الرد الإلهي أن قبلها بحكمته، وأعدّها للوظيفة التي تناسبها؛ مما يؤكد على مبدأ التكامل بين الخلق، وليس التنافر والتناحر.

تُختتم الآية الكريمة بذكر ما فعله نبي الله زكريا من كفالة مريم، حيث حالتها الضعيفة والمحتاجة للدعم والمساندة متوافقة تماماً مع وصفها بالأنثى في بداية الآيات.

فهم لفظ [الأنثى] على حقيقتها يبيّن لماذا لم يقبل ربنا وصف الملائكة بالإناث، فهذا الوصف في كتاب الله -للأسف- حجة عند كثير من المشككين في كتاب الله على ازدراء المرأة وتحقير شأنها، وحتى نكون منصفين فإنّ وصف التحقير والازدراء أوحى به المفسرون للناس، ولا علاقة له بكلام رب العالمين، وذلك عندما اعتبروا أن لفظ [إناث] يصف جنس النساء، وليس وصف حالة معينة، كما بيّننا في كتاب الله.

الآية التالية في كتاب الله تضع القول الفصل في المقصود بالإناث أو الأنثى:

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا) (سورة النساء: الآية

117).

تقول التفاسير إنّ الأصنام كانت تسمى بأسماء الأنثى؛ لذلك قال الله (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا)، والآية الكريمة ومثلها آيات أخرى مثال لا لبس فيه على أن تسمية الإناث ليس لها علاقة بالجنس؛ وإنما وصف لحالة معينة. ولو أن المقصود بالإناث الأصنام، لقلنا إنّ الأصنام ليست أنثى أو ذكراً، و من يدعي أن الناس كانت تسمي الأصنام بأسماء إناث؛ فهي مسميات غير حقيقية، وليست من نسق القرآن.

بتطبيق مفهوم الأنثى الذي توصلنا إليه؛ نجد المقصود بالإناث هي حالات الضعف والاحتياج للكفالة والدعم، والمعبودات التي يدعوها الناس آلهة من دون الله -لا شك- هي ضعيفة، وليس بمقدورها تقديم الدعم أو كفالة مخلوق بشكل حقيقي، وهي ليست مصدر العون أو المساعدة بذاتها مقارنة بالخالق القدير.

لقد اقترب بعض المفسرين من المفهوم العام لكلمة [إناث] عندما قالوا أن المقصود تدعون مواتاً، ولكن بالوقوف على منطوق الكلمة ودلالاتها تبين لنا أن المقصود حالة الضعف العام، وعدم القدرة والاحتياج. هذا المفهوم العام يفسر لماذا ربنا استنكر وصف الملائكة بالإناث، أو نسبة الإناث إلى ذاته العالية.

الملائكة ليست ذكوراً أو إناثاً بمفهومنا البشري، وكل المعلومات لدينا عن الملائكة بأنهم عباد الرحمن. عندما يصف الناس الملائكة الذين هم عباد الرحمن؛ أي المكلفون من الله، والذي يتلقون تكليفاتهم من الله حصراً، بأنهم إناث؛ أي ضعفاء محتاجون للمساندة والدعم، فلا شك أن هذا الوصف لا يليق بهم، ولا يجوز في حق الملائكة، ليس لأنهم ذكور بمفهومنا البشري؛ ولكن لأنهم عباد الرحمن، ويفعلون ما يؤمرون دون الاحتياج إلى مساندة أو كفالة. مفهوم الضعف والاحتياج للدعم والكفالة للفظ [الأنثى] هو المفهوم الأقرب في الآيات التالية جميعها، والذي لا يليق وصف الملائكة به.:

(الْكَرُّ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى) (سورة النجم الآية 21).

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى) (سورة النجم: الآية 27).

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (سورة الإسراء: الآية 40).

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ) (سورة الزخرف: الآية 19).

بعد هذا الوصف والتفصيل لمفهوم كلمة الأنثى؛ استقر في الوجدان أن الأنثى تعني حالة الضعف وعدم القدرة، والمحتاجة للدعم والتقوية.

والآن ما المقصود بالأنثى في آية القصاص؟

الأنثى في آية القصاص وما تمثله من ضعف وعدم قدرة تمثل الطرف الأضعف. آية القصاص تتحدث عن حالة فيها قاتل ومقتول، فإذا وُصف القاتل بحالة الأنثى فهذا يعني أنه كان في الموقف الأضعف، والمقتول هو الطرف الأقوى؛ وهذه الحالة تمثل حالة الدفاع عن النفس، وهي الحالة الثالثة من حالات جرائم القتل، وهي حالة قتلٍ عمدٍ ولكن دفاعاً عن النفس.

يمكننا الآن تلخيص حالات القتل وأطرفها، كما في آية القصاص، وكلها حالات قتل عمد: الحالة الأولى: حالة العبد، وهي حالة الإنسان الذي لديه تكليفات من ضمنها حق القتل؛ إذا استدعت الضرورة، مثال: رجل الشرطة.

الحالة الثانية: حالة الحر، وهي الحالة العامة، والتي يقتل فيها الشخص شخصاً آخر، في شكل اعتداء واضح، وهي الحالة العادية والأكثر شيوعاً. الحالة الثالثة: حالة الأنثى، وهي حالة الدفاع عن النفس؛ بحيث يكون القاتل فيها هو الطرف الأضعف وقت حدوث الجريمة. أما حالات القتل الخطأ فلها حكم آخر، ولا تختص به هذه الآية الكريمة.

ما معنى العبد بالعبد والحر بالحر والآنثى بالأنثى؟

هذه المقابلات تشير إلى المقارنة وترشد إلى أن العقاب يجب أن يكون متناسق ومتناسب فلا يصح إنزال عقاب في جريمة بقدر معين ثم يتم إنزال عقاب أشد أو أخف مع حالة مماثلة. الآية تشير إلى مبدأ العدالة وتحري الدقة حيث لا يجب أبداً أن يكون هذا العقاب متفاوت في الجرم الواحد تجنباً للظلم والتجاوز. استكمالاً لمفهوم العبد والعبودية والتعبير القرآني فك رقبة، يتبقى لدينا مفهوم الأمة، والذي يشير حسب المفسرين إلى الجارية التي تباع وتُسترى.

من خلال تتبع لفظ العبد والعبودية في كتاب الله، ومفهوم فك رقبة؛ نجد أن القرآن الكريم لم يقرّ ولم يتسامح ويشرع لحالة العبودية بمفهومها البشري، وهي حالة الرقيق؛ وإنما تعامل مع الحالات بصفة عامة، وحتى تكتمل هذه الدائرة يجب أن نفهم كلمة [الأمة] كما جاءت في كتاب الله.

مفهوم [الأمة]

جاء لفظ الأمة يصف المرأة مرة واحدة في كتاب الله، في سورة البقرة:

(وَلَا تَتَكْفُرُوا بِالْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ وَلَا أُمَّةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تَعْبِتُكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا بِالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا يُعْجِبُكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (سورة البقرة: الآية 221).

الآية تذكر العبد والأمة في معرض الحديث عن النكاح، والذي هو مقدمة تكوين أسرة، وتشير الآيات إلى علة الاختيار، ولماذا يجب أن نرفض المشركين، ومن هم المشركون في هذه الآية الكريمة.

المشرك هو الذي تعددت علاقاته، ولديه تكليفات متعددة من شركاء مختلفين، وهو على ذلك مشتمت الانتباه، وأظلم أنواع الشرك هو الشرك بالله؛ إذ يتعلق الإنسان بشركاء من دون الله، مثل: السلطة أو المال أو الطاغوت، فإذا كان الأمر يتعلق بالنكاح كما في الآية الكريمة؛ فيكون المقصود بالشرك هنا شرك النكاح؛ ولكن كيف يكون الشرك في مسألة النكاح؟

الرجل المشرك في مسألة النكاح هو الذي لديه علاقات متعددة، والمرأة المشركة هي أيضاً التي لها علاقات متعددة، أما المؤمن في النكاح هو المستقر والمطمئن إلى شيء واحد.

إنها إشارة لطيفة إلى حسن الاختيار؛ بحيث تفضل المرأة الرجل الخالص من الشرك؛ أي: الخالص من الصاحبات، أو الخليلات، أو حتى الزوجات الأخريات، فمن الأفضل اختيار غير متعدد العلاقات. استخدام لفظ عبد إشارة إلى المسؤوليات الملقاة على عاتقه، وأن



العبد المشرك هذا موزع العلاقات، ومشتت المسؤوليات؛ لذلك العبد المؤمن المطمئن والمستقر على علاقة واحدة أفضل من العبد المشتت.

هذا بالنسبة للعبد، فماذا عن الأمة؟

جذر كلمة [أمة] هي أم، وتعني الأصل والمنشأ والمرجع، وهنا أيضاً إشارة للرجل إلى

حسن الاختيار؛ بحيث يختار الفتاة أو المرأة الخالية من الشرك؛ أي: متعددة العلاقات. وهذا

التفضيل لكونها أمة؛ أي: الأصل والمرجع والمنشأ للذرية القادمة؛ فلا ينبغي أبداً أن يكون

نكاحها يخالطه شرك؛ أي: مخالطة آخرين.

إذن [الأمة] تعني المرأة منشأ وأصل الأسرة القادمة، وليس الجارية التي تباع وتُشترى.

والشرك مقصود به تعدد العلاقات، وليس الشرك بالله؛ والإيمان هو استقرار القلب على شيء

ما .

الفصل الخامس عشر إما منا وإما فداءً

كيف يُحرم الله الخمر في القرآن، ولم يُحرم استعباد الإنسان للإنسان، إلا إذا كانت قيمة الإنسان وحرية لا تمثل قيمة كأس خمر في الإسلام؟

سؤال كهذا لا يمكن الإجابة عليه بشكل منطقي إلا من خلال فهم التطور المعرفي والأخلاقي للبشرية، والمسؤولية التي أوكفها الله للإنسان، ومتطلبات الإعداد الجيد لهذا الإنسان؛ ليصبح مسؤولاً ناضجاً يستطيع تحمل مسؤوليته تجاه الكون بكل اقتدار.

المدى الزمني الطويل نسبياً هو ركيزة أساسية من ركائز التطور، سواء البيولوجي أو المعرفي، وتنزيل القرآن الكريم كان بمنزلة إعلان أن الإنسان أصبح مؤهلاً تماماً للمسؤولية، وما عليه إلا استخدام قدراته العقلية والمنطقية في فهم وإدارة هذه الحياة، مستعيناً بالنظريات المعرفية التي تضمنها هذا الكتاب العظيم.

إذا كانت الظروف وقت نزول القرآن لم تسعف الناس في فهم مضامين الحرية، بسبب إرث قبلي واجتماعي ثقيل؛ فما حجتنا اليوم وقد وصلنا إلى درجة كبيرة من التطور المعرفي، وما زال التطور مستمراً ومرشحاً للتضاعف باستمرار.

عدم استيعاب مفهوم التطور، وخصوصاً على المستوى المعرفي عطل كثيراً من المفاهيم، وصادر كثيراً من المعارف، وما ساعد على ذلك طبيعة بعض المجتمعات القبلية الإقصائية، التي لا تعترف بالآخر من الأساس، فصاغت الدين على مقاييس معارفها، وقلّبت العلم حسب رؤيتها. هذا الانغلاق الفكري وهذا الاحتكار المعرفي حرم العالم من الاطلاع على هذا الكتاب العظيم، حتى أصبحت المحاولات التجديدية ومحاولات الفهم المختلفة تقابل إما بالسخرية، أو بالاحتقار، أو بالتكفير.

من أبرز الأمثلة على هذا التطور الأخلاقي، والذي لم يتم استيعابه بالشكل الكامل، هو قضية التعامل مع أسرى الحروب؛ والتي كانت المصدر الرئيس للرق والعبودية في ذلك العصر. عندما يتعامل القرآن مع القضايا يتعامل مع القضايا من جذورها، ويعالج المرض ليس الأعراض فحسب. قضية الرِّق والعبودية هي قضية الظلم والجور، والاعتداء غير المبرر، والانتقام والتشفي، فما إن يتم ضبط هذه الأمراض وتقنينها وعلاجها؛ إلا ويتم القضاء نهائياً على ما يعرف بالرق والعبودية البشرية. لقد وضع القرآن حدوداً وتعاليم لرد الاعتداء ودفع الظلم، وكان واضحاً شديد الوضوح، ولكن الحاجة الاقتصادية والسياسية جعلت الدين ستاراً لجني مغامر اقتصادية ومكاسب سياسية أكبر، بغض النظر عن الهدف الأسمى وهو نشر العدل، وإتاحة حرية الاختيار للناس.

لقد كان أول مطلب لرسول الله من صنديد قريش هو أن يخلوا بينه وبين الناس، أي: لا تحجروا على الناس في سماع وجهات النظر والأفكار الأخرى، ثم لكل إنسان الحق في اختيار ما يريد، لكن تحول هذا الحق وهذا التوجيه السامي إلى إما التوحيد وإما السيف.

لقد وضع القرآن تشريعاً جديداً لم تعرف البشرية له مثيلاً، يحتتم به حقبة التطور الأخلاقي والمعرفي، من خلال الأمر المباشر في التعامل مع أسرى الحروب، فلو التزم الناس بهذا التوجيه الإلهي لانتهدت مسألة الرق من الوجود في غضون جيل أو جيلين على الأكثر. لنا في مسألة القرابين المثال الواضح؛ فالتدخل الإلهي يقدم الأسس الرئيسة للبشرية، ويدع لهم تقبل الأمر وتنفيذه عن طريق قدراتهم العقلية ومعارفهم.

إننا نتحدث عن تطور معرفي يحتاج لمدى زمني معقول؛ لكي يكتسب قدرةً وتحصيناً يجعله قابلاً للتطبيق والتنفيذ، ودون فهم مفهوم التطور لا يمكن فهم لماذا تم علاج مسألة الرق عن طريق اجتثاث جذورها، وليس عن طريق القطع المفاجئ.

صغير الطائر يحتاج إلى وقت كاف ليكسر البيضة من الداخل ويتحرر، ويكتسب الحياة الجديدة، بينما إن حاول أحدهم كسر البيضة من الخارج هلك الطائر؛ إنها سنة الحياة وقوانينها الملتفة والمتشابكة والتي لا يمكن تفسير أحدها منفصلاً عن الآخر.

الناس ليسوا ملائكة ولم يُرد لهم ربهم ذلك، إنهم مكفون ومسؤولون، يضع لهم ربهم الأطر العامة، وعليهم التصرف والسلوك السليم. هكذا الطفل الصغير يعوِّده أبواه على تحمل المسؤولية شيئاً فشيئاً، يخطئ ويصحح له أبواه، ويصيب فيحصل على المكافأة.

تدخل الأبوين في تقويم الصغير وإرشاده في سن مبكرة لا شك أنه تدخل هام، ومع مرور الوقت يقلُّ هذا التدخل شيئاً فشيئاً حتى يشب الفتى ويصبح ناضجاً، ويستطيع الاعتماد على نفسه واتخاذ قرارات سليمة، ولكن أحياناً يترك الأبوان صغيرهم يعاني في حل مشكلة، ولا يقدمان له المساعدة، ليس بسبب هوانه عليهم؛ ولكن لكي يشتد ساعده ويقوى.

لله المثل الأعلى، بهذا المثل نحاول تقريب الصورة، وضرب الامثلة، وتجسيد الفكرة؛ حتى يسهل فهمها وإدراك الصورة الكلية لعملية التطوير المعرفي والأخلاقي للبشرية. إنَّ كل تطور معرفي حرَّض عليه التشريع الإلهي لم يتقبله الناس بسهولة؛ فعندما توقف طقس القربان، وانتهت النار التي تنزل من السماء تأكل القربان، اعترض الناس وصنعوا نارهم وقدموا لها قربانين، وتطرفوا حتى قدموا القربان البشرية.

عندما أعلن رب العزة على يد نبيه إبراهيم انتهاء تقديم القربان البشرية، ظلت القربان لفترة من الزمن موجودة ومقررة. إنها الطبيعة البشرية التي لا تستوعب الأمور بسهولة ويسر؛ ولكنها تحتاج لمدى زمني معقول حتى تنضج. هكذا يتم بذر بذور المعرفة، وما علينا إلا أن نرعاها بالعلم والمنطق؛ حتى تستوي حضارة تقود البشرية. الأمر والتوجيه الإلهي الخاص بالقضاء على الرق والعبودية البشرية أنزل في كتاب الله، وكان توجيهاً شديداً الوضوح، من خلال التعامل مع المحاربين؛ وهم المصدر الرئيس بل الوحيد للرق والعبودية.

لقد جاء التوجيه الإلهي من خلال أحد أمرين لا ثالث لهم، الأمر الأول: اطلاق سراح الأسرى بعد انتهاء الحرب تفضلاً ورحمة؛ وهذا هو المن، والأمر الثاني: الفداء، أو ما يعرف بالمبادلة، سواء بالمال أو بأي شيء آخر.

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُو بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) (سورة محمد : الآية 4).

هذا التطور القيمي والأخلاقي العظيم والفريد تحول إلى مجرد شيء ثانوي؛ بسبب عدم استيعاب هذا التشريع بشكل كامل، أو بسبب عوامل أخرى قد تكون سياسية أو اقتصادية. بدلاً من تحكيم كتاب الله حدث تداخل بين الواقع الاجتماعي وبين التشريع الإلهي، وتبعاً لذلك تحول التعامل مع الأسرى إلى حالة من خمس حالات من بينها القتل والاسترقاق.

الأمر المحير هو عدم اقتصار الأمر على الأسرى المحاربين؛ بل تعدى ذلك ليشمل النساء والأطفال، وبدلاً من أن تنتهي مظاهر الرق والعبودية في غضون سنوات معدودة؛ ازدهرت وأصبحت صناعة ومورداً اقتصادياً بالغ الأهمية.

فهل ما حدث كان أمراً قرآنياً؟ أم أن المسألة هي عدم قدرة العقول البشرية على استيعاب التطور القيمي والأخلاقي، الذي جاء به القرآن الكريم مقابل الواقع الاجتماعي؟ للأسف الشديد؛ إلى الآن لا يستطيع كثير من رجال الدين استيعاب هذه الحقيقة، ويصرون أن مسألة السبي والرق من الشرع، وأن الشرع وضع حدوداً للتعامل مع عبودية البشر واستمرارها.

هذا الأمر على درجة عظيمة جداً من الخطورة ولا بد من استجلاء الحقيقة؛ لما لها من نتائج وآثار طويلة الأجل على فهم القرآن نفسه وفهم كلماته.

لقد جاء القرآن صراحة لاقتلاع جذور هذه العادة الاجتماعية، عندما أصدر تعليمه الحكيم في إطلاق سراح الأسري أو المن عليهم، ولكن لو نظرت إلى الفقه ستجد الأمر يختلف تماماً، وأحكام الأسري كما جاءت في الفقه خمسة أحكام.

حكم الأسرى في الإسلام

ذهب الحنفية إلى أن الإمام مخير بين أمرين: إما القتل، وإما الاسترقاق فقط. ذهب المالكية إلى أن الإمام مخير بين أمور خمسة: القتل، أو الفداء، أو الاسترقاق، أو الجزية، أو المن. ذهب الشافعي وأحمد إلى أن الإمام مخير بين أمور أربعة: إما القتل، وإما الاسترقاق، وإما الفداء بمال أو أسرى، وإما المن.

ذهب بعض التابعين كالحنس البصري وعطاء وغيرهم إلى أن الإمام مخير بين المنّ والفداء ولا يجوز القتل. كيف صار الحكم الواضح في كتاب الله والذي لا لبس فيه من المن أو الفداء إلى القتل والاسترقاق؟. أدلة من رأى القتل هي:

قال الله تعالى: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) (سورة التوبة: الآية 5). هذه الآية الكريمة يطلق عليها الفقهاء آية السيف، رغم أن السيف لم يذكر ولا مرة في كتاب الله؛ إلا أن الناس تبرعوا وأطلقوا على هذه الآية الكريمة آية السيف، وهذه الآية يقول عنها المفسرون إنها نسخت -أي أبطلت عمل- حكم (124) آية في كتاب الله تحض على التسامح والعفو والتعايش. رغم موقفنا من مسألة النسخ الذي يرفض تماماً القول بأن هناك آية في كتاب الله تبطل عمل أخرى؛ إلا أن هذه الآية لا يمكن أن تُفهم إلا في سياقها، ومن خلال الآيات السابقة واللاحقة التي تتحدث عن قتال فئة من المشركين اعتدوا وظاهروا على فئة مسالمة.

كثير من العلماء المعاصرين تحدثوا عن فكرة الجهاد والقتال، وأنها لا يمكن أن تكون ابتداء، ولكنها رد اعتداء، وعلى رأس هؤلاء الإمام محمد الغزالي في كتابه جهاد الدعوة، حيث جاء ما نصه: «لكن ناساً من المفسرين -عفا الله عنهم- لم يعيشوا في جو السورة، ولم

يدرکوا مواقع النزول، ولم یربطوا الحکم بحکمته، وزعموا أن السورة ألغت کل ما سبقها من آیات الدعوة والمسالمة، وأنها أحلت العنف مکان اللطف، والإکراه مکان الحرية، وبهذا القول الجزاف نسخت مائة آية نزلت من قبل فی أسلوب الدعوة».

بالنظر إلى الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية نجد أن الآيات موجهة إلى مجموعة من المشرکین نقضوا العهد.

- (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (1) فسيحوا في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزين الله وأن الله مخزي الكافرين (2) وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزين الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (3) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين (4) فإذا انسَخ الأشر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (5) وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (6) كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين (7) كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (8) اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون (9) لا

يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ
وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُ الرِّسُولَ وَهُمْ بَدَّؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13)) (سورة التوبة: الآيات 1-13)

الآيات الكريمة بمنزلة إعلان حرب على من نقض العهد، وتستنهي الذين لم ينقضوا
العهد؛ كما جاء في الآية الرابعة، وبغض النظر عن آراء المفسرين حول هذه الآية؛ ففي كل
الحالات هذه الآيات تتحدث عن حالة حرب ولا علاقة لها بالأسرى، ولا يمكن الاستدلال
بهذه الآية الكريمة على قتل الأسرى.

كذلك الآيات الأخرى التي استدلت بها المفسرون على قتل الأسرى كلها تتحدث عن
حالة حرب قائمة، والله فصل حكم الأسرى بعد أن تضع الحرب أوزارها:

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (سورة الأنفال: الآية 12).

أما الدليل على الاسترقاق، فلا يوجد آية واحدة في كتاب الله تشير إلى ذلك من قريب
ولا من بعيد، وجلُّ كلام الفقهاء هو أدلة من التراث، فرضها الواقع الاجتماعي والواقع
السياسي.

أسهب الفقهاء في بيان جهل من يرفض الاسترقاق في الإسلام، ويعتقدون أن من
يرفض الاسترقاق إنما يرفض ركناً أصيلاً من أركان الإسلام، ويتساءلون بكل ثقة: لماذا استرقَّ
الصحابه في صدر الإسلام إن كان الاسترقاق حراماً وليس له أصل في كتاب الله؟

الإجابة بكل بساطة هي التطور المعرفي! القرآن لم ينزل لأصحاب الرسول، وإنما للعالمين، وأصحاب الرسول وأتباعه هم حلقة من ضمن حلقات البشرية؛ فإن كان الجيل الأول لم يستوعب هذا التطور المعرفي وتفاعل مع القرآن الكريم بحكم المعارف المتاحة، فلا يمكن أن ينسحب هذا التفاعل على باقي البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

القرآن جاء هادياً ومرشداً للبشرية في كل حالاتها، ولا يمكن لمجموعة من البشر أن تحتكر هذا الكتاب وتصدر الحكم باسمه فتكفر من تشاء، وتجعل الرجز على من تشاء، وتصطفي من تشاء. لماذا يصر أولئك كل هذا الإصرار على أن نظام الرق من الإسلام، مع أن القرآن حدد التعامل مع الأسرى بكل وضوح؛ فهؤلاء ثقتم في كبرائهم أكبر من ثقتم في كتاب الله. إنها عادات المجتمعات التي تربت على القهر والطاعة؛ فتجد صعوبة بالغة في الانفكاك من هذه الدائرة والتفكير بحرية.

كلمة ندين بها لله: إنَّ الرق لا يمت لكتاب الله بصلة وهو نظام اجتماعي سيطر على عقول الناس، ولم يستطيعوا الفكك منه، ولن يستطيعوا التبرؤ منه بسهولة.

رغم الآية الكريمة في سورة محمد التي أقرت مبدأ التعامل مع الأسرى؛ وهم المحاربون، إلا أن التراث وضع شرعاً مختلفاً، وهو سبي النساء واسترقاق الأطفال. بحكم الآية الكريمة، وبحكم الآيات العظيمة في كتاب الله لا يمكن التعرض للرجال غير المحاربين في حالة الحرب، فكيف وصل الأمر إلى سبي النساء غير المحاربات والأطفال الذين لا يملكون حولاً ولا قوة؟ لو تم تطبيق هذه الآية الكريمة منذ نزلت، هل كان هناك مكان للرق في الأمة الإسلامية؟ وكيف كانت لتكون نظرة الأمم السابقة لهذا الشرع وهذا التنزيل؟

أمر منجّل أن يكون لدينا كتاب الله زاحراً بكل هذا الكم من المعارف والرقى، ثم ننتظر إعلان تحرير العبيد من الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن عام 1863م، فتبعه البشرية أمة تلو أمة. أما الأمة التي شرفها الله بالقرآن ولكنها لا تفقه هذا الكتاب العظيم ظلت تستमित

في الإبقاء على نظام الرق بحجة أنه من الشرع، ولما أصبح العالم أكثر تحضراً ورقياً تبعه العالم المسمى "الإسلامي" في إعلان إلغاء الرق، في أواسط القرن التاسع عشر تقريباً.

بعد أن فهمنا مفهوم العبد ومفهوم الأمة وفك رقبة، وكيف أن تلك المفاهيم لا تمت للرق أو لاستعباد الإنسان بصلة، ثم وضحنا هنا كيف قطع القرآن الكريم جذر استعباد الإنسان للإنسان، نكون بذلك قد وصلنا لنهاية هذا الفصل، ونأمل أن يمنحنا الله الوقت لبحث مسألة ملك اليمين من كافة جوانبها، والتي لا علاقة لها بالرق والاستعباد أيضاً.

مسألة ملك اليمين مسألة طويلة جداً، وتحتاج لبيان جميع الآيات التي ذكر فيها لفظ ملك، ولفظ اليمين، وكذلك التعبير القرآني ملك اليمين كوحدة واحدة، ولا يتسع هذا الجزء لبحث كهذا، وربما خصصنا له جزءاً خاصاً أو باباً في كتاب قادم.

الفصل السادس عشر الفلق

لا انكر أنّ مسألة الشر بدت لي قضية بسيطة؛ بسبب بساطة عرضها في كتاب الله؛ إلا أنه مع محاولة سبر أغوار هذه القضية، ومن خلال دراسة أقوال المتخصصين والفلاسفة، وجدنا أن القضية متشعبة بشكل لا مثيل له، وأنها تحتاج لمجهود جبار، ودراسة متأنية لكشف جوانبها. سوف نحاول قدر الإمكان الاختصار وعدم الاستطراد، مع التركيز على الأفكار الرئيسية، وشرح الفكرة القرآنية من خلال تحليل الألفاظ، أما التعمق الفلسفي في هذه القضية الخطيرة فهو ليس من أولوياتنا هنا.

قضية الشر من القضايا التي شغلت بال الفلاسفة قديماً وحديثاً، وأصبحت بلا منازع المتكأ الذي يتكأ عليه الإلحاد في نفي وجود الخالق الرحيم، ولك أن تتخيل عدد المؤلفات الفلسفية واللاهوتية التي تناولت مشكلة الشر منذ 1960 وحتى 1990 والتي تعدت ما مجموعه 4000 مؤلف.

خلال استبيان في الولايات المتحدة الأمريكية، وحسب الكاتب لي ستروبل في كتابه قضية الإيمان، تم طرح سؤال على الأشخاص المشاركين في الاستبيان وكان نصه: (لو قدر لك أن تسأل الله سؤالاً واحداً تعلم أنه سيجيبك عليه ماذا سيكون هذا السؤال؟)

جاءت إجابات 17 بالمائة من المشاركين (لماذا هناك ألم ومعاناة في هذا العالم؟) لقد كانت نسبة هذا السؤال هي النسبة الأعلى بين كل الأسئلة المطروحة، مما يبيّن استحواذ مشكلة الشر على عقول الكثيرين.

لن نكون مبالغين إذا قلنا إنّ الحجة الأعظم على الإطلاق لنفي وجود إله هي مشكلة الشر. خلال مناظرة عن وجود الإله بين ويليام لين كريج و ستيفين لاو الفيلسوف البريطاني كانت جل المناقشة تدور حول مشكلة الشر، وكيف أن وجود الشر ينفي وجود الإله.

الفيلسوف الأمريكي مايكل تولى يقول وبكل صراحة إن حجر الأساس للإلحاد هي مشكلة وجود الشر، وكذلك الفيلسوف مايكل روس المدافع عن نظرية التطور يقول في إحدى مناظراته: إنه لا يرفض الإيمان بوجود الله إلا بسبب وجود مشكلة الشر.

هناك اتجاهان رئيسان في فهم معضلة الشر، وهما: الاتجاه الوجودي الذي يعتقد أن وجود الشر في العالم من متطلبات الوجود، وهو قانون طبيعي في الموجودات. أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الديني، وهو الذي يعتقد أن الشر هو مشيئة الله، وهو ابتلاء من الله؛ أي اختبار من الله للبشر.

لا شك أن الشر قائم ولا يمكن إنكار وجوده، وقد تسببت مشكلة الشر منذ القدم في تساؤلات عدة عن وجود الله، ومعضلة أبيقور عند فلاسفة الإغريق قدمت تساؤلاً يعتبر هو التساؤل المحوري في قضية الشر، والاستدلال على وجود الله. إذا كان الإله هو العادل والمثال الأعلى للخير، فلماذا يوجد الشر؟ للإجابة على هذا السؤال قدم الفلاسفة أربع اقتراحات: يريد الإله منع الشرور، ولكنه لا يقدر؛ فهذا عجز في حقه.

يستطيع الإله منع الشر، ولكنه لا يريد؛ إذن هو إله شرير بل أصل الشرور. يستطيع الإله منع الشرور، ويريد منعها، وهنا يأتي دور السؤال: من أين تأتي هذه الشرور ولماذا لا يمنعها الإله؟

لا يستطيع الإله منع الشرور، ولا يريد ذلك؛ وهنا يجتمع في الإله العجز والشر، وهذا معناه أنه ليس إلهاً.

ما تزال هذه الأسئلة محور اهتمام المتدينين والملحدّين على السواء، وفي حين يتكئ الإلحاد على هذه الأسئلة في نفي وجود الله، نجد أن المتدينين لديهم تفسيراتهم التي يعتقدون أنها كافية لإقناع من يريد الاقتناع بوجود الله.

حاول الفلاسفة الإجابة على قضية خلق الشر، وتراوحت هذه الإجابات بين ما هو منطقي ومقبول، وبين ما هو ساذج وسطحي، ويمكن سرد تلك الآراء من خلال ست نقاط:

الرأي الأول: الشر وهم لا وجود له:، وهذا الطرح ينافي أبسط قواعد العقل؛ فلا يمكن لعقل اليوم نفي وجود الشر وإنكار آثاره الملموسة.

الرأي الثاني: الشر عدمي؛ أي: غياب الخير، أو انعدام وجود الخير، وهذا الطرح ما هو إلا تبديل للألفاظ ولم يعط حلاً لمشكلة وجود الشر.

الرأي الثالث: الشر ما هو إلا نتيجة لوضع الخير في غير موضعه.

الرأي الرابع: حرية الإرادة تستدعي وجود الشر؛ لأن وجود الخير وحده بدون الشر هو نقص في حرية الإرادة.

الرأي الخامس: الشر ينفع الإنسان ويصلح حياته.

الرأي السادس: الشر هو تمام الخير؛ إذ لا معنى للخير إلا بوجود المقابل له؛ فالكرم يظهر بوجود والبخل، والشجاعة تظهر بوجود الجبن وهكذا.

قضية الشر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بوجود الله وبقدرة الله؛ لذا يبرز سؤال لدى المشككين: إذا كان الله قادراً فلماذا لم يخلق كوناً منغمساً في الخير، مخلصاً من الشر؟ وبما أن الكون يعجُّ بالشر فهذا يعني عدم وجود الخالق الحكيم .

قضية وجود الله من القضايا التي لن ينتهي فيها القول والرد، ومهما أوتيت من قوة البرهان والحجة فلن يقتنع أصحاب الإلحاد بوجود الله، وكذلك لن يقتنع المؤمنون بأزلية الكون وعدم وجود إله. السبب من وجهة نظري أن فلاسفة الإلحاد يريدون دليلاً عقلياً على وجود الله؛ أي: دليلاً ملموساً، والمؤمنون ينطلقون من إيمانهم الغيبي بوجود الله؛ لذا لن يلتقيا أبداً. كل الأدلة التي ساقها المؤمنون بداية من المثال البسيط، ونظرية السير يدل على المسير، واستدلالات العصور الوسطى على وجود الله، من خلال الاستدلال على عدم رؤية العقل ولكن إدراك آثاره، لم تجد نفعاً لدى فلاسفة الإلحاد، وتم تنفيذها والرد عليها بشكل منطقي. كذلك الانطلاق من أن الكون منظم، والثمار متنوعة، والاختلافات قائمة بين المخلوقات،

كل هذه الدلائل وإن كانت دلائل عجيبة وعظيمة إلا أن الإلحاد لا يرى فيها سبباً كافياً لوجود خالق، وخصوصاً مع تعارض نصوص دينية -تفسيرات- مع حقائق علمية واضحة. يكفي أن تقرأ كتاباً في قضية الشر لأحد الفلاسفة الكبار، وأن تدرك أن المسألة معقدة لأقصى درجة، وليست بالسهولة التي يتصورها بعضهم ، أو يتناقها رجال الدين بينهم أبداً. لو حاولنا إيجاد دليل عقلي على وجود الله سوف نظل نبحت كثيراً، فكل الأدلة التي يسوقها رجال الدين هي في الحقيقة دليل قائم على الإيمان بالغيب، والشعور النفسي ليس دليلاً ملموساً كما يريده فلاسفة الإلحاد.

هل معنى ذلك أنه لا يوجد دليل عقلي على وجود الله ؟ سوف نتناول مسألة الدليل العقلي على وجود الإله للكتاب القادم ولكن هنا سوف نحاول فك معضلة الشر دون الخوض في جدالات دائرية لن نخرج منها أبداً. سوف اتجه مباشرة إلى نظرية الشر وبعض الأدلة عليها، من خلال التجارب العلمية، وبعض الآراء الفلسفية المختصرة، ومن ثم الدخول إلى نظرية الشر كما أوردها القرآن في سورة الفلق.

بعض الظواهر التي عدّها العلماء شراً هي في الحقيقة ليست كذلك، كما يقول آخرون، فلو دقت النظر ستجد أنها من حتميات الوجود، وأنها من لوازم قانون الحياة، ودون هذه الظواهر سيحدث خلل في البنية التركيبية للنسيج الكوني. المثال الواضح على هذا النوع من الشر هو وجود الألم، ووجود الرعب. لماذا يوجد الألم؟ ولماذا هناك رعب؟ هذان الشعوران يمثلان حالة حقيقية يشعر بها الإنسان والحيوان، والشعور بالرعب - قطعاً- هو نتيجة لخبرة ما، أو توقع شيء مؤلم، وهو في الحقيقة يعتبر إنذاراً مبكراً للكائن الحي؛ حتى يستطيع أخذ الاحتياطات الممكنة لتفادي ما هو قادم.

يمكن أن يمثل وجود الشر بأنواعه معضلة عصبية على الفهم إذا كان الخلق تمّ على دفعة واحدة، ولكن إذا كان الخلق - كما وضخنا في هذا الكتاب- قد تم عن طريق التطور والانتقاء؛ فإن مشكلة الشر تبدو سهلة الفهم؛ إذ إن وجود الشر هو من دواعي عملية التطور في هذا

الكون، والإحساس بالألم أو بالرعب من ضمن منظومة وتقديرات الحياة، ولا يمكن أبداً عدها أو وضعها في خانة الشر، والمثال الواضح على ذلك التجربة التي قام بها الدكتور بول براند مختص مرض الجذام؛ محاولاً تقليد ومحاكاة الألم عند المرضى.

يحتوي الإصبع الواحد في اليد على 1000 منه عصبي تقريباً، ويستطيع من خلالها هذا الإصبع الإحساس، ومن ثم إرسال الإشارات إلى المخ، واستقبال الأوامر للتعامل مع المؤثرات الخارجية، لقد حاول العلماء اختراع قفاز يساعد فاقد الإحساس، والذين لديهم مشاكل في الأنامل، كي يستطيعوا الاستجابة بشكل جيد لتفادي تلف الأنامل، وعندما صمم العلماء قفازاً بحيث يحاكي اليد الطبيعية، لم تزد عدد المنبهات العصبية عن عشرين في القفاز الواحد.

مريض الجذام في العادة يفقد الإحساس بأطرافه، مما يعرضه لتلف هذه الأعضاء؛ بسبب عدم وجود منبهٍ ينبهه إلى ضرورة التعامل مع المؤثر الخارجي، مما دعا الدكتور بول براند المختص بمرض الجذام إلى تكوين فريق علمي من باحثين متخصصين في الهندسة الالكترونية والبيولوجيا والكيمياء الحيوية؛ بغية اختراع شيء ما يمكّن أطراف الأصابع من الإحساس بالألم، ونقله للمخ؛ ليتمكن مريض الجذام من حماية الأطراف حال تعرضها لمؤثر خارجي.

مع تطور المشروع بدأت أمور أكثر تعقيداً وعلاقات أكثر تشابكاً في الظهور، وكانت العضلات أكثر مما كان يعتقد فريق العمل، وظهرت معضلة وهي: كيف يمكن للطرف الصناعي التمييز بين المؤثر المقبول الذي لا يسبب ضرراً، والمؤثر غير المقبول والذي يمكن أن يسبب ضرراً، وبناء عليه تصدر إشارة التنبيه.

اكتشف الفريق البحثي أن الخلايا العصبية لا تتعامل بنفس القدر مع الألم، ولكن تتعامل بحسب نوع الألم، لكي تتلاءم مع حاجات الجسم؛ فمثلاً الطرف المصاب يشعر بالألم أضعاف شعور الطرف السليم؛ وذلك حتى يستطيع الجسم حماية الجزء المصاب بشكل أفضل، وتوفير نظام حماية ذي كفاءة عالية لهذا الطرف.

عندما قام فريق الدكتور براند بعمله، وصمم جهازاً للحماية، حاول الدكتور براند استبدال شعور الألم الذي يحمي الأطراف ببديل آخر أكثر سلاماً، ولا يسبب ألماً للإنسان، ونظام الحماية الذي صممه براند، والذي لا يسبب ألماً كان عبارة عن موجات صوتية؛ بحيث يرسل الجهاز موجات سمعية للمصاب، تحذره من الخطر المحدق، مثل: حرارة، أو وخز، أو أي شيء يمكن أن يسبب ضرراً للطرف. الموجات الصوتية كانت ترتفع حدتها مع ارتفاع التهديد الذي يصيب الجزء المصاب؛ حتى توفر إنذاراً معقولاً للمصاب.

للأسف؛ حدث تجاهل للإشارة من قبل المصابين مرات عدة؛ مما سبب أضراراً للأطراف المصابة، فتجاهل الموجات الصوتية من قبل المرضى جعل فريق الدكتور براند يلجأ إلى تصميم ومضات ضوئية بديلاً عن الموجات الصوتية؛ حتى تكون مرئية للمصاب، وتستطيع إنذاره بشكل أفضل، وما لبث أن تجاهل المرضى هذه الومضات الضوئية أيضاً كسابقتهما. بعد تجاهل المرضى للتحذيرات السمعية والبصرية اضطر الفريق إلى استخدام الصدمات الكهربائية؛ فقد استنتج الفريق أن المنبه لا بد أن يكون مزعجاً حتى يستطيع أن يقوم بوظيفته بشكل كامل. في سياق متصل يقول الدكتور براند إن الإشارة التي تعمل كإنذار للمصاب يجب أن تكون بعيدة عن متناوله؛ فلو كانت الإشارة في متناول المصاب فسوف يقوم بإطفاء الجهاز عند رغبته في القيام بعمل شيء يدرك أنه سوف يسبب له صدمة. يستطرد الدكتور براند قوله: (عندها تذكرت قدرة الله العظيمة في جعل الألم بعيداً عن قدرة الإنسان للوصول إليه.

النظام العصبي في جسم الإنسان محكم ودقيق بشكل مذهل؛ حيث الكفاءة العالية في نقل المؤثرات والاستجابات والتعامل معها في زمن قياسي، والإحساس بالألم هو أحد الطرق التي يتعامل بها الجسم لحماية نفسه من المؤثرات الخارجية، والتي قد تتسبب في تلف بعض منه. فهل يمكن اعتبار الألم نوعاً من الشر، أم أن الأمر مرتبط بالتقدير ولوازم الوجود؟ إن الألم مثال لما يمكن أن يتم اعتباره شراً، في حين يتبين من خلال التدقيق والبحث أن الأمر ليس عبثياً أو نوعاً من الشر؛ وإنما حماية من شر محتمل.

قسّم المهتمون بقضية الشر أنواعه إلى أقسام عدة، منها الشر الأخلاقي، والشر المادي، والشر المجاني: الشرُّ الأخلاقيّ: هو الشر الذي يتسبب فيه الإنسان، مثل: الكذب، والنفاق، والقتل، والتعدي، وكل الموبقات التي يرتكبها الإنسان.

هذا النوع من الشر هو ما نتفق تماماً على أنه شر، وهو نابع تماماً من حرية الإرادة التي يتمتع بها الإنسان، ولو أن الإنسان يفعل الخير فقط لسقطت حرّيته، وأصبح هذا العالم عالماً آخر بقوانين أخرى . ما يحدث في عالم الحيوان من اقتراس ومطاردات، أو ما يعتقد بعضهم أنها نوع من التعدي لا يمكن اعتباره شراً؛ إذ ما يقوم به الحيوان هو متطلب ضروري لبقاء الحياة والتطور، وهو حلقة من حلقات الاتزان البيئي.

الشر المادي

ينقسم الشر المادي إلى قسمين: قسم يكون للإنسان يد فيه، مثل: التلوث البيئي، أو الإخلال بالاتزان البيئي بصفة عامة. وقسم لا يكون للإنسان يد فيه، مثل: الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وأعاصير. والشر الذي هو بفعل الإنسان هو الشر محل دراستنا، وهو كل شر سببه تدخل الإنسان، مثل: بعض الأمراض التي تظهر نتيجة لتجارب الإنسان غير المنضبطة أو سلوكه المنحرف.

أما الشر المادي الذي لا يكون للإنسان يد فيه، مثل الأعاصير والزلازل والبراكين، فيمكننا تقسيمها إلى نوعين أيضاً: النوع الأول: طبيعي وهو لزوم الحياة والوجود، ومن وقوانين الاتزان، والنوع الثاني: مسؤولية الإنسان؛ بسبب سلوكيات منحرفة، وهذه السلوكيات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجميع مكونات الكون (راجع الجزء الأول - فصل فطرة الله التي فطر الناس عليها).

هناك أنواع من الشر قد يعتبرها بعضهم أنها شر محض؛ بسبب نقص المعرفة، ولكن مع تقدم العلم وازدياد المعرفة؛ يتضح أن هذه الأشياء ليست شراً أبداً، وإنما عبث الإنسان

غير المسؤول هو ما قد يجعلها شراً مستطيراً، ومن أكثر الأمثلة وضوحاً على هذه الجزئية هو وجود الفيروسات، باعتبارها مصدر تهديد حقيقي لحياة الإنسان.

هل الفيروسات شر؟

لم يكن معروفاً منذ وقت قريب أيُّ فائدة للفيروسات، وكل ما يصلنا عنها أنها كائنات دقيقة جداً وخطيرة لأبعد حد؛ بسبب دقتها وقدرتها على الانتشار والعدوى، وبسبب معدل تحولها الجيني السريع. معظم الكائنات إن لم يكن كلها تحتوي على أنواع معينة من الفيروسات، وفي كل النظم الإيكولوجية على الأرض تحتوي على الفيروسات.

هناك تفسيرات عديدة تحاول تفسير نشأة هذه المخلوقات، ولكن ليس هناك تأكيد نهائي على نشأتها، فهل هذه الكائنات الدقيقة والخطرة تعتبر شراً محضاً، أم أنّ لها فائدة لم نصل إليها بعد، وتساهم بشكل ما في التوازن البيئي؟

الباحث البريطاني إيرنيست هانكين (Hanbury Ernest) (Hankin) في نهاية القرن التاسع عشر قام بدراسة تفشي وباء الكوليرا في الهند، وبالتحديد على ضفاف نهر الجانج. أثناء دراسته لاحظ هانكين أن السكان المحليين يقومون بإلقاء الموتى في النهر؛ اعتقاداً منهم أن المياه مقدسة.

الوضع الطبيعي في هذه الحالة هو كارثة بيئية لا مثيل لها، لأن النهر سيتحول إلى مستنقع للبكتيريا المسببة للمرض؛ مما سوف يزيد من سرعة انتشار المرض بشكل مخيف في جميع البلدات التي تستخدم مياه هذا النهر. على العكس من ذلك تماماً؛ أخذ الأمر في التراجع بدلاً من أن ينتشر الوباء بصورة كارثية، وأمر كهذا لا بد أن يضيفي ثقة واعتقاداً راسخاً لدى العامة بأن مياه النهر مياه مقدسة؛ على اعتبار أن ما حدث معجزة حقيقية.

لا يمكن بحال من الأحوال للعقول الواقعة تحت قيود التراث والمسلّمات غير القائمة على دليل حقيقي أن ترى في هذا الأمر سبباً علمياً أو نظرية معرفية، بل سوف يزداد لديها إيمانها الوراثي وتمسكها التراثي؛ بسبب عدم القدرة على فهم الأسباب.

كان للباحث هانكين رأي مختلف، فهو متحرر تماماً من هذه الاعتقادات، ويرى أن سبباً ما هو ما قضى على الجراثيم وثبَّت نشاطها، وذلك قبل أن يتم اكتشاف نوع من الفيروسات يسمى (بكتريوفاج) (bacteriophage) .

فيروسات (بكتريوفاج) هي الفيروسات التي تخترق الجراثيم وتسيطر عليها وتدمرها؛ إذ تعمل البكتريوفاج كلغم حربي يدمر الجراثيم ولا يضر الإنسان، وهذا ما يفسر لماذا كان السكان المحليون في الهند يستحمون في النهر -والذي من المفترض أنه مكان موبوء بالجراثيم- دون أن يصابوا بالوباء. وجود الفيروسات كان له فائدة قصوى؛ بحيث قضت تماماً على البكتريا المسببة للمرض.

الفيروسات من أكثر الكائنات الحية شيوعاً على سطح الأرض، ويتواجد منها في أمعاء الإنسان فقط مليارات، تساعد الإنسان في مكافحة البكتريا الضارة والتخلص منها، وحسب الدكتور جرمي بار من جامعة سان دييجو- كاليفورنيا. تعيش (البكتريوفاج) في كل شبر من الأرض، وتوجد في أمعاء الكائنات الحية المختلفة؛ لكي تساعدنا على التخلص من البكتيريا والجراثيم الضارة، فهل يمكن اعتبار البكتريوفاج شراً؟

ما يحول الفيروسات إلى شر هو اعتداء الإنسان وعبثه بالتوازن البيئي، حيث تصبح هذه الفيروسات في بيئة غير بيئتها الطبيعية، مما يحفزها على مهاجمة خلايا أخرى، مسببة أمراضاً فتاكة، ولعل الشر المتطير من الفيروسات هو تحذير شديد للهِجَة للإنسان أن يحافظ على التوازن البيئي، وألا يعتدي، وأن يتحمل مسؤولياته تجاه هذا الكون، ويحاول فهم مكوناته بشكل سليم. مثال الفيروسات يوضح كيف يمكن لشر غير مبرر من وجهة نظر بعض الفلاسفة أن يكون في حقيقته شراً مبرراً، ولكن بسبب نقص المعرفة لا نستطيع فهم كامل جوانبه، فالمسألة أعمق بكثير مما نتخيل، فلو افترضنا أن لدينا القدرة على الحكم على شيء معين أنه شر غير مبرر فلا بد من فهم العلاقات المتشابكة التي أدت إليه.

منذ أن امتلك هذا الإنسان الوعي، وأصبحت لديه حرية الإرادة وهو لا يكف عن التجريب، مثل: استئناس حيوانات وطيور، وتربية أشياء ووضعها معاً، وحتى إجراء عمليات

تلقيح وتخصيب. كل هذه العمليات منذ فجر التاريخ لا بد أنها أنتجت في التوازن البيئي خلافاً ما، والتاريخ مليء بالأمثلة المنحرفة: عن قبائل تأكل ما لا يؤكل، وقبائل آكلة لحوم البشر، وأمثلة عن عادات منحرفة وسلوكيات شاذة، وتصرفات الإنسان منذ فجر التاريخ، وفي أي بقعة على سطح الأرض، لا بد أن يكون لها صدى في النسيج الكوني. لا يمكن الحكم بشكل صحيح إلا من خلال فهم كامل لهذا النسيج الكوني، وهو أمر في غاية الصعوبة.

الشر المجاني

الشر المجاني أشار إليه الفلاسفة بأمثلة شهيرة، مثل: موت الغزالة في حريق غابة بشكل بطيء ومؤلم، واغتصاب طفلة بعمر خمس سنوات، ثم قتلها على يد عشيق أمها.

المثال الأول: موت الغزالة بشكل بطيء ومؤلم في حريق الغابات هو من ضمن القوانين التي تسيّر الكون، والتي ترتبط بعضها ببعض بشكل ملتف، ويصعب فهمه بدون فهم جميع العلاقات المرتبطة به. مسألة أن حرق النار مؤلم هي قانون، فلو أنها لم تكن مؤلمة لاندفعت الكائنات نحو النار، ولكن التجريب الذي ينتقل من فرد إلى نسله هو ما يحافظ على الحياة وتطورها.

لولا وجود الألم والرعب كما وضخنا لحدث خلل كبير في الاتزان الكوني، ولا شك أن النظر لمثل هذه الحادثة بشكل منفصل يضعها في خانة الشر، ولكن النظر إليها من وجهة نظر تطورية لا يجعلنا نعتبرها كذلك؛ بل هي من حتميات الوجود والتقدير الكونية التي قال عنها الخالق قَدَّرَ كل شيء تقديراً.

المثال الثاني: وهو اغتصاب طفلة بعمر خمس سنوات وقتلها على يد عشيق أمها، هذا -بالطبع- ليس ذنب الطفلة الصغيرة، ولكنه شرٌّ بالفعل وقع من هذا العشيق على الطفلة، وهو ليس شراً مجانياً؛ بل هو شرٌّ ماديٌّ ناتج عن فعل هذا الإنسان تجاه إنسان آخر.

لو كان المقصود أن الطفلة ليس له ذنب ووقع عليها شر؛ فنقول: نعم، وكل الكون بمكوناته عندما تعبت يد الإنسان به هو في الحقيقة غير مذنب، والمذنب ومصدر الشر هو

ذلك الشخص العاثر غير المسؤول. هذا المثال شر ولكن هذا لا يعني أن الله أراد به بل هي إرادة المغتصب الذي فعل ذلك، ومن ضمن إرادته الحرة أيضاً، وأي تدخل سوف يحول هذه الإرادة الحرة إلى جبر، وتنهار معه حجة وجود الإنسان.

يجب أن يسأل الفيلسوف نفسه سؤالاً: هل يجب على الخالق أن يتدخل ويخرق القوانين ويعطل التقديرات حتى يوقف الشر، أم أن التقديرات يجب أن تسير وفق قوانينها لتكون منسجمة مع بعضها بعضاً. حتى خرق القوانين لا بد أن يكون بقانون، أما محاولة إيقاف الشر خارج منظومة القوانين والتقديرات هي العشوائية ذاتها، والتي لا تليق بإله حكيم عليم.

العالم الذي يطلبه الفلاسفة بدون شر هو عالم آخر بقوانين أخرى؛ وهذا العالم إنما له قوانينه وتقديراته التي لا يمكن أن يخرج عنها. نستطيع أن نستخلص أن الشر في هذا الكون هو من فعل الإنسان بشكل حصري، ولا يوجد شر مجاني أو شر غير مبرر؛ وإنما ما يُعتقد أنه شر غير مبرر سوف يتضح سببه ودوافعه بالغوص معرفياً فيه، ومحاولة فهم أسبابه وتاريخه.

لقد أشار كتاب الله لهذه الحقيقة من خلال سورة الرحمن، التي أخبرتنا عن التوازن الوجودي في الكون، ونهت الإنسان إلى الحفاظ على هذا التوازن؛ بحيث لو حدث خلل فإن من وظيفة ومسؤولية الإنسان هي معالجة هذا الخلل.

ثلاث آيات كريمة تتحدث عن هذا الاتزان وهي :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)) (سورة الرحمن: آيات 7-9).

يقول المفسرون في تفسير الآية الأولى: إن الله سبحانه وتعالى وضع العدل بين خلقه، وفي تفسير الآية الثانية: إن الله أمر بعدم بحس الوزن، وفي الآية الثالثة: افعلوه مستقيماً بالعدل أو أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل.

ذهب المفسرون في تفسير الميزان إلى الصورة الذهنية عن الميزان المعروف، ولكن المتبع لألفاظ كتاب الله وترتيب الآيات يجد أمراً مختلفاً.

الآية الأولى تتحدث عن رفع السماء؛ وهي بداية الخلق، ثم وضع الميزان؛ وهنا الميزان يعني التوازن الذي وضع الله قوانينه في الكون، سواء توازن بيئي أو توازن بيولوجي أو حتى توازن بين القوى المختلفة التي تحكم هذا الكون العملاق.

لقد عبر المفسر القديم عن هذا التوازن عندما قال: وضع العدل بين خلقه؛ يقصد الإنسان أو حتى الحيوان، ولكن بسبب الشح المعرفي لم يستطع الوصول للمفهوم الشامل للاتزان، الذي يشمل جميع مكونات الكون، سواء حية أو غير حية أو حتى مرئية أو غير مرئية.

الآية الثانية تعزز هذه الفرضية؛ حيث لفظ [يطغى] يعني تجاوز الحد المسموح به، وتجاوز الحد في التصرفات هو السبب الرئيس لاختلال التوازن الكوني، ولفظ [يطغى] يوحي بأن هناك مساحة للحركة يستطيع الإنسان المناورة من خلالها قبل أن يصل لمرحلة الطغيان وتجاوز الحد.

الآية الثالثة تدعو الناس بصيغة الجمع؛ أي تقصد مجتمعاً متكاملًا وليس فرداً فرداً لإقامة الوزن بالقسط، والإقامة لا تكون إلا لشيء أصابه انحراف؛ فكأن المنهج القرآني يطلب من المجتمع التعاون على عدل الميزان الكوني، ويطلب منهم عدم التجاوز.

إنها المهمة الأساسية المنوط بها الإنسان؛ وهي تحمل مسؤوليته تجاه الكون ومكوناته، والخطاب موجه للإنسان؛ لأنه بطبيعة الحال يملك حرية الإرادة وحرية الاختيار، وإساءة استخدام الحرية قد تسبب خللاً في الاتزان البيئي.

السؤال الذي علينا أن نسأله الآن: لماذا يعبث الإنسان بالكون من حوله، أو بمعنى أكثر دقة هل الإنسان مجبول على الخير أم على الشر؟

هناك فريق من الفلاسفة يرى أن الأصل في الإنسان الخير، وهناك فريق آخر يرى أن الإنسان ينزع إلى الشر. في السجال الذي دار بين جان جاك روسو وبين توماس هوبز، وصف هوبز الإنسان بالوحشية والهمجية، وتوصل إلى أنه لا يمكنه التعايش بسلام إلا من خلال مجتمع، وقواعد صارمة تكبح نزعاته الإجرامية وشهواته الهمجية.

هذه النظرة عارضها جان جاك روسو بشدة؛ حيث رأى أنّ الإنسان كائن يحمل الخير، ونقيُّ طالما ظل بعيداً عن الفساد، وخصوصاً الفساد الطبقي، والظلم الذي يمارس في المجتمع. بعض الدراسات الحديثة أثبتت أن الحس الأخلاقي أو الخير الفطري لدى الإنسان يتبلور في سن أصغر مما كان يعتقد؛ إذ إنّ التجارب أثبتت أنّ القدرة على التمييز بين الخير والشر واختيار الشر بدت مبكرة جداً.

على قناة (بي بي سي 2) تم عرض دراسة بغرض التعرف على قدرة الأطفال على التمييز بين السلوك القويم والسلوك غير الحميد، وفي أيّ عمر تتبلور هذه القدرة.

تم عرض مشهد لأطفال دون سن السنة يحتوي على عرائس على هيئة أشكال هندسية بألوان مختلفة، والمشهد عبارة عن سلوكيات خيرية وسلوكيات شريرة بشكل واضح. إذ قامت عروسة على شكل دائرة حمراء بمحاولة الصعود إلى أعلى، فيقوم مربع لونه أزرق يمثل دور العروسة الشريرة بمحاولة تعطيل الدائرة الحمراء وإعاقة تقدمها بدفعها إلى أسفل.

في الوقت نفسه كان هناك العروسة التي على هيئة مثلث باللون الأصفر تحاول مساعدة الدائرة الحمراء بدفعها إلى أعلى، وفي نهاية التجربة طُلب من الأطفال اختيار عروسة من بين المربع الأزرق الشرير والمثلث الأصفر الطيب، ف جاءت جميع اختيارات الأطفال على المثلث الأصفر الطيب الذي كان يحاول المساعدة، والذي أظهر سلوكاً حميداً.

كرر الباحثون العرض مرة أخرى بأشكال مختلفة وألوان مختلفة عن التجربة السابقة؛ بهدف التعرف على مدى تأثير اللون أو الشكل على اختيار الأطفال، وبالفعل اختار الأطفال الشكل الأكثر تعاوناً.

في عام 2010 تم التوصل للنتائج نفسها من خلال تجربة شبيهة في جامعة ييل الأمريكية، وفي 2017 تم إثبات التجارب ونتائجها من خلال جامعة كيوتو باليابان أيضاً.

دراسات عديدة أجريت في هذا الاتجاه توّضح أن السلوك الطيب وحب المساعدة هو السلوك الغالب على الأطفال الصغار، ومن أمثلة هذه الدراسات الدراسة التي تم إجراؤها في جامعة هارفارد، تحت اسم مراقبة الأم.

في هذه الدراسة كان يتم وضع الصغار معاً وإخضاعهم للمراقبة؛ وقد لاحظ الباحثون أنّ الصغار كانوا يسلكون سلوكاً لطيفاً تجاه بعضهم بعضاً وهم لا يعلمون أنهم مراقبون؛ مما يعزز فرضية أن السلوك الحميد لا يُكتسب من خلال المراقبة والعقاب؛ بل هو سلوك طبيعي. للشر مصادر متعددة، وكثير من النظريات حاولت تفسير مصدر الشر وأين يكمن، منها:

أولاً: التحليل النفسي عند سيجموند فرويد

يقول فرويد إنّ النفس البشرية تتكون من ثلاثة أقسام، وهي: (الهو ID، والأنا EGO، والأنا الأعلى Superego) بالنسبة إلى الهو أو ID: فهي غرائز الإنسان، ومنها: العنف، التهور، غير أخلاقي، جاف الطباع، لا يعترف بالتقاليد والعادات، أناني. وهذه الغرائز تجعل للإنسان طبيعة حيوانية؛ فهو لا يهتم سوى بتحقيق مصالحه ورغباته بغض النظر عن أي شيء آخر.

الأنا الأعلى: هي مجموع العادات والتقاليد والأخلاق التي يكتسبها الإنسان من خلال البيئة التي يعيش فيها، وهي في الغالب تجعله متسلطاً، جامد الفكر، مثالياً، والأمثل بالنسبة إليه هو ما يراه المجتمع، بغض النظر عن رغباته هو شخصياً، وتكمن سعادته فيما يراه ويقبله المجتمع الذي يعيش فيه.

أما الأنا أو ال EGO: فهي التي توازن بين متطلبات النفس الأولى (الهو، النفس الحيوانية) وبين متطلبات النفس الأنا العليا (Superego)، إذ تجعل منه إنساناً عاقلاً متزنًا واقعياً، يحاول إرضاء رغباته بشكل معقول، وبقدر ما تسمح به الظروف. يصدر الشر من الإنسان إذا تفوقت النفس الهو، (ID) وصار الإنسان أسيراً لرغباته، سائراً خلفها دون أن يهتم باعتبارات الخير والشر أو الخطأ والصواب.

ثانياً: النظرية السلوكية

أهم ما جاء في النظرية السلوكية أن البيئة هي العامل الأساسي الذي يعتمد عليه سلوك الإنسان. يقول عالم علم النفس الأمريكي بورهوس فريدريك سكينر: إن السلوك مجموعة استجابات ناتجة من تأثيرات البيئة الخارجية، وهذا السلوك إما إن يتلقى تعزيزاً فيقوى ويحدث في المستقبل، أو أنه لا يلقى تعزيزاً وبالتالي يضمحلّ ويقلّ احتمال حدوثه في المستقبل. تلقي الدعم الإيجابي والمكافآت تدعم السلوك وتساعد على ظهوره، بينما العقاب يقلل من الاستجابة.

ثالثاً: النظرية الإدراكية (علم النفس المعرفي)

إذا كانت النظرية السلوكية قررت أن البيئة هي من تؤثر وتشكل سلوك الإنسان، فإن النظرية الإدراكية تقول إن طريقة فهم الإنسان لهذه البيئة هي من تقرر سلوكه، وهذه النظرية تدرس وتهم بطريقة فهم الإنسان لواقعه. كل إنسان لديه فهمه الخاص اعتماداً على تجاربه المخزونة في الذاكرة، وتعتمد النظرية على وجود حالات ذهنية داخلية لدى الإنسان، مثل: المعرفة، والرغبة، والإيمان، والدافع، والفكرة، بحيث يصبح تصرف وسلوك الإنسان نتيجة لفهمه الشخصي لما يدور حوله، أو نتيجة لتفاعل هذه الحالات مع بعضها بعضاً، والتي تمنحه فهمه الخاص به لما يحيط به بالنهاية.

رابعاً: النظرية الوجودية

تبعا للنظرية الوجودية فإن الخير والشر هما خياران من خيارات الإنسان، ويتحمل الإنسان مسؤولية أفعاله وخياراته. الواقع بالنسبة إلى النظرية الوجودية هو اشتباك الذات الفردية مع البيئة المحيطة بطريقة تفاعلية؛ فالشخص هو الذي يخلق واقعه برأي النظرة الوجودية، سواء كان خيراً أو شراً، وعلى الإنسان أن يتحمل نتيجة اختياراته.

خامساً: النظرية العصبية البيولوجية

تعتمد النظرية العصبية البيولوجية على أن العوامل الجينية من أهم العوامل المسببة للشر. من ضمن الملاحظات الجديرة بالاهتمام التي أشارت إليها هذه النظرية هو أن السلوك العدواني في المجتمع يزداد لدى الأفراد الذين لديهم الجين الوراثي (xyy) .

بعض التجارب عززت هذه النظرية، مثل التجارب التي أجريت على (الغدة الهيبوسلامية Hypothalamus) والتي توجد في قاع المخ، والتي أثبتت أن السلوك العدواني قد يظهر على الإنسان في غياب الأسباب التي تؤدي إلى ذلك؛ أي: أنه تأثير جيني.

النظرية العصبية البيولوجية تشير إلى أن الشر يحدث نتيجة لتفاعلات في دماغ الإنسان، بحيث يصل الإحساس بالخطر عن طريق حواس الإنسان المختلفة، وبالتالي يتخذ الإنسان سلوكاً عدوانياً.

سادساً: النظرية الدينية

يلخص المؤمنون وجود الشر بأنه حكمة الإله، من خلال النقاط التالية :

- الله هو الأكثر حكمة.
- حكمة الله تستلزم الحكمة وراء كل شيء موجود.
- تقتضي حكمة الله وجود بعض الشرور لأسباب عميقة.
- تقتضي حكمة الله وجود الشر لكي تتأهل الحياة لتكون اختباراً، ولا يمكن الكشف على الفور عن كل شيء لمن يخضع للاختبار.
- تقتضي حكمة الله الكشف عن بعض الأسباب الرئيسة وراء الشر؛ للمساعدة في دعم الناس وهم يجتازون مصاعب الحياة.
- أحد الركائز الأساسية في النظرية الدينية وبالتحديد منهج أهل السنة أن الشر المحض ليس له وجود، كما يقول ابن القيم. بمعنى أنه ليس هناك شر كامل، فما يمكن أن يكون شراً من جهة هو في الحقيقة خيرٌ من جهة أخرى .

النظرة الدينية (وأحدث هنا عن نظرة التراث الإسلامي) مسألة الشر تقوم على أساس الخلق المنفصل، ولا تأخذ في اعتبارها مسألة التطور؛ بسبب الإرث الثقيل الذي يؤمن بالخلق المنفصل للكائنات.

لو أن المفكر الإسلامي بحث قضية الشر في ضوء التطور لما حدثت مشكلة، ولما جاءت الردود غامضة في كثير من الأحيان، فالتصور الديني يزعم أن خلف وجود الشر حكمة عظيمة قد لا نعلمها، ولكنه لا يعطي تصوراً لهذه الحكمة في ضوء الخلق المنفصل.

يقول رجال الدين المعينون بدراسة وجود الشر إنَّ وجود الشر يتوافق تماماً مع وجود إله عليم وقوي ورحيم، وأن الشر جزء من الابتلاء الذي يصيب الإنسان الذي هو نوع من الاختبار، فإذا واجهت المتدين مشكلة الشر المجاني وقف حائراً، لماذا تتألم الغزالة في حريق الغابة؟ ولماذا يتألم الطفل الصغير وهو لم يجن شيئاً؟ ولماذا يموت الطفل دون أي ذنب اقترفه؟.

التطور يجيب على هذه الأسئلة بسهولة؛ إنَّ ذلك يحدث بسبب القوانين والتقديرات التي تحكم كل شيء، أما مسألة الخلق المنفصل فهي في حقيقتها لا ترتبط بالقوانين والتقديرات بقدر ما ترتبط بالحوارق، وطالما أن الحياة مليئة بالحوارق فلماذا لا يتم خلق كون بلا شر؟ أو كون يكون الشر فيه محدوداً جداً، ويستثنى منه الأطفال والكائنات الأخرى؟

بعد استعراض مختصر لبعض النظريات التي تحدثت عن وجود الشر، وكذلك النظرية الدينية والتي جاءت في أغلبها تقوم على الإيمان الغيبي أكثر بكثير من اعتمادها على العقل، سوف نحاول فهم نظرية الشر من خلال كتاب الله، والتي جاءت في سورة الفلق.

نظرية الشر في سورة الفلق

نظرية الشر هي خمس آيات في صورة بليغة موجزة، جاءت لتضع الخطوط الفاصلة والواضحة للنظرة الدينية لمسألة الشر، وتجيب على السؤال الأكثر تحييراً: هل الله خلق الشر فجعله ذاتاً منفصلة، أم أن الشر من حتميات الوجود؟

ما كان لنا أن نسبر أغوار سورة الفلق التي أسست وأرشدت لنظرية وجود الشر دون تحليل دقيق لكل لفظ ورد في هذه السورة العظيمة؛ إذ ما الذي دعانا للقول إن هذه السورة العظيمة هي نظرية معرفية عن وجود الشر؟

تكرار لفظ [الشر] في السورة وذكره 4 مرات من إجمالي 5 آيات لا بد أنه يلفت الانتباه. الآية الثانية تتحدث مباشرة عن خلق الشر أو وجوده، ولفظ [غاسق وحاسد] جاء في صيغة فاعل، وعند ترتيب وتحليل الكلمات كما جاءت في كتاب الله، بدت الآيات وكأنها تدور حول موضوع واحد، وهذا هو عهدنا بالسور القصيرة. فما هو الفلق؟ وما هو الغاسق؟ وما هي النفثات؟ ومن هو الحاسد؟

الفلق

جاء في تفسير الطبري: «القول في تأويل قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد، أستجير برَبِّ الفلق من شرِّ ما خلق من الخلق. واختلف أهل التأويل في معنى (الفلق) فقال بعضهم: هو سجن في جهنم يسمى بهذا الاسم. عن ابن عباس قال: (الفلق): سجن في جهنم. عن السدي يقول: (الفلق): جُب في جهنم. عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الفلق): جُب في جهنم مغطى. وقال آخرون: الفلق: الصبح. عن ابن عباس: (أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) قال: (الفلق): الصبح. عن الحسن، في هذه الآية (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) قال: (الفلق): الصبح. عن سعيد بن جبير، قال: (الفلق): الصبح. وقال آخرون: (الفلق): الخلق، ومعنى الكلام: قل أعوذ برَبِّ الخلق. عن ابن عباس، في قوله: (الفلق): يعني: الخلق.» انتهى التفسير

هناك تباين واضح في فهم مدلول كلمة الفلق، وهذا إن دل فإنه يدل على أن التفسير جاء اعتماداً على قدرة المفسر الشخصية في فهم الكلمة ومدلولها، وسوف نحاول فهم التعبير القرآني والإمام يشير، وتحليل لفظ الفلق؛ لنرى ما هو هذا الفلق؟

جذر كلمة [الفلق] كما في قاموس اللغة يدل على فرجة وبينونة، ويفلق الشيء أي: يجعله ينفرج، والفلق نفسه هو الشيء القابل للانفراج، وهذا الانفراج سوف يظهر شيئاً مختفياً داخل هذا الفلق. في كتاب الله ذكرت مشتقات لفظ [الفلق] في أربعة مواضع، وهي كالتالي:

(فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) (سورة الشعراء : آية 63).

في هذه الآية الكريمة لفظ [انفلق] ويعني انفراجاً أظهر قاع البحر حتى يمر نبي الله موسى ومن معه.

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) (سورة الأنعام : آية 95).

لفظ [فالق] هنا على وزن فاعل، ونتيجة هذا الفلق تخرج النبات، فالق الحب؛ أي: أحدث انفراجة في الحب والنوى فخرجت النبتة منه.

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (سورة الأنعام : آية 96). هذه الآية الكريمة تشبه الآية السابقة تماماً، غير أن الشيء الخارج أو المنبثق هو النور. الموضع الرابع جاء في الآية الأولى من السورة التي نحن بصددتها:

الآية الأولى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

الآية تخاطب الإنسان بلفظ [قل أعوذ] أي أطلب المساعدة من رب الفلق، العوذ في حد ذاته احتياج شديد وهذا إن دل فإنما يدل على صعوبة وخطورة الأمر الذي سوف يناقشه السورة. الفلق هنا متعلق بالإنسان، وسوف يعضد هذه الفرضية الآيات التالية لهذه الآية الكريمة . - الفلق هو هيئة أو مكان يحدث فيه انفراجة فيظهر منه شيء ما.

- التعبير القرآني (رب الفلق) يوحي أن هذا الفلق جاء بتدخل إلهي مباشر. ومن خلال فهم نظرية التطور القرآنية التي أفردنا لها الفصول الأولى من هذا الكتاب؛ يبدو لنا أن الفلق هو الكيان الذي تنبثق منه احتياجات الإنسان.

الحاجات الأساسية للإنسان حسب رأي العلماء تشمل سبعة احتياجات:

أولاً: احتياج فسيولوجي (طعام - شراب - سكن .. إلخ).

ثانياً: احتياج الأمن والاطمئنان.

ثالثاً: احتياج اجتماعي، مثل: الحب والالتقاء وتقبل الآخرين.

رابعاً: احتياج تقدير الذات والثقة في النفس.

خامساً: احتياج إلى تقدير المجتمع لأجل دور الإنسان وجهوده

سادساً: الاحتياج إلى المعرفة.

سابعاً: الاحتياج الجمالي.

هذه الاحتياجات هي المحرك الرئيس لتطور الإنسانية، وهي المنشئة للسلوك، وهذه الاحتياجات جميعها تبدو احتياجات مشروعة، بل ضرورة لحياة الإنسان، ودونها تفقد حياة الإنسان المعنى.

الاحتياجات التي ذكرها العلماء، وما يستجد من احتياجات، هي الشيء الذي ينبعث داخل الإنسان فيندفع الإنسان بدوره لإشباع هذه الاحتياجات. عملية انبثاق أو انبعاث هذه الاحتياجات هي عملية الفلق داخل الإنسان، والتي تخلق سلوك الإنسان وتصرفه، سواءً أكان خيراً أم شراً وهذا ما عبرت عنه الآية التالية.

الآية الثانية: (من شر ما خلق)

في حين أن التفاسير التقليدية تقول إن الشر مخلوق في المخلوقات التي خلقها الله؛ نجد الآية تقول شيئاً آخر، وهو أن الفلق هو ما يخلق التصرف أو السلوك، فإذا كان السلوك غير قويم؛ أي أنه سلوك شرير فهو مخلوق من احتياجات الإنسان.

الفرق بين تفسير المفسرين وبين ما تنبأه هو أن المفسرين يقولون: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الشَّرَّ فِي الكائنات، لذلك نتعوذ بالله من هذا الشر الذي خلقه سبحانه، بينما الآيات تتحدث عن أَنَّ الفلق أو الاحتياج الذي سوف يحرك سلوك الإنسان هو ما يخلق الشر. من هنا يصبح الشر من حتميات الوجود (وجود الإنسان)، ومن لوازم التطور، وليس ذاتاً منفصلة خلقها الله، كما يدعي كثير من الفلاسفة.

حاجة الإنسان للطعام أو الشراب سوف تدفعه للتصرف والبحث عن طريقة يجني بها المال ليحصل على ما يريد، والوضع الطبيعي لسد هذا الاحتياج هو سلوك وتصرف سليم وصحيح لجني المال، إما إذا انحرف السلوك فهنا يكون الاحتياج هو من خلق هذا الانحراف وأوجد الشر، وليس الله هو من أوجد الشر.

الآية الكريمة تقرر أن الله أعطى للإنسان حرية التصرف وحرية الإرادة، ومن تمام هذه الحرية أن يملك الإنسان التصرف بشكل سوي، أو بشكل منحرف. هنا سوف نفهم معنى التعوذ لأنها مرتبط بحاجة الإنسان والاحتياج هو العوذ نفسه. طلب الله من الإنسان الاستعاذة بالله ومراقبته، إذا دفعه الاحتياج إلى السلوك المنحرف أن يتحرك للجانب المقابل وهو التعلق الشديد بالله لأنه هو الذي يستطيع سد هذا النقص. السلوك المنحرف لن يتم ولن تكتمل دورته إلا من خلال ثلاث محطات رئيسة، كما وضحتها ربنا في الآيات التالية:

الآية الثالثة : (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

جذر كلمة [غاسق] هو غسق، وله أصل واحد وهو الظلمة كما جاء في قاموس اللغة، أما كلمة [وقب] فلها أصل وهي غيبة شيء في مغاب . مشتقات كلمة [غسق] في كتاب الله جاءت في أربعة مواضع كما يلي:

الآية الأولى: (أقيم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) (سورة الإسراء: آية 78) .

غسق الليل في الآية تعني ظلمة الليل أو انطماس الليل

الآية الثانية: (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) (سورة ص : آية 57). غَسَّاقٌ يعني شيئاً مظلماً و كرهياً وسيئ الصفات لا شك.

الآية الثالثة: (إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) (سورة النبأ : آية 25).

الآية الرابعة: هي الآية التي نحن بصددھا، فإذا كانت السورة تشير إلى احتياجات ودوافع وبواعث وسلوك؛ فلا بد أن يكون الغاسق على علاقة وثيقة بموضوع السورة.

يمكننا موافقة بعض المفسرين على أن الغاسق الذي أمر ربنا بالاستعاذة منه هو المراكز المظلمة، ولكن ليست في الكون مثل الليل أو الكواكب؛ إنما هي المراكز المظلمة داخل النفس البشرية.

هذه المراكز المظلمة إذا تداخلت مع السلوك غير السوي الناتج عن الاحتياج سوف تزيد من حدته، وتُقَوِّي شوكته، ويكتسب السلوك المنحرف ثقلاً؛ بسبب هذا الغاسق الذي ارتبط به، فن أين تأتي هذه المراكز المظلمة في النفس البشرية؟

الإنسان تبعاً للنظرية الدينية، وكثير من التجارب العلمية، خير بطبيعته، ولكن هناك عوامل تحوّل هذه الخيرية إلى شر، وهناك احتمالان لهذه العوامل الكامنة داخل النفس، وتزيد تأثير الشر المخلوق من الاحتياج:

الاحتمال الأول: هو طرق التربية، والبيئة، والخبرات السيئة من المجتمع، ووجود نماذج منحرفة، وهذه النقاط السوداء ما إن تتهيأ الظروف إلا تظهر لتعزيز السلوك المنحرف وتقويته.

نفترض أن السلوك المنحرف نشأ من احتياج معين، مثل: احتياج الإنسان لتقدير المجتمع وتكريمه له، ولم يجد الإنسان وسيلة شريفة لاكتساب تقدير واحترام المجتمع، مثل: عمل مؤثر على سبيل المثال.

هنا قد يفكر الإنسان في الغش أو الكذب أو النفاق؛ لكي يحصل على مكانة داخل المجتمع بشكل مزيف، وهذا السلوك المنحرف لو صادف نقاطاً سوداء تُغذِّيه، مثل: نماذج وقدوات سيئة؛ فسوف يصبح السلوك أكثر عدوانية، وسوف يكتسب وزناً زائداً.

على الجانب الآخر لو أنَّ السلوك المنحرف لم يجد هذه النقاط السوداء المتمثلة في نماذج وقدوات سيئة، وأن المجتمع والبيئة يعظمان قيم الصدق والشرف؛ فسوف يصبح السلوك ضعيفاً للغاية، ويمكن أن ينتهي قبل أن يبدأ في الظهور.

الاحتمال الثاني: قد يكون الغاسق عوامل جينية، ولكن منشأها الطبيعة الحيوانية للإنسان؛ فإذا كان الإنسان قد تطور من كائنات أقل رقياً، فمن الوارد أن تكون العوامل الجينية البعيدة التي توارثها من هذه الكائنات هي النقاط المظلمة لديه.

الكائنات الأقل رقياً من الإنسان ليس لديها منظومة أخلاقية، وما يحركها هي الغرائز فقط، فعندما تبرز احتياجاتها فإنها تحاول إشباع رغباتها دون أي اعتبار للمنظومة السلوكية. مثال: الحيوان المفترس الذي يهاجم بكل قوة عند شعوره بالجوع، أو الحيوان الصغير الذي قد يهاجم بشراسة عند شعوره بالخوف.

قد يكون الغاسق هو أحد الاحتمالين أو يكون كليهما، ولكن المؤكد أنَّ النفس البشرية فيها بعض النقاط المظلمة، سواء اكتسبتها من البيئة أو توارثتها من أسلافها، وتؤثر في منظومة سلوكها، وإن وجدت الفرصة سانحة فسوف تعزز وتقوي سلوك الشر في الإنسان.

الآية الرابعة : (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

ماذا قال التفسير عن هذه الآية الكريمة؟ جذر كلمة [النفاثات] هو نفث، وأصلها خروج شيء من الفم دون أدنى جرس كما في قاموس اللغة، فإن كانت عملية النفخ هي عملية إزاحة الهواء بشكل قوي؛ فإنَّ عملية النفث هي عملية إزاحة ولكن بشكل أقل وبصورة ليست مركزة.

كلمة [العقد] تعني مواقع الارتباط، ومنها العقد الذي يربط بين اثنين، فيكون التعبير القرآني النفاثات في العقد تعني عملية خلخلة هذه العقد أو إزاحتها أو التحلل منها. النفاثات هي الأشياء التي تدفع في اتجاه فك ارتباط الإنسان بالتزاماته، والنفاثات في العقد هي عدم وجود رقابة أو مسؤولية على تصرفات الإنسان؛ مما يشجع الإنسان على عدم الالتزام، ويحفز لديه السلوك المنحرف.

النفاثات في العقد هي من أهم المحطات التي تساعد على تقوية سلوك وتصرف الشر؛ فعندما تدرك النفس عدم وجود رقابة، أو مسؤولية معينة، أو أمنت العقاب، تتماهى في سلوك الشر، ويتم تغذية الشرير بمزيد من العدوانية.

النفاثات في العقد من أسباب الشر التي وجب على الإنسان التعوذ منها، وواجب المجتمع وعدم السماح لها بالوجود. عدم وجود نظام اجتماعي وقانوني عادل وصارم يتم تطبيقه على الجميع، أو عدم وجود قوانين رادعة، عامل أساسي يسمح للشر بالوجود، بينما النظم القوية والمتماسكة تقلل من فرص وجود الشر.

لقد وصف التعبير القرآني العقد؛ أي: النظام الاجتماعي أو كل ما يربط الإنسان بحيطه بدقة لا مثيل لها، إذ وصفه بالعقد، وهي نقاط الارتباط القوية التي تربط الأشياء بعضها ببعض.

القوانين غير الرادعة هي أحد النفاثات في العقد، والمسؤول المتهاون هو كذلك أحد النفاثات في العقد، والتسامح المجتمعي مع الانحراف هو أحد النفاثات في العقد، وكل ما يمكنه إضعاف ارتباط الإنسان بالقوانين المنظمة للمجتمع، وكل محفز على الخروج على النظام هو في الحقيقة النفاثات في العقد.

لنفترض أن مسؤولاً في شركة صارح موظفي خدمة العملاء أنه سوف يتساهل مع الموظفين في حال الشكاوى، ماذا سوف تكون النتيجة؟ هذا المسؤول هو أحد النفاثات في العقد، وما فعله هو في الحقيقة تحفيز السلوك غير السوي على الظهور لدى الموظفين، وإعطاء

فرصة لوجود الشر. على العكس من ذلك المسؤول المنضبط يصير نقطة ارتباط قوية جداً تضعف السلوك السيئ، وتعزز من وجود السلوك القويم.

الآية الخامسة : (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

جذر [الحسد] كما جاء في قاموس اللغة هو الحسد المعروف ولم يزد على ذلك، والمعنى المشهور للحسد هو تمنى زوال نعمة الغير، فإن كان تمنى زوال نعمة الغير هو قمة هرم الشر؛ إلا أننا يمكننا إضافة مدلول أكثر شمولية لمفهوم الحسد، من خلال مقارنة صوت حصد مع حسد. جذر كلمة [حصد] في قاموس اللغة يعني قطع الشيء، ومن خلال كتاب الله سنجد أن لفظ [حصد] يعني قطع الشيء بغرض جمعه، ومن ذلك حصاد الزرع؛ فحصد تعني تحصيل نتائج معينة بشكل إيجابي، مثال قول الله تعالى:

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) (سورة

يوسف : آية 47).

بناء على تقارب صوت [حصد وحسد]، واسترشاداً بما جاء في وصف الحسد، ومن خلال سورة الفلق؛ يبدو لي أن الحسد هو تحصيل نتائج بشكل سلبي، أو تحصيل نتائج سلوكيات تؤدي للشر، وعلى ذلك يكون الحاسد هو الشخص الذي تجتمع فيه الشرور، أو يجني هذه الشرور، فالحسد هو مجموع الشرور السابقة في الآية، بحيث إذا اجتمع سلوك منحرف مع غاسق ونقاط مظلمة في نفس الإنسان، ومصدر يغذي ويقوي هذا السلوك؛ فإن النتيجة النهائية حاسد يجمع كل هذه الشرور.

يبدو أن الحسد لو جاز لنا التعبير هو شر خالص نابع من ذلك الحاسد؛ هو شر مركز موجه ضد المجتمع أو الآخرين دون سبب وجيه، تُغذيه نفس تملك منها الشرور ولم يردعها رادع.

من خلال كتاب الله سوف نجد أن لفظ الحسد ومشتقاته قد ذُكر في خمس مواضع،

في أربع آيات، كما يلي:

الآية الأولى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة البقرة: الآية 109).

الحسد في هذه الآية الكريمة هو شر غير مبرر؛ إذ يتنى هؤلاء الكافرون زوال إيمان المؤمنين بدون سبب مادي واضح، سوى شرٍّ متمكِّن من نفوس هؤلاء الكافرين ووصل ذروته.

الآية الثانية: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (سورة النساء: آية 54).

الحسد هنا موجه تجاه آخرين أيضاً، بسبب فضل الله الذي آتاهم، فلم يصدر من هؤلاء الذين آتاهم الله من فضله أي فعل يستحقون عليه الشر.

الآية الثالثة: (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (سورة الفتح: آية 11).

هنا أيضاً يعتقد المخلفون أن منعهم من المغانم إنما جاء بدون سبب، وهو فقط شر موجه إليهم ولا يستحقونه، بالرغم من أنهم لم يشتركوا في الدفاع والتصدي للعدو؛ بل تخلفوا متعمدين، وهذه الآية الكريمة توضح الفرق الجوهرية بين الحسد الذي هو شر صرف وخالص، والشر المسبب.

الآية الرابعة: (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) (سورة الفلق: الآية 5).

مما سبق نجد أن الحاسد هو الشخص الذي يجمع المحصلة النهائية للشر، والمتمثلة كما ذكرنا في كل المراحل السابقة، والتي تم تفصيلها من خلال سورة الفلق. عندما تتكاتف كل الظروف وتضافر جميع العوامل وتجتمع سوياً سوف تخرج لنا حاسد ذو شر مستطير.

الاستعاذة جاءت في سورة الفلق من كل مرحلة من مراحل تكوين الشر؛ ابتداء من بزوغ الحاجات وما يمكن أن تسببه من انحراف في السلوك، وكذلك كل غاسق إذا وقب؛ وهي العوامل الكامنة في النفس، سواء ناتجة عن التربية والبيئة والخبرات السابقة أو العوامل الجينية التي ورثها من أسلافه السابقين.

أضف إلى ذلك النفائث في العقد؛ وهي كل ما يساهم في فك ارتباط الإنسان بمحيطه، ويغذي فيه الأنانية والفردية، ويحفزه على تنفيذ رغباته دون الاكتراث بالآخرين، أو يؤمن له عدم مسؤولية أو محاسبة.

من خلال تحليل الألفاظ نجد أن لفظ الحاسد أشمل بكثير وأعمق من ذلك الشخص الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره. الحاسد شخص خطير؛ إذ تكمن فيه جميع الشرور، فهو أقرب للمجرم الذي قطع كل صلة بمن حوله، ومحمل بالحق ناقم على المجتمع وأفراده، فهو شرميشي على الأرض، ومتطوع في نشر الأذى والضرر للغير.

تزايد أعداد الحاسدين في أي مجتمع هو نذير شؤم وعامل أساسي في فناء المجتمع وانحطاطه، وكيف لا يفنى ولا ينحط وعوامل الهدم تنتشر فيه مقابل عوامل البناء، و بذور الشر في كل أركانه؟

الحل الوحيد للقضاء على أنماط الحاسدين داخل المجتمع هو فهم التوجيه الإلهي، وهذا التوجيه بعضه يقع على عاتق الفرد نفسه، حتى لا يتحول إلى حاسد، وبعضه الآخر يقع على عاتق المجتمع.

مسؤولية الفرد ذاته تتمثل في ركنين أساسيين:

أولهما: فهم مكن الشر في النفس ومن أين يأتي، فإذا فهم الإنسان كيف تحدث الأشياء استطاع التعامل معها بشكل صحيح. معرفة أن الشر يكمُن في الحاجات التي يطلبها الإنسان، وأن هذه الحاجات قد تخلق سلوكاً منحرفاً في طريق تحقيقها، يعطي للإنسان فرصة لتلافي السلوك المنحرف من بدايته، وضبطه عند مرحلة التفكير.

النظرة الدينية التقليدية في فهم منشأ الشر، ومن أين يأتي جعلت الإنسان مفعولاً به، وكأن الله قدّر عليه الشر ولا مفر من ذلك، مما خلق أجيالاً مستسلمة غير قادرة على محاربة الشر ووقف تمدده.

بينما النظرة القرآنية تخبرنا أن الشر يمكن خلف حركة الإنسان ذاته ومحاولاته تلبية حاجاته ورغباته. الله سبحانه لا يخلق الشر، وإنما حركة الإنسان هي من تخلق الشر؛ لذا من البديهيات أن ينتبه الإنسان لحاجاته ويحاول ضبط إشباعها، من خلال ميزان أخلاقي منذ اللحظة الأولى، ولا يدع لها مجالاً أن تسوقه للسلوك المنحرف.

ثانياً: من خلال البيان القرآني في دحض فكرة الشر في مهدها هو التعوذ بالله، بمعنى الحفاظ على صلة بين الإنسان وربه، من خلال الدعاء والصلاة وطلب الهداية الدائمة. وهذه العلاقة بين العبد وربه كفيلة بأن تمنح الإنسان قدراً من الطاقة الروحية، وتجعله يصمد تجاه المغريات، ويئد أي سلوك منحرف في بدايته.

أما مسؤولية المجتمع فتتمثل كذلك في ركنين:

أولهما: محاربة النماذج السيئة، وإعلاء قيم الحق والخير، والاحتفاء بكل سلوك شريف، وتحقير كل سلوك منحرف، من خلال منظومة تعليم جيدة تأخذ في الحسبان كيفية تكوين الشر وتفاقه.

الركن الثاني: هو الرقابة الصارمة من خلال القوانين، وإنفاذ العدالة، ومحاسبة كل مخطئ، دون أي اعتبارات أخرى. نظام المساءلة القائم على العدالة يضمن عدم التجاوز، ويبلغ تماماً ركن النفاثات في العقد التي قد تغذي وتزيد نار الشر.

إن لم يلتزم الفرد بمحاربة الشر في نفسه، وكذلك يفعل المجتمع، من خلال القضاء على مسببات ومصادر الشر فبئس الفرد وبئس المجتمع. تتراوح مكانة المجتمعات بين التقدم والانحطاط بقدر تطبيق محاربة الشر داخله.

خير المجتمعات تلك التي يتحلى أفرادها بمراقبة ذاتية تردعهم عن السلوك المنحرف، ومجتمعات لا تتساهل مع الانحراف وتحاربه، وشُرُّها على الإطلاق تلك التي تموج بأفراد يجهلون أكثر مما يعلمون، داخل مجتمعات تجعل الانحراف مشروعاً. بنهاية تحليل ألفاظ سورة الفلق، وبيان نظرية الشر كما تحدث عنها القرآن الكريم، نكون قد أدينا ما كنا نرغب في تأديته.

ومن خلال السطور المتبقية سوف نلقي الضوء على تجربتين شهيرتين، ونحاول تطبيق النتائج التي توصلنا إليها من خلالهما؛ لفهم كيف يؤثر تصرف الفرد والمجتمع في إذكاء الشر داخل النفوس.

التجربة الأولى: تجربة ملجرام

مصمم هذه التجربة هو ستانلي ميلجرام، عالم علم النفس الاجتماعي بجامعة ييل الشهيرة بالولايات المتحدة الأمريكية.

الاختبار كان بغرض دراسة مدى الانصياع للسلطة، وقد ظهرت هذه الدراسة عام 1963، من خلال مقالة علمية تحت عنوان دراسة سلوكية الطاعة، ثم بعد ذلك تم تقديم الدراسة بشكل كامل عام 1974 في كتاب تحت عنوان (الانصياع للسلطة، نظرة خارجية). كان الهدف من الدراسة هو قياس مدى استعداد المشاركين لطاعة السلطة إذا لزم الأمر تنفيذ أوامر تتناقض مع ضمائرهم. الدراسة كانت عبارة عن إجابة للسؤال المحير والخاص بحرق الهولوكوست، هل دور الجنود الذين نفذوا الهولوكوست لم يتعد تنفيذ الأوامر؟ أم أنهم شركاء في الجريمة؟

اعتمدت التجربة على ثلاثة أشخاص (المشرف - المشارك - الممثل)؛ دور المشرف هو الإلحاح على المشارك حتى يكمل التجربة، والتي كانت تقتضي صعق الممثل بالكهرباء في حالة عدم الإجابة الصحيحة، بغض النظر عن الألم الواقع على الضحية (الممثل)، وكان على الممثل التظاهر بالألم عندما يتعرض للصعق الكهربائي، على الرغم من أن الصعق غير حقيقي، والمشارك لا يعلم أن الصعق غير حقيقي، ولا يعلم الغرض الحقيقي من التجربة.

ما فعله ملجرام هو قياس كمية الألم الذي يمكن أن يسببها شخص عادي لشخص آخر، فقط بسبب تنفيذ أمر من باحث، مشرف على اختبار ذي سلطة مجردة، تتعارض مع مبدأ عدم إيذاء الآخرين. مبدأ عدم إيذاء الآخرين هو أحد المبادئ الأخلاقية الأساسية، فإذا سيحدث عندما يلتقي هذا المبدأ وجهاً لوجه مع السلطة التي تحاول دفع الشخص للطاعة، رغم تعارض أوامر السلطة مع المبدأ الأخلاقي؟

تمت التجربة عن طريق إعلان في جريدة يطلب متطوعين نظير مبلغ مالي، للمشاركة في دراسة تجريها جامعة ييل العريقة، وصاحبة الشهرة الواسعة في الدراسات الأكثر تأثيراً.

تم إجراء الاختبار في غرفتين من غرف الجامعة، وكان الإعلان ينص على أن الاختبار سوف يستغرق ساعة واحدة، تنوع المشاركين بين الرجال والنساء وتراوح أعمارهم بين 20-50 عاماً، من مختلف الطبقات الاجتماعية والمستويات الثقافية، بحيث تنوع المشاركين بين حاصلين على درجة الدكتوراه، وبين من لم يكمل دراسته الثانوية.

في البداية وقبل إجراء الاختبار، كان المشرف يخبر المشاركين أن الاختبار يهدف لقياس أثر العقاب في التعلم، وهذا الهدف غير صحيح بالمرّة، ولكن إخفاء هدف التجربة الأساسي كان ضرورياً لنجاح التجربة.

يبدأ المشرف بعمل قرعة وهمية بين المشارك والممثل، بهدف جعل المشارك يعتقد بأن الممثل أحد المشاركين الحقيقيين، وكانت نتيجة القرعة دائماً ما تضع المشارك في دور المعلم، وتضع الممثل في دور المتعلم، وهو المطلوب في التجربة.

أثناء الاستعداد للتجربة يصرّح الممثل كجزء من التجربة بأن لديه مشاكل قلبية، ولكن ليست خطيرة، وتبدأ التجربة بوضع كلّ من المشارك والممثل في غرفتين منفصلتين متجاورتين بحيث يتواصلان بالكلام فقط .

يتم الاتفاق مع المشارك بأنه سوف يقوم بتوجيه صعقة كهربية للممثل في حالة أخطأ الممثل (المتعلم)، وكنوع من المصادقية يتم توجيه صعقة كهربية للمشارك شدتها 45 فولت، بوصفه نموذجاً حقيقياً للصدمة الكهربائية التي سوف يتم تعريض الممثل لها .

يجلس المشارك في الغرفة المعدة له، وأمامه الممثل في الغرفة الأخرى، أمامه على الطاولة جهاز الصدمات الكهربائية المصمم للتجربة، وله عدد من المفاتيح، وكل مفتاح يصدر صدمة كهربية مختلفة، تتراوح شدة الصدمات من 30 إلى 450 فولت.

من خلال ورقة تحتوي على مجموعة كلمات متقابلة، كان يجب على المشارك قراءة هذه الكلمات كلها على مسامع الممثل، وعندما ينتهي المشارك من قراءتها كانت التجربة تقتضي أن يعود المشارك ليقرأ كلمة كلمة. ثم يعطي أربع إجابات محتملة، وكان على الممثل اختيار الإجابة الصحيحة عن طريق ضغط زر أمام الممثل يمثل رقم الإجابة الصحيحة. إذا أخطأ المتعلم (الممثل) كان على المشارك (المعلم) أن يخبره بأنه أخطأ، ثم يخبره بشدة الصعقة الكهربائية التي سوف يتلقاها الممثل، ومن ثم يقوم المشارك بضغط الصعقة الكهربائية. أما إذا أجاب المتعلم فيكون على المشارك الانتقال إلى الكلمة التالية، وهكذا حتى يحفظ الممثل كل الكلمات المكتوبة.

كان من المفترض أن يتم التدرج في الصعقات الكهربائية كلها أخطأ الممثل. اعتقد المشاركون أن الصدمات الكهربائية التي يوجهونها إلى المتعلم حقيقية، بينما في واقع الأمر هي صدمات مزيفة؛ فقد كان يوجد صوت مسجل لصوت الممثل متأثراً بالصعقة الكهربائية يصدر بمجرد الضغط على زر الصعقة من قبل المشارك.

بعد زيادة شدة الصعقات يبدأ الممثل (المتعلم) في الضرب على الجدار الفاصل بين المشارك وبينه عدة مرات، ويشكي من الوضع الصحي لقلبه، عند هذه اللحظة عبر عدد من المشاركين عن رغبتهم في وقف الاختبار والاطمئنان على المتعلم. كثير من المشاركين توقفوا عند شدة 135 فولت؛ مشككين في مغزى الاختبار، وبعض من المشاركين استمروا



في الاختبار بعد أن طمأنهم المشرف بإعفائهم من أي مسؤولية، وبعض المشاركين كانوا يضحكون بشكل انفعالي عند سماعهم صراخ المتعلم (الممثل).

إذا أبدى المشارك رغبته في توقف الاختبار في أي مرحلة كان المشرف يوجه إليه مجموعة من التنبهات بشكل متسلسل، كالتالي:
- الرجاء الاستمرار.

- الاختبار يتطلب منك أن تستمر، استمر رجاء.

- من الضروري أن تستمر.

- ليس لديك خيار، يجب عليك الاستمرار.

فإذا أصر المشارك على رغبته في التوقف بعد ذلك، يتم وقف الاختبار، وإلا فإن قيام المشارك بتوجيه الصعقة ذات الشدة 450 فولت يعتبر نهاية الاختبار، ومع تنفيذ المشارك للصعقة الأخيرة يتم التوقف. نتائج التجربة جاءت كالتالي:

مجموعة التجارب الأولى التي أجراها ملجرام وصل فيها 65 بالمائة من المشاركين إلى الصعقة القصوى وهي 450 فولت، رغم أن كثيراً من المشاركين أعرب عن عدم ارتياحه لهذا الأمر، وكل واحد توقف لحظات وأبدى شكوكاً نحو الاختبار، بل إن بعض المشاركين عبر عن رغبته في إرجاع القيمة النقدية التي تسلمها نظير الاختبار. لكن لم يعلن أي مشارك رغبة حاسمة في التوقف عن الاختبار قبل الوصول إلى 300 فولت.

تم إجراء الاختبار في أماكن مختلفة من العالم، وكانت النتيجة مشابهة للنتيجة الأولى بشكل كبير، كما بينت التجربة أن عدد المشاركين المستعدين للاستمرار حتى الصعقة الأخيرة تراوح ما بين 61-66 بالمائة، بغض النظر عن زمان ومكان الاختبار.

لوحظ أثناء الاختبار أنه لم يطلب أحد من المشاركين الذين رفضوا الاستمرار في الاختبار إلغاء الاختبار وإيقافه، ولم يقيم أي شخص من المشاركين بمغادرة غرفة الاختبار للتحقق من سلامة الشخص المتعلم (الممثل) دون طلب إذن بذلك.

النتائج من وجهة نظر ملجزم كانت مقلقة، إذ تُرَّجَّح أن الطبيعة البشرية غير جديرة بالاعتماد عليها لكي تستطيع إبعاد الإنسان عن القسوة، فعندما تصدر الأوامر من سلطة فاسدة فإن نسبة كبيرة من الناس مستعدون للتنفيذ، دون الأخذ بالاعتبار طبيعة الأمر، ودون حدود يفرضها الضمير، طالما أن الأوامر صادرة من سلطة شرعية حسب المتلقي.

نلاحظ من خلال هذه التجربة والتي صُممت بالأساس لقياس مدى الانصياع للسلطة مقابل المبادئ الأخلاقية، أنه بمجرد الحصول على تطمينات بأن المشاركين لن يكونوا معرضين للمساءلة أدى ذلك إلى زيادة نسبة المشاركين الذين وصلوا للصعقة الأخيرة. إنها النفاثات في العقد التي ذكرها ربنا في سورة الفلق، فشعور الإنسان بأنه غير مسؤول، وأنه بعيد عن المراقبة والمحاسبة، جعله يزداد عداوة، وعزز لديه صفة الشر.

ولو تتبعنا التجربة من بدايتها لرأينا كيف تحولت رغبة نبيلة وهي "تعليم شخص ما" إلى شر في ظل وجود عوامل ساعدت على بزوغ الشر. رغم خيرية هذا الاحتياج أو الرغبة فإن مجرد الإعفاء من المسؤولية، وتلقي المعلم تطمينات بأنه لن يلاحق، عززت لديه السلوك العدواني (النفاثات في العقد)، وحولت احتياجاً نبيلاً إلى صورة من صور الشر.

لكن ما الذي يجعل بعض المشاركين يقرر عدم استكمال الاختبار، وبعضهم الآخر يستكمل الاختبار ويصل إلى الصعقة القصوى؟

من وجهة نظري إن هذا التصرف هو أساس حرية الاختيار لدى الإنسان، والذي وصفه ربنا في سورة الشمس: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)) (سورة الشمس: آيات 7-8).

النفوس لديها حرية الاختيار بين التقوى والسلوك القويم، أو الانحراف، وبدون هذه الحرية لا معنى لوجود الإنسان من الأساس. إذا كانت النفس في بعض مواطنها تأمر الإنسان بالسوء لتحقيق غرض ما؛ فإن النفس اللوامة التي تلومه وتُقرِّعه على الانحراف - كما ذكر القرآن - حاضرة حتى تعيده إلى مربع الخير مرة أخرى.

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (سورة البلد : آية 2)

النفس الأتّارة بالسوء تقف حائطاً أمام النفس اللومة، فإذا تغلب هذا السوء، وأخذ في الظهور؛ فإن التربية والثقافة والتعليم له دور في إذكاء هذا السوء أو في تثبيطه. كذلك القوانين والروابط المجتمعية عليها دور آخر، في تثبيط وإحماد السلوك المنحرف. ولكن إذا بزغ السلوك المنحرف، ووجد تربة خصبة، من خلال تربية وتنشئة سيئة، ووجود مجتمع مهلهل؛ فإن المحصلة النهائية هي شخص ككّلة من الشر تمشي على الأرض؛ المتمثل في الحاسد.

من هنا نجد أنّ الأشخاص الذين فضلوا الانسحاب تغلبت نفوسهم اللوامة، واستطاعت إيقاف سلوكٍ كان ظاهره الإضرار بالمتعلم (الممثل)، بينما لم يتوافر نفس القدر من اللوم للآخرين؛ وتمادوا في سلوكهم رغم ظهور علامات الضرر على المتعلم. نعود مرة أخرى للغرض من التجربة وهو هل الجنود المشاركون في تنفيذ الأوامر ضد المبادئ الأخلاقية مذنبون؟

لو تتبعنا كتاب الله لوجدنا مسؤولية الجنود حاضرة والانصياع للأوامر ضد المبادئ الأخلاقية ليست مبرراً كافياً لاقتراف الشر. إصدار الأوامر هنا ما هو إلا مرحلة من مراحل تكوين الشر ولتكن مرحلة النفاثات في العقد، فلو صادفت هذه المرحلة نفس سوية وخبرات ونماذج طيبة سابقة، لما تمادت في اقتراف الشر بأي حجة.

في كتاب الله لدينا حالة مماثلة لهؤلاء الجنود، وقد رصد لنا القرآن الكريم هذه الحالة من خلال وصف جنود فرعون في الآيات التالية:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) (سورة القصص: آية 8).

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) (سورة القصص: آية 39).

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (سورة القصص:

آية 40).

من خلال الآيات الكريمة يبدو أن الجنود هم منفذون لإرادة فرعون في تتبع بني إسرائيل وظلمهم، رغم وضوح الظلم على بني إسرائيل، مما جعل هؤلاء الجنود ضمن زمرة المجرمين؛ وهم مشاركون حقيقيون وليسوا مجرد منفذي أوامر كما يعتقد بعض الناس، في محاولة للتبرير النفسي والهروب من المسؤولية.

التجربة الثانية: تجربة سجن ستانفورد

في أغسطس 1971 تم إجراء تجربة سجن ستانفورد/ جامعة ستانفورد الشهيرة؛ في محاولة لاستقصاء الآثار النفسية المرتبطة بالاستجابة الإنسانية للآسر، قام بالتجربة فريق بحثي بإشراف الدكتور فيليب زيمباردو، وقد قام بدور السجناء والحراس متطوعون؛ في تجربة لمحاكاة الحياة في السجن بشكل كامل.

تمت التجربة كسابقتها عن طريق الإعلان في الجرائد عن طلب متطوعين بمقابل مادي؛ للمشاركة في محاكاة سجن مدتها أسبوعان، وتم اختيار 24 متطوعاً بناءً على الصحة البدنية والاستقرار النفسي، وكان غالبية المتطوعين من العرق الأبيض، ومن الطبقة المتوسطة، وجميعهم طلاب في المرحلة الجامعية.

تم تقسيم المجموعة إلى مجموعة سجناء، ومجموعة حراس بالتساوي، عن طريق القرعة دون أي تدخل بشري، وتم إعداد السجن في قبو في جامعة ستانفورد، وقد وضع البروفيسور زيمباردو مجموعة من التعليمات والقيود على المشاركين؛ لمنع الاختلالات في الشخصية، وانتفاء الهوية الفردية، ومنع الهديان.

تم تسليم الحراس عصا شرطة، وملابس عسكرية اختارها المشاركون بأنفسهم من محل بيع ملابس عسكرية، بالإضافة إلى نظارة عاكسة؛ لتجنب التواصل البصري مع المساجين. كان الحراس يعملون على شكل دوريات، بخلاف المساجين المتواجدين بشكل دائم، إذ كان

مسموحاً للحراس بالعودة لمنازلهم بعد انتهاء دوامهم المتفق عليه، لكنّ اللافت للنظر أنّ بعض الحراس تطوعوا لساعات إضافية، رغم أنّ هذا الوقت دون أجر.

أما بخصوص المساجين فكان رداؤهم فضفاضاً من دون ملابس داخلية، وصنادل مطاطية، وقد تمّ الرمز لكل مسجون عن طريق رقم معين، وتمّ وضع الأرقام على ملابسهم، بالإضافة لذلك ارتدى المساجين قبعات من البلاستيك؛ لكي تبدو رؤوسهم مخلوطة بالكامل، وتمّ وضع سلسلة عند الكاحل كمنبه دائم لهم، أنهم مسجونون ومضطهدون.

قبل بداية التجربة تمّ جمع الحراس لحضور جلسة تمهيدية عن التجربة، لم يتلقوا فيها أيّ تنبيهات أو خطوط، باستثناء عدم السماح لهم باستخدام العنف الجسدي، وتمّ تحفيزهم بالقول إنّ إدارة السجن تقع على عاتقهم، وأنّ لهم أن يديروه كما يشاؤون.

ملخص ما قاله البروفيسور زيمباردو للحراس كان: «يمكنكم أن تولّدوا إحساساً بالخمول لدى السجناء، ودرجة ما من الخوف، ومن الممكن أن توحوا لهم بشيء من التعسف يجعلهم يشعرون بأنكم أنتم ونحن والنظام جميعاً نسيطر على حياتهم، سوف لن تكون لهم خصوصيات ولا خلوات، سنسلبهم من شخصياتهم وفرديتهم بمختلف الطرق. بالنتيجة سيقود كل هذا إلى شعور فقدان السيطرة من طرفهم، وبهذا الشكل سوف تكون لنا السلطة المطلقة، ولن تكون لهم أي سلطة»

في المقابل قيل للسجناء أن ينتظروا في بيوتهم حتى يحين موعد استدعائهم دون تحذير، وتمّ اتهمهم بالسطو المسلح، واعتقالهم من قبل قسم شرطة حقيقي، من خلال اتفاق ومساعدة قدامها القسم في هذه المرحلة فقط من الاختبار.

بمجرد اعتقال السجناء تمّ إخضاعهم لإجراءات اعتقال مطابقة تماماً للإجراءات الحقيقية، بما فيها التسجيل وأخذ البصمات والتقاط الصور، كما تمّ تلاوة حقوقهم عليهم وهم تحت الاعتقال، ثمّ نقلهم إلى السجن المعد للاختبار، ومن ثمّ تمّ تفتيشهم عراة وتنظيفهم ومنحهم هويات جديدة.

مر اليوم الأول في التجربة دون أي شيء يستحق التعقيب، بينما في اليوم الثاني بدأ المساجين في تنفيذ عصيان، فتطوع الحراس للعمل لساعات إضافية للقضاء على العصيان والتمرد، دون أي إشراف من المسؤولين عن التجربة. حاول الحراس تفريق السجناء وأخذوا في تحريض بعضهم ضد بعض، من خلال تقسيم السجناء إلى مجموعة جيدين ومجموعة سيئين، ووضع كل مجموعة في غرفة منفصلة؛ لكي يوهوا السجناء أن بينهم مخبرين تم زرعهم بطريقة سرية بين السجناء.

نجحت خطة الحراس واختفى التمرد، ولم يظهر بعد ذلك أي تمرد بشكل كبير. تحول السجن بشكل سريع إلى مكان منفر وغير صحي، حتى إنَّ الدخول إلى الحمامات أصبح امتيازاً يمكن أن يتم حرمان السجن منه، وأُجبر المساجين على تنظيف الحمامات بأيديهم دون استخدام قفازات.

كثيراً ما كان يتم حرمان السجناء من الطعام بوصفها وسيلة للعقاب. أُجبر السجناء السيئون على النوم عراة في الزنازين، وتم حرمانهم من الفرش والوسائد، وتعرض السجناء للإذلال والتحرش الجنسي من قبل الحراس. يقول البروفيسور زيماردو إنَّ السجناء استجابوا بثلاث طرق: إما المقاومة بنشاط، أو الانهيار، أو الرضوخ بالطاعة (حالة السجن المثالي).

في اليوم الرابع من التجربة سرت إشاعة عن خطة فرار يقوم عليها المساجين، وهنا حاول دكتور زيماردو والحراس أن يحولوا التجربة إلى حقيقة، عن طريق الاستعانة بمبنى سجن للشرطة الحقيقية في المدينة؛ بهدف ضمان الأمن. لكنَّ قسم الشرطة رفض الفكرة.

مع تقدم التجربة زاد السلوك العدواني والسادى عند بعض الحراس، وخصوصاً في أوقات الليل إذ ظنُّوا أن الكاميرات لا تعمل بالليل، يقول المشرفون على التجربة إنَّ واحداً من كل ثلاثة حراس أظهر سلوكاً سادياً حقيقياً، وعندما تم إيقاف التجربة لاحظ المشرفون على التجربة أن بعض الحراس أبدوا انزعاجاً من إيقاف التجربة قبل موعدها المحدد.

يقول دكتور زيمباردو إن المشاركين تغمصوا أدوارهم تماماً ، فقد عُرِضَ على السجناء أنْ بإمكانهم تقديم طلبات لتخفيض مدة السجن مقابل تخفيض الأجر المتفق عليه، فوافق أغلبية السجناء، وتقدموا بطلبات لتخفيض المدة مقابل تخفيض الأجر، ولكن تم رفض طلباتهم.

لم يقرر أيُّ من السجناء الانسحاب من الاختبار، بالرغم من أنهم لن يخسروا أكثر مما تقدموا هم بالتنازل عنه سلفاً؛ وهو الأجر المتفق عليه، مما أثار الاستغراب لدى المشرفين على التجربة.

ظهرت اضطرابات عاطفية على السجناء، وشاعت بينهم مظاهر البكاء، وعانى اثنان منهم صدمات شديدة؛ تطلبت استبدالهم وإعفائهم من التجربة. بعد هذا التغيير الدراماتيكي في سلوك السجناء وسلوك الحراس، قرر البروفيسور زيمباردو إيقاف التجربة قبل الموعد المحدد. تعتبر هذه التجربة عرضاً لأنماط الطاعة والانصياع التي يبديها الناس، عندما يتعرضون لنظام إيدلوجي مدعوم اجتماعياً ومؤسسياً. ومن خلال تجربة ملجرم، و تجربة سجن ستانفورد، أمكن إثبات أن الواقع أو البيئة هي ما تُسبب سلوك الأفراد أكثر من أي شيء موروث في شخصيتهم.

هذه التجربة أيضاً تدعم فكرة النفائث في العقد، والتي ذكرها كتاب الله، إذ يبدو جلياً تأثير السلوك وتحوُّله إلى سلوك عدواني في غياب سلطة ورقابة حقيقية، وأنَّ أيَّ تطمينات بعدم المسؤولية هي نوع من فك عرى روابط المجتمع، وحافز كبير على تعزيز سلوك الشر.

أعتقد الآن أن قراءة سورة الفلق سوف تختلف تماماً بعد فهم أبعاد نظرية الشر كما حفظها لنا القرآن وأشار إلى مصادر الشر الشر ومنشأه وكيف يُخلق داخل النفس البشرية.

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)) (سورة الفلق).

يبدو أن الشر الذي تعرضت له سورة الفلق هو شر صادر من منطقة الوعي لدى الإنسان حيث أنه على إدراك كامل بما يفعل ولا أنه سوف يحاسب على هذا الشر. يجب أن يتوقف رجل الدين فوراً عن ترديد تلك العبارات والتي يبدو أنه لا يدرك مغزاها من إن الله خلق الشر . فليتحدث من يعلم ويصمت قليلاً من يريد أن يتعلم!

تم بحمد الله.

المصادر

1. لسان العرب لابن منظور (دار المعارف) 2008
2. المختار الصحاح (مكتبة لبنان) 1995
3. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (المكتبة الوقفية) 1979
4. كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (دار الكتب العلمية) 2003
5. القرآن والكتاب، محمد شحرور 2011
6. الاسلام والانسان، من نتائج القراءة المعاصرة محمد شحرور (2016)
7. القصص القرآني، محمد شحرور 2010
8. العدل الإلهي ، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني 1992
9. منهج العلم والفهم الديني العبور من العلم إلى الفهم ومن الفهم إلى العلم، يحيى محمد ، 2014
10. جدلية الحرية والعبودية : دراسة قرآنية في الدلالات والأبعاد:، جلال الدين الفارسي، دلال عباس، 2016
11. أصل الأنواع، تشارلز داروين ، ترجمة مجدي محمود المليجي 2004
12. الآراء والمعتقدات ، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيترا، 2014
13. الإسرائيليات في التفسير والحديث، محمد حسين الذهبي 1990
14. النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية ، عبد الرسول عبوديت، 2016
15. التأملات في الفلسفة الاولى ، رينيه ديكارت، ترجمة أمين عثمان، 2009
16. التواتر والإنجيل والقرآن والعلم ، موريس بوكاي، ترجمة حسن خالد 1990

17. نظرية الأوتار الفائقة، بول ديفيس ، جوليان براون، ترجمة أدهم السمان 1997
18. فلسفة اللغة عند الفارابي ، زينب عفيفي، 1997
19. علم البيان، بسيوني عبد الفتاح، 2015
20. مدخل إلى الميتافيزيقا، مارتن هايدغر، ترجمة ، عماد نبيل 2015
21. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة بسام بركة ، أحمد شعبو 2002.
22. مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري، 2016
23. مفهوم الخير والشر في الفلسفة الإسلامية - قراءة معاصرة في فكر ابن سينا، منى أحمد محمد أبوزيد 1991
24. مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن محمد ابن خلدون، طبعة 2006
25. نظرية العدل في الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي ، جمال البناء، 1995
26. نيتشه مفتتا ، بيير بودو ، ترجمة أسامة الحاج، 1996
27. علم الكلام وبعض مشكلاته، أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، 1990
28. عبادة الانسان الحر، برتراند راسل، ترجمة مجدي قدرى عمارة، 2005
29. سجن العقل، ستيفن جونسون، ترجمة أحمد مستجير، 2005
30. جبروت العقل ، جلبرت هايت، ترجمة فؤاد صروف، 2015
31. تكوينة الوعي الإنساني والديني، هيجل ، ترجمة أبو يعرب المرزوقي 2015
32. تفسير الاحلام ، سيجموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان ، 2006
33. تأملات، مالك بن نبي، 2002
34. تأملات عن تطور ذكاء الإنسان، كارل ساجان، ترجمة سمير حنا صادق 2005

35. تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، مانويل كانت، ترجمة عبد الغفار مكاوي 1965.
36. تاريخ الشك، جينيفر مايكل هيكتور، ترجمة عماد شيحة، 2013
37. بين الرشاد والتهيه، مالك بن نبي، 2005
38. إنسان ما قبل التاريخ، سام وبريل ايشتين، ترجمة أحمد محمد عيسى، 1970
39. الوجودية الدينية دراسة في فلسفة باول تيليش، يمني ظريف الخولي، 1998
40. الموجز في التحليل النفسي ، سيجموند فرويد، ترجمة سامي محمود علي 2000
41. الإسلام في الأسر، الصادق النيهوم، 1995
42. التوراة، سهيل ذكار، 2007
43. Steven M. Stanley “Mountain building”. Earth system history 2004
44. Robert J. Twiss Eldridge M. Moores “Plate tectonic models of orogenic core zones”. Structural Geology 1992.
45. Kurt Stüwe . Geomorphology”. Geodynamics of the lithosphere: an introduction 2007.
46. Andrew Goudie (2004). Encyclopedia of geomorphology; Volume 2. Routledge 2004.
47. Victor Schmidt William Harbert (2003). Planet Earth and the New Geoscience 2003
48. Stephen D Butz “Chapter 8: Plate tectonics”. Science of Earth Systems. Thompson/Delmar Learning. 2004.
49. John Gerrard (1990). “Types of volcano”. Mountain environments: an examination of the physical geography of mountains. 1990
50. Robert Wayne Decker Barbara Decker. “Chapter 8: Hot spots”. Volcanoes 2005.
51. Arthur Holmes Donald Duff (2004). Holmes Principles of Physical Geology 2004.
52. Transactions of the American Society of Civil Engineers Volume 39. American Society of Civil Engineers. 1898. p. 62.
53. James Shipman Jerry D. Wilson Aaron Todd (2007). “Minerals rocks and volcanoes”. An Introduction to Physical Science 2007



54. N. H. Woodcock Robin A. Strachan (2000). "Chapter 12: The Caledonian Orogeny: a multiple plate collision". Geological history of Britain and Ireland. Wiley-Blackwell. 2000
55. Michael P Searle (2007). "Diagnostic features and processes in the construction and evolution of Oman- Zagros- Himalyan- Karakoram- and Tibetan type orogenic belts". In Robert D. Hatcher Jr. MP Carlson JH McBride JR Martinez Catalán. 4-D framework of continental crust. Geological Society of America. 2007
56. Chris C. Park The environment: principles and applications 2001.
57. Scott Ryan CliffsQuickReview Earth Science. Wiley. 2006 John Gerrard. Reference cited. 1990
58. Lee C.-T.; Yin Q; Rudnick RL; Chesley JT; Jacobsen SB "Osmium Isotopic Evidence for Mesozoic Removal of Lithospheric Mantle Beneath the Sierra Nevada California". Science 2000.
59. Y Niu MJ O'Hara (2004). Mantle plumes are NOT from ancient oceanic crust". In Roger Hékinian Peter Stoffers Jean-Louis Cheminée. Oceanic hotspots: intraplate submarine magmatism and tectonism. Springer 2004.
60. AB Watts "Extensional tectonics and rifting". Isostasy and flexure of the lithosphere. Cambridge University Press.2001
61. GD Karner NW Driscoll,. "Style timing and distribution of tectonic deformation across the Exmouth Plateau northwest Australia determined from stratal architecture and quantitative basin modelling". In Conall Mac Niocaill Paul Desmond Ryan. Continental tectonics. Geological society. 1999.
62. Edwin Cey Jordan Hanania Chau Le Kailyn Stenhouse Jason Donev "Coal formation" energyeducation Retrieved 2018.
63. "Coal mining disasters" sourcewatch 2018.
64. "The End-Cretaceous (K-T) Extinction" Park.org 2016.
65. John C. Briggs A Cretaceous-Tertiary Mass Extinction? Washington DC: American Institute of Biological Sciences 1991.
66. Jonathan Amos " Will the real dinosaurs stand up?" BBC New 2008.

67. Mulder E.W.A. (1999). "Transatlantic latest Cretaceous mosasaurs (Reptilia Lacertilia) from the Maastrichtian type area and New Jersey". *Geologie en Mijnbouw* 1999.
68. "Speculated Causes of the End-Cretaceous Extinction" *Park.org* 2016.
69. Robertson D.S. Lewis W.M. Sheehan P.M. Toon O.B. (2013). "K/Pg extinction: re-evaluation of the heat/fire hypothesis". *Journal of Geophysical Research*: 2013
70. Keller G Adatte T Gardin S Bartolini A Bajpai S; Adatte; Gardin; Bartolini; Bajpai "Main Deccan volcanism phase ends near the K–T boundary: Evidence from the Krishna-Godavari Basin SE India". *Earth and Planetary Science Letters* 2008
71. David Lambert "Theories About Dinosaur Extinction" *The Handy Dinosaur* 2016.
72. Robert.E. Sloan JKeithrigby JR Leigh M Van Valen Diane Gabriel "Gradual Dinosaur Extinction and Simultaneous Ungulate Radiation in the Hell Creek Formation" *Science AAAS Magazine* 2016
73. Sullivan Robert M., "NO PALEOCENE DINOSAURS IN THE SAN JUAN BASIN NEW MEXICO" *The Geological Society of America* 2013
74. McArthura JM Janssenb NMM Rebouletc S Lengd MJ Thirlwalle MF van de Shootbruggef B "Palaeotemperatures polar ice-volume and isotope stratigraphy. 2007.
75. Alvarez LW Alvarez W Asaro F and Michel HV "Extraterrestrial cause for the Cretaceous–Tertiary extinction". *Science*. 1980
76. Hildebrand Alan R.; Penfield Glen T.; Kring David A.; Pilkington Mark; Zanoquera Antonio Camargo; Jacobsen Stein B.; Boynton William V "Chicxulub Crater; a possible Cretaceous/Tertiary boundary impact crater on the Yucatan Peninsula Mexico". *Geology*. 1991
77. Pope KO Ocampo AC Kinsland GL Smith R "Surface expression of the Chicxulub crater". *Geology* 1996.
78. P Claeys Goderis S "Solar System: Lethal billiards". *Nature*. 2007.
79. Hofman C Féraud G Courtillot V "40Ar/39Ar dating of mineral separates and whole rocks from the Western Ghats lava pile: further constraints on duration and age of the Deccan traps". *Earth and Planetary Science Letters*. 2000.



80. Duncan RA Pyle DG "Rapid eruption of the Deccan flood basalts at the Cretaceous/Tertiary boundary". Nature. 1988
81. Alvarez W .T. rex and the Crater of Doom. Princeton University Press. 1997.
82. Fassett JE Lucas SG Zielinski RA and Budahn JR "Compelling new evidence for Paleocene dinosaurs in the Ojo Alamo Sandstone San Juan Basin New Mexico and Colorado USA" (PDF). Catastrophic events and mass extinctions Lunar and Planetary Contribution. 2001.
83. Sloan R. E. Rigby K., Van Valen L. M. Gabriel Diane (1986). "Gradual dinosaur extinction and simultaneous ungulate radiation in the Hell Creek Formation". Science. 1986
84. Fastovsky David E. Sheehan Peter M."Reply to comment on "The Extinction of the dinosaurs in North America"" (PDF). GSA Today 2005
85. Sullivan RM "No Paleocene dinosaurs in the San Juan Basin New Mexico". Geological Society of America Abstracts with Programs. 2003
86. Fassett J.E. Heaman L.M. Simonetti A "Direct U-Pb dating of Cretaceous and Paleocene dinosaur bones San Juan Basin New Mexico". Geology. 2011
87. Dong Zhiming (1992). Dinosaurian Faunas of China. China Ocean Press Beijing. 1992
88. "Dinosaur bones 'used as medicine'". BBC News. .06-07-2007
89. Sarjeant William A.S. (1997). "The earliest discoveries". In Farlow James O.; and Brett-Surman Michael K. (eds.). The Complete Dinosaur. Bloomington: Indiana University 1997.
90. Delair J.B. Sarjeant W.A.S. "The earliest discoveries of dinosaurs: the records re-examined". Proceedings of the Geologists' Association. 2002.
91. Gunther R.T.,. Early Science in Oxford: Life and Letters of Edward Lhuyd volume 14. Author:Oxford. 1945.
92. MacLeod N Rawson PF Forey PL Banner FT Boudagher-Fadel MK Bown PR Burnett JA Chambers P Culver S Evans SE Jeffery C Kaminski MA Lord AR Milner AC Milner AR Morris N Owen E Rosen BR Smith AB Taylor PD Urquhart E Young JR (1997). "The Cretaceous–Tertiary biotic transition". Journal of the Geological Society 1997.
93. Owen R. (1842). "Report on British Fossil Reptiles." Part II. Report of the Eleventh Meeting of the British Association for the Advancement of Science; Held at Plymouth in July 1841.



94. "Liddell-Scott-Jones Lexicon of Classical Greek". 2008.
95. Farlow J.O. and Brett-Surman M.K. "The Complete Dinosaur. Indiana University Press 1997.